غادة السمّان

سهرة تنكّرية للموتى

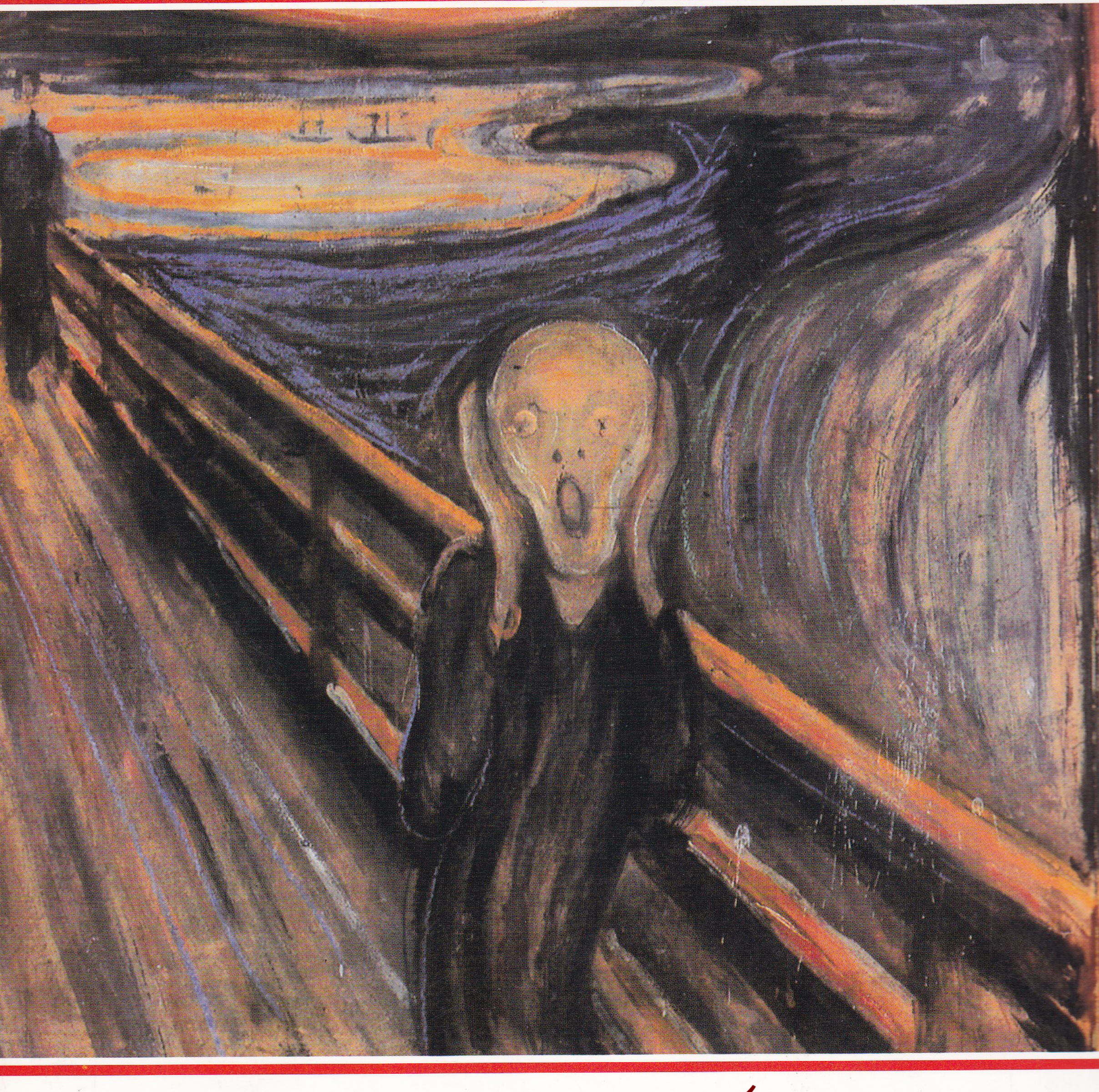

مكتبة نوميديا 21

Telegram@ Numidia_Library

رواية

منشورات غادة السمان

غادة السمّان

سَهْرَة تَنَكُّرِيّة لِلمَوْتى

موزاييك الجنون البيروتي
إجازة في بيروت
العودة إلى باريس *

روايــة

منشورات غادة السمان

* أترك للقارئ اختيار العنوان الفرعي الذي يعجبه بعد قراءة الرواية، وشطب العناوين الباقيين

الإهداء

إلى الذين أدمنوا الموت بجرعات صغيرة، لكنهم ما زالوا يؤمنون بلبنان التعايش بين الأديان، وبالعدالة والحرية والحرية.

إليهم أياً كانوا، أينما كانوا، كيفما كانوا.

غادة

□ «مدينة الزحام والفوران، المدينة المليئة بالأحلام،
حيث يتمسك الأشباح بالمارة في وضح النهار».

بودلير

□ «ثمة زحام من الأشباح بين الأشجار».

سيجفريد ساسوّن

□ «استريحي استريحي أيتها الروح المعذَّبة».

شكسبير (في «هاملت»)

□ «آه، لماذا لم يدفنوني عميقاً،
سأنادي الخطى التي تمشي فوق قبري،
فقد يأتي صاحب قلب حنون ليدفنني

أعمق، دوماً أعمق بقليل.

اللورد تنيسون

□ «المنطق: ضد تصديق وجود الأشباح.
ولكن القناعة الداخلية تؤكِّد وجودهم».

صموئيل جونسون

خائف. إني خائف من زيارتي هذه إلى بيروت.

خائف من مدينة أتكلم لغة أهلها ولا أتكلمها حقاً، ولم أزرها منذ ثلاثة عشر عاماً وكنت صبياً على أبواب مراهقة تعمّدت بالدم والقصف والرعب والملاجىء، كما تعمّدت ولادتي بالحرب اللبنانية بعد عام من صرختي الأولى في هذا العالم المتوحش. لم أر بيروت على شاشة التلفزيون الفرنسي إلا مسرحاً للحرائق والمعارك والرهائن والموت وتمجيد الموت.

خائف من نبوءة الضباب الذي يغطي مطار باريس ويعرقل إقلاع الطائرات، ربما لأن طائرة بيروت من ضباب.. وقدرها من ضباب ورأسي كله من ضباب. ولعل الضباب يتدفق الآن من عيني وأذني وفتحتَيْ أنفي وفمي وثيابي. ولعلي رجل من ضباب.

حدَّق فواز في وجه دانا. ابتسمت له بودّ أليف. اطمأن إذ أدرك أنها لا ترى الضباب الذي يسيل من روحه عبر شقوق جسده، ولا تعرف أنه يراها ضباباً كالمرئيات كلها في هذا اليوم والذكريات كلها وربما المستقبل كله.

إذن لم يسقط قناعي التنكّري الهادىء عن وجهي.. بالمقابل ربما كان من الأفضل لي فتح جرحي قطبة بعد أخرى والاعتراف بخوفي لنفسي. فأنا شاب «كارتيزيان» عقلاني الهوى يخاف ويتردد ويحار بأكثر مما يفعل هاملت حين يتعلق الأمر بمعطيات غامضة كزيارة بيروت، ولستُ كما يُفترض أن يكون الرجل الحق في السينما الأميركية واثق الخطوة يمشي مرحاً. أمشي وأنا أحسب حساب كل خطوة وأخطط لها ربما كما يفعل أولاد المهاجرين جميعاً من أمثالي في مجتمعات نصف عدوانية أو لامبالية. أمشي وفي قلبي شعور داهم بأن كل خطوة قد تقود إلى خلل، أو فخ، أو غلطة. أجل إني خائف من زيارتي هذه إلى بيروت، أنا فواز ابن بيروت أباً عن جد. وتدهشني طمأنينة الفرنسية الدكتورة ماري روز التي ترافق دانا لمجرد قضاء إجازتها في بيروت دون أن تكون مضطرة مثلي لتلك الرحلة وسيحزنني قتلها أو اختطافها في تلك المدينة العدوانية. ما زلت أذكر لقائي الأول بها في الليسيه (الإيكول أكتيف بيلانغ) الباريسية، إذ بدت لي حفيدة لماري أنطوانيت بجمالها الأبيض المرفّه وأوروبيتها البادية في بشرتها الناصعة وزرقة عينيها وامتلائها، إلى

جانب طيبتها الفطرية ولطفها بل وسخريتها من نفسها كابنة لبارون نصف مفلس. كيف استطاعت دانا إقناعها بقضاء الإجازة في بيروت بدلاً من تركها بسلام في باريس تستعد للاحتفال منذ الآن بليلة رأس سنة ٢٠٠٠ بعد أسابيع؟ سألته سليمى والدة دانا وصديقة أمه: هل تريد فنجان قهوة ثانياً لتستيقظ؟ أجاب كمن يتحدث في نومه: لا. شكراً لك يا سيدتي.

لو تدري كم تعذبني يقظتي. لو تدري بمخاوفي هي التي ألفت قضاء وقتها منذ توقف الحرب جيئة وذهاباً بين بيتها في بيروت وبيتها الآخر في «أفينو فوش» في باريس. لو تدري كم أنا خائف. خائف أيضاً من خيبة أمل أمي إذا فشلت في مهمتي في بيروت، وخائف من جرذان بيروت وكلابها الشاردة المتوحشة وجرادها وأسماكها الميتة على الشواطىء وسوسها وعثتها وكل ما قرأت أنه يجتاحها أو قيل لي ذلك. أريد أن تقلع طائرتي لتكف أصابع القلق الفتّاك عن غرس أظافرها في أحشائي، فأنا خائف كطفل لا يجرؤ على الشكوى لأمه أو لأحد. أريد أن أرحل كي أعود!

خائف أيضاً من ذلك الحضور الغامض الذي احتل مقعد التاكسي إلى جانبي وأنا في الدرب من البيت إلى مطار «رواسي شارل ديغول» الباريسي وكنت أسمع ضربات قلبه دون أن أراه، بل وشممت عبير ذلك الحضور اللامرئي إذ فاحت منه رائحة عطر «آراميس» ممتزجة برائحة السجائر. وتذكرت رائحة المرحوم أبي، ومن أين للتاكسي برائحته، أم تراه الزبون السابق للتاكسي وقد خلّف فيه عبير عطره المشابه لعطر أبي ودخان سجائره؟

خائف من عينين غامضتين لامرأتين تراقبانني بنظرات من ضوء أسود منذ اللحظة التي حجزت فيها مقعدي في طائرة باريس ـ بيروت ذهاباً وإياباً لفترة لا تزيد عن أسبوعين، سأنجز خلالهما بالتأكيد مهمتي في بيروت لكنها قابلة للنقصان إلى ثلاثة أيام إذا أنجدني الحظ وأنجزتها وعدت إلى باريس هارباً في أول طائرة.

يوقظه صوت دانا: أنا ذاهبة لإحضار فنجان قهوة آخر لي. هل تريد أن أحضر لك شيئاً؟ قطعة «كرواسان»؟ كاد فواز يطلب منها أن تحضر له من الماكينة ملاكاً حارساً يرافقه في رحلته ثم صمت، واكتفى بعبارة مقتضبة بتحفظه المألوف المهذب: لا. شكراً لك. قالت دانا لنفسها كعادتها: يا له من شاب هادىء قوي الشخصية. . .

أنا قنفذ صغير مذعور يُدعى فواز يُخفي خوفه بإتقان كأولاد المهاجرين جميعاً، ويشهر أشواك جسده في وجه عالم يراه متوحشاً سينقضّ عليه. المهزلة أنني

الآن أرى أن وطني الأم هو الذي سينقضّ علي وليس وطني بالتبني فرنسا!

* * *

لو مرّ شبح خلف السقف الزجاجي الشفاف لمقاصف مطار شارل ديغول في باريس أو خلف الجدران ـ النوافذ الشفافة لقاعات الانتظار لشاهد الركاب وقد غطوا مقاعد الصالات وطاولات المقاهي العديدة بزحامهم وهم يتهامسون وينتظرون إقلاع طائرات شلّها الضباب، وللفتت أنظار الشبح المائدة الأكثر صخباً وضجيجاً وصوتاً مرتفعاً وقهقهات في أحد المقاصف، تلك التي تحلّق حولها فريق من اللبنانيين والفرنسيين من أصل لبناني. وقد تضايق فواز حين قرّبوا الموائد من بعضها بعضاً كلما انضم لبناني جديد إلى الحلقة، وبدلوا خارطة المكان. كان قد كبر كأي فرنسي على النظام ولا يرتاح للتجاوزات اللبنانية في المناسبات التي يلتقي فيها أبناء الجالية بصدفة أو بلا صدفة.

جاء نادل المقهى وزجرهم لتبديلهم ديكور الكافتيريا كما لو صارت ملكاً لهم. ثم صمت حين أسرَتْه ابتسامة الفرنسية الجميلة الجالسة معهم الدكتورة ماري روز وهي تقول له معتذرة عنهم: «إنهم لبنانيون في طريقهم إلى بلدهم». كان ذلك يكفي لتفسير عربدة الفوضى والقهقهات المحببة كأنه يحق لهم ما لا يحق لغيرهم. سكت النادل، فالزبائن اللبنانيون هم الأكثر سخاء من حيث الإكراميات (البخشيش) ولم يسمع مرة بأن لبنانياً واحداً تسوّل أيام الحرب في فرنسا كما فعل سواهم، ولم يلتق في المترو بمتسول لبناني واحد. إنه يحبهم ويحترمهم كمعظم الفرنسيين. ما لا يعرفه أن تجمّعهم جاء مصادفة حين وضعت سليمى صحيفتها البيروتية على الطاولة كبيرق وجلست وبرفقتها ابنتها دانا، والكاتبة العربية ماريا صديقتها من أيام الصبا والدراسة في الجامعة الأميركية في بيروت، والدكتورة ماري روز صديقة دانا الحميمة منذ أيام الليسيه. ثم انضم إليهن فواز زميل دانا وماري روز في الليسيه وصديق دانا تماماً كما كانت والدته «فَرْحة» زميلة لسليمى وماريا في الجامعة الأميركية ذات يوم غابر.. صحيح أن سليمى وماريا عاشتا في غرفة واحدة في «بستاني هول»، القسم الداخلي للبنات في "الكامبس" البديع حيث رحاب الجامعة الجميلة كتلّ من الخضرة يشرف على البحر.. ولكن «فرحة» والدة فواز البيروتية كانت قريبة منهما دائماً كما لو عاشت معهما في غرفة واحدة. ومنذ اللحظة التي وضعت فيها سليمى الصحيفة البيروتية على الطاولة كبيرق، صار معظم اللبنانيين المتقاطرين على الكافتيريا يستأذنون وينضمون إلى الطاولة تلقائياً كما لو رفعت عليها علماً لبنانياً أو كأن الصحيفة هوية معينة في بحر من الجنسيات والضياعات والشعور

الخفي بانعدام الوزن في صالات ترانزيت المطارات.

* * *

شعر فواز ثانية بتلك اليد اللامرئية تمتد إلى قلبه وتعصره حين أعلن من جديد صوت أنثوي مغناج عبر الميكروفونات تأخر إقلاع الطائرات كلها من المطار لكثافة الضباب، وإغلاقه مؤقتاً في وجه الملاحة الجوية. كم أتوجس شراً من تلك «الإجازة البيروتية» وهو «الاسم الحركي» الذي سُمّيت به رحلة عملي هذه حين اتصلت هاتفياً بعمتي لتحجز لي غرفة في فندق. لم أقل لأحد إنني سأكون هناك، في بيروت لأنني لم أعد أذكر أحداً حقاً ولا أفتقد أحداً من أفراد أسرتي التي لم أر معظمها منذ هجرتنا الأولى إلى باريس على متن مركب للمواشي تحت القصف. هاجرنا وعدنا ثم هاجرنا ولم نعد، هرباً من مدينة لا أتذكر عنها في صغري غير أصوات انفجار القنابل وصراخي المذعور في الملاجىء المعتمة وجرذ يقرض في الظلام أصابعي. لم أجرؤ على القول لعمتي إنني قادم لبيع البيت الكبير اللعين الذي لا أذكر عنه إلا جثث قتلى تكوموا في حديقته، والعودة بثمنه إلى باريس لتأسيس شركتي الخاصة بي للاستشارات الاقتصادية والمحاسبة بدلاً من العمل في بنوك الآخرين وشركاتهم.

تنهد فواز دفعاً للاختناق وابتسامة مهذبة على شفتيه لدانا.

تأملته دانا بود: يا له من شاب وسيم قوي الشخصية ناجح في عمله في البنك الباريسي. كم أحسده وأتمنى أن أنجح مهنياً مثله على الأقل. لو لم آلفه منذ صغرنا كأخ وليس كعاشق لاتيني «لاتين لافر» كما كن يلقبنه في الجامعة لأحبته، ولغنيت له كالعديد من بنات الصف في الليسيه ما معناه.. «يا واد يا ثقيل»، الأغنية التي تلخص طفولتي مع أمي التي لا تشبع من مشاهدة فيلم عتيق على الفيديو تنشد فيه إحدى الفنانات العربيات هذه الأغنية لعل اسمها سعاد حسني.

* * *

أجل! بيروت لا تُذكّرني إلا بطعم الألم الغامض في طفولتي أنا فواز المقهور. ولم أفهم يوماً لماذا كانت أمي «فرحة» ترحل أسبوعاً للقاء أبي فايز وتتركني عند عمتي بدلاً من أن يأتي هو.. ولا لماذا كنا نلتقيه معاً أحياناً في لارنكا في فندق «صن هول» أو في هيلتون نيقوسيا أو أثينا، أو في إكسلسيور روما وغيرها من الفنادق حيث كنت أمرض كل مرة دونما استثناء وأصاب بإسهال ويحضرون لي الرز المسلوق المقرف في غرفة الفندق داخل آنية من الفضة تزيد في قهري. تراه كان هارباً من شيء ما؟

حين كبرت، لم يخطر ببالي مرة سؤال أمي أو أبي عن سبب ذلك اللااستقرار الغامض. هل كان أبي مهدداً بالقتل؟ ولِمَ هذه اللقاءات القلقة الحذرة في فنادق فخمة يسخر فيها والدي من إصرار أمي على الحلول فيها؟ فقد انشغلت بحياتي في باريس عن حياة «عجوزيّ» وعن ماضي بيروت.. وأعني بعجوزيّ أمي وأبي كما نلقبهما في فرنسا.

* * *

يتصاعد الضباب في المطار داخل رأس ماريا كموسيقى لامسموعة وهي تحدق في الكثافة نصف الشفافة خلف الزجاج وترى عبر الضباب بيروت وهمية وحقيقية في آن.. ثمة شيء شدّني منذ البداية إلى بيروت.. إنه مذاق الحرية على أرض عربية. فيها تعلمت الكتابة في ظل الحرية ودون أن أكون مقطوعة من جذوري، مجتثة من أرضي العربية. حين أزور بيروت لا أَمَنُّ عليها بحضوري بل أنهل من ينابيعي الحقيقية ماء الحياة لحرفي. أحسد دانا وفواز فهما لا يعرفان كيف كان لبنان أيام زمان، لبنان أيام عز الحرية ـ على علاّته كلها ـ ولن يذوقا طعم غصاتي عندما أزوره وأشاهد مساره وحاله.. فمن أين لبيروت هذه الجرذان كلها؟ أدّعي أمام الناس وأمام نفسي أنني ذاهبة إلى بيروت لأقرر ما سأفعله ببيتي هناك، وأنا في حقيقة الأمر كاذبة أبحث عن ذريعة عقلانية لعودة لاعقلانية إلى بيروت، أنا المستقرة الناجحة المحسودة في باريس، العاملة في منظمة اليونسكو والكاتبة. أموت شوقاً للعودة إلى لبنان ولو في إجازة، وأتهرب من تلك العودة ربما لكي لا أوقظ أشباح قلبي، أو لكي لا أرى ما آلت إليه حالة لبنان الوطن الحبيب الغالي الذي هجرت إكراماً له وطني الأم، وأنشدت من زمان وكتبت بلا ندم: بلاد العرب أوطاني، مطالبة بتعريب لبنان، وها أنا اليوم أنشد مطالبة بلبننة العالم العربي في قضايا الحرية.. ثم إن لبنان هجر نفسه وهجرني بدوره كالعشاق الفاتكين جميعاً وصار مكاناً لا أستطيع العيش فيه ولا العيش بدونه، كما تبين لي في زياراتي القصيرة إليه منذ سنوات طويلة. وطوال العقدين الماضيين تبين لي أنني ضائعة بدون لبنان الحبيب المستحيل والحلم المستحيل.. الذي يصر المجانين مثلي على تحقيقه كلّما ازدادوا هرباً منه! أهي بيروت، أم دمعة عيني وقد تقمصت غابة حجارة؟ بيروت عاصمة الحرية التي جذبتني إليها من مدينتي الأم، فخلّفتُ كل شيء ورائي لأعيش في ضوء منارة المتوسط تلك، وكانت ذريعتي متابعة دراستي في جامعتها الأميركية وفعلت وبقيت هناك ما وسعني إلى ذلك سبيل.

تنهض ماريا مستأذنة، هامسة لسليمى أنها ستدخن لفافة في ركن المدخنين وتعود.

تقول لها سليمى: لم يحن وقت لفافتي بعد. أحاول قدر الإمكان التخفيف من التدخين. تعرف ماريا أنها تدخن رئتيها بالذات، واللفافة ذريعة، لكنها تعتقد أن ما يحرقها من الداخل بركان لا لفافة سيجارة.

* * *

يتصاعد الضباب داخل رأس دانا حضوراً استفزازياً. **كم أكره هذا الضباب الذي يعرقل ذهابي إلى بيروت ويؤخر بالتالي وقت عودتي! كم أكره هذه الزيارات شبه الإرغامية التي تغريني أمي بها منذ توقف الحرب اللبنانية قبل ثمانية أعوام. لقد "ابتزّتني" طويلاً وهي تخدعني قائلة بأنني سأستمتع في بيروت وأنا أشعر هناك بالغربة عن كل شيء. جاء دوري في هذه الرحلة للابتزاز! هذه المرة أنا مسافرة في مهمة عمل لم أقل عنها شيئاً لأمي، وهي اكتشاف إمكانية بيع «كومبيوترات» الشركة الفرنسية التي أعمل فيها إلى المؤسسات التجارية والعلمية وسواها في بيروت والبحث عن شريك محلي يكون وكيلاً لها.. ثم إن أمي وعدت بإهدائي مقابل الرحلة أجرة الطبيب الكبير الشهير الذي سيجري العملية التجميلية لأنفي الكبير.. هذا ناهيك عن اصطحابي لماري روز كضيفة سترّد لي الإجازة بدعوة إلى إجازة معها في موناكو في البيت الصيفي لوالدها البارون المضطر لبيعه فيما بعد لحاجته إلى المال، وهذه فرصتي للتعارف هناك مع الأمير والأميرتين والالتقاء بأوساط أحبها، فأنا أحلم بالزواج من كونت أو من بارون كبعض بنات المهاجرين لأصير جزءاً من صلب المجتمع الباريسي، لا على هامشه كبعض الأثرياء والثريات العربيات، أي كأمي وأبي! ثم إنني أنوي استشارة تلك العرّافة الشهيرة خاتون التي حدثتني عنها أمي وقالت إنها تنبأت بالحرب اللبنانية لأبي، مدّعية أن بصيرتها تزداد توهجاً كلما ازداد بصرها انطفاءً وأنها كانت تستشيرها في كل زيارة لها مع أبي تقيم فيها الولائم للأصدقاء وللزبائن المحتملين للمرحوم والدي المقاول الكبير الذي يشيد المطارات والقصور والأضرحة! وأنها تنبأت لها برحيل أبي! رغم ذلك كله، كم أكره هذه الزيارة إلى بيروت.** تكرر دانا العبارة الأخيرة مرات بلا صوت وتُحصي على ساعتها الكومبيوترية الإلكترونية (التي تنوي أيضاً بيع رخصة استثمارها في لبنان كما كلفوها)، تحصي عليها عدد الساعات فالدقائق فالثواني خلال الأسابيع الثلاثة التي تنوي قضاءها في بيروت قبل العودة إلى باريس للاستعداد لسهرات الميلاد ورأس سنة الألفية الثالثة: سنة ٢٠٠٠ السحرية كما يبدو لها الرقم... ومن يدري ما قد تقوله لها العرّافة خاتون بخصوص ذلك.. لقد زارت العشرات من عرّافات باريس وما أكثرهن، بدءاً بمدام سولويل منذ أعوام، ومروراً بمدام تيسيه قبل أسابيع،

واليوم جاء دور خاتون اللبنانية التي قيل لها أن لا أحد مثلها يسبر حقاً حجب الغيب. . وادّعت أمها سليمى أنها حين تنبأت بالحرب اللبنانية حددت موعدها بدقة وقبل عام من انفجارها. **إذن سأقضي هذه المرة ثلاثة أسابيع في بيروت كما اتفقت وماري روز، أي ٥٠٤ ساعات أو ٣٠٢٤٠ دقيقة أو مليون و٨١٤ ألف و٤٠٠ ثانية. . يا للهول. . إذ لم ينقضِ منها منذ إجراء هذا الحساب أكثر من ١٥ ثانية!**

* * *

تتنهد د. ماري روز بصوت مسموع، فهي لم تألف إخفاء شيء من مشاعرها أو تنهداتها أو تأوهاتها بكافة أنواعها وتقول بصوت رومانسي عذب: كم أتوق للوصول إلى البلاد التي سحرت لامارتين. بلاد ألف ليلة وليلة، ولبنان بوابة الشرق الغامض. .

ضحك فواز بتهذيب لمطالعتها، فكررت ماري روز عبارتها كعادتها كلما ضحك أحد لقول لها، فكيف إذا كان ذلك الشاب فواز الوسيم المتحفظ؟ نجحت سليمى جزئياً في إقناعها بأن «حرب الغرباء» في لبنان انتهت وعاد السلام والرخاء والوئام والمهرجانات وليالي ألف ليلة وليلة بعد كابوس عابر قصير دام برهة أو ربع قرن وأكثر ـ وما ربع قرن في حياة بلد عمر حضارته آلاف السنين ـ أكدت سليمى مضيفة: سيتابع لبنان رحلته مع الازدهار على أنغام الدبكة والتكنو مع مطلع سنة ٢٠٠٠. . **الطريف أن المرء لم يعد يدري مع سليمى أهي جادة أم ساخرة.** تتنهد الدكتورة ماري روز. **في حقيقة الأمر، أتأرجح بين شوقي إلى سحر بيروت، سحر الشرق والحب والقمر والدفء والمرآة السحرية التي أرى فيها من يحب قلبي حين أشاء، أياً كان ما يفعله وأينما كان، وبساط الريح الذي يطير بي ومن أحب بين الكواكب والنجوم من جهة، وبين هلعي من بيروت المتوحشة الهمجية المجنونة الهاربة من غرفتها المبطنة بالبلاستيك والقطن وأربطة معطف المختلين العنيفين، بيروت الرهائن من أبناء جلدتي الذين طالعت سيرة عذاباتهم في مذكراتهم بعد إطلاق سراحهم وعودتهم إلينا وفظاعات خاطفيهم وقسوتهم وحديد القيود، بيروت الحرب والجنون التي أمقتها ولا أريد أن ألتقيها.** . قالت ماريا بعدما عادت من تدخين لفافتها: هل أنت سعيدة يا ماري روز بالمجيء إلى بيروت؟ أجابت باقتضاب: أجل سعيدة جداً. كادت ماري روز تبوح لها بحقيقة مخاوفها في أرجوحة الحيرة وحقيقة كوابيسها حول الأمر، هذا بالرغم من أنها تلتقيها للمرة الأولى، بعدما سمعت عنها الكثير من دانا ووالدتها سليمى الفخورة بصداقتها لكاتبة مشهورة كماريا، بل وقرأت مقالات نقدية عن ترجمات كُتبها مراراً في الصحف

الفرنسية، ثم ترددت في الكلام وانتهى بها الأمر إلى الصمت. **لدى ماريا قدرة على نبش المخاوف البدائية في القلب الأعزل ودفعه للاعتراف كما لو كانت كاهنة للحقيقة. وأشعر بكثافة سيالاتها الروحية التي تفتح مغاليق النفس وتهيج حاجتها إلى المصارحة وحتى البكاء.. ربما لذلك صارت كاتبة. ربما كانت موهبتها الوحيدة أنها تسجل محاضر لحظات كهذه حدثت أم لم تحدث وتدوّن ما لم يقل وهو الأصدق دائماً لأنه ليس حوار الأقنعة.** ما كادت ماري روز تفتح فمها لتبوح حتى سألتها سليمى: هل تريدين شيئاً يا ماري روز؟ فنجان قهوة آخر؟... هزت ماري روز رأسها بالقبول.

* * *

يزداد فواز ضيقاً وهو يطالع العنوان الكبير في الصحيفة الموجودة على الطاولة: «قاتل الجرذان في بيروت يضرب من جديد». تناوله سليمى الصحيفة بيد جميلة صغيرة ارتدت فيها خاتماً ماسياً في كل أصبع، بعدما لاحظت أنه يتلصص على العناوين وقد وجدت مناسبة للوم دانا بصورة غير مباشرة:

طالعها يا فواز. حافظ على لغتك العربية من النسيان. لا تفعل مثل دانا وأختيها. **(لماذا تبدو أمي فرحة أكبر سناً من صديقتيها سليمى وماريا؟)** شاهد فواز تحت العنوان صورة لجثة رجل يبدو من لسانه الذي تدلى من فمه أنه مات مخنوقاً وقد رُبط إلى عنقه جرذ كميدالية اللعنة.. أضافت سليمى: إنه اللغز البوليسي الذي يحيّر الناس في لبنان ويُفرح قلوبهم سراً. ثمة من يقتل الفاسدين الكبار الذين اغتنوا من الفساد والحرب ويعلق في عنق كل منهم جرذاً. إنه التوقيع الخاص لضحايا الحرب. ازداد فواز خوفاً وقلقاً من رحلته. **يا لها من مدينة مرعبة في السلم كما في الحرب. القتل بدلاً من المحاكمة.. الموت الغامض على يدي مجهول بدلاً من جر المذنب إلى المحاكمة، إذ يتعذر ذلك أحياناً مع البعض وتتم محاكمة البعض الآخر لأسباب كيدية سياسية لا تمت إلى التهمة الأصلية - أي الفساد - بصلة كما تؤكد أمي. ويأتي منتقم غامض هو «قاتل الجرذان» ينفذ «العدالة» على طريقة السينما الأميركية و"رامبو" فيها لا رامبو الشاعر، و«شارلز برونسون» المنتقم المنفّذ لعدالته الشعبية بمسدسه وقبلهما روبن هود، وعشرات من «الروبن هودات» العرب، وأنا أفضل عدالة القانون على عدالة الفرد، لكنني ذاهب إلى هناك وأنا بكامل قواي العقلية! معقول؟**

ثمة «عفريت ركبني»، وهذا من التعابير المفضلة لدى أمي، وها أنا أتأهب للسباحة في مياه ملغومة ومزروعة بأسماك القرش، كي أصل إلى الباخرة الغارقة المسماة بيروت لإحضار حقيبة نقود لي هناك ورثتها عن أبي.. أجل. لم يعد ثمة ما

يربطني بتلك المدينة التي لا أريد أن أذكرها إشفاقاً على نفسي من صور القصف والانفجارات والموت وأنا صبي مسكين لا «حول له ولا قوة» (وما زلت!)، وأرتجف ذعراً وأسُدّ أذنيّ بأصابعي وحولي نساء ينتحبن غارقات في السواد. لا أريد أن تتحول ذاكرتي إلى هيروشيما أو مقبرة جماعية، لكنني لا أريد أن أتذكر حتى وجوه رفاقي في المدرسة يومئذ كفؤاد وعفيف ونبيل ودافيد ورضا ونقولا وعلي وأحمد وتالا وريما الجميلة اللامنسية حبي الأول وأنا في الثانية عشرة من عمري في مدرسة الانترناشينال كولدج (الـ I.C) المطلة على شاطىء البحر. لا. لن أتذكر غير مهمتي: بيع البيت العتيق أولاً ناهيك عن توكيل المحامي لبيع بقية الأملاك أيضاً التي اكتشفت أنني ورثتها وأمي عن والدي، ولم أكن أصلاً قد سمعت بوجودها. تلك الأملاك التي تستر أبي عليها أمامي رغم حاجتنا الماسة إلى المال في باريس أيام الحرب البيروتية واتكالنا على راتب أمي طبيبة التخدير في المستشفى، وأبي الأستاذ الجامعي والمحامي الذي رضي براتب صغير في مكتب كبير فرنسي/لبناني للمحاماة لزميل لبناني سابق، إذ كان لامبالياً بعمله، يتحمس تارة ثم يغرق في كآبة ضجرة تارة أخرى. كأنه مات يوم غادر لبنان ولكنه يلاحق أخباره في الإذاعات كمن يستمع إلى نشرة أخبار تابوته. أما أمي فأعرف أنها تنفذ رغبات أبي دونما نقاش. إنها تحبه تلك الحمقاء وتطيعه على الأقل في الفترات القليلة التي تقضيها في البيت خارج دوامها في المستشفى. وربما لذلك لم تقل لي مرة إننا عدنا بعد الحرب أثرياء إلا بعد وفاة والدي منذ أشهر. نصحتني بالبحث عن محام أمين أوكل إليه مهمة تحصيل ميراثي من بيروت لأعود سريعاً إلى باريس، فهي تكره بيروت الحرب وما بعد الحرب كرهاً لم تُخفه يوماً وقد حذرتني من الاعتماد على أخوالي وأولادهم ولا على أبناء عم أبي وأولادهم الكثر مضيفة: «الأقارب عقارب».

ونصحتني بمحام "آدمي". فكيف أجده وأنا لم أعد أعرف أحداً في تلك المدينة. وحتى عمتي أكاد أنسى وجهها الذي لم أره منذ هجرتنا، إلا مرتين في زيارتيها لنا في باريس خلال حوالى عقد ونصف من هجرتنا، بل وأعجز عن استحضار ذلك الوجه شبه المنسي ولا أدري كيف سيبدو حين أفاتحها بالغرض من الزيارة: بيع البيت الكبير العتيق الذي ورثته عن أبي بعدما كان والدها ـ جدّي ـ قد سجله باسم الصبي وحده ـ أي أبي ـ حارماً بقية عماتي من ميراثهن فيه ما دمن متزوجات ولا يريد للصهر أن يكون شريكاً. هذا ناهيك عن أملاكه الباقية من عقارات وبيوت في بيروت. أجل فوجئت بتستر المرحوم والدي طوال تلك السنين عليها وتركي أنشأ على فكرة أنني ابن مهاجر مفلس لا رصيد له غير علمه وعمله.

كدحت طوال حياتي كحمار صغير متوحد في مدارس غريبة وشوارع باردة مكهربة مع رفاق مدرسة قساة، أتدفأ باللبنانيين المهاجرين مثلي كابن عازار اللطيف وأحتمي بهم من صبيان بعضهم عدواني حتى الإيذاء مع الغرباء مثلي ومثل رفيقي ابن عازار الذي كانوا ينادونه ساخرين باسم ليزار بدلاً من عازار، أي "سحلية" أو "حرذون" بالفرنسية!

افتقدت في سنتي الباريسية الأولى رفاق بيروت وكنت أراهم باستمرار في أحلامي وأستيقظ بدموع على وجهي أتستر عليها. ومع الزمن نسيت كل شيء.. آهِ كان لا مفر من الرحلة الآن بالذات بعدما خافت أمي من أن تعلن الدولة بيتنا مبنى تراثياً ويصير بيعه عسيراً، فقيمته كما أكدت تكمن اليوم في الحديقة الواسعة المحيطة بالبيت حيث يمكن تشييد فندق كبير بعد هدم البيت، مؤكدة أنه من المفيد تصفية الماضي والراحة مادياً وقلب صفحة بيروت نهائياً.. هذا كله لم أقله لعمتي ناديا على الهاتف كما لم أبح لها بمدى ذعري من طريق مطار بيروت حيث تم اختطاف زوجها ذات يوم وقتله ووجدت جثته بعد أيام من اختطافه وقد تعرض للتعذيب وكنا صغاراً ولكننا استرقنا السمع يومها.. أسرار لا أعرف شيئاً عنها ولم أعد أريد أن أعرف، ومنها سر رحيل أمي مراراً للقاء أبي خارج لبنان، واليوم وقد صارت مستعدة للبوح بكل شيء لي لم أعد مهتماً بمعرفة شيء! لم أقل أيضاً لعمتي حين رحبت بي بحرارة باكية وكادت دموعها تبللني عبر القارات وتسيل من سماعة الهاتف، لم أقل لها إنني لست قادماً للقائها شوقاً بل لبيع الأخضر واليابس وإقفال ملفها وملف بيروت والعودة إلى باريس دون أن أُقتل برصاصة احتفالية طائشة من تلك التي أطالع في الصحف غزارة إطلاقها بمناسبة وبلا مناسبة ودون أن أموت بالسكتة في شرخ شبابي قهراً مما يدور كما أطالع خلف السطور في الصحف اللبنانية التي كان يحرص والدي على شرائها ويرغمني على قراءتها، لكي لا أنسى لغتي العربية، مدعياً أنها تفيدني في عملي كخريج من معهد التجارة الباريسي الشهير H.E.C وكحامل للماجستير في حقل الأعمال من جامعة دوفين العريقة. ما لم يلحظه والدي أنه بإرغامي على مطالعة الصحف العربية كان يعطيني لقاحاً ضد رغبة العودة إلى تلك الأصقاع إلا لضرورات العمل، والآن أريد فقط أن أعود بنقودي، ولم تكن أمي تدري أنها تزيد من هلعي حين تؤكد لي أن الصحف اللبنانية لم تعد تكتب إلا نصف الحقيقة، أم أنها كانت تدري وتتعمد ذلك وتريد أن أكره بيروت كرهها لها؟ وحين أسألها لماذا لا تكتب الصحف اللبنانية غير نصف الحقيقة تتثاءب ولا تجيب كأنها سئمت الحكاية حتى الضجر المطلق.

* * *

وسط صخب «الكافيتيريا» وأبخرة الشاي والقهوة والمرطبات وتكهرُب المناخ بضيق الناس من تأخر الطائرات في الإقلاع من مطار باريس رغم انقشاع الضباب خلف النوافذ كما لاحظت ماريا، اقترب من الطاولة "اللبنانية" رجل طويل القامة قوي البنية، عريض المنكبين، وسيم، محمر الشعر واللحية بعض الشيء بعينين بين الأخضر والعسلي، لابتسامته أسنان كبيرة يحمل جريدة بالعربية وزجاجة مياه معدنية صغيرة. وقال معتذراً باللهجة اللبنانية مبتسماً كمن يداري ارتباكه وعينه على الجريدة البيروتية التي كان فواز قد أعادها إلى موضعها على الطاولة: هل تسمحون لي بالجلوس معكم؟ الموائد كلها مزدحمة كما ترون. وبينما كانت سليمى تقول له: تفضلِ، جَرَّ الرجل كرسياً من مائدة مجاورة متجاهلاً صاحب الكرسي الذي عاد لتوّه حاملاً زجاجة من الجعة. تذكرت سليمى أنها شاهدت وجهه من قبل في مكان ما في باريس ولم تذكر أين. قالت له ذلك لكنه نفاه بشدة لفتت أنظار ماريا وشدّتها إليه من حوار كانت قد غرقت فيه مع سيدة لبنانية سائحة في باريس وزوجها عن مشاهداتهما في تلك المدينة الرائعة وحسدهما لها ولكل مقيم فيها. تأملت ماريا بهدوء صاحب الشعر شبه الأحمر بوجه خَال من النمش في المناطق التي لا تغطيها اللحية. أجل. هي أيضاً واثقة من أنها شاهدته في مكان ما في باريس. ولكن أين؟ سألته عن اسمه قائلة إنها هي أيضاً شاهدته من قبل وأجاب بتهذيب بالغ: مخدومك ناجي، دون أن يذكر كنيته. ثم أضاف بعد تردد: لا أذكر أننا التقينا. ارتجف صوته قليلاً وهو ينطق بالعبارة الأخيرة وأدركت ماريا أنه يكذب ولم تكن مخطئة، لقد عرفها وقرر التجاهل. **ما جدوى أن تعرفا أنني النادل في المطعم اللبناني «أفراح بيروت» في الحي اللاتيني؟ وليس في المطعم من الأفراح إلا رقصة الصراصير في المطبخ على أنغام راقصات منتصف الليل وطبّالهن. وهن يرقصن مجاناً عندنا ثم يعدن إلى بيروت مشيعات في الصحف دونما كذب أنهن رقصن في باريس فترتفع أسعارهن في بورصة الملاهي هناك!**

إنها الكاتبة ماريا الحراني. لقد شاهدتها مرة واحدة في المطعم برفقة السيدة ذات الخواتم الماسية وسيدة ثالثة، وعرفتها من صورها في الصحف ومن حفاوة صاحب المطعم بها. مرة واحدة فقط، فيا لذاكرة النساء اللعينة. لا. لن تعرفاني الآن بثيابي المتأنقة هذه وقد خلعت بزة النادل السوداء الغُرابية مثل موظفي مواكب الجنازات الوجيهة.

هرب ناجي بنظراته من وجهي سليمى وماريا إلى وجه دانا الغض الجميل جداً لولا أنفها الكبير بعض الشيء. وسال إعجاب شهواني من عينيه لاحظته

سليمى. أولئك الرجال اللبنانيون لا يشبعون من التحديق في النساء واشتهائهن حتى ولو كان أحدهم متزوجاً من سيندي كروفورد!

لكن ناجي سرعان ما نقل نظراته من دانا إلى وجه د. ماري روز الحسناء الشقراء بعينين بَحْريتَيْ الزرقة واستقرت نظراته هناك. لكن ماريا ظلت تتأمله بشك كمن تتساءل: أين أين شاهدتُه؟ وشعر بكهارب نظراتها المتفرسة وقرر إذا سألتهُ لِمَ هو ذاهب إلى بيروت لتستشف مهنته وتنعش ذاكرتها أن يجيب بنصف الحقيقة: إني ذاهب في إجازة لمشاهدة أمي والأهل.. لن أقول لها حقيقة لن تصدقها ولن تخطر ببالها ككاتبة، وهي أنني أيضاً ذاهب من مهجري الفرنسي إلى وطني الأصلي لتحقيق حلمي بالثراء في لبنان بعدما فشلت في ذلك في باريس. لا. لن تصدق ماريا وسواها تلك الحقيقة ولعلها كوجهاء المغتربين جميعاً تنسى مئات آلاف المهاجرين مثلي الفاشلين. فقد رحلت خلف طموحي وكنت أستاذاً للرياضة في مدرسة ابتدائية في بيروت وانتهى بي الأمر نادلاً في مطعم باريسي بدلاً من مدرب لبطل الألعاب الأولمبية. أنا من الذين يكدحون من أجل اللقمة ويخفون حقيقة فشلهم وخيبتهم عن أهلهم ومعارفهم ويستمرون حيث هم بحكم العادة أو الزواج أو الأولاد المستقرين في المدارس. لقد نجوت والحمد لله من فخ واحد على الأقل، فخ الزواج. فأنا أحب النساء لكنني أفضل عليهن أحياناً الجنس غير الناعم، وأولئك والحمد لله لا ينجبون! ثم إنني لا أرى في الزواج "الغربي" أية مزايا لي كرجل شرقي. فعلام أتزوج والصفقة خاسرة لي هناك؟ وأولادي ليسوا لي وشعارهم في الغرب: «يا ربي نفسي». كادت ماريا التي يقتلها فضولها ككاتبة تسأل ناجي عن مهنته وهي تدرس أظافره وأصابعه وتحاول اكتشاف ذلك من يديه حين انضم إلى الطاولة رجل في أواسط ثلاثيناته وعينه على الجريدة اللبنانية، المتربعة فوق الطاولة كبيرق لبناني.

لم تتردد سليمى في الترحيب به وقد لذّ لها هذا المناخ، فهي تسافر للمرة الأولى منذ أعوام طويلة بالدرجة السياحية بدلاً من الدرجة الأولى. وبدلاً من الجلوس في صالونات الانتظار الفخمة الخاصة بهم التي ألفتها في المطارات، حيث الرسميات المتحفظة الباردة. وقد أحبت دفء مناخ مسافري الدرجة السياحية وبساطته ولم تندم لأنها قررت تجريب درجة «التمبو»، أي الدرجة الثانية أو السياحية!. فعلت ذلك إكراماً لماري روز وماريا اللتين لا تسمح لهما الميزانية بإنفاق ثروة صغيرة ثمناً لبطاقة سفر. صحيح أن الوضع المادي لماريا جيد لكنها تَدّعي أن مناخ الدرجة الأولى يضايقها كمناخات البطر كلها ولعلها تكذب، لكنها مضطرة للانسجام في سلوكها مع كتاباتها الثورية! أو لعلها ليست ثرية بما يكفي

للسفر بالدرجة الأولى. . أعرف ماريا منذ ألف عام حين كنت صبية أي منذ شاطرتها الغرفة في القسم الداخلي في الجامعة الأميركية حيث جاءت هي من بلدها العربي للدراسة وجئت أنا من بلدتي اللبنانية البعيدة نسبياً عن بيروت، ورغم تعايشنا في غرفة واحدة لفترة ثلاثة أعوام في القسم الداخلي (البستاني هول) ظللت أشعر أنني لا أعرفها حقاً ولا أعرف الكثير عنها، وهو شعور ما زال يداخلني اليوم بعد عقود. . إنها امرأة سرية بعض الشيء لكنني ألفتها كما هي.

بفضول حدقت سليمى بالقادم الجديد إلى الطاولة متوقعة أن يقدم نفسه للجلوس أو يقول شيئاً ولكنه اكتفى بتأمل الجريدة اللبنانية أولاً ثم دانا بإعجاب دون أن تنزلق نظراته صوب ماري روز كما فعل ناجي. . وقررت سليمى أنه لم يبق في الطاولة مكان لقادم جديد فمدت يدها لإخفاء الجريدة كمن يُنزل علماً عن سفارة لكنها انزلقت على أرض الكافيتيريا. قفز الرجال الثلاثة عن المائدة لالتقاطها، فواز وناجي والشاب الذي انضم إليهم مؤخراً وكان أسرعهم. فالتقط الصحيفة وأعادها إلى الطاولة. شكرته سليمى بحرارة كما لو أنه التقط عن الأرض خاتماً ماسياً انزلق من أصبعها وقالت: شكراً لك. لم تعرّفنا بنفسك. قال لها: اسمي عبد الكريم الخوالقي.

صدحت بصوت يسيل منه الانبهار والإعجاب مفسِّرة لبقية جلساء المائدة: إنه نجل رئيس وزراء دولة قهرستان. والتفتت نحوه تقول: أطالع باستمرار في الصحف أخبار شركاتك وأعمالك بين باريس وبيروت ولندن وبلدك، اللهم زد وبارك. . وأردفت: كنت أظنك أكبر سناً.

كانت ماريا تكتسب أهمية مفاجئة في نظر صديقتها سليمى حين تُعرِّفُ أحد المشاهير بها ليفهم أنها صديقة المشاهير والأدباء كماريا مثلاً وليست أياً كان! وهكذا قالت سليمى لماريا بصوت عال: أعرّفك بالسيد عبد الكريم الخوالقي رجل الأعمال الشهير ونجل رئيس وزراء قهرستان. . وأضافت وقد التفتت نحو الشاب «النجل»: هذه ماريا الحراني الكاتبة الشهيرة صديقتي منذ أيام الدراسة في الجامعة الأميركية.

قالت ماريا: تشرفنا يا أستاذ. وتأملته بعينها الروائية بشيء من الدهشة. **هذا القميص الذي يرتديه جديد لكنه رخيص الثمن كما تشي به الطية الخفية للياقة. بزته رديئة الخياطة ومن الواضح أنه اشتراها من مخزن عادي «كالمونوبري» أو «البيه آش فيه». لا. هذه ليست بثياب رجل أعمال ولا لابن لرئيس وزراء. حركت رأسها لترى حذاءه، فالحذاء وشاية. لا. إنه ليس حذاء «برلوتشي» الذي ضيع رولان دوما**

و"خرب بيته" ولا حذاء سندريللا الذي زَوَّجها بأمير! إنه حذاء عادي من دكان شعبي. صحيح إنه ليس حذاء الطنبوري لكنه حذاء عادي جديد ورجال الأعمال الذين يسافرون كثيراً لا ينتعلون في الطائرات حذاء جديداً كي يريحوا أقدامهم. أما يداه فتشبهان أيدي ربات البيوت، كأنه يعمل في مهنة يدوية أكثر منها مهنة إدارية، وأظافره سيئة القص لم تمر بها أصابع «مانيكوريست». لا. ليس ابناً لرئيس وزراء، فساعته السميكة غليظة الحواف المغطاة بمعدن رخيص لماع كأنه الذهب، خدعة لا تنطلي إلا على عين غير خبيرة. ساعة كهذه لا يمكن لثري أن يرتديها ولا حتى يهديها لسائقه أو مرافقه. أسلوبه في الإمساك بفنجان قهوته وفي شكره المبالغ به لنادل الكافيتيريا ليس أسلوب ابن عز وابن لرئيس وزراء أَلِفَ أن يخدمه الناس دون أن يلاحظهم، وإنْ شَكَرَهُم فبإيماءة خفيفة من رأسه. ثم إنه لو كان ابناً حقاً لأي رئيس وزراء عربي ما لكان في صالة ركاب الدرجة الأولى محاطاً بحراس أو بـ"بادي غارد" على الأقل ولما جلس هكذا معنا.

سألته ماريا بلطف بالغ: لماذا لستَ مسافراً في مقصورة الدرجة الأولى؟

قال لها بصفاقة لم يكن يعرفها في نفسه: أحب الاختلاط بالناس العاديين لأطّلع على أحوالهم ومعيشتهم!

سعدت سليمى بتلك الإجابة التي تنم عن تواضعه، وقالت ماريا لنفسها: إذا كان هذا «الولد» نجلاً لرئيس وزراء ما، فأنا المسز تاتشر أو كلوديا شيفرز!

ككاتبة، تفشل ماريا غالباً في احتواء فضولها، ولذا سألته سؤالاً مباشراً بلا أقنعة: هل أنت حقاً عبد الكريم الخوالقي؟

لم يجب، بل فتح جواز سفره وتركها تقرأ في ومضة سريعة اسمه فقط: عبد الكريم الخوالقي. ثم سارع إلى إغلاقه وإخفائه مما زادها شكاً! حسناً، اسمه هكذا ولكن لماذا يدّعي أنه ابن لرئيس وزراء ما؟

تذكرت أنه لم يدّع ذلك بل استنتجته سليمى ولم ينفه هو ثم تلبّسه الدور ربما... كل ما أعرفه الآن أن اسمه في جواز السفر عبد الكريم الخوالقي، لكن تشابه الأسماء شائع كما التزوير.

تابعت استجوابها له: غريب. لهجتك لبنانية!

أجابها بسرعة: أمي لبنانية..

كان ذلك صحيحاً وتذكرت ماريا أنها قرأت أن زوجة رئيس الوزراء المزمن الخوالقي (أو واحدة من زوجاته) لبنانية. ولكن إجابته السريعة أوحت لماريا أنه

تدرب على هذا الدور من قبل ولعبته ليست بنت ساعتها!

سألته سليمى: هل ثمة من سيكون بانتظارك في مطار بيروت؟

أجاب عبد الكريم: لا. إنني في رحلة لم أعلن عنها. أحب أن أسافر "أنكونيتو"، كأي مشهور سرّي!

سمع صوته وهو يقول ذلك وأذهله شوقه إلى لعب دور «النجل» بعد فترة من الانقطاع عن ذلك!

قالت سليمى: سائقي سيكون بانتظاري في بيروت. سنقلّك معنا إلى حيث تشاء، أظن أن لديك شقة في بيروت كما سبق وقرأت.

أجاب عبد الكريم: أجل. لكنني سأنام الليلة في فندق ما، إذ لم أخبر الخدم بحضوري ليعدّوا الشقة.

قالت سليمى: سأصطحبك إلى «فندق الأمراء» الشهير. زوجة صاحبه صديقة لي.. إلا إذا كنت تفضل فندقاً آخر.

أجاب: سأجرب "فندق الأمراء". أحلُّ عادة في "البريستول" حين أهبط هكذا على حين غرّة، أو أجدد ديكور شقتي البيروتية! حين يهب الحنين في قلبي إلى منظر البحر أنزل في «السمرلاند». قالت سليمى لنفسها: **كم هو رقيق!** قالت ماريا لنفسها: **يا له من كذاب!**

* * *

تثاءب فواز وقد غطى فمه بيده بتهذيب وقال: المهم أن تقلع الطائرة أولاً. ابتسمت العينان الخضراوان الجميلتان لدانا إذ يسلّيها حرص أمها على إعلان أهميتها الاجتماعية وصلاتها ونفوذها حتى في الفنادق مع "عليّة القوم" ناهيك عن حرصها (كما تتوهم دانا) على البحث عن زوج عربي لها. **عبثاً أُفهمها أن النساء لم يعدن مثلها و«فرحة» يجدن مستقبلهن في الزواج. وإن زواجي من عربي لن يُبدّلني ولن أزداد قرباً منها أو بعداً. وإن الزواج في نظري مجرد حادث آخر في حياتي العملية كما هو للرجل وليس محوراً لها ولا نقطة انعطاف مهنية تتبدل إثرها مهنتي. وإذا كان عبد الكريم يعنيني بشيء فلأنه نجل لرئيس وزراء ومن الممكن أن يكون مفيداً لي مهنياً!**

تأملت سليمى عبد الكريم وقالت لنفسها كابنتها: **إذا كان عبد الكريم يعنيني بشيء فلأنه نجل لرئيس وزراء بلد ثري ومن الممكن أن يكون مفيداً لشركاتنا مهنياً. دانا تظنني بالتأكيد مهتمة به لتزويجها منه. إنها تتوهم أنها محور الكون كبقية بناتي**

وقد ورثن ذلك عن والدهن! تتأملهما ماريا وتقول لنفسها: كم تشبه دانا أمها لكنها ترفض الاعتراف بذلك. الأم تحب أن تبدو غبية ودانا تصدقها. إنهما تفكران بعبد الكريم على النحو ذاته: «القطة تجارية». وأنا لستُ أفضل منهما إذ أراه «القطة أدبية» ومشروعاً لقصة!!

تكلم فجأة ناجي قائلاً: تشرفنا يا سعادة عبد الكريم بك. وكان يتأمله بإعجاب استثنائي خارق ممزوج بالدهشة وأضاف: أنا ناجي مدير فندق «باري روايال» حيث ينزل علية القوم وبينهم والدك السيد رئيس الوزراء. وقبل أن يقول لعبد الكريم أيضاً إنه مثله الأعلى ويحلم بأن يصير مثله، فهو معجب بصفاقته وجرأته على انتحال صفة ليست له، وأنه يحلم بأن يتعلم ذلك ليقبر الفقر، ونظرات الاحتقار لمهنته، وأنه يعرف عبد الكريم الخوالقي الحقيقي الذي يحرص على تناول الغداء في مطعم «أفراح بيروت» (حيث يعمل ناجي نادلاً) كلما حلّ في باريس، وأنه يصطحب معه أحياناً والده رئيس الوزراء وقد حفظ وجهيهما جيداً، وبعض الحراس والحاشية، وأن نجل رئيس الوزراء شخص آخر!!..

قبل أن يفتح فمه ليضيف شيئاً قاطعه عبد الكريم قائلاً بتنازل وتواضع: أهلاً بك يا ناجي بك! أذكرك جيداً إذ رافقت والدي مرات إلى فندق «باري روايال». وتابع دون أن يرف له هدب وقد تلبسه دوره مخاطباً السيدة سليمى: هذا ناجي بك أحد أصحاب فندق «باري روايال» في باريس لكنه يتواضع ويقول إنه مديره فقط.

لم يصحح ناجي كلام المدعو «عبد الكريم» إذ أعجبته هذه الـ«ناجي بك» واستمتع للمرة الأولى في حياته التعسة المشردة المهانة بنظرات الإعجاب في عيون جلوس الطاولة اللبنانية في مطار «شارل ديغول» ذلك الصباح الضبابي، وقرر أنه هو صاحب فندق «باري روايال» ما دام الآخر نجلاً لرئيس وزراء قهرستان!

* * *

في بداية الجلسة كانت دانا تترجم لماري روز كل ما يقال إلى الفرنسية وهي تزجر أمها وفواز وماريا طالبة منهم الكلام بالفرنسية، ثم سئمت اللعبة إذ كانوا يبدأون الجملة بالفرنسية ويختمونها بالعربية وينطقون بعدها كلمة بالفرنسية وأخرى بالعربية ويختمون الحكاية بالعربية، مع مَثَل شائع تعجز دانا عن ترجمته حتى ضجرت من اللعبة إذ كانوا فوق ذلك كله يتكلمون جميعاً مرة واحدة تقريباً وتتعالى الأصوات بحيث لا تفهم شيئاً. وهكذا، قررت أن تتوقف عن الترجمة. هذه المرة، رفعت سليمى الراية وحرصت على ترجمة كل كلمة لماري روز لتعرف ابنة البارون أنها في حضرة ناجي بك صاحب فندق في باريس وفي حضرة نجل رئيس وزراء

قهرستان، ناهيك عن ماريا الأديبة الشهيرة. كادت دانا تنفجر ضاحكة، إذ إن أمها تنسى ماريا شهوراً وبالأحرى تنسى أنها كاتبة، ثم تعيد اكتشافها فجأة وتستعيد ماريا أهميتها في نظرها حين يُبدي أحد إعجابه بها ككاتبة أو تلتقي بمشاهير آخرين وتُعرّفهم بها. حينئذ تعود صديقتها!

ماريا تأملت ناجي بنظرتها البوليسية وقالت بلا صوت: **إذا كان هذا الرجل مدير فندق «باري روايال» ناهيك عن صاحبه فأنا الملكة إليزابيث!... ما الذي يحدث على هذه المائدة؟ يصلون إليها ضفدعاً بعد آخر ثم تحوّلهم سليمى بحيويتها وانبهارها بالعابر إلى أمراء الحكاية الخرافية حين تقبلهم بشفتي طيبتها وخبثها البريء ونظراتها المرحبة بكل شيء، القادرة على غفران كل شيء إلا الموت.. لقد غفرت سليمى لزوجها خياناته وطعناته لكنها لم تغفر له شيئاً واحداً: أنه مات!**

تمنت ماريا أن لا تنتهي الجلسة فقد بدأت تستمتع بها. **هذا «ولد» غامض يدّعي أنه نجل لرئيس الوزراء وعلاقته بالعز كعلاقة القرد بقيادة المركبات الفضائية. وها هو يُزكّي شخصاً آخر غامضاً هو ناجي (بك) تذكر أنها شاهدته في مكان ما وهو ينكر ذلك وسليمى تؤكد أنها هي الأخرى شاهدته، وإذا به يصير فجأة أحد أصحاب فندق «باري روايال» الذي تعرف صاحبه الأصلي! وجوه وأقنعة تنكرية وكل واحد يروي حكاية مزعومة عن نفسه وسواه كالزوجين اللذين تبيّنتُ أنهما عاشقان هاربان من زوجيهما في إجازة.**

من زمان كان المسافرون يروون لبعضهم بعضاً قصصهم الحقيقية... من زمان كتب الإيطالي جيوفاني بوكاشيو حكاية المسافرين في «ديكاميرون» وكل منهم يروي قصته الحقيقية لرفاق السفر... وكتب البريطاني جوفري تشوسر حكايا حجّاج في رائعته «كانتربري تيلز» وكان كل مسافر يحكي قلبه وجرحه، وحكاية عمره لبقية رفاق السفر. مهمتي أكثر صعوبة في هذا الزمان بعد انقضاء أكثر من ستة قرون على أيام بوكاشيو وتشوسر، فمسافر اليوم يرتدي قناعه ويكذب وكل واحد يخترع حكاية لقناعه التنكري ويروي حكايات موته لا حياته!

* * *

حين أعلنت المذيعة في مطار «شارل ديغول» الباريسي عن انقشاع الضباب وبدء إقلاع الطائرات، تنهد جلوس المائدة اللبنانية في الكافيتيريا بارتياح، باستثناء ناجي الذي صار صاحباً لفندق «باري روايال» في تلك الجلسة ـ أو أحد أصحابه على الأقل! ـ وسيعود نادلاً إذا انفضّت. وللمرة الأولى في حياته تخيل: ماذا لو كان شخصاً آخر يقدّره الناس كما يقدره جلساء هذه المائدة؟ **ماذا لو عدت إلى**

أسرتي في قريتي اللبنانية الوادعة وشاهدت في عيون أفرادها نظرة الإعجاب؟ ماذا لو شاهدت في عيني أمي بالذات نظرة الشماتة بالجميع وقولها لهم: لقد ظل المفضل لديّ حتى وأنتم تسخرون من فقره و«آدميته» ونزاهته. وها هو الآن، صاحب فندق في باريس. ألم أقل لكم دائماً إنه استثنائي؟ ماذا لو شاهدتُ في عيني شقيقتي نظرة إعجاب كتلك التي أطلت من عيني الزوجَيْن اللبنانيين السائحين حين عرفا ـ أعني توهما! ـ أنني صاحب «باري روايال»؟. . .

يا إلهي كم تعبت من قول أشقائي لي كلما عدت إلى القرية لقضاء إجازتي مع الأهل في لبنان: انظر إلى هذا القصر الذي عمّره جارنا المغترب فلان الذي كان يلعب معك في صغرك. ثم يضيف أحدهم متظاهراً بالدعابة: إذا لم تكن ثرياً لا تحضر! «معك قرش بتسوى قرش»!

تراهم افتقدوني بما يكفي للتغاضي عن عودتي في هذه الإجازة أيضاً خاوي الوفاض؟ وحدها أمي، أعرف أنها تفتقدني سواء كنت ملكاً أو متسولاً. . . وحدها تحبني كما أنا. . . وترضى بي كما أنا. . حتى ولو كنت سارقاً أو قاتلاً أو. . مليونيراً!

* * *

قالت دانا لفواز وقد ضاقت أنفاسها من رفاق المائدة لسبب مجهول وربما لثقل انتظار موعد إقلاع الطائرة: هل علمت أن دانييلا طلقت زوجها منذ أيام؟ نزل عليه الخبر كالصاعقة، فدانييلا زميلتهما المشتركة أيام التلمذة في مدرسة الـ H.E.C الشهيرة، وعشيقته في أوقات متقطعة (بارت تايم لافر) لم تقل له شيئاً عن ذلك. . دانييلا مطلقة؟

لم يفرح فواز للخبر كما توهمت دانا.

السحر كله كان يكمن في وجود رجل آخر مسؤول عن التفاصيل كلها، نلعنه في لقاءاتنا السرية المنهوبة. . كان أجملٍ ما في علاقتنا سرعتها الخاطفة المكهربة التي لا تتيح لنا الوقت للتفكير أصلاً بها وتكفي للملذات الشهية المحرمة، المشحونة بالجنون والقلق من حضور مفاجىء للزوج. .

قال لدانا دون أن يكذب: كم أنا آسف لسماع هذا النبأ! قالت لنفسها: كم هو طيب! وكانت تجهل سر العلاقة بينهما.

أدرك أن علاقته مع دانييلا قد انتهت لأنها ستخلو من السحر وتمتلىء بالتفاصيل مثل الفواتير. . وهو يحب العلاقات المختزلة المليئة بالظلال البعيدة عن

الواقع الشبيهة بالحلم والسر كتلك المرأة الرشيقة النحيلة التي دخلت للتو إلى الكافيتيريا، والضوء يرسم من خلفها "سيلويت" جسدها الدقيق الأنثوي. **هكذا أحب المرأة، بلا حضور مادي، شفافة كريشة، متأرجحة بين الحقيقة والوهم داخل الظلال المشعة. تماماً كهذه المرأة التي تقترب من المائدة وأنا أتأمل اقترابها كراقصة عارية للباليه.** وسمع صوت دانا تقول: أقدم لك مارلين، زميلتي وماري روز في مدرسة الكاراتيه.

وحدّق في وجه المرأة الواقفة الجميلة الرقيقة كفراشة: كاراتيه؟ **يا لجنون الصبايا المتحررات الراكضات بين المكتب وقاعات الرياضة! ويا لشوفينيتي التي لا شفاء منها! أريدهن عذبات كالجواري. كالزوجة اللبنانية النموذجية التي تقرر أمي أني بحاجة إليها. أنا دائماً عاشق من النظرة الأولى، وهذه حبي الأول للمرة الرابعة أو الخامسة هذا الأسبوع! أقرر ذلك دون أن يرف لقلبي جفن!**

أجل! دون أن يرف لقلبي جفن: إني مغرم بجمالها وطالما بهرتني وأنا أرسمها بعين الخيال. ويا لتلك الكهارب عالية التوتر التي أشاعها حضورها في جسدي. يا لضعفي أمام النساء.. أحملها. أركض بها في الضباب فوق مدرج المطار والطائرات تروح وتجيء حولي. أتحاشاها وأطير بحسنائي مارلين دون أن يلامس حذائي الأرض. أصل إلى خط الأفق وأمددها فوق منصته ويشع ضوء من جسدها. أقبلها من عنقها أولاً. أرسم عنقها. أقبل شفتيها. أرسم شفتيها. حين أنتهي من رسمها كما أشتهي على شاشة الغيم أتركها حيث هي وأمضي بلا وداع.

هزت مارلين رأسها بتهذيب وهي تصافحه ومضت إلى المائدة المجاورة. أدار فواز ظهره لها: **كانت حكاية حب أخرى! بها نسيت خوفي من رحلة بيروت إياها ولو لدقيقة!**

* * *

يحوم حول المائدة اللبنانية في الكافيتيريا شاب استثنائي الوسامة. لاحظته دانا وقررت أن الصحف اللبنانية والعربية يجب أن تختفي عن هذه الطاولة، ليكف تدفق «الزبائن» الجلساء من أهل الوحشة. تتأمله سليمى كالمسحورة. كمن نسيت سنها وبقية جلساء المائدة معها.. يقترب منها كمن لم يعد يرى سواها.. لا تزيح نظراتها وقد بدت الدهشة جلية في عينيها. يسلّي المشهد ماريا فتستل دفترها الصغير لتسجل "ملحوظة". لا تلحظها سليمى بل تحدق في الشاب. **يا إلهي كم يشبه هذا الشاب زوجي المرحوم نعيم يوم تعارفنا. يومها دخل إلى مقهى «الأنكل سام» مقابل الجامعة الأميركية حيث كنت أدرس، بوجه بالغ الوسامة وربما الغرابة: الشعر أسود والعينان**

زرقاوان بحريتان تنتظران شراعاً أبيض يركض في هدوء أمواجهما. . . من زمان. . منذ ألف عام لم يخفق قلبي طرباً كنشوتي الآن وأنا أرى أيام زمان وأعود شابة. . حتى حين خانني نعيم فيما بعد وغدر بي لم يخفق قلبي لرجل سواه. . كان قدري أن لا أحب سواه وإذا أحببت سواه فسيكون قد تقمصه. . وإلا فلماذا تتعلق نظرات هذا الشاب بي كمن وجد منارة وسط الهياج البشري كله والركاب يتدافعون للذهاب إلى الصالة الكبرى حيث المخارج إلى الطائرات؟ ولماذا يمشي صوبي كما فعل نعيم ذلك الصباح الشتائي الضبابي كما هي الحال اليوم؟ يومها استأذن نعيم للجلوس إلى مائدتي وماريا التي لم تكن قد صارت كاتبة مشهورة بعد و«فرحة» التي لم تكن قد صارت والدة فواز بعد. أم أن هذا الشاب يحدق بي لأنني أحدق به، وأنا أحدق به لأنه يحدق بي والقصة سوء تفاهم عابر؟

جرّ الشاب كرسياً من مائدة مجاورة، واستأذن سليمى: هل تسمحون لي بالانضمام إلى مائدتكم؟

كادت دانا تقول له إن الطاولات الأخرى بدأت تخلو من المسافرين المهرولين صوب طائراتهم فلِمَ لا يجلس بعيداً إلى طاولة من تلك التي شغرت، ويرتاح ويريح. وقبل أن تنبس بكلمة أضاف: اسمي وليد الموالدجي. وقد فهمت من المضيفة أن الضباب انقشع والطائرات سترحل تباعاً أما طائرة بيروت بالذات فستتأخر في الإقلاع. صار فجأة محور اهتمام الطاولة بكل من فيها فهو يحمل أنباء طازجة وانهالت عليه الأسئلة.

تذكرت سليمى موهبة نعيم في أن يصير محور اهتمام كل جمع يضمهما منذ لقائهما الأول. حتى حين ولدت بناتي كانت التهاني تنصب على زوجي وحده، والأسئلة أيضاً حول سير الولادة كما لو أنه هو الذي ولد البنات لا أنا. في كل عرس كان يستقطب الاهتمام كما لو كان العريس، وفي كل مأتم كان الأهم كأنه الميت! كان النجم دائماً وكنت سعيدة بالحياة في ظله، حتى اليوم الذي اكتشفت فيه أنه يخونني وأنها لم تكن المرة الأولى ولن تكون الأخيرة. وصرت تعيسة بالحياة في ظله لكنني بقيت حيث أنا ولم يخفق قلبي لأي رجل آخر رغم تحريض ماريا لي على أن أحيا حياتي أياً كانت.

في البداية أجاب وليد على أسئلة عبد الكريم و«الزوجين» العائدين من الإجازة وعلى أسئلة فواز وناجي ودانا بلا تحفظ، ثم قال وعلى وجهه ابتسامة ساخرة آسرة مداعبة ذكّرت سليمى بابتسامة نعيم:

حسناً. سأصارحكم بالحقيقة التي اعترفت لي بها مضيفة بعدما غازلتُها

واستجوبتها. طائرة بيروت ستتأخر في الإقلاع لأنها لم تصل بعد من بيروت. إنها ما تزال تطير في أجواء اليونان على الأرجح!!

لم تقل ماريا شيئاً فقد كانت ما تزال تسجل في دفترها الصغير ملحوظة عن الزوجين السائحين وقد لفتها ككاتبة أنهما عاشقان في إجازة من بيتيهما الزوجيين.

سألته سليمى: لماذا؟ ما الذي حدث؟ هل ثمة إضراب في مطار بيروت؟ لا بد لمصيبة اللبناني من أن تكون مضاعفة بضباب في باريس وإضراب في بيروت.

وقبل أن يجيب جاء صوت مذيعة مغناج عبر الميكرفونات بثلاث لغات يعلن تأخر إقلاع طائرة بيروت إلى وقت غير محدد مما أضاف لسبقه «الصحفي» مصداقية خاصة.

كررت سليمى سؤالها: لماذا؟

وليد حدق في وجه سليمى بعينيه البحريتين كعيني نعيم وقال لها: سأصارحك بالحقيقة ولن أكذب عليك لسبب أجهله. ضحك الحاضرون وكادت دانا تقول له بلؤم: لن تكذب عليها لأنها ستعرف الحقيقة فيما بعد وتريد تملقها بسبب خواتمها الماسية التي يعادل ثمنها ثروة، لا لجمال عينيها. فلا تغازلها بنظراتك كما تفعل الآن ثم سكتت، وكأنها ضبطت نفسها وهي تغار للمرة الأولى من أمها كامرأة!

وكانت ماريا مشغولة بتدوين ملحوظات عن عبد الكريم في دفترها الصغير.

تابع وليد وعلى شفتيه تلك الابتسامة الفاتكة: ثمة جرذ دخل إلى الطائرة أثناء صعود الركاب إليها في مطار بيروت استعداداً للإقلاع. جرذ أثار خوف السيدات وصراخهن ولكنه أخاف قائد الطائرة أكثر، إذ كان لا بد من تأخير الإقلاع وإخلاء الطائرة ريثما يتم الإمساك بالجرذ والتأكد من عدم إتلافه أجزاء من أسلاك الطائرة وماكيناتها الدقيقة..

تولت دانا ترجمة كلام وليد لماري روز بالفرنسية لكنه تولى بنفسه متابعة الحكاية بالفرنسية بطلاقة. قالت ماريا: بيروت تفور بالجرذان هذه الأيام.

تحمس وليد: تسرني أخبار قاتل الجرذان. إنه يقتل الفاسدين والأشرار ويعلق في عنق كل واحد منهم جرذاً كبيراً ميتاً. سكت عبد الكريم، فبصفته ابناً لرئيس وزراء عربي يستحسن أن يتحفظ في كلامه فقد يكون وليد صحافياً!

وغرق فواز في حوار مع وليد ووجده مسلياً ذكياً ينسيه مخاوفه وقلقه، وازدادت دانا ضيقاً فهي تريد أن تبدأ الرحلة كي تنتهي.

وقال وليد فجأة: سأحضر لنفسي فنجان شاي وعندي يد أخرى فمن منكم يريد شيئاً؟

قالها وليد وقد تعلقت نظراته بسليمى التي استجابت: شاي لي أيضاً.

دهشت دانا لأن والدتها تجاوزت الشكليات و«رفعت الكلفة» مع هذا الشاب على غير عادتها. ماريا التي تراقب الناس باستمرار دون أن تموت هماً التقطت كهارب رقصة عصافير العيون بين الشاب الوسيم وليد وصديقتها سليمى التي لم ترها حية كتلك اللحظة منذ دهور وابتهجت. **إنها لم تمت من زمان كما كنت أظن...**

عاد وليد بفنجاني شاي ودون أن يستشير سليمى وضع في فنجانها قطعتين من السكر وذوبهما... تماماً كما فعل نعيم يوم لقائهما الأول اللامنسي الغابر في «الأنكل سام». في تلك اللحظة أيقنت سليمى أن «نعيم» تقمص وليد واقتربت منه بمقعدها.

* * *

في الكافيتيريا، على مائدة مجاورة ثلاث نساء يتحاورن باللهجة اللبنانية ويقهقهن. التفتت ماريا صوبهن وبَدَوْنَ لها طريفات، يرتدين ملابس أوائل زمان السبعينات كما خيل إليها وقد نسيهن الزمن عشية انفجار الحرب اللبنانية كما هن، فهرمن داخل ثيابهن وأزيائهن وتابعن قهقهات الحبور كما لو أن الحرب لم تقع.

الأولى صبغت شعرها بالأحمر الفاقع والثانية بالبنفسجي والثالثة بالأخضر.

تتأملهن ماريا باهتمام بالغ كأنهن طالعات من بين دفتي رواية ما.. الأولى ترتدي "الميني جوب" وتزين شعرها بالأزهار، والثانية ترتدي "الجينز" على طريقة ذلك الزمان، فعند أسفله يصير عريضاً كقدم الفيل "أم تراها الموضة وقد عادت؟".. الثالثة ترتدي فستاناً "بيبي دول" بقَصَّة فوق الصدر وقد عقدت شعرها في جديلتين تتدليان من طرفي رأسها فوق أذنيها كتسريحة الصبايا الصغيرات، ويبدو "ماكياجهن" قناعاً حياً، بالرموش الاصطناعية الطريفة حول عيون أثقلتها "الجيوب".

كن يضحكن كالمراهقات كأنهن روح الحبور يرافقنها إلى بيروت رغم أنف كل شيء... روح بيروت التي أحبتها مرة وما تزال، مدينة حية أكثر من مشيعيها وحافري قبرها وستظل ترقص حتى في طريقها إلى قبرها. ستغادر تابوتها وتسخر من المشيعين وتقف فوق خشبة لترقص في جنازتها وتقرع سقف التابوت بكعبي

الحذاء وهي تدبك مرحة ومصرة على الحياة والضحك.. تفاءلت ماريا بمنظرهن اللامعقول وتساءلت: تراهن جنيات الحبور أم بطلات هاربات من رواية؟

نهضت لتدخن من جديد لفافة في الركن المخصص لذلك، وكانت في حقيقة الأمر لا تطيق الجلوس إلى مائدة أكثر من دقائق وتتحرك كقطرة زئبق. وحين صارت بالقرب منهن في طريقها إلى التدخين أو الحمام أو التسكع أو إلى حيث لا تدري سألتهن فجأة دونما حرج: ما الذي يبهجكن هكذا؟ هل ربحتن في اليانصيب، أم أنها فرحة العودة إلى بيروت؟

أجابتها إحداهن: يبهجنا أننا ما زلنا أحياء! بعد ذلك كل شيء سواء!

ـ هل أنتن صديقات من زمان؟

ـ منذ ترملنا.. منذ قتل زوجي زوج كاترين.

ردت كاترين: بل منذ قتل زوجي يا عيوشا زوجك.

قالت الثالثة: كنت أظن أن زوجي قتل زوجيكما.

فقالت لها عيوشا: لا يا شرشورة. مات ثلاثتهم في معركة واحدة ضد بعضهم بعضاً...

وغرقن في الضحك. قالت ماريا بدهشة: جميلة صداقتكن هذه كأرامل «قاتل ومقتول».

قالت عيوشا: كان عليك أن تري كم كنا نضحك أيام العثمانيين!

قالت كاترين: الحماقة تضحكنا دائماً..

ضحكنا كثيراً أيام الصليبيين... الرجال لا يكبرون أبداً. في صغرهم يلعبون بالدمى الحربية وفي كبرهم بالمنجنيق والمدفع والقنابل النووية..

قالت شرشورة: ألطف فترات حياتي كانت أيام الفينيقيين...

قالت كاترين: بل أيام الفاطميين...

عارضتها عيوشا: بل أيام الرومان يوم سحقت الأعمدة في بعلبك رجالنا وهم يشيدون المعبد. ما أطرف حماقات الرجال وما أكبرها. كم نحبهم لذلك. وقهقهن بحبور. خيل إلى ماريا أنهن يختفين شيئاً فشيئاً عن ناظريها ويعدن ضباباً كبطلات ثلاث لقصة أنجزت كتابتها، **أم أنني أصاب بالدوار؟** فكرت بأن تمد يدها وتتحسسهن ثم قالت لنفسها: **بشر أم أبطال قصص، ما الفرق؟**

في الركن الخاص بالمدخنين دخنت ماريا لفافتها ودخلت إلى الحمام الخاص بالنساء. كانت رائحة نصف كريهة تفوح من المكان وثمة سيدة تقوم بالتنظيف

وصبيتان صغيرتان جميلتان فارعتا القامة بدتا سويديتين شاهدتهما في الكافيتيريا ولفتتا نظرها ببطنهما المكشوف للعيان وقد زرعتا في سرتيهما لؤلؤة وماسة، شاهدتهما وقد غرقتا في عناق محموم في دهليز دورة المياه. . .

شعرتُ بالنفور من هذا المشهد في هذا المكان المقرف بالذات.

جاءها صوت من قاعها: **لقد هرمت يا ماريا. من زمان كنت تفرحين بأي مشهد من مشاهد التمرد على المألوف. من زمان فرحت بمشهد مقعد مرحاض أبيض وضعه مجهول في لندن على الرصيف في محطة الباص، وبدا الناس التقليديون المصطفون خلفه للصعود إلى الباص ببزاتهم الإنكليزية خامدة الألوان وربطات العنق الرسمية، بدا أولئك الناس كما لو ينتظرون دورهم لاستعمال المرحاض المكشوف في الشارع اللندني الوقور في البرد القاسي والحرارة خمس درجات تحت الصفر. . كم غمرك المشهد بالدفء والضحك واستمتعت بالطرافة. كنتِ يومئذ في العشرين من عمرك في إجازة لندنية. ومن يومها وأنت مصرة على أنك ما زلت في العشرين، روحاً.**

لكنك هرمت. ردة فعلك العفوية المتقززة (النافرة) من غرابة المشهد المفاجىء تشي بك. لم يعد قلبك يحتضن الجديد المختلف، لم يعد يخطر ببالك في المطعم غرس الوردة في رغيف الخبز أو كسر كوب ماء فجأة على الأرض! صرت تقليدية تتذرّعين بالتفاصيل السطحية وتضعين على المشاهد لافتات تقليدية: «قبلة سحاقية في مرحاض رائحته مقرفة». أهذا كل ما صرت ترينه الآن؟ اعترفي. أهذا موقف فنان من عالم يتبدل حوله ويعبر عن نفسه بصيغ جديدة؟

وقفت ماريا أمام مرآة الحمام النسائي لتصلح من زينتها وتعيد صبغ شفتيها، وأذهلها أنها لم تر وجهها، بل شاهدت وسط المرآة باباً ينفتح بهدوء.

ها أنا أنزلق عبر الباب إلى داخل المرآة. أقع على قدمي أمام مرآة الحمام النسائي لمحطة قطار الأنفاق «بيكاديللي سيركوس» اللندنية. شعري طويل فاحم السواد. وجهي عاد شاباً في العشرين. أهكذا كنت أبدو؟ أضع قطعة نقدية معدنية (نصف كراون) في ثقب الآلة وأقرب عنقي منها، وأضغط على زر فتخرج رشة عطر واحدة من عطري المفضل «ديوريسيمو». أعيد ترتيب الأزهار التي أزين بها شعري، والعقود (البيدس) التي تتدلى على ديكولتيه صدري نصف العاري، وأرسم من جديد خطوطاً بالكحل على بشرة وجهي تحت الجفن الأسفل لعيني وأعيد إغراقهن بالكحل فوق الجفن الأعلى وأنا أرقص على أنغام «الووكمان» وأغنية البيتلز الجديدة «الحب هو كل ما أنت بحاجة إليه» تصدح.

تكاد الساعة تشير إلى الثامنة مساء. أهرول إلى رصيف المترو حيث تواعدتُ مع نادر الذي لا أعرفه، المضيف في شركة طيران «الميدل إيست»، فهو يحمل لي رسالة من سليمى وفرحة و"كروز" سجائر «سالم» التي اكتشفت أنها لا تباع في لندن. دهاليز المترو ترقص على أنغام «الحب هو كل ما أنت بحاجة إليه» والمرئيات كلها تتماوج شوقاً إلى الاحتضان والاحتفاء بالحياة والفرح لـ«أبناء الأزهار» وأنا منهم. لا أعرف نادر. جذبني صوته على الهاتف، وضحكنا طويلاً حين قلت له إنني أضع أزهاراً حمراء في شعري وقال لي إنه سيحمل وردة حمراء بيده كي أعرفه! جاء وسيماً كإله إغريقي (أم تراني شاهدته كذلك؟) وفاتنا المترو الأول والثاني والعاشر ونحن على رصيفه وقد غرقنا في عناق محموم دون أن نتبادل كلمة واحدة. النساء الكهلات التقليديات والموظفون المتعبون الذين غادروا مكاتبهم بعد يوم طويل منهك كانوا يرمقوننا شذراً ساعة "الراش آور" وزحام المترو الأشد ونحن قطّان شابان يتحديان الكآبة والوحشة والتوحد بعناق عفوي نصف بريء وقبلات هاذية بنبض الشباب والمفاجأة.

حين غادرنا المترو إلى المطعم حيث دعاني إلى العشاء واحتوانا المصعد الواسع مع عدة أشخاص محليين تقليديين وهوت مقصلة الصمت وتجاهُلُ الآخر على الصدور، انفجرتُ فجأة أضحك بصوت عال وأنا أنقل نظراتي من وجه أحدهم إلى الآخر. وبدلاً من الارتباك شاركني نادر ضحكاتي، وازدادوا انكماشاً كمحارات حية عصروا عليها الحامض! قلت لنادر ونحن نغادر المصعد: نحن الشباب يجب أن نصدر قانوناً بإعدام كل من يتجاوز الثلاثين من العمر. وكانت ليلة من العمر، ولم أره بعدها ثانية. لم أحاول ولم يحاول. كنا نعرف أنه ليس بوسعنا التحليق أكثر. ليس ثمة ما هو أكثر!..

* * *

أنجزت ماريا إصلاح شعرها وزينتها ورمقت الصبيتين الغارقتين في العناق المجنون بنظرة دافئة وابتسامة حنان. غادرت الحمام.

جلستْ على أول مقعد في الردهة الكبيرة للمطار وسجلت في دفترها عنهن بعض السطور لقصصها. كم تحب المطارات التي تغلي بأرواح تتعرى وتخلع أقنعتها ربما تحت وطأة القلق أو الخوف..

حين عادت ماريا إلى الكافيتيريا بحثاً عن "روح الحبور" لم تجد الأرامل الثلاث الطروبات.

سألت دانا: أين السيدات اللواتي كن جالسات هنا حين نهضتُ إلى الحمام؟

بدت الدهشة على وجه دانا وقالت لها: لم أر أحداً، والمائدة كانت فارغة على ما أظن حين ذهبتِ!

وسألت ماريا سليمى فقالت لها: إنهم من صنع خيالك كالعادة! . . إذا ثابرت على غرقك في الكتابة فلن تشاهدي الأحياء بعد اليوم بل أبطال القصص وحدهم، وربما الأموات.

ولم تنسَ سليمى أن تعرّفها من جديد على وليد وتؤكد له أنها الأديبة المشهورة. دهش وليد. كان مراهقاً حين قرأ لها. ظنها صارت مومياء لكنها تبدو له حية أكثر مما يتوقع. . كسليمى!

ما أطرف أولئك المدعوين باللبنانيين!

لم تستطع الدكتورة ماري روز كبح جماح ضحكة مقهقهة جاءت من القلب، فحين لامس دولابا الطائرة أرض مطار بيروت فوجئت بركابها ومعظمهم من اللبنانيين وقد انخرطوا في حفل تصفيق حار لقائدها، كأنها أول طائرة في التاريخ تهبط على الأرض بسلام. **لقد سافرتُ مرات في رحلات سياحية ولم أر شيئاً كهذا إلا في بيروت!**

لكن ذلك كله لم يُنسها ذعرها المفاجىء من بيروت حين تذكرت كابوس الليلة السابقة وكانت قد تناسته على الرغم من أنه تكرر مرات منذ قررت قضاء الإجازة في لبنان.

حلمتُ ليلة السفر بأنني أرتب أشياء الرحلة في حقيبة يدي. أجد لصق بطاقة السفر صرة صغيرة ملفوفة بورقة جريدة عليها كتابة بالعربية كتلك التي أراها في الصحف المتناثرة في غرفة الجلوس ببيت دانا. أفتح الصرة الصغيرة فأجد فيها بعض نباتات الصبار التي أحب وهي بحجم مصغر جداً حتى الطرافة كتصفيق اللبنانيين الآن لكابتن الطائرة. أترك الصرة على الطاولة الصغيرة إلى جانب سريري وأتابع جمع أشيائي للسفر والحلم ما زال حلماً لطيفاً. ألاحظ أن نباتات الصبّار تكبر أمام عيني بسرعة استثنائية كما لو كانت حية، أعني حية بالمعنى الحيواني لا النباتي للكلمة. نبتة الصبّار الطويلة الخضراء ذات الورود الحمراء على ساق نحيلة كأفعى قفزت عن الطاولة إلى الأرض وقد تحولت إلى أفعى حقيقية ذات أشواك صبارية وفتحت شدقيها وخرج منها لسان مزروع بالأشواك وهاجمتني وهي تصدر فحيحاً مرعباً وقد تسمّرتُ في مكاني.. ثم هربت منها إلى الشارع.. شارع بيتي الباريسي تبدّل وتحوّل إلى زقاق ضيق موحل موحش وثمة كلاب شاردة تعوي وتطاردني.. أركض.. أرى جرذاً له حجم رجل يجلس على مقعد وهو يتأملني ويدخن لفافة بلامبالاة.. وسط ذلك الزقاق المرعب الذي تكاد تغطي سماءَه غيوم واطئة مظلمة وغابة من الأسلاك الكهربائية السوريالية الشعثاء كشعر جني، وحبال ممدودة من نافذة محطمة في شبح مبنى إسمنتي بشع إلى أخرى مقابلة نُشر عليها غسيل كئيب وتدلّت الثياب الخاوية كجثث موتى منشورة في ذلك الدرب المرعب وأعلام سوداء

متدلية بين جثة وأخرى وصور رجال ملتحين على طول أهوال «شارع الرعب» هذا. . .

لم تكن هذه المرة الأولى التي ترى فيها «شارع الرعب» في الحلم بتنويعات مختلفة لنغم هلع واحد، بل إنه تكرر مراراً منذ اليوم الذي قررت فيه السفر مع دانا إلى بيروت أو بالأحرى منذ اليوم الذي فكرت فيه جدياً بمرافقتها. ولكنها المرة الأولى التي ترى فيها الشارع بذلك الوضوح، ويُضاف إلى الحلم تلك النبتة الصبارية الأفعى المرعبة بلسانها السام في كل شوكة ولونه الأحمر الشبيه بورود الصبّار الشيطانية.

* * *

صوت إحدى المضيفات يلعلع طالباً من الركاب التزام النظام لأجل سلامتهم، والبقاء في مقاعدهم حتى التوقف النهائي للطائرة على أرض المطار وعدم فتح مقصورات الحقائب في الأعلى. لكنهم قفزوا من مقاعدهم لإنزال حقائبهم كما لو طلبت منهم ذلك لا العكس! التصقت ماري روز بمقعدها مذعورة حين فك الجميع أحزمتهم وقفزوا بل إنها أعادت ربط حزام المقعد بحركة عفوية، كأن رحلة الخطر بدأت للتو. هربت من كابوسها إلى حلمها، **حلم يقظة لطبيبة رصينة مثلي.**

طوال الطريق كانت تحلم بألف ليلة وليلة، ومناخاتها، وصحارى شاسعة نقية، وهي ترقص عارية القدمين، في تلك الصحارى وتتنفس وتحتفي بمكان خال من التلوث وأصوات المترو، ترقص للنجوم التي لا تُحصى على ألحان شرقية طالما سمعتها آتية ليلاً من المطعم اللبناني المجاور لبيتها الباريسي في «أفينو مارسو» العريق. إنه «الفانتازم» والحلم السري لها، يُتَوِّجُهُ قدوم فارس عربي وسيم على بساط الريح. القمر ساطع في الصحراء كتعويذة ضد العادي واليومي والمبتذل. قمر ساطع تخجل أمامه ثريات قصر فرساي. ترقص لأميرها العربي الوسيم الذي يشبه عمر الشريف في فيلم «لورانس العرب» فيتحول إلى حصان أبيض تمتطيه ويركض بها حتى الفجر في وديان من الفضة فجبال من الذهب بصخور من الماس الشفاف، حتى يبلغا القمة حيث الينابيع من الشمبانيا والعسل والخدر بالسعادة حتى إلغاء الزمان والمكان. . وهناك يهديها ثلاث هدايا هي ما جاءت إلى لبنان بحثاً عنها في إجازتها: خاتم علاء الدين الذي بوسعها أن تفركه ويطلع لها الجني راكعاً: شبيّك لبيّك عبدك بين يديك. والبساط السحري الذي تطير به بعيداً عن عيادتها حيث تقضي معظم أوقاتها المملة الكالحة ضجرة من مريضات معظمهن لسن حقاً بحاجة

إليها، ونصفهن أكثر عافية مما يتوهمن. أما الهدية الثالثة فهي المرآة السحرية التي تستطيع أن ترى فيها الحقيقة: الوجه الحقيقي للناس حولها لا أقنعتهم!

المفاجأة: أميرها الصحراوي الذي يصطحبها إلى قصره يتسلل ليلاً من سريرهما بعد رحيل إلى النشوة، وحين تلحق به تجده في مختبره لا في جناح حريمه كما توهمت ويقول لها إنه يريد اختراع دواء ضد التعاسة فتقسم على أن تبقى معه إلى الأبد لتشاركه في ذلك، فهذا الدواء حلمها منذ طفولتها.

* * *

تحلل الدكتورة ماري روز نفسها:

الفانتازم في روحي: الحب والجنس واللامألوف، ورغبتي المبطنة منذ صغري في إسباغ المعنى على حياتي بأن أكون مفيدة «للآخر» وأخفف معاناة الآخرين.
الكابوس: شارع الرعب أينما كان.

تعرف الدكتورة ماري روز أن الكابوس هو الكابوس والحلم «الفانتازم» ليس واقعاً، وكلاهما وهم، وأنه لا مفر لها من تقبيل العديد من الضفادع قبل أن يتحول أحدهم إلى الأمير الاستثنائي. . أمير قلبها. . . وتعرف أن عليها أن تفكر بشيء آخر وهي تخطو إلى مطار بيروت للمرة الأولى!

كانت دانا قد ضحكت منها حين لاحظت أنها ربطت حزام المقعد وأحكمته حولها بعد توقف الطائرة. . فقالت لها وهي تسير إلى جانبها: هل أنت خائفة؟

أجابت الدكتورة ماري روز ببيت من الشعر من روميو وجولييت:

إني خائفة من خوفك.

صمتت دانا. كانت خائفة قليلاً، كعادتها كلما زارت بيروت مع أمها! فكيف تلوم مدعوتها الغريبة التي لا تنطق بكلمة عربية واحدة غير: "النجدة"، هي التي علمتها إياها؟ تمشي الدكتورة ماري روز منفردة بعيداً عن دانا والجميع. . شاردة داخل أعماقها. .

ترى هل كابوسي من نمط الكابوس/ النبوءة؟ العلم تأكد من إمكانية حدوث ذلك دون أن ندري لماذا. حدث الأمر لأمي مرة إذ روت لي حلماً شاهدته ثم تحقق بعدها بأشهر. فهل سأجد نفسي في شارع الرعب هذا في بيروت؟

تحاول ماري روز طمأنة نفسها. **لماذا أندم لقبولي دعوة دانا لي لقضاء فترة ما قبل أعياد الميلاد ورأس السنة في بيروت؟ أريد الآن أن أرى آثار سوريا والأردن أيضاً، وفي بيت دانا أفضل قاعدة للانطلاق. كابوسي المرعب ليس مهماً، وإذا كان**

حلم أمي قد تحقق مرة فالأمر قد لا يكون وراثياً! ثم إنني شاهدت عن لبنان برنامجاً تلفزيونياً فرأيت بلداً كأنه مونتي كارلو مكبرة، أو شاطىء الريفييرا (الكوت دازور): نساء ممددات على الشواطىء ومتزلجات على الثلج وساهرات راقصات وقصور للرفاهية ومهرجانات وفرق غربية والحرب انتهت إلى غير رجعة، كما أكدت تلك المجلة الفرنسية التي عادت محررتها ثملة بلبنان. . فلِمَ لا أذهب بعدما زالت تماماً صورة لبنان الرهائن والمسلحين والحرب؟ وما دامت دانا ترضى بمرافقة أمها إلى لبنان إكراماً لها رغم لامبالاتها بالزيارة حتى الانزعاج من ذكريات طفولتها والحرب، فلم لا أذهب أنا؟ لبنان الذي شاهدته في كابوسي ذهب إلى غير رجعة، وبيروت الأزقة الفقيرة العدوانية الموحلة، المليئة بكلاب تعوي على الغرباء لم تعد موجودة إلا في كابوسي السخيف. لا. لم تعد موجودة!

تُراها حقاً لم تعد موجودة؟؟. . .

* * *

حين حطّت الطائرة في مطار بيروت، حدّق فواز من نافذتها في الظلام الذي تقطعه أضواء كشافة مسلطة على باحة المطار، وشعر أنه يهبط في معسكر اعتقال غامض. ولكن حين غادر الطائرة، غمرته رائحة بيروت اللامنسية التي عايشها أعواماً طويلة في طفولته، برطوبتها المالحة البحرية الحية. فوجىء بالدفء المائي الذي غمره كمن عاد فجأة ليغطس في رحم أمه، وأحسّ بالأمان يلفه. استرخى وهو يمشي مع الركاب بين جنبات المطار. فوجىء بالمبنى الجديد النظيف الرحب، وهو الذي كان يذكر المطار مكاناً موسخاً وصغيراً ومزدحماً ترتجف كهرباؤه الهزيلة تحت دوي قصف ما. .

حين حاول الاتصال بعمته هاتفياً لسؤالها عن اسم الفندق الذي حجزت له فيه غرفة، كما سبق وطلب منها هاتفياً من باريس، فوجىء بأن جهاز الهاتف الجديد الأنيق لا يعمل. وبينما هو يفتش عن هاتف آخر وآخر وكلها لا يعمل والهواتف بدت له ديكورات أنيقة عصرية، ظلت رائحة الرطوبة البحرية المالحة الحنون تثقب قلبه. قادته تلك الرائحة إلى لحظات عذبة في بيروت كان قد نسيها وحلت محلها صورة مظلمة لمدينة مرعبة. **أتذكر دراجتي الأولى وفرحتي بها. كنت أستقلها في ردهة الدار يوم سمعت هبوط أول قذيفة في حياتي. أتذكر مطعمي الأول «بوباي» حيث التهمت البيتزا الأولى والنكتة الأولى في حياتي التي قهقهت لها طويلاً هناك بصوت عال مما دعته أمي بـ«حساء الأصابع». وكانت تقصد جزراً في صحن يغمس الكل أصابعهم فيه لاستخراج قطعة. أضحكت الزبائن كلهم يومها على صوت**

قهقهاتي يشاركني فيها أبي وأمي. أتذكر طقوس تزيين البيت العتيق في عيد ميلادي، البيت الذي جئت الآن لبيعه. ورفاقي في العيد، دافيد وفؤاد وعلي وعفيف وأحمد ونبيل ورضا وأنيس.. كم تهامسنا عن "البنات" ونحن في العاشرة، وكن حاضرات كلهن "حلوات" الصف، ديما ونيكول وريما وتالا وغواندولين وسعاد وعفّت. وانفض العيد يومها لنوبة قصف مفاجئة.. ترى أين الجميع اليوم؟

* * *

حين غادرت دانا الطائرة شمّت رائحة مرآب.. رائحة البنزين الخانق المحترق الممتزج بالمازوت اخترقت أنفاسها. تمنت لو كانت في باريس حيث لا حديث لوسائل الإعلام إلا عن قياس درجة التلوث. **فليحضروا إلى هنا ليكتشفوا معنى كلمة تلوث!** لا أدري كيف يعيش الناس هنا دون أن يموتوا اختناقاً، أو بسرطان الرئة. كم تبدو لي حملاتهم ضد التدخين هزلية. كل شيء هنا يثير ضيقي. اللعنة.

لاحظت دانا ارتباك فواز وسألته بالفرنسية وهما يقفان في "الطابور" الطويل للقيام بإجراءات الدخول: هل حجزت لك عمتك في الفندق؟ وفي أي فندق لنقلّك إليه معنا؟

أجاب: «الهواتف» ديكورات. إنها لا تعمل.

قالت له: لم تر شيئاً بعد من الفوضى. ستحصي عدد الساعات والثواني مثلي حين يحين يوم العودة يا مسكين.. لا تخف ستصطحبك أمي إلى الفندق الفخم المطل على البحر.. إنها صديقة صاحبه وهي تقدم الخدمات الفندقية السياحية للتعريف بصداقاتها الوجيهة مجاناً. ولن نتركك وحيداً فلا تخف. سنصطحبك في المرسيدس "الصالون". لن تفوت أمي فرصة استعراضها أمامك! ابتسم فواز برصانة. لم يكن يحب سخريتها من أمها.

حين سأله موظف الأمن بالفرنسية عن غرضه من الزيارة وهو يقلب جواز سفره الفرنسي. قال له بالعربية: اشتقت إلى بلدي.

ابتسم الموظف قائلاً: أهلاً بك في بلدك. هزّه ذلك اللطف.

اللغة وطن..

كم نقمت على أبي وأمي لأنهما أصرا على أن أتابع دراسة العربية في باريس قراءة وكتابة، وعلى أن أتبناها كلغة أجنبية إلى جانب الإنكليزية في البكالوريا الفرنسية، وذلك بدلاً من الألمانية أو الإسبانية. كم أنا ممتن لهما الآن في هذه

الزيارة، على الأقل حين أتجول وحدي بين الناس وأضطر للتعامل معهم في مدينة لا أعرف شيئاً عنها اليوم سوى أنني لست مضطراً فيها للتكتم على أصلي دفعاً للمشاكل كما كانت حالي في باريس في سنتي الأولى بالذات في المدرسة، حين كنت أحمد المقادير التي جعلت والديّ يُسميانّي فواز، وهو اسم لا ينم بالفرنسية عن جنسية أو دين كي لا أصير هدفاً للأذى كصديقي عبد الله عازار الذي كانوا يسمونه ليزار بدلاً من عازار، وكان يصلي في الكنيسة كل يوم أحد كي تردّ السماء عنه أذى الذين يهتاجون لكلمة في اسمه.

التفت فواز خلفه ليرى كيف تتدبر ماري روز أمرها. شاهدها تلتصق بدانا بما يشبه الذعر. تابع دربه وقد اطمأن إلى أنها بحماية دانا المشاغبة!

موظف الأمن تأمل جمالها الفتّان على حافة البدانة المحببة إليه وختم جواز سفرها وهو يهمس بلا صوت: سبحان الخالق ما أجمل الأجنبيات. من يستطيع أن يرفض حضور حورية كهذه على أرض بلده؟ وتذكر بحسرة زوجته السمراء النحيلة كهيكل عظمي مناكد.

كان فواز قد سمع الكثير من أمه عن فوضى مطار بيروت، لكنه في وقفته بانتظار وصول حقيبته من الطائرة بين وجوه بدت له أليفة لاحظ رقي المكان وسيادة النظام.

من أين يأتي هذا الخوف في أعماقي؟ أشعر بعينين ترقبانني. لم يفارقني هذا الإحساس منذ اللحظة التي اشتريت فيها بطاقة الطائرة. كل ما حولي يثير الحس بالأمان والألفة فهل حملت معي خوفي من باريس؟ كان مجرد ذكر اسم مطار بيروت يثير هلعي مقترناً بالخطف والقتل والأذى في الدرب منه وإليه. لماذا؟ أذكر جيداً يوم كاد سائق التاكسي يختطف أمي قبل أن نهاجر، وذلك في رحلة من رحلاتها الغامضة للقاء أبي خارج لبنان لسبب أجهله، في قبرص أو في أثينا، وتصطحبني معها مرات لأراه. أذكر أنها نجت لأنها ادعت أنها زوجة أحد زعماء الميليشيات وكانت زوجته الحقيقية صديقة لأمي وتعرف موقع بيتها. خاف السائق من العاقبة وتخلص من أمي في الظلام. أنزلها في الطريق على مقربة من المطار دون أن يؤذيها واكتفى بسرقة حقيبتها. أذكر تلك القصة جيداً لأنني سمعتها وأنا أتلصص على ارتجاف أمي وهي تروي الحكاية لعمتي على الهاتف.

حين وصلت حقيبة فواز وحملها متجهاً صوب «الجمارك»، قرّر انتظار دانا وأمها قرب الباب، إذ عاوده الهلع كمن قذفوا به في سلة لعلها مليئة بالثعابين، هلع طفل وجد نفسه للتو على قارعة "أوتوستراد".

أجل. سأعترف بهلعي وأنتظر دانا ووالدتها بدلاً من لعب دور «الشاب

الحمش» والذهاب مع أول سائق تاكسي إلى فندق ما يختاره لي. في أعماقي لا أختلف ببعض مشاعري عن النساء المليئات بالقلق والحيرة وربما لذلك أحبهن كثيراً. فأنا أخاف أحياناً وأكره العنف الجسدي وحين توفي أبي بكيت كالنساء. ثم إنني لا أعرف أصلاً أسماء فنادق بيروت ولا أذكر حتى أين يقع بيت عمتي، ناهيك عن بيت أبي الذي جئت لبيعه والعودة بالدولارات لترتيب حياتي في وطني الجديد. كم يحز ذلك كله في نفسي. ها أنا عائد إلى وطني الأصلي ولا أعرف أين بيتي ولا بيت أقاربي ناهيك عن قبر جدي، أما أبي فرماد في دورق خزفي. الغرباء يُدفنون في قوارير زجاجية معقمة لا على التراب الذي ولدوا فوقه. ولا أعرف أما زال أصدقاء طفولتي أحياء أم أمواتاً. تجمع الحزن في حنجرته سحباً ماطرة وخاف أن تنهمر من عينه دمعة وسط ذلك الحشد قرب باب الخروج حين شاهد فجأة وجه عمته ناديا. . لم يكن قد شاهدها منذ خمسة أعوام. . . منذ جاءت وقضت إجازتها الأخيرة في بيتهم الباريسي وقررت أن باريس مملة ولا تطاق وعادت إلى بيروت ولم تكرر الإجازة، وظنها تشاجرت سراً مع أمه التي ترفض أن تعود إلى بيروت ولو في زيارة قصيرة، لكنهما ـ أمه وعمته ـ كقريبتين بورجوازيتين حفظتا سر الشجار وحافظتا على المظاهر.

فرح فواز برؤية عمته وسط ذلك العالم المجهول المصطخب، وبدت له راسخة في مكانها ومرتاحة داخل إطارها من زحام الناس والعناق والقبلات وصيحات الشوق المتطايرة كالعطر الفواح في الجو، وهياج الأطفال والوجوه المتراكضة المتراصة المشتاقة بعيون تقطر صدقاً أو مجاملة. . لاحظ أن هامة عمته قد انحنت قليلاً وأنفها بدا أكبر حجماً وسط وجه حرثه الزمن بتجاعيد حببتها إليه أكثر وحركت حنانه عليها وحنينه إليها.

كان عيداً حين تسمح لي أمي بالنوم عند عمتي ناديا أو حين تسافر وأبي ويتركانني في عهدتها أو يجبرنا القصف على مغادرة البيت وتذهب أمي مع أبي إلى شقة مفروشة، أو إلى بيت جدي، والدها، أو أقارب آخرين وفقاً لخارطة القصف والتهجير. كنت أحب أن أتذوق ذلك السائل الحامض الغريب الذي تنضحه أكياس تصفية اللبن إلى لبنة في مطبخها. أما سريرها الحريري العريض الذي لم يقترب أحد منه منذ ترملها وكانت خادمتها ترتبه وهي ترتدي قفازات بيض، فقد كان يحلو لي أن أقفز فوقه وأقفز، و"الرفاص" الحديدي الصدىء يئن من تحتي بصوت كان يلذ لي فأصيح معه وهي تتأملني بحب وأنا أقفز حبوراً بأقدام موسخة بتراب اللعب. . لم يعد يرى سواها في المطار المزدحم، واستحال وجهها مصباحاً مضيئاً وسط العتمة

وركض يعانقها بلهفة غريق يضم إليه طوق نجاة. وما كاد يفعل حتى لاحظ أنها لم تأت وحدها وأن الكثير من هذا الجمع الواقف منتظراً خلف الحاجز الحديدي جاء لاستقباله هو شخصياً، وكلهم من أسرة أبيه وأمه أيضاً.

لا أصدق أن أولئك الأقرباء كلهم تركوا برامجهم التلفزيونية المفضلة ودفء غرف الجلوس وربما سهرتهم في الملهى وجاؤوا إلى المطار لاستقبالي. وجوه ميّزها. وجوه نسيها. افتقد وجه جده الراحل. وجوه لأبناء وبنات الأخوال وأولاد عم أبيه وأولادهم وأصهرة و«كناين». صبايا وشيوخ وشبان وكهول، كلهم جاء إكراماً له، ليرحب به بلا مصالح ولا فواتير. أدهشته فرحته الكبيرة بهم. جاءت القبيلة كلها لترحب بواحد منها من وجهة نظر أفرادها. قبيلة لا تعرف مدى تنصله منها وإخفائه أمرها في وطنه الجديد. كلهم سخاء مجاني بالقلب والوقت. هزه ذلك حتى قاعه ولاحظ جيلاً جديداً من المراهقات والمراهقين كبروا خلال غيبته وشعر للمرة الأولى أنه بدأ يكبر.. لا يدري لماذا تذكر وقفته الذليلة حين وصل ووالديه إلى باريس أمام باب مركز البوليس (البرفكتور) في شارع موريللون في الدائرة الخامسة عشرة الباريسية تحت الثلج منذ الخامسة فجراً مع والده كي يقدرا على الوصول إلى ملكوت الموظفة للحصول على بطاقة تتيح لهما حق الإقامة في فرنسا، بطاقة الإقامة أو «البطاقة السحرية» كما كان يدعوها والده. في المرة الأولى ذهبا في الثامنة صباحاً وانتظرا في «الطابور» الطويل تحت الثلج على رصيف الشارع حتى أغلقت أبواب "البرفكتور" ظهراً ولم تتح لهما فرصة الدخول، بعدها ثابرا على الذهاب في الخامسة فجراً كل عام لتجديد «البطاقة السحرية».

شعر فجأة أنه ملكٌ في قبيلته، واستحال إفريقياً نصف عار يقرع طبله بسعادة تحت الشمس، والتماسيح الصغيرة ترقص حوله بحبور، وبقية نساء القبيلة ورجالها يشاركون في رقصة الفرح بالأنس والدفء والمحبة والاحتفاء بالحياة. قبّل يد المسنات كأي «جنتلمان» ونظرت عمته إليه ثم نظرت حولها فخورة به وهي التي لم تُرزق بأولاد وقالت له: أي فندق يا ابني؟ ستنزل عندي!

رمى بجسده في السيارة الجاكوار الفاخرة لأحد أبناء عم والده، وشعر أن بوسعه أخيراً أن يسترخي ويسند رأسه إلى قبيلة قوية جاءت إكراماً له، وشاهد في الضوء الشاحب حقيبته والأيدي تتناقلها لتستقر في صندوق السيارة. لم يألف أن يخدمه أحد هكذا من زمان. ما أجمل القبيلة!

* * *

في السيارة الفارهة لعنت دانا في سرها ما تدعوه بالعقلية اللبنانية لأمها. ها

هي تلتقي بغرباء، "ترفع الكلفة" بينها وبينهم وتقدم لهم الخدمات لتبهرهم. ها هم يتوزعون في المرسيدس "الصالون" حيث استراح كلٌ في مقعده. دانا في المقعد الأمامي إلى يمين السائق، وماري روز وعبد الكريم في المقاعد الوسيطة، وسليمى والدتها ووليد الموالدجي في المقعد الخلفي.

أما ماريا فقد رفضت مرافقتهم في السيارة وأصرت على الانفراد بتاكسي تذهب به إلى بيتها. لم تلح عليها سليمى فهي تعرف نزوعها نحو الاستقلالية المفرطة، وعنادها وإصرارها على ارتداء نظارتها السوداء حتى في الليل، وبقية مفردات فولكلورها المزاجي.. غبطتها دانا على لامبالاتها بالجميع، على العكس من أمها التي تتسول تواصلاً مع أي مخلوق، **وها هي الآن تصبّ اهتمامها على ذلك الشاب الوسيم بالرغم من أنها عادةً لا تحب الشعراء ولا المفلسين ولا المطرودين من أعمالهم، وتلك حال وليد كما اعترف لنا مقهقهاً بأنه كان يعمل مديراً تجارياً في مجلة عربية في باريس أغلقت أبوابها، ولكنه يدّعي أنه وجد عملاً وهو الآن في إجازة قبل استلام عمله الجديد. تراني «بنت صغيرة» مدللة (مفسودة) تأكلها الغيرة غاضبة من إهمال أمها اللامألوف وهي التي ترغمني عادةً على مرافقتها وها هي تنشغل بوليد عني؟ هل أنا غاضبة لصمت ماري روز التي تبدو منهكة؟ لِمَ أنا عدوانية هكذا؟ لماذا لا أقر بانجذابي الخفي إلى نجل رئيس وزراء قهرستان ربما لأنه يهملني ويبدو منشغلاً عني، وربما لأنه يبدو لي هشاً بوسامته وحيرته وارتباكه وأنوثته السرية الشبيهة بعذوبة فواز، ومناقضاً للصورة التي كانت في خاطري عن نجل الخوالقي رجل الأعمال الكبير؟ أنا على عكس الشائع عن النساء، أحب الرجل المرتبك الهش الحائر المتظاهر بالتماسك والقابل للانكسار من الداخل مثل فواز. لا، ليس مثل فواز. فواز قوي ومتزن وهادىء وضعفه سرابي ويحار المرء معه. هل لديه هشاشة داخلية ما حقاً، موازية لتماسكه الخارجي المدهش؟ على أية حال لا أذكر ما الذي جذبني إلى فواز كرجل، ربما منذ سنتنا التحضيرية الأولى للدخول إلى مدرسة H.E.C للدراسات العليا التجارية، ولكن صداقة أخوية قامت بيننا على مر الزمن وأفسدت إمكانية أية علاقة أخرى بيننا غير ذلك.**

استوقف السيارة حاجز. شعرت دانا بالضيق حتى الاختناق، والعسكري المسلح يدقق في جوازات السفر. **أي أحمق في العالم سيرضى باستثمار نقوده في بلد عسكري المناخ يستوقف الناس على حاجز ما لأية ذريعة؟ عشت عمراً في فرنسا ولم يستوقفني هناك حاجز في أي مكان. لماذا لا يريد أحد هنا أن يفهم أن بلاد الله واسعة، والثري لن يغامر باستثمار نقوده في مكان لا يوحي بالأمن والأمان ويعلن**

كل يوم أنه يريد تحرير فلسطين والعرب يضحكون عليه ويصفقون له في آن، ثم يعلن من على المنبر ذاته أنه بلد سياحي منفتح للاستثمارات؟ هل بوسع أي وطن أن يكون فيه مسلح غير الجيش ورجال الشرطة ويشعر المرء فيه بالأمان؟ هل بوسع أي وطن أن يكون ساحة حرب وباحة مهرجانات راقصة في آن؟ يا لحماقة الذين أرسلوني لدراسة إمكانية استثمار مالهم هنا. الإجابة مكتوبة في اللوحات المنصوبة على جانبي الشوارع، ولكل شارع زعيمه الخاص، ورجل دينه الآمر الناهي. الإجابة مكتوبة بالجزمات العسكرية لبلد صغير جائع يريد أن يرقص الدبكة ويقوم بعمليات حربية في آن، ومن يشكك في إمكانية ذلك خائن!

* * *

استرخى عبد الكريم في مقعده الوثير في السيارة المرسيدس الفخمة، وحين لاحظ نظرات دانا الملتفتة صوبه مصوبة عليه كضوئين كشافين أغمض عينيه.. أية روح تلبَّستني فادعيت من جديد أنني عبد الكريم الخوالقي نجل رئيس الوزراء مستغلاً تشابه الأسماء، وأنا الذي قررت الإقلاع عن تلك اللعبة الجهنمية لأكون ذاتي؟ أية مقادير تعابثني؟ أية قوى خفية تستولي على روحي وأية خيوط ربط إليها صوتي وجسدي تحركني؟ إنني أسمع صوتاً غير صوتي آتياً من أعماقي يستولي علي وعلى حنجرتي فأنطق بما لا أريد. أحس بخيوط رُبطتُ إليها مثل دمية. الآن، لا أريد شيئاً من هذا الكوكب المتوحش غير الاختلاء بنفسي في غرفة الفندق لأفكر بصفاء. لقد هجرت برناديت زوجتي الحبيبة لأفكر وأستعيد ذاتي، وأستقوي بوطني بعدما لاحظتُ أن قوتها تنبع من انغراسها في تربتها.. فلماذا تركتُ تلك الكذبة الجهنمية التي دفعتني إليها برناديت مرة شبه مازحة لكسب المال تستولي عليَّ من جديد؟ بالمقابل هل كانت سليمى ستصدقني لو قلت لها إنني ذاهب من مهجري الفرنسي إلى وطني الأصلي على أمل أن أستعيد ذاتي وتوازني؟ سأقضي هذه الليلة تحت أي اسم، في أي فندق تقتادني إليه تلك العجوز المتصابية سليمى، وأهرب غداً في الصباح الباكر لعجزي بالتأكيد عن تسديد الفاتورة وأذهب إلى حيث لا أحد يعرفني لأعيد التعارف مع حقيقتي الداخلية التي طمسها غرامي ببرناديت وباريس والسحر الخفي لبذخها، وأحاول ترميم الجسور مع شقيقاتي وأبي "الآدمي" موظف البلدية الصغير المتقاعد، دون أن أقول له إنّ ابنه صار لفترة محتالاً لغرامه ببرناديت ورغبته في غمرها بالمال. ما الذي أصابني منذ اليوم الذي فرحت فيه لحصولي على عمل في فندق نصف عربي في باريس بعد بطالة مريرة في بيروت؟ وكيف تحولت بعدها بأعوام إلى «ربة منزل» وتحولت زوجتي الفرنسية الجميلة إلى «رب البيت»؟

وكيف غضبت عليَّ أمي لزواجي من فرنسية وقاطعتني شقيقاتي ووالدي وحمّلوني مسؤولية وفاتها بسكتة قلبية مفاجئة ليلة عرسي بالذات؟

سألته سليمى: هل تحب تناول العشاء عندنا قبل أن نوصلك إلى الفندق؟

أجاب بشيء من الجلافة: لا. إني متعب. أشكرك.

قال عبارة "أشكرك" الأخيرة كمن يصفع شخصاً على وجهه بباقة ورد!

* * *

حمدت سليمى لعبد الكريم تعبه وإعراضه عن الحوار وكانت قد خاطبته تهذيباً، فبعدما احتفت به قبل وصول وليد انشغلت عنه بهذا القادم الجديد. . **لقد غرقت ابنتي دانا في صمت لااجتماعي وماري روز في نوم يليق ببدانتها، وصار بوسعي أن أتفرغ لأميري الجميل. نعم، أعني وليد الذي ربما تقمّصه نعيم، بعينين تثيران شهيتي إلى ركوب البحار واهتزاز السفن وشهوات النجوم وجنون الريح، وكنت أظنني مت، وإذا بي قرصانة شهوات تتعايش مع حبها القديم نعيم من جديد بعدما تعلمت كيف تحافظ عليه.** أدهشها أن وليد الشاب الوسيم اصطفاها، ويغمرها بدفء عينيه ووعود جسده وأنها ما زالت حية ومرغوبة. وحين ناولته كأس الكريستال من بار السيارة وفي قعره جرعات كبيرة من ماء النار، لثم أصابعها قبل شربه دفعة واحدة.

* * *

ارتمى ناجي في التاكسي منهكاً بعد رحلة عسيرة من باريس إلى بيروت. **يا له من يوم منهك بائس. . في البداية طلبوا مني الانتظار جانباً في مكتب شركة الطيران في مطار باريس ريثما يتم البحث عن اسمي في الكومبيوتر. أكدتُ للموظفة أنني حجزت مقعداً لصق النافذة بالذات. قالت: لا أجد اسمك. انتظرت طويلاً ثم فهمت أن اختفاء اسمي معناه أنها تريد إعطاء مقعدي لبعض معارفها أو لمن هم أكثر أهمية وما أكثرهم. . بعد طول انتظار في ملكوتها، ثم في كافيتيريا المطار بسبب ضباب باريس وجرذان بيروت. وبعد جلسة كريهة مع عجوز متصابية وصعلوك يدّعي أنه نجل لرئيس وزراء وأنني صاحب فندق وشابة بأنف كبير وكاتبة سمجة وطبيبة فرنسية جميلة لولا تحديقي فيها طوال الوقت لقتلني الغم أقلعت الطائرة، ووجدت نفسي جالساً لصق مدخل مرحاض الطائرة. وبعد ساعتين من الطيران، أضحت الرائحة لا تطاق. تلك هي حياة المفلسين والذين لا سند لهم ويبدأ الأمر منذ لحظة ركوب طائرة العودة إلى لبنان. تدب الفوضى ويبدأ فرز أهل الوساطة عن "الدراويش" أمثالي الذين بلا "ظهر" ويُرمى بهم من الطائرة في حال «الأوفربوكينغ»**

وزيادة عدد الركاب عن عدد المقاعد.

سأله السائق: لم تقل لي، إلى أين تريد الذهاب؟

أجابه باقتضاب منهكاً: إلى «الروشة».

صار يفرك ركبتيه و«كرامب» أليم يفتك بفخذه.

كيف لا أصاب بالتقلص العضلي وأنا طويل القامة وكنت طوال ساعات محشوراً في ذلك الحيز الضيق الذي لا يتسع إلا للأقزام في الطائرات الحديثة؟ يا للرحلة البائسة.. لم يبق ولد لم يتقيأ أمام مدخل المرحاض، ولم يبق طفل لم تفح رائحة "حفاضاته" وأمه تبدل له وتمسح الأقذار دون أن تكلف نفسها عناء إغلاق باب «دورة المياه»، وأنا أبتلع طعامي البلاستيكي مشمئزاً وأحسد ركاب الدرجة الأولى التي يسافر سليم في مقاعدها بالتأكيد. سليم، زميلي في المدرسة وصديق الطفولة في القرية صار ثرياً وصاحب مطاعم وأنا ما زلت أحلم باكتشاف مغارة علي بابا في باريس وأتحمل سخرية والديّ وإخوتي كلما عدت لزيارة القرية وتقبيل يدي حبيبتي الوحيدة أمي. منذ زيارتي الأخيرة إلى لبنان وأنا أحن إلى أمي وقريتي وأتحاشى العودة لأنني ما زلت شبه فقير وسأكون من جديد موضع سخرية الأهل لذا أكتفي بالرسائل الأسبوعية والهدايا إلى أمي بالذات.

فلدى والدي وإخوتي فكرة عجيبة عن الاغتراب وهي أن كل مغترب يجب أن يعود مليونيراً وإلا فهو إنسان فاشل. لا يخطر ببالهم أن بوسع المرء أن يكدح في باريس ويعيش حياة متوسطة لائقة: يتعالج وأسرته مجاناً ويتعلم أولاده مجاناً تقريباً أيضاً ويستمتع بمباهج الحدائق العامة والرحلات السياحية الرخيصة وينعم بالحرية والكرامة وأمان القناعة. وإذا طُرد من عمله يظلّ يتقاضى راتباً من الدولة ريثما يجد عملاً، وإذا سرق فالقانون مسلط فوق رأسه. لقد حملت الجنسية الفرنسية لكنني لم أنجح في أن أصير فرنسياً في أمور عديدة، أهمها نظرتي إلى الأسرة.

ما تزال لدي قناعاتي الشرقية عن مهنة الزوجة كربة منزل فقط، وارتباط الأولاد بأهلهم وأسرهم مهما تقدموا في السن كارتباطي الوثيق بأمي وبقية أفراد أسرتي مهما سخروا مني.. ولا أطيق أن تسهر ابنتي الشابة ـ لو كانت لي ابنة ـ مع صاحبها وتعاشره وتساكنه دونما زواج. فشلت في التكيف مع المجتمع الفرنسي فاتخذت قراراً بعدم تأسيس أسرة هناك، وتعاطفت كثيراً مع زميلي النادل الجزائري المتزوج من فرنسية الذي فقد أعصابه وقتل ابنتهما حين اكتشف أنها حامل بدون زواج وتريد الحياة "بالحرام" مع صاحبها على سنّة الدولة وقوانينها فيما يُدعى «المساكنة» (كونكوبيناج). وقررت العودة إلى الوطن ربما في اليوم ذاته الذي حصلت فيه على

الجنسية الفرنسية، ثم تهاونت حين تذكرت ما ينتظرني من سخرية. وحدها أمي تأخذني إلى قلبها في إجازاتي إلى قريتي وأسرتي، أما والدي وإخوتي فيتندرون بإفلاسي وآدميتي وعودتي صفر اليدين. وصار موعد زياراتي إلى الوطن يتباعد. وبعدما كنت أعود كل سنة صرت أعود كل سنتين أو أكثر. وكنت أكذب عليهم درءاً للسخرية مدّعياً أنني على وشك اكتشاف مغارة علي بابا المسحورة في باريس بكل كنوزها، وسأعود بالتأكيد في إجازة تالية ثرياً ليباهوا بي. وكنت في حقيقة الأمر معذباً أتمنى تأسيس مطعمي الخاص ولكن كيف دونما رأسمال؟ وأنا بعد أعوام من العمل الشاق لم أقتصد فرنكاً من راتبي الهزيل، فتُراني أنجح في إقناع سليم بتمويل مشروع المطعم، ونتقاسم الربح الحلال، بصفتي شريكاً مضارباً، المال منه والعمل والخبرة مني؟ ثمة لحظات أتمنى فيها إعلان فشلي كمغترب والعودة إلى حضن أمي وقريتي لكنني لا أجرؤ. فالمأساة أن والدي يقدمني إلى أهل القرية على أنني ثري ولا يقول إنني "غرسون" في مطعم «أفراح بيروت» بل يدّعي أنني صاحب المطعم خجلاً من فشلي!

ضاق السائق ذرعاً بصمته فقال وقد أيقظه من خواطره الأليمة التي غرق فيها وأعاده من البئر إياها سائلاً: الأخ مغترب؟

أجاب بصدق: مغترب مفلس من باريس وأريد الذهاب إلى أي فندق معقول الأسعار لقضاء ليلة في الروشة أو أية منطقة أخرى... وغداً صباحاً أعود إلى قريتي لقضاء إجازتي مع أمي.. وأضاف بعد تردد: وبقية الأهل.

قال له السائق: سأصطحبك إلى فندق صغير في «الحمرا» يعمل فيه شقيقي شادي. "سيراعيك" في سعر الغرفة إكراماً لصراحتك. إنهم يعودون من الخارج ويتكبرون علينا مباهين بنجاحهم وثرائهم وبعضهم يعيش هناك كالكلاب الشاردة. أنت أول زبون يقول عن نفسه إنه مغترب مفلس.

ـ معظمنا مفلس وحياتك. نكدح ليل نهار. لو بذلنا نصف الجهد هنا ونصف التعب لتحسنت معيشتنا وبلدنا..

ـ ما مهنتك؟

ـ نادل في مطعم.

شعر بالراحة وهو يقول الصدق لشخص لا يعرفه، كأنه يودّع ناجي القديم على أعتاب المغامرة التي يأمل وزميله القديم سليم في القيام بها. **يا لذلك اللقاء المفاجىء مع سليم الذي زلزل حياتي وأعاد فيّ حلم اكتشاف مغارة علي بابا.. وكسب المال وبالتالي اكتساب احترام أسرتي وقريتي. ذهل زميلي في المدرسة سليم**

حين لاحظ أن النادل الذي يقوده إلى طاولته في المطعم الباريسي هو ابن قريته ورفيق طفولته، أنا ناجي. شاهدني أعمل نادلاً، وهو الزبون الثري المرفه الذي يرافقه سائق وحارس شخصي جلسا على مائدة أخرى وسيدة حسناء مرفهة قدمها لي على أنها زوجته.

كانت تبدو عليه علامات الثراء. ثم إن من ليس ثرياً لا يجرؤ على الدخول إلى مطعمنا حيث الأسعار نار. الساعة الذهبية المدروزة بالماس. زوجته المصنوعة من الذهب والعاج والفيروز. . الثياب الحريرية. رائحة العطر والرفاهية. الخاتم الماسي الكبير الوهاج في أصبعه، وتلك القلادة في عنقها المثقلة بماسة في حجم فستقة يحيط بها قوس قزح من جواهر بألوان مشعة.

سألتُه: هل أنت مغترب أيضاً؟

أجاب: لا. أنا في إجازة. أعمالي ازدهرت في لبنان منذ بدايات الحرب والحمد لله.

سألني: هل حصلت على الجنسية الفرنسية على الأقل؟

أجبته: أجل، وأتقنت اللغة أيضاً.

بدا على وجهه الاهتمام وقال ببطء كمن يفكر: إذن أنت رسمياً فرنسي وتتقن اللغة. هذا مناسب للعمل، اتصل بي إذا عدت إلى لبنان في زيارة فقد تعمل معي. أملك هناك عدة شركات ومعامل ومطعمين، وقد تنجح وتصير ثرياً. وكدت أسأله: ما رأيك بمشروع مطعم في باريس أنت تموّله وأنا الشريك المضارب. وقررت أن الوقت غير مناسب حين تخلص منّي وهو يناولني بطاقته كي أتصل به حين أزور بيروت.

كنادل، أعرف متى أسكت، ومتى يريد الزبون أن أسترسل. فسكتُّ. ولا أدري لماذا خُيّل إلي أن نابيه طويلان أكثر من المألوف، كمصاصي الدماء في قصص الرعب وفي السينما. . وقلت لنفسي إنني لكثرة حسدي له أفتش له عن عيوب!

من جديد يستعيده السائق إلى داخل التاكسي ويسأله: لو لم تبدأ حديثك بأنك مفلس لعرضت عليك شراء بعض السجاد.

ـ ألا تعمل سائقاً فقط؟

ـ من يستطيع أن يعمل سائقاً فقط ويعيش؟ الغلاء نار ولا أحد يستطيع القيام بمهنة واحدة في بيروت ويطعم أولاده ويعلمهم ويعالجهم. أنا أعمل بائعاً للسجاد، وأضاف مستدركاً «غير المسروق»، ومنجّماً يفتح البخت للزبونات اللواتي لديهن

ضعف نحو ذلك وكاتب حجابات ومبدل قوارير الغاز المنزلي وطباخاً وغرسوناً لإعالة زوجتين والأولاد. سترى كم الحالة «عاطلة» مالياً هنا، وكلنا مفلس والدولة على وشك الإفلاس.

لم يجب ناجي. **ترى كيف يريد سليم أن يجعل مني ثرياً وحالة البلد الاقتصادية «عاطلة» إلى هذا المدى؟ بل كيف صار هو ثرياً؟**

حدق ناجي من نافذة التاكسي ولم يعرف أين هو. لاحظ كم تبدلت المرئيات والسيارة تركض به بين أتوسترادات وأنفاق وجسور لم تكن هناك في زيارته الأخيرة للبنان. **أم تراني لم أرها لكثرة قلقي من سخرية أبي وإخوتي حين أعود ويجدونني ما زلت «آدمياً» وفقيراً «مستور الحال»؟**

أنزله السائق أمام باب فندق في أحد الأزقة نصف المعتمة المتفرعة عن شارع الحمرا، تبدو على مدخله رقة الحال واعتذر منه ومضى سريعاً إذ ناداه زبون آخر وكاد يرمي بحقيبة ناجي رمياً على الرصيف ونسي وعده بتوصية شقيقه شادي به!

حين شاهد شادي الواقف خلف طاولة موسخة جواز السفر الفرنسي لناجي تهلل وجهه وسأله: الأخ مغترب في فرنسا؟

أجاب بمرارة: أجل. وشقيقك الذي أوصلني بالتاكسي يوصيك بي لتراعيني بـ «أجرة الغرفة».

ـ شقيقي؟ أي شقيق؟ لا شقيق لي. هذا عبود الكذّاب، وقد استدان مني مبلغاً ولم يعده لي، والمشكلة أنني كنت قد استدنت المبلغ من شخص آخر استدانه من البنك!

ملأ بطاقة ببعض المعلومات. وما كاد يفعل حتى انقطعت الكهرباء، لكنه أشعل مصباحاً ساطعاً كان بالانتظار على الطاولة وقفز جرذ راكضاً على طول الجدار لكن شادي أضاف كأن شيئاً مألوفاً حدث: كم أحسدك لأنك تحمل الجنسية الفرنسية. **أخيراً وجدت من يحسدني!**. وتابع شادي: اسمك ناجي. وهو اسم على مسمى لأنك نجوت من هذا البلد المنحوس.

ـ لم أعد مرة إلى لبنان لقضاء إجازتي إلا ووجدت الكل يتذمر. في المدرسة علموني أن الناس تحسد من له مرقد عنزة في لبنان.

قال شادي: هل تعرف أن مجرد الحصول على تأشيرة للهجرة إلى فرنسا أو إلى أي مكان آخر هو سبب للابتهاج وتقبّل التهاني، والحمقى ـ والعفو منك ـ الذين يعودون إلى لبنان هم محل سخرية وشفقة لفشلهم أو لعوداتهم الرومانسية التي

يندمون غالباً عليها. . بصراحة، أحلم بتأشيرة هجرة إلى فرنسا.

ـ لا يوجد شيء اسمه تأشيرة هجرة إلى فرنسا. عليك الحصول أولاً على إجازة عمل بناء على طلب شركة مرخصة أو محلية فرنسية تريد استخدامك، لعدم وجود فرنسي يستطيع القيام بعملك، كأن تكون صحافياً في مجلة عربية تصدر هناك أو مذيعاً في إذاعة عربية تبث من باريس أو طباخاً في مطعم عربي أو نادلاً أو مترجماً أو أستاذاً جامعياً، أو راقصة هز بطن عربية أو أي شيء من هذا القبيل.

ـ أعرف عشرات الشبان المستعدين لإنفاق «ما فوقهم وما تحتهم» للرحيل عن جهنمنا هذه. أي مبلغ مقابل أية تأشيرة. .

قال ناجي منهكاً ضجراً يريد النوم وقد حبكت معه السخرية: حتى إلى يوتوليا؟

(لا يدري كيف اخترع الاسم. كان في حقيقة الأمر يريد أن يقول إلى يوتوبيا، الكلمة التي تعلمها من شاعر مفلس ساكنه في باريس لكنه أخطأ اللفظ). .

أجاب شادي بحماس: أجل. حتى إلى يوتوليا. ثم استدرك: يوتوليا؟ أين تقع هذه اليوتوليا؟

قرر ناجي أن أقداره سخرت منه طوال النهار ونصف الليل وجاء دوره فقال: ألم تسمع بيوتوليا؟ ولو. . .

قال شادي شبه معتذر: ليس بوسع أحد أن يسمع بكل دول العالم. هل تصدق أنني التقيت مرة في رحلة سياحية إلى قبرص بمن لم تسمع بلبنان؟ وبعدما شرحت لها طويلاً وأشرت لها على الشاطىء الآخر سألتني: قرب إسرائيل؟

قال ناجي وهو يتثاءب: إذن يمكنك أن تصدقني إذا قلت لك إنّ يوتوليا تقع بين كندا وأميركا، وميزتها أن بوسعك التنقل بين البلدين بدون تأشيرة، ولغتها الرسمية الفرنسية والإنكليزية معاً، وهي تشجع الهجرة إليها.

قال شادي: ليتني أستطيع الحصول على تأشيرة إلى يوتوليا ولو مقابل خمسة آلاف دولار لأغادر هذا الجحيم.

قال ناجي بلا صوت: لماذا لا أعمل قنصلاً ليوتوليا وأجمع بعض المال؟ هذه فرصة ذهبية لربح خمسة آلاف دولار الليلة!

قال ناجي بصوت مرتفع: أنا متعب فهل تستطيع إرشادي إلى غرفتي؟ رن الهاتف، وقفز ثلاثة جرذان مرة واحدة ولم يأبه لها شادي كمن تعايش معها. وقال لناجي بعدما رد على الهاتف: هذا عبودي الكذّاب يسأل هل تريد أن يحضر غداً في

التاسعة صباحاً ليقلّك إلى قريتك؟

أجاب ناجي: فليأت ظهراً. أريد شراء بعض الهدايا لأسرتي أولاً.

عبر النافذة الموسخة في غرفته تأمل ناجي قبل أن ينام الزقاق الضيق الذي يقود إلى شارع الحمرا، وبدت له المرئيات كلها بائسة وشبه مرعبة يسيل الغم من كهربائها البخيلة التي عادت لتشع للتو بالظلمة والغبار والعفن، ودراجة نارية تزعق بنزق في الليل الميت كطائر معدني ينفث نار اللعنات. ومن نافذة مبنى مقابل متآكل لعله آخر معاقل المهجرين، سمع نواح طفل بصوت مرتفع كأن حنجرته مزودة بمكبر للصوت وثمة جرذ كبير يقفز على الرصيف ويتخطر حيث كانت الحسناوات ذات يوم يتبخترن مثيرات في قلبه المراهق الآتي من القرية أحر التنهّدات.

* * *

حين وصلت ماريا إلى بيتها ليلاً كان الباب الخارجي للمبنى مقفلاً. وجدت صعوبة في فتحه إذ نسيت أي مفاتيح للباب الخارجي الحديدي وأيها للباب الخشبي لبيتها، ناهيك عن باب حديدي بقضبان يسبق الخشبي كانت قد زودت به بابها وصفَّحت بيتها أيام الحرب.

جلست فوق حقيبتها أمام الباب الخارجي للمبنى حائرة، هل ترن جرس «الأنترفون» للجيران أم تتابع محاولاتها؟ من الواضح أن حارس المبنى (الناطور) نائم وهي لا تريد إزعاج الجيران. **إنها غلطتي التي أكررها دائماً. لا أحب إخبار أحد بموعد عودتي وأواجه بالتالي مشاكل غير متوقعة. لعلهم بدلوا قفل المبنى.**

غمرها ضوء سيارة وصلت إلى المبنى. انفتح بابها وهبطت منها سيدة ميزت فيها إحدى جاراتها. عانقتها الجارة نهاد ورحبت بها وساعدتها على حمل حقيبتها وفتح بابها وألحت عليها بمرافقتها إلى العشاء عندها والنوم عندها، «والصباح رباح». اعتذرت ماريا لكن نهاد ألحت وذكرتها ببرادها الفارغ والسرير غير المعد والبيت الموسخ بالغبار، فالسيدة التي كانت تقطنه توفيت قبل أكثر من شهر، وأكدت نهاد أنها ستعيرها خادمتها في اليوم التالي لتنظف لها البيت ريثما ترتب ماريا أمورها. ووافقت ماريا دونما تردد فهي «موسوسة» حين يتعلق الأمر بالنظافة. **أعيش منذ عقود في ذلك المبنى الباريسي وأتبادل التحيات في المصعد مع الجارات وأجهل أسماءهن حتى اليوم. يا لدفء القلب في بيروت! كيف عشت طويلاً هكذا، بعيداً عما ألفته؟ أم أنني ألفت ما أنا فيه وصرت أعشق عزلتي هناك بكل مزاياها قبل مساوئها؟**

قالت ماريا للجارة أنها ستبدل ثيابها وتلحق بها. وكانت في حقيقة الأمر تريد

أن تتفقد مكتبتها ولوحاتها. خافت أن تكون الجرذان قد قرضت كتبها: **كمن يقرض قلبي!**

وقبل أن تحاول فتح باب بيتها، انقطع التيار الكهربائي، فرافقت الجارة.

* * *

أمام الجارة، تظاهرت ماريا بالنعاس والإرهاق لتظفر بالانفراد بصوت قلبها. كانت مرهقة ولكنها متوترة كأنها استيقظت للتو. أوت إلى السرير في بيت الجارة متذرعة بتعبها وتمددت فيه مرهفة السمع بانتظار نوم الجميع لتدخن لفافة ما قبل النوم وحيدة على الشرفة مع دنياها وأشباحها الخاصة التي ألفتها على طول عشرتها مع لا أحد. **سأدخن ذاتي رئة بعد أخرى وأنا أكتب بالصمت الأبيض على جدران جنوني.** حين ماتت الأصوات ونام الجميع تسللت إلى الشرفة، وأشعلت سيجارتها وبحثت عبثاً عن شاطىء البحر الشاسع الذي كان من زمان يرقد في القاع عارياً تحت ضوء القمر. ضوء القمر كان هناك لكنها شاهدت هذه المرة العديد من المباني الجديدة وأدركت بحزن: **لم يعد بيتي وبيت جارتي وهذا المبنى كله على شاطىء البحر فقد نبتت المباني الإسمنتية كالفطر بيننا وبينه. بوسعي فقط أن أراه على عرض الشارع المزروع بالمباني المؤدي إلى الشاطىء كنفق إسمنتي يقود إليه، وبالأحرى إلى ذكراه يوم كنت أراه من زمان تحت شرفتي نائماً بوداعة أو هائجاً. فالبحر تم ردمه بمشروع لنادٍ لليخوت كما أنذرتني الجارة، متحسرة. فوداعاً يا موج البحر في شرفتي ووداعاً أيتها النخلة على خط أفق الشاطىء ويا أضواء مراكب ليالي الصيادين! ولماذا التحسّر ما دمت لا أعيش هنا؟؟ يا لي من متناقضة!** تذكرت ماريا صلتها الحميمة بالبحر. ركبت مرات في قوارب الصيادين وذهبت معهم في رحيلهم خلف اللقمة المتجسدة في قتل السمكة، للتعارف مع حيوات الناس في قاع المدينة التي اصطفتها وطناً. **منير بطل روايتي الأولى كان يحن على السمكة التي يصطادها ويعتذر منها لاضطراره إلى ذلك ليعيش. كم كان بريئاً.**

ترى أما تزال مراكب الصيادين ـ ومنير من بينهم ـ تضيء كعيون الظلام وتمخر الليل والمذابح والأحزان لتصطاد لقمتها ولتطارد الفانوس السحري للرزق؟ وتلك الأزهار الربيعية الصفر التي كانت تنبت بجنون على المساحة بين صخرة الروشة والرملة البيضاء، أما تزال تزور بيروت؟ أما تزال هناك؟ أما زال الصياد منير إياه يثرثر مع الصبار والنخيل والأصداف والأسماك والغروب وضوء القمر ويكتب القصائد والعرائض دفاعاً عن رفاقه الصيادين الكادحين الفقراء المهملين؟

لم تكد تتذكر منير بطل روايتها الأولى حتى هبّت ريح صقيعية باردة مسمومة

مفاجئة محملة بسيالات عدوانية كما خيل إليها، وقلب ماريا يتقن التقاط هذا النمط من الكهارب. لا. إني واهمة. لم يحدث شيء لمجرد أنني أستحضر ذكرى منير. ثم هل كان حقيقة أم وهماً منير الذي كتبت عنه؟ لم أعد أدري حقاً. أعني هل كان رجلاً حقيقياً أم مجرد بطل قصة من اختراعي أنا على مشارف حروب بيروت؟ بعد ذلك الزمان كله لم أعد أميز بين الحقيقة والخيال وبين أبطال قصصي والبشر الذين أتعامل معهم في اليقظة وبين الخيال واليقظة. ولعلي أنا الوهمية ولستُ أكثر من بطلة قصة يكتبها الصياد منير كهواية.. بلى. كان ثمة صياد صغير نحيل يساعد والده في الصيد. ويدرس. ذكي يكتب الشعر تعارفت معه وقتئذ واستوحيت منه بطلي منير. هل حدث ذلك حقاً؟ هل اخترعته أم تعارفت معه؟ ولماذا أستحضره الآن من دون جميع أبطال رواياتي الأخرى؟ ألأنه كان حاضراً فيها بأسماء أخرى، فهو أيضاً حازم وخليل وكل نظيف يستعصي على الفساد؟

استرجعت أحداث يومها الطويل من باريس إلى بيروت. الجلسة المسلية في الكافيتيريا وعجائز الحبور الثلاث. الصبيتان في دورة المياه تتبادلان القبلات. وأنا وقبلاتي المحمومة على رصيف المترو نكاية بالمسنين الذين بلغوا الثلاثين من العمر! كم تبدو قبلاتي على رصيف مترو محطة البيكاديللي اللندنية مع الشاب الذي التقيته للمرة الأولى كما قبلات الفتاتين المشتعلتين وجداً جديدة ومتعاصرة كما لو حدثت في زمن واحد، أم تراها مستقبلية؟ هل ستزداد حرب الأجيال اشتعالاً؟ ثم الطائرة. هل كانت مصادفة أن أجلستني المضيفة قرب باب النجاة في الطائرة المتجهة إلى بيروت أم تراها عرافة دسّها القدر عليّ وكانت تدري أن لا نجاة لي من ذلك الحبيب المزمن صعب المراس: لبنان؟

في الطائرة، ناولني المضيف صحيفة لبنانية طالعتها وأنا أشعر أنني قرأتها من قبل. بل إنني قضيت عقداً ونصف وأنا أطالعها باستمرار كل يوم كما في الكوابيس الجهنمية المتكررة وما من جديد. آه متى أستيقظ من هذا الكابوس المروع وأطالع نبأ جديداً حقاً بمعاني الكلمة كلها؟

جاري الملتحي في مقعد الطائرة يقرأ لائحة الطعام التي تؤكد خلوه من لحم الخنزير، لكنه لتوكيد عفته لمن حوله، أو للإعلان عن ملته وانتمائه، نادى المضيفة واستفسر منها عن ذلك ليطمئن قلبه كما ادّعى. وحين سمع كل من حوله أنباء عفته وحُسن أخلاقياته ببعض المقاييس شاهدته يستل من جيبه خلسة زجاجة صغيرة من الويسكي دلق سراً محتوياتها في كوب «الكوكاكولا» الذي طلبه، وتظاهرت بأنني لم أشاهده خوفاً من انتقامه، وهو من أسياد الرياء والازدواجية. إلى جانب «السيد

الازدواجية» جلس «السيد القبضاي» منفوشاً في المقعد الضيق كديك، متورماً جائعاً إلى شجار يؤكد عبره حضوره المصيري المهم على وجه كوكبنا. أما سبب الشجار فغير مهم والذرائع كلها مقبولة. الضيافة في الطائرة متقشفة حتى بالابتسامة كما هي حال لبنان اليوم، والتدخين مزدهر في مقاعد اللامدخنين، والحابل مختلط بالنابل، وأغطية المقاعد البيض المكوية عند الرأس انقرضت وخلفت موضعها لمحارم ورقية تتساقط على الأرض كالأسنان المقتلعة. جدار الطائرة العتيقة يرتجف تحت ضغط الأنواء والزمن، وكل ما في الطائرة صورة مصغرة عن لبنان بما في ذلك تلك المرأة زوجة حديث النعمة التي تأتي من مقاعد الدرجة الأولى ليراها الناس في الدرجة الثانية وتتلذذ بجسدهم لها متظاهرة بتفقد خادمتها الفليبينية الجالسة خلفي، كمن تلفها حول عنقها كالفراء ولا تكف لحظة عن إصدار الأوامر المفتعلة إليها. لحظتها خيل إليَّ أن الطائرة أبرد من المعتاد ومما كانت عليه قبل الحرب وغمرني البرد الصقيعي، أم أنني أنا التي ترى الأشياء بعين الوهم ولا شيء تبدل حتى ولا درجة حرارة الطائرة، أم أن البرد كان يتدفق من قاعي خوفاً من ملامستي الأولى لمباشرة لبيروت بعد زمن طويل؟ هل بدت رقة الحال على ثياب الركاب والذبول في عيون الجميلات أم أنها عين الوهم ولا شيء تبدل حقاً؟ أهذه بيروت أم دمعة متحجرة جفنها البيوت، وصرخة مذبوحة الحنجرة تقمصت أجساداً تهرول بين الحواجز اللامرئية والمرئية وبينها حاجز دمّر حياتي؟

«سكابا يا دموع العين سكابا» أتذكرك يا فادي ولا شفاء لي منك..

من جديد تهب الريح البحرية المالحة المحملة بالذكريات فتثقب شغاف قلبي حاملة رائحة أزمان دافئة منقرضة. آه تلك التي استقبلتني في مطار بيروت ليست رياحاً. التي تهب الآن ليست رياحاً، بل أنفاس أحباب الماضي وأشباح بشر ما زالوا يتابعون حياتهم في دهاليز روحي. «ولكن دعي عينيك تدمعا» يا ماريا. إبكي، إبكي، كي تقدري على النوم! أزاحت ماريا نظارتها السوداء لتمسح دمعة ثم أعادتها ولم تخلعها إلا بعد أن تمددت في السرير وأطفأت النور!

* * *

حين أغلق عبد الكريم الخوالقي أخيراً باب جناحه في «فندق الأمراء» دون أن يدفع دولاراً واحداً لصبي المصعد وحامل الحقائب الذي رافقه إليها، وتلفت حوله وحيداً، شعر بما يشبه الدهشة. فقد كان من المفترض أن يذهب إلى فندق بسيط لقضاء ليلته أو يقرع باب والده طالباً العفو، أو يذهب للنوم عند رفيقه عدنان. وها هو وقد قذفت به رياحه إلى فندق فخم مثل بطاقة مترو تطير في الريح ولا حول لها

ولا قوة مع أقدارها. تنامى لديه ذلك الانطباع الذي لازمه في الأعوام الأخيرة، وهو أن قوة خارجة عن إرادته أقوى منه تملي عليه تصرفاته وأفعاله وأقواله. ينوي شيئاً ويأتي بنقيضه. أجل. كنت حائراً هل أذهب الليلة إلى فندق أم مباشرة إلى بيت أبي في «الطريق الجديدة». ودون أن أختار، ثمة من اختار لي، وحين تركتهم يظنون أنني نجل رئيس الوزراء كنت قبلها بلحظات قد أقسمت لنفسي وعاهدتها على الإقلاع عن ذلك!

آه لو كانت برناديت معي في هذا الجناح الفاخر في "فندق الأمراء" بجدرانه الزجاجية المنفتحة على بحر تمخره قوارب الصيادين في ليلة شتائية نصف دافئة. آه لو كانت معي على هذه الشرفة المؤثثة بالقمر الخريفي البديع.. آه لو استطعت أن أمنحها هذا الترف. لو شاهدت الحمام المرمري لخلعت ثيابها راكضة إلى "البانيو" البراق بالنظافة ولغطست في مياه معطرة بجسد غادر للتو لوحة لرسام جسّد الشباب والرشاقة والسخاء في امرأة.. لو كانت معي، لو كانت ما تزال تحبني لطاردتها بين الفقاعات المعطرة، ولكن برناديت لم تعد تحبني، وأنا لم أعد أعرف من أنا.. آه أين أنتِ يا برناديت؟ لماذا لستِ معي في هذا الجناح الفخم بشرفات تطل من علٍ على البحر المسترخي في ضوء القمر.

بهر المنظر البديع عبد الكريم على الرغم من أنه ليس رومانسياً. فإلى يمينه يشع خليج جونيه كمجوهرات نسيتها جنيّة على الشاطىء حين تعرت وركبت مكنستها لتستحم بضوء القمر. كم الحياة جميلة والرفاهية لذيذة حين يكون المرء ابناً لرئيس وزراء أو لثري ما.. آه لو كانت برناديت معي. كل جميل يؤلمني بدونها، حتى حرير البرنس يخدشني لأنها لا تشاركني لذة ارتدائه، ومخمل البانيو المعطر كان يطردني من ملكوته لأنني بدونها. أحبها تلك الباريسية الجميلة التي سيطرت على روحي وفعلت كل ما بوسعي لأربحها بما في ذلك تقمص رجل آخر.. وفشلت حتى الآن على الأقل..

لا. في البداية نجحت في امتلاك قلبها. لقد أحببتها منذ وصولها للعمل في فندق «باري روايال» حيث تعارفنا وأحبتني وكانت ما تزال طالبة في معهد للتجارة في ساحة «الريبوبليك» الباريسية حين كانت ما تزال هي مفلسة وأنا أعمل بائعاً للتذكارات والصحف في فندق «باري روايال» وجاءت هي للعمل في «الفستيير» أمينة على خزانة مطاعم الفندق، حيث تستلم معاطف الزبائن والزبونات بعد أن تساعدهم على خلعها ثم تساعدهم على ارتدائها مقابل راتب هزيل وإكراميات كبيرة. وحين كانت تحدثني عن دراستها وطموحاتها وكيف ستصير ناجحة وثرية

جداً كنت أقول لنفسي: هراء. غداً نتزوج وتنشغل بالأولاد وتصير لي وحدي.. وحدي..

إرضاؤها صار هاجسي.. وكانت أشياء الحياة الثمينة ـ مادياً ـ تفرحها حتى النشوة. وبدأت أخترع الطرق لربح المزيد من المال..

وانتشيت بالربح حين بعت أساور بشكل قيود ذهبية آملاً أن ترتديها برناديت بسعادة مماثلة لسعادة شارياتها حين نتزوج. حدث ذلك في إجازة الصيف قبل زواجنا حيث وجدت عملاً في فندق فخم في «كان» لمدة شهر كبديل عن موظف دكان بائع التذكارات الذي ذهب في إجازة الصيف. اتفقت مع مفلس آخر كنت قد أقمت معه فترة في غرفة فقيرة تقاسمنا أجرتها الحقيرة على خطة: أن أبيع أساور ذهبية في دكان بيع التذكارات لحسابنا. الأساور لم تكن حقاً ذهبية بل مغشوشة ومطلية فقط بالذهب، لكنها لا تخلو من الطرافة فهي نسخة مزخرفة عن قيد البوليس ترتديها السيدة بيدها ويتدلى قيد اليد الأخرى من الأولى كزينة وقد جعلناه أصغر حجماً وله مفتاح في القفل. كم أقبلت السيدات الثريات من نزيلات الفندق الفخم في «كان» على شرائها وهنّ مسرعات إلى بركة السباحة الدافئة أو إلى شاطىء البحر، وكم حملن منها كهدايا. وكنا نبيع التنك بسعر الذهب وكلما ارتفعت الأسعار زاد إقبالهن على الشراء، بل وحمل عدد من الوجهاء هدايا منها لنسائهم! وهكذا أعطيت برناديت كل ما ربحته من مال «حرام» لتدفعه قسطاً لسنتها الجامعية الأخيرة ولترتاح من عناء العمل في الفندق. هذا ما ادعيته وكنت في حقيقة الأمر أغار عليها حتى الجنون ولا أريدها أن تعمل في فندق. أقسمت بعدها بيني وبين نفسي على عدم لمس المال الحرام لكنني ضعفت أمام اقتراح الشاب الذي كان يعمل على استلام سيارات الزبائن الوجهاء الآتين إلى «باري روايال» وقيادتها إلى المرآب أو إيقافها أمام باب الفندق، وهو لبناني الأصل مثلي.

كانت اللعبة بسيطة والربح وفيراً: عليَّ أن أحضر له بعض الزبائن اللبنانيين المقيمين في فرنسا من الذين فاتهم استبدال شهادة قيادة السيارة اللبنانية بأخرى فرنسية خلال العامين الأولين من دخولهم إلى فرنسا، لنفعل ذلك عنهم رغم مخالفته للقانون الذي ينص على ضرورة استبداله بسرعة، وإذا لم يفعلوا قبل مرور عامين يصير عليهم الخضوع لامتحان قيادة السيارة من جديد في فرنسا وبشروط صعبة يرسبون فيها غالباً. فامتحان قيادة السيارات عسير حقاً عليهم لا كما هي الحال في لبنان. وهذه الثغرة القانونية ينساها معظم الوافدين حديثاً لالتهائهم في العامين الأولين بتدبير أمورهم مع السكن ولقمة العيش وسواها من الهموم قبل الوصول إلى

السيارة. وكانت لزميلي صديقة تعمل في الدائرة المختصة لإصدار الشهادات إياها. وصرنا نربح من كل وثيقة تستصدرها صديقته بتاريخ رجعي المفعول ثلاثة آلاف دولار لي ألف دولار منها. حيلة بسيطة للربح لا تؤذي أحداً تقريباً!

وجمعت مبلغاً كبيراً من المال في سرعة قياسية قبل أن تنفجر في باريس فضيحة تزوير شهادات القيادة. وذهب بعض المزورين إلى السجن عقاباً، لكن انتحار صديقة زميلي فور انفجار الفضيحة قبل أن تشي بنا جعلنا ننجو من العقاب صديقي وأنا. . وهكذا أثثت بيتاً وتزوجت من برناديت وأغرقتها في الملذات التي يستطيع المال شراءها وما أكثرها. ولكن المال كالصابون يذوب بسرعة. .

* * *

يدور عبد الكريم الخوالقي في الجناح الفاخر الذي حل فيه في «فندق الأمراء» الشهير، عاجزاً عن النوم، يتأمل الستائر المخملية والأثاث الثمين واللوحات بإطارات مذهبة ولا يصدق أن ترفاً كهذا ما زال ممكناً في بيروت. يعجز عن مقاومة شعوره بالحسرة لأن برناديت ليست معه تستمتع بهذه الرفاهية التي فشل في منحها إياها إلا في صيف الأساور الذهبية المغشوشة في «كان» وشتاء تزوير شهادات القيادة للسائقين اللبنانيين المقيمين في باريس، وبعدها في انتحال صفة نجل رئيس الوزراء كما فعل اليوم وفاز بهذا الجناح الفخم الذي لا يعرف كيف يسدد أجرته إذا لم يهرب منه قبل الفجر! امتلأ قلبه حقداً على عبد الكريم الخوالقي الأصلي الذي تنفتح له الأبواب، وتسيل السكرتيرات لطفاً حين يسمعن باسمه على الهاتف ويصير سماع صوت الأثرياء ورجال الأعمال ومدراء الشركات الكبيرة في متناول الأذن. ولطالما استغل تشابه الأسماء مع نجل رئيس الوزراء كي يكلم صاحب شركة ما عربياً في باريس طالباً عملاً أو موعداً لمقابلة، منذ اليوم الذي طُرد فيه من عمله في الفندق. اتصل بأحدهم لحاجة مرة. قالت له السكرتيرة زكية وكان يجهل أنها تعرف عبد الكريم الخوالقي اللعين الآخر شخصياً: أهلاً أهلاً كريم بك. . نوّرت باريس. اعذرني لم أعرف صوتك. . هل أنت مصاب بالزكام؟ كان يريد أن يطلب عملاً كبواب في مبنى الشركة لا أكثر، ولكن صاحب الشركة رحّب به ولم يترك له المجال للكلام فعرض عليه الحضور شخصياً لزيارته في فندق «باري روايال» ما دام مصاباً بالزكام كما قالت له زكية، وفهم عبد الكريم منه أنه كان قد زاره ـ أي زار سميّه ـ هناك قبلها، ولم يكن يدري أن الذي يخاطبه هو بائع التذكارات في الدكان التي تتوسط بهو الفندق وليس نجلاً لأي رئيس وزراء، فوالده

موظف شريف متواضع في بلدية بيروت. وحين تبيَّن حقيقة الأمر أغلق سماعة الهاتف في وجهه.

لعلهما جلسا يومها في بهو الفندق ذاته حيث شاهدتُ أنا أيضاً للمرة الأولى عبد الكريم الخوالقي نجل رئيس الوزراء إياه.. وحقدت عليه منذ النظرة الأولى. بل إنني حقدت عليه من زمان، منذ سمعت باسمه وازداد حقدي واشتعل أواره منذ اللحظة التي أبدت فيها برناديت إعجابها به وهي تتأمل الصور في صفحات المجتمع في مجلة «باري ماتش» وتكتشف وجود ذلك اللعين في كوكبنا وتقول لي ضاحكة: انظر.. ثمة نجل لرئيس وزراء يحمل اسماً مشابهاً لاسمك. يا لوسامته وهو يراقص صوفي مارسو. وسخرت مني لأنها تزوجت النسخة المفلسة من عبد الكريم الخوالقي الشهير.. ويا للاسم اللعين الذي يطاردني ويكاد يفسد حياتي.. أجل! لن أنسى يوم حل في فندقنا مع حراسه وسرت في الفندق همهمة: إنه اسم على مسمى. كريم ويدفع الإكراميات فتفانوا في خدمته. لن أنسى كيف تقدمت منه وهو جالس في بهو الفندق وقلت له وقد شهرت أوراقي الثبوتية: وأنا أيضاً اسمي مثلك! انظر!

توقعت أن يقفز ويضمني إليه ويقول لي إني قرينه في القدر وشريكه في كل شيء. لكنه قال بهدوء محايد بارد تشوبه اللامبالاة: تشرفنا! ونهض مهرولاً، فقد وصل حارسه اللعين في تلك اللحظة قائلاً إنهم في السيارة بانتظاره، ونسي على الطاولة دفتره الهاتفي في غمرة عجلته. لم أغفر له لأنه لم ينهض ويقبلني ويرحب بي ما دمنا قرينين نحمل اسماً واحداً وبالتالي قدراً واحداً، فاستوليت على دفتره دونما تردد ولم أعطه للموظفة المختصة في إعادة المنسي إلى أصحابه. حملته إلى البيت ولم أحدث برناديت عنه ثم نبشته حين ضاقت بي الحال. وبعدها ادّعى رجل كبير من رجال الأعمال أنني حاولت الاحتيال عليه للحصول على المال بحجة انتحال صفة نجل رئيس وزراء قهرستان، وتصادف أنه كان صديقاً لصاحب فندق «باري رويال» واشتكى علي له، وكل ما فعلته أنا المسكين المظلوم هو أنني اتصلت بسكرتيرته وطلبت منها إرسال الشيك الخاص بالخوالقي ابن رئيس وزراء قهرستان إلى عنواني وقيمته عشرة آلاف دولار، وذكرت لها أنني أفضل إرساله بالعملة الورقية (كاش). فقد فهمت من إيصال مدسوس في دفتر العناوين الذي استوليت عليه أن ذلك الرجل مدين له بهذا المبلغ! أجل! اللعين كاد يدعي عليَّ بتهمة الاحتيال لولا خوفه من سخرية بقية رجال الأعمال لأن وغداً.. تافهاً.. مثلي نجح في خداعه كما قال لصاحب الفندق، فقد ارتكبت غلطة إرسال الفاكس للمطالبة بالمال من الفندق.

هذا بالإضافة إلى أنني كنت أجهل أن الوغد الخوالقي نجل رئيس الوزراء كان قد حصّل المبلغ وقبضه ونسي تمزيق الإيصال، وهكذا افتضح أمري وتلقيت إنذاراً بصرفي من عملي بذريعة أخرى كي لا أقدر على إثارة ضجة حول الأمر!

* * *

تمدد فواز في السرير الوثير لعمته التي أصرت على أن ينام في غرفتها. تذكر أنه حين نام في هذا السرير للمرة الأخيرة كان ما يزال طفلاً وكان القصف يزلزل المدينة وهو ملتصق بعمته يرتجف هلعاً.

جاؤوا كلهم إلى المطار. كم أحببتهم أو بالأحرى أحببت نفسي محفوفاً بالقبيلة. لم أكن في باريس أدري أن عالماً كهذا ما زال موجوداً دافئاً يشرنق القلب بالحماية. الآن فهمت لماذا غامر أبي بحياته وعاد إلى بيروت لشراء قبر وتوديع القبيلة. كان يعرف أنه مريض بالسرطان مُصرّ على عدم تلقي العلاج وسيموت. لم يكن لديه ما يغامر به على أية حال ولو ظفر به أعداؤه وقتلوه لكان ممتناً لهم. الآن فهمت لماذا أصر مرات على أن أنفذ وصيته: إعادة جثمانه إلى بيروت ودفنه في القبر الذي اشتراه في مقبرة الشهداء. قال لي بحسرة: لقد سرق لصوص الثورات والشعارات كل شيء حتى المقابر. نهبوا مقبرتنا على شاطىء البحر حيث كان قبر جدك وجد جدك وأجدادك إلى ما قبل عشرات الأجيال. باعوا الرخام ثم جاء من تخلص مما تبقى بالجرافات وتناثر جزء من تاريخ بيروت غباراً. لم أكن أنصت إليه حقاً. كنت أبتسم بتهذيب وأنا أفكر: من أين أشتري لصديقتي الجديدة أسطوانة «السي دي» الأخيرة لمايكل جاكسون بعدما لَمّحت لي أنها تحب أغانيه؟ ثم لاحظت أن الابتسامة لا تليق بما يقوله فارتديت قناعاً جاداً وقلت لنفسي إنني سأشتري «السي دي» من دكان «فيرجين» الذي فتح أبوابه مؤخراً في «الشانزيليزيه»!

لم أنصت يوماً حقاً إلى أبي فقد انشغلت بنفسي. إذا لم أفعل ذلك في باريس يدوسني القطيع ويمشي فوق جثتي.. إذا لم يكن شعاري يا رب نفسي فالسلام عليَّ! ووداعاً يا أنا. قال أبي وكأنه يتلذذ بمشاهدة مشهد استقبال جثمانه في مطار بيروت: سيأتي الأهل والأقارب والأصدقاء ويتولون عنك التفاصيل الإدارية كلها فلا تقلق، المهم أن توصلني إلى مطار بيروت. ولأن أمك عنيدة ولن تعود، فدفني في بيروت أمانة في رقبتك! قلت له للتخلص من حديث يلذ له ولا يروق لي: لا تحدثني عن الموت. أنت يا أبي في أحلى حالاتك، وستعيش طويلاً. أدهشني أنه فرح يومها. أدهشني أنه صدّقني.

ولكنه ملك التوقيت الرديء بحق! اختار أسوأ الأوقات ليموت. أمي في

المستشفى كمريضة هذه المرة وقد أجريت لها عملية «الفتق» في البطن الأليمة جداً فيما يبدو لأنني شاهدتها للمرة الأولى في حياتي تبكي. وأنا أواجه غريمي الفرنسي بالولادة في البنك، وأنا الفرنسي بالتجنس أريد أن أفوز بمقعد المدير المساعد للشؤون الخارجية في البنك، فقد كنت أمتاز عليه بأنني أحظى دائماً بأصحاب الملايين من العرب يودعون أموالهم عندنا بمساعدة من أمي وصديقتها سليمى، أما أبي فكان يكره أصحاب الملايين ويكرهونه لأنه غير قابل للبيع كما كانت تردد أمي. لماذا أعذب نفسي بتذكر التفاصيل؟ مات ولم أتمكن من تلبية وصيته. كنت أخاف من الذهاب إلى لبنان مصطحباً جثمانه. يا لشعوري بالذنب وأنا أعترف لنفسي بذلك! فحين اضطررت للذهاب إلى لبنان لإحضار دولاراتي ذهبت رغم خوفي وها أنا الآن هنا، لكنني لم أفعل ذلك إكراماً له.. لأبي! إكراماً لمن؟ لجثة؟ أنا رجل «كارتيزيان» ديكارتي العقل والمنطق.

أبي رحل عن دنيانا، ولم يعد يدري أين جثته، ووصايا الموتى هزلية فهم يملونها وهم أحياء، وحينما يموتون ينتفي مفعولها أو هكذا كنت أظن حتى لحظة وصولي إلى مطار بيروت وهيمنة القبيلة على قلبي. قلت لنفسي إثر وفاته وقلبي يتفطر حزناً ويمطر بكاء: لقد رحل أبي، ولن يدري في تراب أي بلد قد يُدفن. والظروف لا تتيح لي الآن فرصة دفنه في لبنان، فما الفرق بين أن يأكله دود أوروبي أو دود عربي! وهكذا قررت دفنه مؤقتاً في باريس ريثما تسمح لي الظروف بتنفيذ وصيته ونقل جثمانه إلى بيروت. وفوق ذلك كله، لم يكن دفنه في باريس سهلاً، إذ إن والدي احتاط للأمر بشراء قبر في بيروت، لكنه لم يفعل ذلك في باريس. وفوجئت أن أزمة المساكن مستفحلة في مقابر باريس أكثر منها في البيوت. ذهبتُ إلى مقبرة «بير لاشيز» البديعة بتماثيلها وأشجارها والتي كان يتنزه فيها واكتشفت أن القضية ليست سهلة والقبور مزدحمة والأمر بحاجة إلى وساطة للدفن أو إلى تكاليف سمسار، تماماً كمن يشتري بيتاً! وكنت وأمي نمرّ بضائقة مالية، فقبلت عرض الموظف في مقبرة «بيرلاشيز» الباريسية بإحراق جثة الوالد في محرقة المقبرة وحمل رماده في إناء «أوبالين» فاخر. ولكن ذلك لم يكن سهلاً فقد كان على جثة والدي أن تقف في الطابور بانتظار دورها لإحراقها. تألمت وبكت أمي عليه وهو الذي كان يكره طوابير باريس كلها، وطوال خمس ليال ظل في طابور براد الجثث ينتظر حتى جاء دوره لإحراقه! لن أنسى ما حييت الرائحة البائسة التي عمّت أرجاء المقبرة خلال إحراقه، كأنه كان يناكد النار ويريد أن يُدفن في بلده. إنها الرائحة ذاتها التي صارت تعاقبني بها غرفته في باريس كلما دخلتها.

كم أشعر الآن بالذنب لأنني لم أنفذ وصيته بأي ثمن وعلى الرغم من كل شيء. كم أشعر بالندم الذي يكويني في هذه اللحظة كجمرة اشتعلت في القلب!

كاد فواز يغرق في نوم معذب وهانىء وسط الملاءات القطنية البيضاء التي تفوح منها رائحة «الترابة» الحلبية وتعيده إلى طفولته مؤججة ندمه نحو والده حين دوّت أصوات الانفجارات.

عاوده هلعه الطفل. قفز من السرير بحثاً عن عمته وقد نسي أنه صار رجلاً. تذكر ذلك حين وصل إلى الغرفة الخاصة بالضيوف حيث نامت عمته، وكانت غارقة في النوم لا توقظها الانفجارات وخجل من الاحتماء بها وإيقاظها لمصارحتها بذعره. وعاد إلى سريره. لكنها استيقظت وجاءت تتفقده مفسرة له أصوات الانفجارات فقالت له: إنها الألعاب النارية الاحتفالية فلا تجفل. أجاب: كنت نائماً ولم أسمعها!

تظاهر باللامبالاة شاكراً اهتمامها لكنه شعر بمزيج من الغضب والدهشة. كيف يمكن لمدينة كبيروت أن تحتفل بإطلاق أي شيء له صوت يُذكّر بزمن الحرب؟ يا للمدينة السوريالية العجيبة التي لا تتذكر شيئاً ولا تنسى شيئاً!

* * *

ما كاد عبد الكريم الخوالقي يغفو قليلاً حتى أيقظته صرخة قادمة من حيث لا يدري، وعى بهلع أنها قادمة من أعماقه لصوت لا يعرفه ويقول له ما لا يفهمه بلغة يجهلها. لكنها صرخة آتية من كهف في أعماقه. شعر بالهلع الحقيقي. صار يرتجف حين قفز فوق وجهه شيء تبين له أنه جرذ حين استيقظ جيداً وخيل إليه أن الجرذ قفز من داخل فمه.. **هل يعقل أن ترتع الجرذان في فندق فخم كهذا؟ وأنا ألست جرذ فندق ينوي الهرب باكراً لأنه مفلس؟**

أضاء النور إلى جانب الفراش. إنها الثالثة فجراً أي الثانية فجراً في باريس.

ترى هل عادت برناديت إلى البيت؟ ما الذي تفعله بدوني؟ على من تسكب ضوء عينيها؟ باسم من تصرخ منتشية حتى الإغماء؟ أي جسد تدفىء بحرارة أنفاسها؟ مع من تتأوه في هذه اللحظة بالذات؟

نهض عبد الكريم من السرير الوثير وقد استحال شوكاً تحته حين تذكر بمرارة برناديت...

ما الذي لم أفعله لأكسب رزقي بالحلال وأكسب حبها بعرق قلبي وجبيني؟ حين خسرتُ عملي في فندق «باري روايال» قلتُ لنفسي إنني لست

عبد الكريم الخوالقي إياه رغم ما في الفكرة من إغراء وإنني بالتأكيد شخص آخر وعليّ أن أكونه. وانغمست في العمل وقبلت بأي عمل شريف أعيل منه برناديت ونفسي وأكون ذاتي، وأُخرس الأصوات الغامضة التي تعول داخلي، وأجهل كل شيء عنها وعن جنونها ولغاتها.. وأخفيت مفكرته في أحد أدراجي ولم أقل لبرناديت شيئاً عنها وكدت أنساها.

وتقلبت في شتى المهن.. وكنت أتلقى رسائل صديق المدرسة في بيروت عدنان وهو يغبطني فيها على حياتي في باريس كمهاجر ويرجوني أن أجد له عملاً معي.. وأنا أكتفي بكتابة البطاقات البريدية المختزلة كي لا أقول له كم أذلتني الغربة وكم تنقلت في مهن حقيرة لها أسماء وجيهة كان ينبهر بها كلما كتبت له بإيجاز في بطاقاتي البريدية اسم مهنتي الجديدة. فعدنان يجهل أن الفرنسيين يشبهوننا نحن العرب في عشقهم المفرط للبلاغة ورغبتهم في اختراع أسماء أسطورية باهرة لمهن يومية حقيرة، تماماً كما فعلوا حين سمّوا البطاطا المسلوقة غير المقشرة: بطاطا مرتدية ثوب الحقل!

وهكذا أخبرت عدنان أنني أعمل «مراقباً إلكترونياً» في شركة كبيرة لصنع الدمى، وكنتُ في حقيقة الأمر أجرب دمى الأطفال الخاصة بالفيديو للتأكد من عدم وجود خلل فيها ومدى ارتفاع صوتها وعدم إيذاء سرعة حركتها على الشاشة لعيون الأطفال وأعصابهم وهذا كل شيء. لكنني سرعان ما طُردت من عملي لضعف تركيزي!. وعملت واشياً على برامج الإنترنت لتسجيل أسماء المواقع «البورنو» التي تعرض الجنس المحرّم مع الأطفال (بيدوفيل). وهو عمل مزعج ولكن لقبي الرسمي كان «حارس سيبرنيتيكي»، وهذا اسم أجمل من «حبة البطاطا في ثوب الحقل» ويوحي برجل يرتدي ثوباً من الفضة البراقة في مركبة فضائية كما كتب لي عدنان.

وعملت «مديراً للماغنيتوفون» في منبر صحافي باريسي معروف حسدني عليه عدنان، بعد خضوعي لدورة تدريبية قصيرة. وكنت في حقيقة الأمر خادماً لماكينات الصحافيين الحقيقيين رغم لقبي الوجيه في الأرشيف الإلكتروني. وتم إخراجي من ملكوتهم، بعدما حلمت بالعمل صحافياً مثلهم ومثل صديقي عدنان. وكانت مهنتي وظلت تصليح ماكينات التسجيل المعطلة التي يستعملها الصحافيون للمحاورات، كما أحتفظ لهم بالشرائط وأكتب على كل شريط اسم المحاور وتاريخه وهذا كل شيء، أي أقوم بما لا يسمح وقتُ الصحافي الجيد بالقيام به، ولكن اسمي كان «مدير الماغنيتوفون» وهو اسم وجيه جداً وعصري!

وعملت بعدها «ميتر شيان» أي حارساً نهارياً في فناء ناطحة سحاب وكانت مهمتي لا تزيد على التسكع بين ناطحات السحاب في حي الديفانس ومعي الكلب الشرس لتخويف السارقين، ولكن كلب الحراسة الذي يرافقني عضّني!.. ونلت تعويضاً وعشرات الأبر الأليمة لكي لا أصاب بمرض الكلب!

وعملت «مهندساً صوتياً معاوناً لعروض الأزياء»، وكانت مهمتي في حقيقة الأمر تحديد مدى ارتفاع صوت الموسيقى في عروض الأزياء بحيث تكون ملفتة للانتباه وتوقظ الأعصاب دون توتيرها. وكان من المهم أن يكون ارتفاع صوت الموسيقى مشابهاً لإيقاع عمل مصمم الأزياء وضربات قلب إبداعه كما قيل لي بجدية، أي أن مهنتي الحقيقية كانت الإمساك بزر لرفع صوت الموسيقى وخفضها، وانتهى بي الأمر بالتهاب في الأذن الداخلية وبدايات انهيار عصبي بعد عرض أزياء كالفن كلاين!..

وعملت «راقص جليد ورولر» أي خادم لمساعدة الأولاد للتزلج على «الرولر ـ السكيتر» على الجليد وبدونه وانتهى بي الأمر بكسر في ساقي بعد سقطة مؤلمة.

وعملت في مهنة «المرشد الأخضر»، بزي رسمي أخضر أنيق يشبه أزياء الفضائيين في السينما، وكانت مهمتي تنبيه المتنزهين في الحدائق العامة إلى جمع قاذورات كلابهم عن العشب والممرات وربط الخطر العنيف منها وعدم إطلاق سراحه كي لا يؤذي الآخرين، والمحاضرة عن أنواع النباتات في الحديقة للأرامل العجائز الضجرات وفرض احترام البيئة (أي عدم التبول على حوض الورود!) والتواصل مع رواد الحديقة (أي التشاجر معهم بصوت منخفض!)...

لم تبق مهنة لم أجربها بعدما تخلى عني حلم المغترب الثري الذي سيعود غنياً مع زوجة شقراء باهرة الحسن وأطفال أجمل منها، فتغفر له أسرته زواجه منها، ويشتري لهم بيتاً فخماً ينتقلون إليه إلى جانب الفيلا الفاخرة التي سيشيدها لنفسه!...

وهكذا تحولت إلى عاطل عن العمل (شومير) كمئات آلاف الشبان الفرنسيين بالولادة أو بالتجنس مثلي. وحين فقدت راتبي صرت «الرجل اللامرئي» في البيت، كأنني أرتدي «طاقية الإخفاء». برناديت كانت كريمة معي مادياً تنفق على البيت بل ويسعدها بقائي فيه وحمل مسؤوليته. تألقت في عملها بسرعة وتضاعف دخلها بعدما ارتاحت من مسؤولية ربة المنزل. واكتشفت أنها كانت تتناول حبوب منع الحمل سراً عني وأنا الذي كنت أتوق ليوم نرزق فيه بطفل، ولم أقل شيئاً بل ثابرت على القيام بمهنة «ربة المنزل» كما رجتني ريثما أجد عملاً.

أرعبني أنني أحببت مهنة ربة المنزل الهادئة المرتاحة من الهموم، بل وصرت أستمتع بتلك التفاصيل الغبية الروتينية الخاصة بالنساء عادةً، وأستشيط غيظاً لأسباب كنت أتوهمها تافهة مثل طي المناشف على نحو خاص وتنظيف الأطباق بمستحضرات أتحمس لها أكثر من الأخرى. وكدت أصير راضياً بحياتي كربة منزل حتى صارت زوجتي تتأخر في العودة ليلاً من مكتبها بحجة اجتماع عمل طارىء وعميل قدم إلى المدينة فجأة ولا بد من مرافقته والزملاء إلى العشاء، وغيرها من الذرائع التي كان يخترعها أصدقائي للهرب من زوجاتهم مع نساء أخريات. وحين اقترحت عليها الذهاب معي في إجازة إلى لبنان رفضت رفضاً لا يساوره شك ونصحتني بالذهاب وحدي.

في البداية لم أذهب وقررت أن أربح المال بأية طريقة لأستعيدها ولأكسب احترامها من جديد، إذ عشت عصري الذهبي معها يوم استطعت الإنفاق عليها بسخاء. وهكذا حين فشلت في كل شيء وتحولت إلى ربة منزل وكدت أخسر برناديت بدلاً من إرضائها، نبشت مفكرة عبد الكريم الخوالقي وقررت توظيفها لربح المال لكي أستعيد حب برناديت واحترامها من جديد.. فيوم أغدقت المال على برناديت أغدقت هي عليَّ حبها، بل وتزوجت مني! كم تشبه برناديت مدينتها باريس، فهي لي، شرط أن أكون ثرياً. ولكن أليست المدن كلها كذلك؟

ذات ليلة عادت برناديت في الثالثة فجراً ثملة وكانت قد ادعت أنها ستكون عند كاترين صديقتها وبقية الرفيقات لتوديع عزوبية كاترين، أي سهرة نساء فقط... وكنت قد اتصلت بها هاتفياً مرات عديدة في بيت كاترين ولم يرد أحد على الهاتف. قالت لي برناديت ببساطة إنهن قررن السهر في الكاباريه النسائي في حي البيغال لتوديع عزوبيتها ومشاهدة فرقة «الشيبّنغيل» للتعرية الذكورية وأنهن قضين وقتاً طيباً! واستشطت غضباً لكنها تثاءبت وقالت: ألم ترافق إلى كاباريه «الليدو» صديقين لبنانيين، دون أن أعترض أنا على ذلك؟ فلماذا تعترض الآن على تصرفي؟ أحلال لك وحرام عليَّ، أم أنك لم تكن تدري يومها أنه توجد اليوم كاباريهات نسائية يقدم فيها الرجال الاستعراضات ذاتها التي تقدمها النساء في الملاهي التقليدية.. والخدمات ذاتها؟

وقررت الرحيل ربما لأتأمل في ما وصلتُ إليه، لكن رياح أقداري تقذف بي من ورطة إلى أخرى. إني خائف. سيكتشفون حقيقتي في هذا الفندق حتى قبل أن أصحو من النوم. أعرف من خبرتي في العمل في الفنادق أن السيد رفيق مديره الذي استقبلني قبل ساعتين ونيف ورحب بي وطمأن سليمى إلى أنني بين أيد أمينة،

سيكون أول من يكشف حقيقتي. أعرف أن الفنادق الكبيرة ليست كما تبدو من الخارج أماكن سائبة، بل تضم شبكة أمنية تع رف كل شيء عن الزبون منذ لحظة الحجز. أما إذا وصل إليها فجأة شخصٌ مثلي بتزكية قوية من صديقة زوجة صاحب الفندق فسيتأخر انكشاف حقيقته ليلة واحدة فقط ريثما يستشير موظف الأمن الكومبيوتر اللعين!

تسللت ماريا من فراشها مع الخيوط الرمادية الأولى لعباءة الفجر، وهبطت من بيت الجارة نهاد إلى بيتها لتتفقد مكتبتها على انفراد. لطالما تساءلت في باريس عن مصيرها، بالرغم من أنها كانت تعرف السيدة المسنّة التي استقرت في بيتها لحمايته من السرقة أو الاحتلال وتعرف مدى أمانتها.

الغريب أن الذين نطلب منهم الإقامة في بيوتنا لظروف خاصة (أو الذين لا نطلب منهم ذلك بل يقومون باحتلالها) لا تخطر ببالهم حاجتنا لمعانقة أشيائنا المحبية، وكتبنا وأوراقنا ولوحاتنا وأركاننا الصغيرة التي عشنا فيها لحظات حارة فتحولت من أماكن إلى أجزاء من روحنا متناثرة من أزمان القلب على جغرافيا البيت والشرفات. كأن العودة إلى بيروت عودة إلى الفردوس المفقود.

قبل أن تقيم السيدة نادرة في بيتي تعاقب عليه العديد من معارف الزوجين الصديقين فايز وعاطفة من مهجرين محليين وهاربين ولاجئين نصف سياسيين آتين إلى بيروت الحرة نسبياً رغم كل شيء ورغم الحرب، كان آخرهم «رفيق مناضل» يريد أن يرتاح في البيت لقيلولته ويحميه، وحين جئت في زيارتي اليتيمة أوائل الحرب، استقبلتني زوجته كمن تستقبل متطفلة، وقد تحوّل بيتي إلى خلية لمرافقين وسائقين وابنين وأصدقائهم وخدم وحشم.. زوجة «الرفيق» سجنتني في غرفة الضيوف بمعنى ما، أي حاصرتني بالإحراج، فتعاطفت حتى الثمالة مع الفلسطينيين الذين سُلبوا بيوتهم وحُرموا حتى من حق دخولها للذكرى.

اَضطررتُ للصمت داخل دائرة التهذيب الاجتماعي ولكنها فوق ذلك كله أمعنت في البلادة والأذى واللامبالاة بشعوري وقالت لي في تلك الزيارة البائسة: ثمة من احتل بيتنا بعدما كان مستأجراً عادياً، وانتهز فرصة الحرب وهو اليوم يطالبنا بثلاثين ألف دولار لإخلائه له. يبدو أننا سنضطر للقيام بالشيء ذاته معك!

صعقني ذلك فقد كان زوجها من الذين ينادون بالثورة ولم أدر أنه يُضمر الثروة، كان «عملة» سياسية متداولة في الصحف تحت شعار الدفاع عن حقوق الناس والعدالة «والآدمية». ثم إنه لم يقل شيئاً عن استعمال بيتي مقراً حربياً بل زعم أنه مكان للراحة بعد الظهر يحميه لي!

واَضطررت محزونة لمغادرة البيت دون حتى تفقد نباتاتي على الشرفات ناهيك

عن غرفة مكتبتي المقفلة خوفاً من أن تطلب مني تركها مفتوحة لينام فيها حراس الزوج ومرافقوه وخدمها وحشمها. وبقيت شهراً في باريس لا أنام فيه قلقاً على مصير مكتبتي. ولكنهم لحسن حظي وجدوا بيتاً أوسع وأكثر فخامة وأبهة واحتلوه بذريعة أجهلها ورموا بمفتاح بيتي في وجه ابن الحلال فايز.

فرحت، وازددت فرحاً حين أخبرني الصديق فايز وزوجته عاطفة أن قريبة مسنة لهما تدعى نادرة ستقيم في البيت، وحدها، وأنذراني في مخابرة هاتفية إلى باريس بأن الوجيه وحاشيته سببوا في بيتي خراباً خلال شهرين كما لو في عقدين، لكنني سعدت بمغادرة الروح الشريرة للسيدة الانتهازية لبيتي ونجاة غرفة مكتبتي من العبث والأذى، وصرت أصاب بالغثيان كلما سمعت ذلك «النجم» السياسي يحاضر عن العفة الثورية في حوار مع إذاعة تبث بالعربية في باريس!

المفتاح أكله الصدأ. أديره في الفراغ بصعوبة. أخطو إلى الداخل. ذلك أفضل من تعليقه على جدار قصر أو كوخ في المنفى كما فعل الفلسطينيون يوم طلبنا منهم الهرب لنحرر لهم فلسطين ونعيدهم، وكما فعل أجدادي يوم غادروا بيوتهم في الأندلس، وكما فعلتُ أنا حين علّقتُ مفتاحي على جدار بيتي الباريسي.

كم أنا سعيدة الحظ لأن هذا المفتاح غادر الجدار وعاد إلى ثقبه ليفتح لي مغارة قلبي.. وهو ما لم أحلم به يوماً. وكانت مخاوف سرية تتناهشني من قريب ما للسيدة نادرة مثلاً يستولي على البيت بعد رحيلها بحجة أو بأخرى أو بلا حجة، كما يحدث غالباً في بيروت وإقامة الدعوى تعني انتظار صدور الحكم بعد أعوام لطرده، هذا إذا لم.. ولم.. والناس كادوا يفقدون الثقة بالعدالة، وأنا منهم.

آه الغبار في مكتبتي.. الغبار.. الغبار المكدس.. كأنه أيام غيابي المفتتة تحت سنابك ليل الفراق. حبة غبار شبه لامرئية لكل ثانية على مدى عقد ونصف ونيف وجرح ونزف.. غبار متناثر كالشهقات يغطي الكتب والطاولة واللوحات.. غبار مترنح كالكحل حول المدمع.

كل شيء تحوّل دائماً تحت أصابعي إلى غبار. حكاية حبي الكبيرة اللامنسية غبار. حضوري غبار. وغيابي غبار. من كان يصدق أن للغبار تلك السطوة المتوحشة كلها التي تغلف أزماناً من الصرخات في مصحات العقلاء المجانين؟ الغبار هش. مراوغ. جبار كالكثبان الصحراوية. الغبار يقفز تحت أصابعي من كتاب إلى آخر كلما تناولت كتاباً من المكتبة أدلله أطالع إهداءً في هذا أو ذاك وأشمه وأتحسسه وألامسه بشفتي رغم الغبار، غبار كالثعلب يبدل مكانه. وكالزئبق يتابع انحداره اللامرئي داخل أنابيب الساعات الرملية للزمن الهارب.

ها هي ساعتي الرملية العتيقة برملها الأزرق. أقلبها كي ينحدر الرمل إلى الوراء ومعه الزمن، لكن الرمل لا ينحدر كأن الزمن يسخر من رغبتي في إرجاعه إلى الوراء أو كأنه انتصر على نفسه وحجّر ذاته فصار كتلك اللوحة على جداري الآتية من جرود البترون التي ألصقت على قماشها سمكة متحجرة اعتقلها الزمن منذ ملايين السنين في لحظة هاربة انتصرت على ذاتها.

أدور في غرفة مكتبتي ملتاعة مشتاقة ألامس أقلامي القديمة وكلها غبار. آه غبار على مد الشهقة، على مرمى الاحتضار. كأن الغياب يتعرق تلك المادة الحية للفراق الملقبة بالغبار، ويزرعها على حقول الستائر وعلى مقعد كتابتي كالإعلانات عن الفراق والغربة الرمادية.

كأن الذكريات غبار مضيء فتاك كالمواد المشعة. وأنا أريد أن أعاقر ما أحب من ذكرياتي وأوراقي وكتبي ولبناني على أريكة الواقع بكل جراحه ورماده وغباره وغباره.. كل كتاب من كتبي على الرف في طبعته الأولى العتيقة السحرية كالقبلة الأولى، وكل كتاب كطلسم ما أكاد ألمسه حتى يخرج منه أبطاله وهم يدورون حولي ويرقصون مرحبين في وليمة شبحية في ضوء الفجر العذب.. آه كتبي.. يا لمتعتي حين تغادرها بطلات قصصي وأبطالها.. صباح الفجر يا أحبائي. خذوني إلى قلوبكم فقد جرحتني الغربة ورشّت المطارات ملح الوحشة على جراحي وأنا صامتة ومتماسكة لا أنزف إلا على الورق. خذوني إلى قلوبكم ودللوني. لم أنجب أولاداً سواكم ولا أليف لي غيركم. آه جثث سجائري ما تزال ممددة في منفضتي منذ أعوام، منذ سافرت.

آه المنفضة الحجرية الملونة كمذبح للأضاحي، التي اشتريتها مرة من سوق «البسطة»، وها أنا الآن ممددة داخلها كما في مذبح مقدس عصري. وعبثاً أقص قفصي الصدري ليزرع لي الفجر قلباً مستورداً ويستأصل جذوري من بلد أحببته حتى الثمالة اسمه لبنان وهجرت وطني ومسقط قلبي لأعيشه بكل معانيه: الحرية والتعايش بين الأديان والعدالة الاجتماعية التي تنشدها بطلات قصصي وأبطالها وهم يدورون حولي ويرقصون في الفجر الذي لم يعد رمادياً بل يتخلله ضوء آت من السحب كاليقين وكالأمل، هذا بينما ينشد أبطال قصصي «نشيد البهجة» للشاعر شيلر في سيمفونية بيتهوفن التاسعة. أغمض عيني وأنتشي وأنشد معهم بصوت خافت..

دوماً أعود إلى هنا، إلى مكتبتي وإلى بيروت وإلى لبنان لا لأفتش عن قلب فيه متسع لأحزاني ولا عن قصر فيه متسع لأحذيتي ونظاراتي وثيابي الحريرية، بل عن

كهف شاسع بحجم الكرة الأرضية فيه متسع لحريتي وشموسي وأقماري ومداراتي وأبجدياتي. .

ودوماً أرحل ثانيةً إذعاناً لحريتي. آه، ذلك عنكبوت يحرمني من ملامسة رواياتي الأولى. حشرة بين العنكبوت والرتيلاء تشع كراهية وأشع خوفاً ورفضاً. . آه العنكبوت يحاول انتهاز غيبتي للاستيلاء على ميراث مكتبتي وأبطال رواياتي الأحياء الذين يرقصون حولي، محاولاً تتويج نفسه عليهم وعلى ذاكرتي وشبكتي العصبية، ليحشو بخيوطه أفواه الذين ولدوا بعدي، ويمحو سطور حقائق زمني المتقن الرداءة. أقتل العنكبوت بشحنة مكهربة من الكراهية، فأنا لم أذهب إلى الغربة وأنا أضمر نسيان لبنان وتربية العناكب في ذاكرتي أو توظيفه لمصالحي. . بل ذهبت إلى الغربة كي لا أقتل نفسي. وها أنا مع أبطال قصصي أرقص على حطام بيتي العتيق، بطلائه المشقق كالتجاعيد في الوجوه وأنابيب المياه النافرة من الجدران كالأحشاء، وسأبقى هنا وحيدة طوال النهار والليل أحاكم ذاتي ولا أتنصل من مسؤوليتي عما حدث ولا أرتدي قبعة «الأكثرية الصامتة» التي صارت شبيهة بطاقية الإخفاء وأقر لأبطال قصصي أنني اشتهيت ذات يوم «التغيير» وكنت صبية ولم أكن بلا قلب وأتلو اليوم فعل الندامة لأنني لستُ بلا عقل!

أفتح صفحات رواياتي الأولى وأنا أدوس العنكبوت ثانيةً، وأشعر فجأة أنني أطلقت في فضاء الغرفة حضوراً شريراً عدوانياً له شحنة غامضة مكهربة كالبرق ضدي، وأرى أبطال قصصي كلهم يسجدون لي في غرفة المكتبة إلا ذلك الحضور الشرير العدواني الذي أبى واستكبر وهو يصرخ بي: إذاً قررتِ العودة لإفساد حياتي التي اخترتها لنفسي ضد إرادتك! إنها الحرب بيننا!!

كان وجهاً معلقاً في فضاء الغرفة، تحرك سابحاً مقطوعاً واستقر داخل المرآة مقابلي تماماً حيث كان من المفترض أن أرى وجهي، ثم اختفى. . امتلأ قلبي بالهواجس من شروره وصرت أسمع صوت نقطة دم تقطر من شريان شاسع مثقوب ممتد على طول خارطة لبنان التي كنت قد علقتها على جدار مكتبتي. صار الدم يسيح من شرخ في الخارطة. . يسيل. . يتدفق. . يتفجر. . يكاد يغطي قدميَ ويتناثر فوق وجهي، دم دم يسيل من خارطة لبنان والحضور الشرير في الغرفة يقهقه. يتدفق من النافذة ماء البحر ويصعد بسرعة. وأنا أختنق، لم أكن أدري هل يسيل الدم من الخارطة أم مني أيضاً.

قلت كمن يقرأ تعويذة لطرد الشر: دثرتك بالمحبة يا لبنان. سامحني على كل ما فعلتُه بك وكنتُ أظنني أفعله من أجلك. كررت العبارة مرات بصوت عال فقد

ألفتُ أن أتحدث مع نفسي بصوت عال ككل الذين يقيمون وحيدين.

يرن جرس الباب ملحاحاً. ما أكاد أسمعه حتى يختفي كل شيء وتعود غرفة المكتبة مغبرة كأية غرفة أخرى مهجورة. أفتح الباب. ها هي جارتي نهاد تحمل «ركوة» من القهوة تفوح منها أبخرة برائحة الهال، ووجهها فنجان يسيل بالأنس والمحبة.

تضعها فوق الصندوق العربي القديم المطروق بالنحاس في المدخل، وتصبّحني بالخير، وتضمني وهي تغمرني بقبلة أخوية عذبة كأنني لم أغب أعواماً وأعواماً.

أستسلم بسعادة للمحبة على الطريقة العربية ولدفء القلب الجارف.. خادمتها تلحق بها مقتحمة البيت لتنظيفه، ويركض جرذ بين قدميها فأصرخ مذعورة ولا تبالي به الخادمة وتقول لي نهاد وهي تضمني ثانية وتقبلني على خدي الثاني وتدللني كما لو كنت أختها الصغيرة: عليك أن تألفي الجرذان في بيروت فهذا زمنها وسأزوّدك برقم هاتفي لشركة تقوم برش البيوت ومكافحة هذه الجرذان قدر الإمكان.

أجمل ما في بيروت أن المرء مثلي يغيب عن الناس ألف عام ولا يستقبلونه بالعتاب حين يعود بل يجد مكانه محفوظاً في قلوبهم، كأن قلب بيروت ميناء أَلِفَ رحيل الناس وعودتهم وهو يضم إليه الملاح العتيق العائد وينسى الغائب حتى يعود ويحتوي الجميع.

بينما كانت جارتي نهاد تحدثني عن أخبار البلد والجيرانِ والناطور وبيروت كنتُ أتساءل بهلع: من ذلك الحضور الشرير الذي أطلقتُ سراحه من كتابي؟ وهل توجد كتب مسكونة بالأرواح كما توجد بيوت مسكونة بها؟ ومن هي الروح الشريرة التي كانت تقطن روايتي الأولى؟ والأدهى من ذلك: كيف أتآلف مع الجرذان وأتعايش حتى في إجازة شهر واحد؟

كأن نهاد لاحظت إمارات القلق على وجهي فقالت: صار بوسعك الآن ترك البيت فارغاً من السكان دون أن يحتله أحد وبوسعك العودة لقضاء إجازاتك هنا، أو العودة الدائمة، من يدري؟

* * *

لم يستيقظ عبد الكريم الخوالقي فجراً كما كان يشتهي ليتسلل من الفندق وينجو من تسديد الفاتورة، ويذهب إلى فندق آخر مناسب أو إلى صديقه عدنان أو

إلى والده وشقيقاته . .

أيقظه قرع ناعم على الباب. **يا إلهي إنها الحادية عشرة صباحاً.** تذكر أن ساعته ما تزال تشير إلى توقيت باريس أي أنه الظهر بتوقيت بيروت أو أكثر. تدخل خادمة جميلة آسيوية الملامح وتدفع أمامها طاولة ذات عجلات يتدلى فوقها شرشف أبيض بأطراف دانتيلية وتقول: «غود مورننيغ سير». من دون أن تستشيره، تكشف الستائر. تفتح باب الشرفة. تترك طاولة الفطور هناك. تغادر الغرفة. ينهض. شمس شمس شمس. . يفتقدها. تغسل البحر والصدأ عن روحه. الكرسي تحته دافىء حين يجلس في الشرفة زجاجية الجدران.

إبريق الفضة بقهوة تفوح رائحتها الشهية. الفنجان الخزفي الأنيق ساخن وكل ما تحلم به برناديت. الشمس البيروتية الخريفية/ الشتوية الدافئة والشارع الأنيق. ها أنا أعيش لحظة هاربة من أحلامي وأحلام برناديت، تماماً كما كان يعيش نزلاء فندقي «كان» و«باريس روايال» الباريسي وكنت أحسدهم. إذاً هكذا يتناولون فطورهم، يحركون مثلي السكر في قهوتهم بملاعق ذهبية في مقعد وثير للشرفات من البامبو فوق طنافس حريرية تتماوج تحتهم كبحر من الرفاهية المعطرة. بينما كان يحرك قهوته، لا يدري لماذا داهمه من جديد ذلك الإحساس الكثيف بأن خيوطاً لامرئية رُبط إليها تملي عليه أفعاله كما لو كان دمية في مسرح الدمى، وحريته محدودة تتفاوت بين وضع قطعة سكر واحدة في قهوته أو قطعتين، وثمة من هو أقوى منه يعبث به كأنه يتسلى بعذاباته وملذاته وغيرته وأشواقه إلى. . . برناديت!

كم كنت أحقد على زبائني في الفنادق المرفهة وأغار، متسائلاً: كيف يعيشون في تلك القصور السرية الملقبة بفنادق النجوم الخمسة؟ أجل! كم تمنيت أن أعيش وبرناديت يوماً في الفنادق التي عملنا فيها، ولكن كزبونين وليس كأجيرين!

من أجل حلم كهذا رضيت بمد يدي إلى «مال حرام» ولم أكن أريد ذلك حقاً. لكنها تلك الخيوط اللامرئية. لا أدري ماذا دهاني فاستمرأت انتحال صفة غيري وانسحبت تائباً وأعدت الكرة وانسحبت وأعدت الكرة كما أفعل الآن. تنتابني نشوة لا تصدق حين أصير الخوالقي الآخر وأعيش مثله وبالنيابة عنه. فلماذا لا آكل نصيبي من الاسم؟ ألمجرد أنه سبقني إلى هذا الكوكب؟ نعم. أريد أن أعيش مثله ومثل أولئك الذين أراهم في الفنادق الفخمة يروحون ويجيئون ويتبدلون دون أن يتبدلوا حقاً، كأنهم زبون واحد بقميص حريري وسيجار وحارس شخصي وسائق وكلب وزوجة تتدلى من عنقها الأبيض الممتلىء سلاسل ذهبية ولأصابعها خواتم ماسية.

استيقظ من بئره الداخلية على قرع باب غرفته، وكان ذلك في اللحظة التي لمح فيها جرذاً كبيراً يتنزه على الرصيف البحري مقابل الفندق. كان جرذاً بحجم رجل وبربطة عنق كما خيل إليه.

سمع القرع ثانية، وقبل أن ينهض انفتح الباب من تلقائه ودخل عجوز ستيني ميّز فيه السيد رفيق مدير الفندق الذي رحبّ به في الليلة السابقة حين قدمته إليه الست سليمى صديقة زوجة صاحب الفندق.

قال: صباح الخير، وبالأحرى ظهر الخير. هل نام مولاي جيداً؟

خيل إلى عبد الكريم أن نبرة ساخرة تُداخل السؤال.

تجاهل النبرة التي خيل إليه أنها تستخف به وأجاب باختزال مترفع: الحمد لله.

وجرب أن يقلد النبرة التي كان سيتحدث بها الخوالقي الأصلي ابن الرفاهية والعز.

وكرر: الحمد لله.

ـ وهل مولاي مرتاح في جناحه الخاص أم يريد تبديل الغرفة؟ وهل مولاي راضٍ عن الإفطار؟

ـ الحمد لله. كل شيء على ما يرام.

ـ مولاي لا يتكلم بلهجة أهل قهرستان بل بلهجة أهل لبنان.

ـ أمي لبنانية كما يعرف الجميع وتعرف.

ـ مولاي ليس مولاي.. فأنا أعرف صوره وشاهدته مرة من بعيد في حفل استقبال في فندق آخر كنت أعمل فيه. فمن هو مولاي الذي أمامي؟

لا جدوى من المكابرة. هكذا قال عبد الكريم لنفسه وقد تم إرخاء الخيوط التي تملي عليه تصرفاته وأقواله وأفعاله، تراخت ربما لتفسح المجال للحظة اعتراف يتوق إليها بقدر ما يتوق إلى انتحال صفة غريمه: حسناً. أنا عبد الكريم الخوالقي وأبي ليس رئيساً للوزراء بل هو موظف في البلدية! ولكن اسمي حقاً هكذا، وليس اسماً مستعاراً وجواز سفري غير مزور.

ـ هل تنوي الذهاب الآن إلى المصرف لسحب عشرة آلاف دولار من رصيده لمجرد تشابه الأسماء؟ هل تنوي أن تعتاش من ذلك؟

شعر عبد الكريم بالخجل من رجل في سن والده يؤنبه، لكن مدير الفندق رفيق تابع بهدوء: إنها فكرة ممتازة تستحق التهنئة عليها، باستثناء أن بوسعك ـ بمساعدة مني ـ أن تربح مئة ألف دولار من انتحال صفته بدلاً من عشرة آلاف

دولار! بوسعي أنا أيضاً تأمين تقاعدي انطلاقاً من فكرتك ولذا جئت إليك. وأنت لست «فارغاً» بقدر ما كنتُ أعتقد، إنك مليء بالصفاقة وسم الغيرة وهذا مفيد جداً للعمل الذي نعتزم القيام به.

ذهل عبد الكريم. كان يتوقع أن يتصل رفيق مدير الفندق بالبوليس للقبض عليه، أو على الأقل يؤنبه كأب على صفاقته واحتياله ويحذره من مخاطرهما. ولكن لا، ها هو يحتفي به ويشاركه ويخطط للربح الحرام معه.

غمر الارتياح قلب عبد الكريم لكن رفيق أضاف بلهجة شبه تهديدية: بوسعك طبعاً تسديد أجرة ليلة في «السويت» مع الإفطار، أي خمسماية دولار والانسحاب.. بل بوسعك البقاء ما شئت ما دمت تسدّد الفاتورة.

قال عبد الكريم مذعوراً: لا أملك حتى ثمن الهدايا لشقيقاتي وأبي، ناهيك عن زوجتي حين أعود إلى باريس، فكيف أسدد أجرة هذا الجناح؟

ـ هذا ما كان عليك أن تطرحه على نفسك حين تمددت كالتمساح بين الملاءات الحريرية بدلاً من العمل في القبو على غسلها وكيّها للزبائن من أمثال عبد الكريم الخوالقي الأصلي!

ـ ....

ـ بالمقابل، ربما كان بوسعنا أن نجد مخرجاً، نربح منه معاً مبلغاً ما كنا لنحلم به، وبدلاً من العمل شهراً في «السوسول» في الغسيل والكي، أو الذهاب إلى السجن والفضيحة بتهمة الاحتيال وانتحال صفة، سيكون بوسعك تسديد أجرة جناحك الفاخر بل والبقاء فيه مجاناً لفترة أسبوعين ناهيك عن العودة بهدايا ثمينة إلى زوجتك وأسرتك...

سأله عبد الكريم بلهفة: كيف؟

قال رفيق بهدوء ووجهه المحنك يسيل دهاء: عليك أن تظل عبد الكريم الخوالقي الأصلي وهذا كل شيء!

ذهل عبد الكريم فهو لا يتوق لشيء آخر، لكن السيد رفيق أضاف: ستكونه وتوقع بعض العقود وتقبض آلاف الدولارات ونتقاسم المبلغ ويمضي كل منا في سبيله. وإذا انكشف أمرك سأساعدك على الهرب، لكنني سأقول إنني لم أكن أدري أنك مزور، ولستُ مسؤولاً عن أفعالك. تذكر أن بوسعك التراجع عن كل شيء، أما إذا قبلت عرضي فعليك أن تمضي به حتى النهاية.

شعر عبد الكريم بالهلع كمن يوقّع عقداً مع الشيطان أو يبيعه روحه ووعى أن

اللعبة أكبر منه ومن احتيالاته الصغيرة السابقة لكن الخيوط التي رُبط إليها لجمته، وأضاف رفيق: إذا أطعتني طاعة عمياء لن يحدث أي مكروه.. وسنربح معاً ونحسّن حياتنا البائسة التي سرقها أمثال الخوالقي الأب ونجله.. أنا أكره الخوالقي الابن والأب المتعجرفين ولا يهمني حقاً انتحالك لصفة أي منهما.

كاد عبد الكريم يقول: أنا أكره الابن حتى القتل. أشعر أنه سرق مني حياتي.

أنا لم أنتحل اسمه، هو سرق الاسم بوصوله إلى كوكبنا قبلي حيث استولى على ميراث الاسم ولم يترك لي شيئاً. سرق دوري في الحياة وترك لي الفتات، هو السارق الحقيقي.

وكاد رفيق الستيني المحنك يقول لعبد الكريم المنفعل أمامه إنه بحاجة إلى علاج نفساني عند طبيب اختصاصي بالأمراض العقلية والنفسية، ثم أحجم عن ذلك. لا تهمه حقاً مصلحة هذا الشاب «المهزوز» بل مصالحهما المالية معاً.

ومن المربح والمناسب لخطته أن يظل هذا الشاب يتوهم نفسه الخوالقي الحقيقي، وذلك ليقوم بلعب دوره بإتقان ويصدقه الآخرون ريثما يدفعون القسط الأول (الرعبون). إذا لم يدخل في دوره ويتلبسه ويصدقه لن يكون مقنعاً ولن يحتالا بدولار واحد! أضاف رفيق: أنا سأحضر الزبائن وأوضب عقود الاستثمار في قهرستان وقال لنفسه: **المطلوب من هذا المدعي المرشح للانهيار العصبي التوقيع وقبض الدولارات وهذا كل شيء. سأستولي على المبالغ كلها طبعاً فقد تعبت من لعب دور «الآدمي» في مدينة «الشاطر فيها بشطارته»!** اختصر رفيق القضية بسؤال تجريبي: إذاً أنت الخوالقي نجل رئيس الوزراء؟ مد عبد الكريم يده إلى رفيق ليقبل خاتمه قائلاً بصوت ليس صوته أذهل رفيق: طبعاً أنا الخوالقي الأصلي؟ من كنتُ تظنني؟!...

* * *

استيقظ فواز على صوت مطرقة حديدية تضرب. تضرب.

دهش ثم تذكر أنه في بيروت. خرج إلى الشرفة يستطلع بوادر عودته إلى المجهول.

في الضوء الفضي الآسر للفجر، شبه الساطع قياساً إلى مألوفه في باريس، شاهد دكاناً لتصليح السيارات على الرصيف الثاني، واحدهم يعمل بنشاط. شاهد المنارة وكاد يغصّ. لم يرها منذ... منذ متى؟

عاد إلى النوم على موسيقى شخصين يتحدثان في الشارع بصوت عال من

دون أن يكون في الأمر أي شجار، وعلى صوت عمته وهي تزجر بنشاط مصلح السيارات وتقول له بنبرة فخر إن ابن شقيقها العائد من باريس نائم. هدأ الطرق.

استيقظ من جديد على صوت باب بيت عمته يقرع. خاف قليلاً، وظن مصاباً قد وقع إذ لا أحد في باريس يقرع باب الآخر باكراً هكذا إلا إذا وجدوا جثة في المصعد مثلاً. سمعها ترحب بأكثر من قادمة، وعلت همهمة أليفة نسائية تتداخل وتتعالى حتى في همسها كمن يحيك مؤامرة لطيفة بخيوط التنباك ودخان النارجيلات. أصوات لطالما أيقظته طفلاً. عاد إلى النوم. يغرق ويطفو وسيمفونية الأصوات البيروتية الأليفة تتعالى وتوقظه من جديد مضمخة برائحة المناقيش الشهية وأبواق السيارات وتصايح المارة و«رندحة» الجارات عن الشرفات. نهض من فراشه من جديد ونظر من الشرفة، فوجد بائع المناقيش الملاصق لدكان تصليح السيارات وقد تحول إلى ما يشبه المنتدى الاجتماعي وعلى الرصيف تظاهرة من سائقي التاكسيات، يلتهمون المناقيش على عجل، وشطائر تشبه «اللحم بعجين»، وسائق «الباص» يوقف الحافلة ويهبط لشراء منقوشة! كاد فواز ينفجر ضحكاً أمام مشهد مألوف لامألوف في آن..

كان ما يزال منهكاً بحاجة للنوم بعد البارحة وتوتره في مطار باريس الذي أعقبه استرخاء لذيذ حين أحاطت به الوجوه المحبة الأليفة في المطار والسيارة.. علق بذاكرته وجه سعيد الذي كان جالساً في المقعد الأمامي قرب السائق. **قدّم لي نفسه على أنه سعيد ابن عم والدي والرسام الوحيد في الأسرة مضيفاً أنه ليس اسماً على مسمى وليس سعيداً، لكنه بدا لي فرحاً كطفل بعودتي من عاصمة الفن كأنني ممثل لكل العباقرة الذين أقاموا فيها أو مروا بها كبيكاسو ودالي وحتى ماغريت عابر السبيل. ثم فهمت سبب فرحته: إنه يكنّ لأبي حباً وإعجاباً فهو الذي «خرّب حياته» حين نصحه بأن يتبع صوت قلبه لا أسرته ويصير فناناً ما دام يحب ذلك!**

فواز نظر إلى ساعته فوجدها تشير إلى العاشرة بتوقيت باريس. فرح لوجود الحمام داخل غرفة عمته كي لا يضطر إلى الخروج ومواجهة أولئك الناس كلهم الذين قدّر أنهم احتشدوا عند عمته بانتظاره كما يستدل من الضجيج الذي يتعالى كل لحظة في مسامعه ناهيك عن قرع الباب بين آن وآخر، بينما كان ينام ويصحو على مطرقة أو بوق سيارة، ويطفو ويغرق..

ما كاد يرتدي سرواله وقبل أن يرتدي قميصه فتحت الباب عمته بعدما قرعته وهي تدلله وتغمره بصباح الخير المفخمة المدججة بصوت له رائحة الوزال والزنبق المضعف والقرنفل والغاردينيا وسواها من الأزهار المحببة في بيروت، والتي كانت

مزروعة فيما يبدو في حديقة البيت العتيق كما تردد أمه في باريس ملتاعة. عمته تضيف قائلة: أمك تطلبك على الهاتف.

ما كاد يرتدي قميصه ويغادر الغرفة حتى هاجمته أسراب من الابتسامات والوجوه التي تسكّع فوقها الزمن والهموم ولكنها متهللة بحضوره.. وجوه أيقظت ذاكرة مطمورة. قالت إحداهن: هل تذكرتني يا حبيبي.. أنا سلمى ابنة عم والدك كنت تلعب صيفاً في حديقتنا في عاليه. أضافت أخرى: وأنا سعاد يا حياتي. كنتُ أوضّب لك ولابني الحلوى بـ «الشوكولاه» وكنت تعشقها. قال لها: ما زلت أعشقها.. فكادت تضمه إلى قلبها. قالت ثالثة ما تزال علامات الجمال الغابر تتوج وجهها: وأنا نعمة، كنتُ أعطيك دراجة ابني في عيناب لتلعب بها.. أدهشه أنه لم يهرب من حصارهن الناعم وعناقهن له، بل أقبل بشوق على دفء قلوبهن كمن يشرب من نبع في الجبل سبق له أن عرفه طفلاً.

سلم على الذكور، ولاحظ أن الفنان سعيد من بينهم وشعر بخيوط ألفة بينه وبين الحضور ووعى غياب العقلانية عن أسلوبه في التفاعل مع من حوله، كأنه يكاد يفقد السيطرة على ردود فعله ومشاعره. وحين سألته أمه في مخابرتها الهاتفية هل هو بخير لم يكن يكذب حين أجابها: بألف خير. وكان في حقيقة الأمر قد استعاد قلب القبيلة من اللقاء الأول باستجابته الطفولية لمشاعرهم.

أمه سألته بشيء من القلق: أسمع ضجيجاً عندك.

قال: إنهم أهلك وأهل أبي.

أضافت: تذكّر أن تجد محامياً.. ولا تثق بأحد! لا تصدّق أحداً في بيروت. أنجز أعمالك بسرعة وعد إلى باريس.

حين غادر البيت ظهراً كان محاطاً بتظاهرة عائلية والكل ذاهب للغداء عند خاله الذي قام بدعوة الجميع على شرف فواز. دبّ شجار في المرآب فهم منه فواز أن الزوار صفوا سياراتهم في مواقف ليست لهم، وخيل إليه أن أحد الغاضبين على وشك أن يشهر مسدسه، فخاف وهرب من المرآب وأحدهم يصرخ في وجه «عدوه»: ألا تعرف من أنا؟ هرول فواز مذهولاً مبتعداً لأن خلافاً تافهاً كهذا يستدعي شجاراً حتى إمكانية شهر المسدسات بدلاً من اعتذار المخطىء المخالف للقانون.

ولحق به سعيد قائلاً إنه ليس بحاجة لانتظار نهاية الشجار فسيارته ليست في المرآب وها هي متوقفة على الرصيف الثاني لبيت العمة ناديا.

وغادرا المرآب. شعر فواز بغرابة الأشياء: الدعوة للغداء على شرفه لكن أحداً لم

يستشره أو يسأله رأيه. **إنهم يدللونني ويقومون بسلبي فرديتي وأنا مستسلم وسعيد كأنني أحبهم حقاً!** إنه جزء من قبيلة، وعليه أن يتقبل «الوجه الثاني للعملة» بلغته العملية.

السيارات تتدفق في الشارع المزدحم، لكن سعيد ذهب إلى الرصيف الثاني وهو يتحاشاها بإهمال اللامبالي. أما فواز فلم يجرؤ على قطع الشارع، بحث عن إشارة ضوئية خاصة بالمشاة فلم يجد شيئاً كهذا.

صار سعيد يشير إليه ليلحق به وهو يظنه لا يراه لكنه تحجر على الرصيف في مكانه وأدرك كم هو عاجز حتى عن قطع الشارع ناهيك على الحياة في مدينة أدرك منذ إيقاظه فجراً على قرعات المطرقة كما في مسرح إغريقي مأساوي أنه شبه عاجز عن التكيف مع نمط حياتها لكن قلبه يحبها. **أم تراني سأتكيف وأتأقلم مع الزمن؟ ولماذا أفعل؟** لم يتحرك أو يجرؤ على مغادرة الرصيف إلى الآخر إلا حين جاء سعيد وأنقذه بفوضى مماثلة لفوضى السيارات وهو يشير إليها كي تتوقف ويشتم وبدا عليه السرور بهذا الدور، كأن فواز أعطاه فرصة لإخراج عدوانية دفينة بل واستعراضها تحت الشمس.

الشمس.. آه الشمس. لاحظ فواز سطوع الضوء الباهر وقال شيئاً عن الإضاءة فأجابه سعيد متعجباً وهو يقود سيارته كالثمل ويكاد يصطدم بسيارة أخرى دون أن يلحظها: تتحدث عن الضوء كفنان لا كموظف كبير في بنك.

اعترف له فواز ببراءة: أعشق الرسم. كنت أتمنى أن أكون رساماً بل ودرست فن الرسم حين التحقت بدورة لذلك صيفاً في متحف اللوفر، لكنني مجرد ابن مهاجر فقير في محيط عدواني، لذا قررت الانصراف لعملي المصرفي.

قال له سعيد بذهول: فقير؟ من قال لك ذلك؟

ـ والداي..

ـ ربما خلال الحرب. كنا جميعاً فقراء نحن الذين ابتلوا بأن يكونوا ملاكين في بيروت ولكن ذلك انقضى، وأنت شاب ثري.. لديك أملاك ورثتها عن والدك.. البيت العتيق وحده يساوي وزنه ذهباً لكنك لن تبيعه طبعاً.

حتى قريبي الفنان صار يقرر عني!

ظل فواز صامتاً. كاد ينسى أنه جاء إلى بيروت خصيصاً لبيع البيت فقد «دوّخته» القبيلة. بالمقابل، شعر بلدغة ندم لأنه لم يتفرغ للرسم الذي يحبه كجزء منه. **لستُ فناناً أصيلاً، فالفن جزء مني يخضع للعقل والمصالح. جاءه صوت آخر من قاعه: ماذا لو كنت موهوباً؟ أجاب نفسه كمحامي الشيطان: لو كنت موهوباً لما تخليت عن الفن!**

كعادته كل يوم منذ وصوله في الربيع الماضي إلى بيروت من بلده قهرستان، جلس الشرطي السابق إسماعيل فوق صخرته الخاصة به على كورنيش المنارة يصطاد الأسماك، وما تكاد سمكة تعلق بصنارته بعد انتظار ساعات حتى يعيدها إلى الماء ويعود من جديد إلى صيد السمك! وكان الصيادون حوله يتندرون بجنونه، ويحبون ذلك الكهل الغريب الصامت الذي يكلمهم بالعربية النحوية إذا نطق. **منذ وفاة ابني أدهم في السجن الرهيب لرئيس وزراء ديكتاتور بلدي قهرستان وأنا لا أحلم بغير الانتقام من رئيس الوزراء أبو عبد الكريم الخوالقي، بإحراق قلبه بالمعنى الحرفي للكلمة: أي بقتل ابنه عبد الكريم كما سبق له أن قتل ابني أدهم تعذيباً حتى الموت.** رفاقه من صيادي بيروت الهواة أو المحترفين يجهلون أن ذلك الصياد الذي يعيد إلى البحر ما يصطاده حياً لم يكن دائماً مختلاً كما يبدو لهم وليس من مرتزقة حرب لبنان التائبين، لكنه شرطي متقاعد من قهرستان يدمي قلبه أنه كان يعرف جيداً معنى ذلك السجن الرهيب الذي زجوا بابنه فيه ونسوه، ولم تنفع شفاعة ولا وساطة للتذكير به.

سجن لا ينجو منه هارب بل يموت عطشاً في الصحراء ريثما تقدده الشمس أو تلتهمه الجوارح وهو يحتضر عاجزاً عن دفعها عنه، تلتهمه في تعذيب بطيء مرير لكنه أقل مرارة مما يلقاه السجين في جهنم تلك، وأنا أدرى الناس بذلك بحكم عملي سجّاناً هناك طوال ستة أشهر ريثما أنعم الله عليَّ بمرض القرحة النازفة حتى الإغماء، وأحلت على التقاعد قبل أن أبلغ سن الكهولة لا رأفة بحالي بل للخلاص مني بصورة مهذبة، فقد كنت سجّاناً رديئاً مبطناً بالشفقة ينقل أخبار الحي والميت إلى أهل الموقوفين وحتى الرسائل والصور إلى السجناء المتعطشين لمشاهدة وجوه أطفال ولدوا في غيابهم بعدما جاء زوار الفجر واصطحبوهم بينما الزوجة تلد.

يعتقد إسماعيل أبو أدهم أنه أصيب بالقرحة لكثرة ما شاهد من عذابات في السجن، ولكثرة ما لقي من سخرية زملائه الجلادين المتمكنين من عملهم، لعجزه عن ضرب السجناء أو إهانتهم أو حتى نهرهم ورفسهم اليومي، حتى صار مدعاة للسخرية وصاروا يلقبونه بـ «الحرمة» و«الدجاجة» و«البنيّة»، هذا ناهيك عن عجزه عن المشاركة في الغرف المغلقة الراقية للتعذيب بالتكنولوجيا، وبالكهرباء التي تفتقر

إليها القرى المحيطة بالسجن الرهيب إياه. فقد أغمي عليه في الجلسة الأخيرة والأولى التي أرغموه على «المشاركة» فيها.

كانت غلطتي أنني كنت أشكو لزوجتي الحبيبة هول ما أراه وأسمعه في السجن وما يحدث للسجناء دون أن ألقي بالاً إلى ابني الذي يدرس في ركن الغرفة الوحيدة في البيت حيث نأكل وننام.. لم يخطر ببالي أن أدهم ابن العاشرة كان ينصت بإمعان، وبعدها بعشرة أعوام، حين تفجرت كراهيته للحاكم ورئيس وزرائه المزمن، في تظاهرة جامعية ساهم في تنظيمها، زج به في السجن الصحراوي إياه وامتلأ قلبي شعوراً بالذنب: تراه كان يسمعني وأنا أشكو لأمه همومي ولذا تحول إلى معارض للحاكم ولرئيس وزرائه الجلاد أبو عبد الكريم الخوالقي؟ من مأخذ زملائي السجانين عليَّ حبي لزوجتي، وكانوا يتندرون بذلك وبلهفتي على الذهاب إلى بيتي ورفضي مشاركتهم بعض اللهو بعيداً عن «حريمنا» ومع «حريم» من نمط آخر..

حين ماتت زوجتي حزناً على ابننا الوحيد وقهراً قررت أنني مت ولم يبق حياً في قلبي ونضراً إلا شهوة الانتقام بها أحيا وبعدها سأموت. لكن قائمة الذين سأكرس حياتي للانتقام منهم بقتل أحبائهم طويلة وسيأتي بعد الخوالقي فرخ الأفعى كثيرون وكل منهم محروس أكثر من كنز. حين صار لدي «هدف» واضح هو الانتقام شفيت قرحتي وازدهرت صحتي وصرت أكثر مهارة في إطلاق الرصاص، ولم يكن صعباً في بيروت أن أشتري مسدساً له كاتم للصوت بانتظار الزيارة القادمة لابن رئيس الوزراء الذي أحرق قلبي..

لماذا بيروت؟ لأنه يستحيل الاقتراب من فرخ الأفعى الخوالقي في بلدي، أما في بيروت، فإمكانية القتل أكثر يسراً ولينتحب والده كما انتحبتُ وزوجتي طويلاً. كنت أفضل تعذيبه ببطء حتى الموت كما عذَّب زبانية والده ابني ليتعذب والده كما أتعذب في كل لحظة وأنا أتخيل مصير ابني الذي حملته بين ذراعي طفلاً دقيقاً ناعم البشرة داكن السمرة كبشرة الرمل لحظة الغروب وطراوة النسيم.. ولكنني أعرف أن اختطافه لأجل ذلك ليس سهلاً وأنا أعيش في غرفة حقيرة من راتبي التقاعدي الحقير وعملي البائس في صالون قص شعر الكلاب وتقليم أظافرها الذي يفتح أبوابه يومين في الأسبوع فقط. وأقوم بتنظيف المكان وبقايا أوساخ القطط والكلاب وتعقيم الأدوات للسيدة وهي تقوم بالحمامات الطبية للكلاب المرفهة والقطط وتلاحقها بالتطهيرات المعطرة ضد الطفيليات وتقص شعرها وتقلم أظافرها وأتذكر أظافر ابني المعذب في سجن لم تتح له فيه فرصة الاستحمام قبل الموت ولا بعده، وأكاد أصاب بالجنون، أم تُراني جننت دون أن أدري كمعظم الناس؟ أقضي أيامي وأنا

كالصقر الصحراوي المتنبه أترصد وصول عبد الكريم الخوالقي لأقتله. أمسح الغبار عن دُمى الكلاب والعظام البلاستيكية التي تلعب بها وتدرب أسنانها وأتساءل بحرقة: تراهم اقتلعوا أسنان ابني إمعاناً في تعذيبه أثناء احتضاره كما فعلوا ببعض السجناء؟ فمأساتي أنني أعرف الإجراءات المرعبة في ذلك السجن الرهيب لتخويف بقية الناس. أمسح الغبار عن المعلبات الخاصة بالكلاب وأنظف غرفة طبيبها الملحق بصالون الرفاهية وعن فيتاميناتها وأدويتها وأشعر أنني قد أكون مجنوناً لكن العالم أكثر جنوناً مني.

اقترب من إسماعيل رجل وقال له بلهجة لبنانية غير زائفة تختلف عن لهجة بعض الذين يستوطنون لبنان مباهين بتقليد لهجات اللبنانيين مثل مهرجين بماكياج ساح: عبد الكريم الخوالقي وصل إلى بيروت وحلّ في فندق الأمراء على غير مألوفه، فهو يحلّ عادة في شقته أو في فندق «البريستول»، ولا أدري لماذا بدّله. صار بوسعك الذهاب للتسوّل منه، فأين مكافأتي؟

كان إسماعيل قد ادعى أنه يريد الاطلاع على نبأ وصول ابن رئيس وزراء قهرستان ومكان إقامته ليذهب إليه وليطلب منه بعض المال باسم المواطنية الواحدة والصدقة، مدعياً أنه سيتقاسم المبلغ مع المخبر الذي يبلغه بحضوره. وهكذا صادق العديد من موظفي فتح أبواب فنادق النجوم الخمسة في بيروت والمخبرين الذين وجدوا في ذلك وسيلة للتكسب والعيش في أزمنة صعبة تسلل الفقر فيها حقاً إلى بيروت وثقب الجوارب الصوفية كلها، فصار يبلّغ من يهمه الأمر من الصحافيين وسواهم عن الآخرين في أيام يتكالب الناس فيها ويتشاجرون على براميل القمامة في الأحياء الوجيهة لتحصيل اللقمة.

أجل في البداية قررت قتل الوالد الخوالقي شخصياً للانتقام بدلاً من الابن، لكن ذلك محال، وأعرف ذلك من خبرتي كشرطي سابق حرسه مرات وأنقذه بإخلاص من محاولة فاشلة لاغتياله ـ للأسف ـ ثم ما جدوى أن أقتله؟ ألأريحه؟ لو قتلني لأراحني.

لا سأقتل ابنه. ما من حسرة أخرى يمكنها التسلل إلى قلب ذلك الجلمود. حسرة ستنخر قلبه حتى الجنون كما تنخر قلبي مثل موجة تأكل صخرة ليلة بعد ليلة.

قال إسماعيل للمخبر الباحث عن رزقه: هل تعرفه أنت؟ هل تستطيع إرشادي إليه؟ المشكلة أنه يمنع تصويره ويرفض نشر صوره.

أجابه المخبر: تصادف مروره برفقة مدير الفندق رفيق وأنا أتحدث مع الموظف عنه، وأرشدني إليه. الكل في بيروت يعرف أنه يتردد علينا كثيراً لصفقاته

وللقاء عشيقاته وبينهم الراقصة المطربة إياها.

قال إسماعيل: سأنقدك خمسين دولاراً الآن إذا رافقتني لنرابط قرب مدخل الفندق وترشدني إليه حين يغادره.

ـ وإذا لم يخرج؟

ـ سأدفع لك المبلغ ذاته كل مرة ريثما يغادر الفندق. لنْ أحرجك، ولن أكلمه بحضورك بل سأعود إليه في اليوم التالي فاطمئن!

أعجبت الصفقة اللبناني المفلس، فهي لا تؤذي أحداً. الكل رابح بما في ذلك نجل رئيس الوزراء الذي سيربح الصيت الحسن وسمعة عمل الخير مع بائس آخر فلمَ لا؟

بل إنه قد يجدها مناسبة ليوحي بنشر الخبر عنه كمحسن كريم ابن محسن كريم إلى أحد الصحافيين الكثر الذين يحومون حوله بحثاً عن لقمتهم مثلي.

هل تبقى شيء آخر نفعله في مدينتنا التعسة المعلقة بين اللامكان واللازمان؟

* * *

آه كم أفتقد قرية القرميد والشلال.

أنا ناجي الذي استطاع النجاة من الحرب اللبنانية ورحل لكنه لم ينجُ من أحابيل الغربة. كم أفتقد سنديانة الساحة واللعب طفلاً تحتها، أفتقد الأفق والرحابة والغابة والمراعي ورائحة العشب في الجبال والوديان وصياح الديكة في صباحات تتنهد الضوء والشمس. الغابات شاسعة في باريس والشلالات أعلى في نياغارا لكنني أفتقد أشجاراً مضمخة بعطر طفولتي ودفء قلب قريتي.

فكيف أعيد قريتي إلى ما كانت عليه قبل أن..

وكيف أعود إلى حضن الذين أحبهم وأقول لهم إنني أخطأت في البحث عن كنوز مغارة «علي بابا» في الغربة وأنها بالتأكيد تقع في إحدى مغاور قريتي، في جبلها بالذات.. وإننا دائماً عميان حين يتعلق الأمر بما هو في متناول يدنا ونفتش عنه دائماً في البعيد.. ونخسر مرتين، الكنز والزمن كما كان يكرر لنا شاعر يزور مطعمنا ويثمل كل مرة خلال العشاء ويلقي نصائحه وقصائده وهذيانه علينا!

أأنا عائد إلى قريتي أم أنها العودة إلى الوهم؟ ثمة لحظات أتمنى فيها إعلان فشلي كمغترب والعودة إلى قريتي لكنني لا أجرؤ. سيسخرون من عودتي المهزومة كأن شيئاً من «قيمتي» سينقص بعودتي. لو أعترف لهم أننا أحياناً نفتش عن «الشيء الصح» في «المكان الخطأ» وهذا كل ما في الأمر. وحدها أمي تستطيع أن تحنو على

ما تقدم من أخطائي وما سيجيء.

لا أحد يحبني في هذا العالم المتوحش غير أمي. وحدها تسيل ضوءاً حاراً حين تقبّلني أو تنظر إلي ووحدها ما تزال تدرك أنني طفلها المسكين المذعور من عالم بلا رحمة يلتهمني قضمة بعد أخرى، مترو بعد آخر، وجبة طعام أقدمها في المطعم بعد أخرى، كابوساً بعد آخر.. وحدها تتعاطف مع وحشتي في مدينة شاسعة اسمها باريس، أحمل جنسية دولتها لكنني أشعر في كل مكان فيها كما يشعر «ابن الحرام» في اللقاءات العائلية الحميمة: إنه منهم وليس منهم، وينظرون إليه شذراً وإذا لاطفوه فترفعاً منهم واستعراضاً لإنسانيتهم على شاشة اختلافه، كما كان يكرر ذلك الشاعر كلما ثمل.

كان ناجي قد استيقظ في الفندق البائس في الزقاق الكئيب المتفرع من شارع الحمرا على عضة «بقة» موجعة، وارتدى ثيابه على عويل أبواق سيارات تتزاحم على دروب مسدودة بسيارات أخرى.

اتخذ عدة قرارات تخص تلك الزيارة إلى قريته.

لن يشتري هدية لغير أمه، سينفق نقوده التي يحملها على تلك الهدية، أما بقية أفراد الأسرة فأياً كان ما يشتريه لهم فهو دون تطلعاتهم، وسيسخرون منه!

اشترى لأمه الإسوارة الذهبية المبرومة التي تكاد تكون نسخة عن إسوارتها التي باعتها قبل أعوام طويلة إكراماً له، ليبتاع بثمنها بطاقة سفره إلى باريس.

قرر أيضاً أن يطلب من والده في القرية أن يكف عن تقديمه على أنه صاحب المطعم، ويصارح الجميع بواقع الحال ويغادر لعبة التشاوف والثراء الموهوم التي سايرها في رحلاته السابقة.

سيداعبونه وقد يسخرون منه ولكن المرء لا يستطيع أن يبني عمره كله على كذبة مدّعياً أنه صاحب مطعم في باريس وهو النادل.

جاء عبودي الكذاب ولم يقل له ناجي شيئاً على سبيل العتاب على كذبته عن شادي حين ادعى أنه شقيقه. فهو أكثر كذباً منه وحياته بأكملها كذبة.

ظل صامتاً طوال الدرب على الرغم من محاولات عبودي الكذاب لجره إلى حوار ما.. أي حوار. أخيراً وصلا إلى مشارف القرية. شاهدها في الوادي وسط خضرة غابة متآكلة التهمتها المباني التي يعيّره والده بأن مغتربين مثله شيّدوها، ووداعاً لغابة ما زالت بقاياها تغطي بيوتاً قرميدية عتيقة كبيت جده. كيف استطاع أن يبقى بعيداً عنها هكذا مدفوناً في جحره الباريسي مسمراً أمام التلفزيون يأكل

الطعام المثلج ويدفن وحشته بين آن وآخر في أعناق بنات وأبناء الهوى «الترافستي»، ويكتب الرسائل الكاذبة إلى أصدقائه في قرية السنديانة والخضرة، مباهياً بنجاحه وبعزه ومطعمه الناجح متظاهراً بأنه في رحلة عمل كلما فكر أحد منهم في الالتحاق به أو زيارته لاستكشاف إمكانيات العمل مع صديق الطفولة المغترب الثري صاحب المطعم الباريسي! **لطالما ارتعدتُ خوفاً من زيارة مفاجئة من أحدهم إلى العنوان الفخم الذي أقيم فيه.**

كانت غلطتي أنني جاريت أبي في لعبة التشاوف بل واستمتعت بها حتى أنني حين صادقت عاملة تنظيف في فندق فخم في أنتيب الريفييرا الفرنسية جاءت تقضي إجازة باريسية، طلبت منها أن تحمل لي في إجازتها القادمة أوراقاً ومغلفات للمراسلة تحمل شعار الفندق واسمه بماء الذهب لأكتب عليها الرسائل بين آن وآخر مدعياً أنني أقضي إجازتي هناك في المنتجع الفخم لنجوم السينما وأصحاب الملايين.

أتوق لمشاهدة وجه أمي حين أحيط معصمها بالإسوارة وحين تعرضها بفخر على الجارات وتلفت أنظارهن إلى أن إسوارتها الذهبية العتيقة التي باعتها إكراماً لي لم تكن برأس أفعى بعينين من الماس الكبير كما هذه الإسوارة الثمينة.

على مشارف القرية، طلب ناجي من السائق التوقف قليلاً ليدخنا لفافة وكان في حقيقة الأمر يريد أن يتأمل قريته من بعيد وسط ذلك الهدوء الآسر الذي تزينه قهقهات أولاد يتمشون على طريق «الكروسة».

سأل الصبي الذي يركب عصا كما لو كانت حصاناً أو مكنسة سحرية يطير بها فوق الغيوم كما كان ناجي يفعل طفلاً: أسمع أصوات صلوات آتية من القرية، أم أنني واهم؟

ـ أم ناجي أعطتك عمرها..

كاد يسأله: هل تقصد أمي أنا؟ ثم تذكر أن هذا الصبي ولد بعد مغادرته القرية ولا يعرفه وربما لولا لهجته المشابهة لبقية أهل القرية لما حظي بإجابة..

ـ أم أي ناجي؟

ـ أم ناجي الخياطة.. هل تعرفها؟ ومضى الصبي حتى قبل أن يسمع الإجابة.

لا يدري ناجي كيف غالب دموعه وسائق التاكسي عبودي يواسيه بعدما حاول إقناعه بالذهاب وحضور دفن أمه.. كان ذلك فوق طاقته على الاحتمال فغرق في الصمت طوال درب العودة. كانت ريح باردة تهب من الدرب الجبلية لكنه فتح

نوافذ السيارة كلها وهو يتنفس بصوت لاهث كمن سيُصاب بذبحة قلبية وأدرك عبودي أنه سيصاب بالزكام من جديد ولعن مهنته.

ناجي انتظر بفارغ الصبر عودته إلى غرفته الحقيرة في الفندق ليبكي طويلاً طويلاً.. كأي ذئب هرم وحيد جرحته الحياة لمجرد أنه تصادف أن ولد على حافة حرب مجنونة سرقت منه حياته!

ولن ينسى أنه حين مد يده إلى جيبه ليدفع لعبودي أجرته، لامست يده الإسوارة وخيل إليه أن الأفعى الذهبية لسعته عقاباً وأيقظت الندم في قلبه: **لماذا نتوهم أحبابنا خالدين لا يموتون بانتظار أن نعود ونقول لهم كم نحبهم؟ لماذا رحلت قبل أن أبوح لها بكل ذلك الحب، بكل ذلك الألم، بكل ذلك الكذب الذي اقترفته؟ ألأن أمي امرأة ويعز عليَّ البكاء أمام امرأة حتى ولو كانت أمي؟ كيف نستعيد الذين أحببناهم لنبوح بحب كنا نظن أن ثمة وقتاً لنقوله لهم؟ كيف كيف كيف؟**

عينان. عينان لامرئيتان تراقبانني أكثر من أي وقت مضى وأنا أستقل السيارة التي وضعها أحد أبناء عم أبي في تصرفي وأكاد لا أصدق أنني سأصل أخيراً إلى البيت العتيق، حياً! فقد كاد سائقا تاكسي يدهسانني في غمرة شجارهما على من سيقلّني وأنا أحاول قطع الشارع إلى الرصيف الثاني حيث السيارة بانتظاري!

غادر فواز منزل عمته خلسة قبل أن تصطاده لمناسبة اجتماعية يضعف أمامها وتلتهم يومه الخامس في بيروت دون أن يزور البيت. **الفضل لتلك العجوز التي جاءت بلا موعد كما فعل صديقي فؤاد وفرحت به!!**

عينان لامرئيتان تلامسني نظراتهما كالأنامل. أتوق لزيارة البيت العتيق للتعارف مع «البضاعة» التي أحاول تسويقها، فتلك أولى مبادىء مدرسة التجارة التي تعلمت فيها في باريس (H.E.C). نسيت البيت العتيق وعلي كخطوة أولى لبيعه أن أعرفه. حسناً. إنني أكذب ولست ماهراً في الكذب على ذاتي. أشعر بالرغبة في تفقده وهذا كل ما في الأمر. نزوة عاطفية لامنطقية من تلك التي لا أباهي بها ولا أحب أن أضبط نفسي متلبساً بها، ولا أن يضبطني الآخرون. لا أدري لماذا كانت عمتي راغبة في مرافقتي في زيارتي الأولى إلى بيت جد جدي الذي كبرت فيه. ربما خافت ببساطة أن أعجز عن فتح الباب بمفتاح صدىء لقفل لم آلفه.. وربما أحبت أن نظل معاً أطول وقت ممكن. منذ عودتي قبل خمسة أيام من باريس وأنا عاجز عن الاختلاء بنفسي حتى في الحمام إذ تقرع عمتي الباب مرات لتسألني ما إذا كنت بحاجة إلى شيء. لعلها كانت تريد سماع صوتي لتصدق أنني حقاً في بيروت. نهر جارف من الحب ودفء القلب حملني ودار بي بين العيون المحبّة والموائد السخية في بيروت والجبل ودعوات من قبيلتي ومن أصدقاء المدرسة الذين جمعهم فؤاد للقائي، دعوات على الغداء والعشاء وأشخاص بعضهم مضحك كالكاريكاتور وجميعهم بدا لي محباً وطيباً كأنني ابن القبيلة بامتياز، وجوه ووجوه، بعضها بأقنعة تنكرية في سهرات جنائزية مرحة وبعضها الآخر كوجه سعيد الرسام يزداد عرياً لعيني كلما تنكر.. وجوه ما زلت أذكرها ووجوه أتظاهر بأنني لم أنسها كي لا أخدش محبتها.. سألتني: هل تذكرني يا حبيبي؟ تأملت بذهول تلك العجوز الألفية الطريفة

على عكازها وانحنيت فوق يدها التي مدّتها للمصافحة أقبّلها، وأضافت: كنت أداعبك في مصيف عاليه حين كنت طفلاً هل نسيتني؟ قلت لها كاذباً: بالتأكيد لا يا خالة. انشغال عمتي بها يسّر لي سبل الهرب هذا الصباح الجميل الخريفي بروائح ربيعه وزقزقة عصافير قادمة من الحديقة خلف الباب الحديدي الصدىء الأسود لبيتي العتيق الذي لم أنسه يوماً فيما يبدو...

اضطرب فواز حين شاهد الباب العتيق والسور المحيط بالحديقة وقد شاخ واتكأت الأحجار على بعضها بعضاً وقد تساقط عنها الطلاء كشرايين عجوزين يسند كل منهما الآخر. عليَّ أن أركز على ما جئت للقيام به.

جئت لبيع هذا البيت العتيق الذي لا يعني لي شيئاً وهذا كل ما في الأمر. تلهيت عن ذلك عدة أيام بلقاء الأسرة. هذا أيضاً لا يؤذي بيع البيت فقد يشتريه أحدهم. أعدت التعارف مع القبيلة وحتى الذين لم أكن أعرفهم قبل سفري التقيتهم. التقيت بجميع الأهل الذين كان والدي يتخيلهم سيخرجون في جنازته ويساهمون في إعادته إلى ترابه ويؤنسون قبره بزياراتهم. انتهت العواطف وجاء دور العمل.

ترجل فواز من السيارة وأعطى السائق ورقة نقدية كبيرة ونسي أن ينتظر إعادة بقية المبلغ له، ثم وعى أنه لا يستقل التاكسي وأدرك أن مشاهدة البيت أطارت صوابه سواء اعترف أم لا، إذ ما كاد يشاهد الباب العتيق وسور الحديقة حتى استيقظ عالم في صدره كان يظنه منسياً. خيل إليه أن الضوء النهاري الذهبي يتدفق من ثقب القفل الكبير كما من زمان.

إنه الباب الذي طالما دفعته بيد أصغر بصعوبة أكبر كلما عدت من المدرسة.

إنه الباب ذاته بحديده وصدئه وثقله، ولكنه صار أقل ثقلاً وأكثر صدئاً وصريراً، لكنه صرير مألوف مثل أغنية حفظتها في طفولتي وتوهمت أنها غادرت دهاليز الذاكرة. ولكن لا، أنا هنا بعين البائع لا العاشق الطفل ولا مكان للعواطف في التسويق ويجب أن أتذكر ذلك كل لحظة.

ما كاد يخطو عبر الباب إلى الحديقة حتى تسمّر في موضعه ومطر دافىء ومالح بدأ يهطل من حنجرته وهو يرى البيت رابضاً فوق تلته الصغيرة كمخلوق له حياته السرية. الحديقة مهملة متوحشة النباتات. لا يذكرها هكذا.

إنها تبدو لي أصغر مساحة بكثير مما كانت تبدو عليه في أحلامي التي لا أختارها وتدور هنا طوال السنوات الماضية في باريس. البيت أكبر مما كنت أتخيله وأكثر مهابة وحياة وجمالاً ورهبة. الحديقة أقل أدغالاً واتساعاً. كنت أتيه في أدغالها في صغري..

العينان اللامرئيتان تراقبانه . .

لا يدري كيف تذكّر عدد درجات السلم في الحديقة التي تقود إلى البيت العتيق. سبع درجات أولاً، فممر قصير فسبع درجات أخرى. بدأ يصعد درجات السلم وهو يحصيها درجة بعد أخرى كما كان يفعل صغيراً كلما عاد من المدرسة، وإلى اليمين ما زالت غرفة أدوات البستاني المختبئة تحت إبط السلم تثير في نفسه الرعب إذ كان يتخيلها مليئة بأشباح ومناجم سرية وجماجم، وبابها ممر إلى دنيا مسحورة مرعبة ولذيذة.

ما كاد فواز يطأ الدرجة السابعة من السلم الأول للحديقة حتى هاجمه فجأة طائر غامض خيل إليه أنه حمامة سوداء. شاهده فواز وهو ينقضّ عليه ولم يصدق عينيه وغلبت الدهشة عنده على الذعر إذ لم ير من قبل حمامة تهاجم إنساناً وهي رمز المسالمة! . . نقره الطائر (الذي اعتقد أنه حمامة) في جبينه وأوجعه وأخافه وقد احتمى عفوياً من هجومه بيدين غطى بهما عينيه. شعر بأن الدم يسيل من جرح جبينه فمسحه بورقة «كلينكس» وتذكر كم كان والده يترحم على المناديل البيضاء القطنية مضيفاً أنه لولا منديل «ديدمونة» المنسي لما قتلها عطيل وأن للمناديل دوراً في الأدب، **وكنت أتثاءب ضجراً من أبي الموسوعة!**

العينان اللامرئيتان تراقبانني وأراهما دون أن أراهما . . .

نسي فواز جرحه حين أطلت عليه بركة الماء أو «البحرة» كما كان يحلو لأمه تسميتها على طريقة أختها المتزوجة من دمشقي. لا يذكر أنه شاهدها يوماً تفيض ماء وأسماكاً. لا. نعم. لا. نعم. يا للذاكرة المخاتلة. البحرة الآن إلى يمينه جافة. **لقد ولدت يا ابني قبل بدايات الحرب بأربعة أعوام، ولا أظنك تذكر يا ابني أن تلك البركة كانت تلتمع بقاع كالمرآة وجدران من فضة القمر وتسبح في مياهها الصافية المتجدّدة أسماك ملونة ضوئية. هكذا قال لي والدي مرة خلال تسكعنا الأخير معاً في الحي اللاتيني الباريسي. كان دوماً يتحدث عن البيت العتيق كأنه كائن حي وهو عاشقه، وأذكر أنني لحظتها كنت أغلي ضيقاً وغضباً بسنواتي السبع عشرة: يريد أن يعيش الماضي في كل لحظة ويحاول إرغامي على مشاركته ذلك. ألن يدعني وشأني ويختار موضوعاً يهمني كدورة «رولان غاروس» لبطولة التنس؟**

حدّق فواز في البركة جيداً. شاهدها كما تحدث عنها والده، بقاع من مرآة وجدران من فضة القمر وتسبح في مياهها أسماك ملونة ضوئية صغيرة لطيفة. فجأة تنبت أنياب طويلة لبعض تلك الأسماك، وتكبر بسرعة جهنمية وتتوحش، وتنقض على شقيقاتها الأسماك الملونة الأخرى وتبدأ بالتهامها متحولة إلى أسماك متوحشة . .

شعر فواز بالهلع والدوار وتابع تجفيفه لجرح جبينه وهو يرتجف كساحرة شاهدت في قعر الماء رؤيا مرعبة..

توقف فواز يتأمل شجرة البلح الشاسعة التي فاقت بطولها سطح البيت، تحف بها أشجار صنوبر قيل له إن والده زرعها يوم ولادته وكانت باسقة بأذرع تحتضن الفضاء.

هبت عليه رائحة بقية أشجار الصنوبر التي زرعها جده يوم وُلد والده في الحديقة الخلفية للبيت ولا يدري لماذا شعر بلذعة ندم لأنه لم يعد بوالده ليُدفن في بيروت كما أوصاه وأمه...

أتخيل أن أبي كان يتلذذ بفكرة الحفاوة التي كان سيلقاها جثمانه قياساً إلى الذل التي لقيناه على أبواب «البرفكتور»، مقر البوليس، في الفترة الأولى لوصولنا إلى باريس وقبل أن نحمل الجنسية الفرنسية وتصير لنا حقوق الفرنسيين ذاتها. تلك الفترة لطالما أوجعته ودمغته.. ولعلها وراء اهتمامه بالحفاوة بجثمانه ما دامت حياته لم تلق الترحاب الذي كانت تستحق أن تلقاه من أقرانها العقلانيين. فليعد إلى القبيلة التي لا تبخل بحبها على تائب. إنه قانون القبيلة الذي لا يخذل أحداً حين تخذل الإيديولوجيات والعقائد التائهين في أضواء مصابيحها الكشافة كالفراشات المتمردة.. أجل. أتخيل تلذذ أبي بصورة الحفاوة بجثمانه، لكنه نسي أنه لن يكون هناك في موكب الجنازة للاستمتاع بما يدور، أم أن الموتى يحضرون جنازاتهم ولا يُدفنون حقاً إذا لم يُدفنوا كما يحلو لهم، وإذا لم يوافقوا على أن الحياة وفَّتهم حقهم من الحب والحنان وصار بوسعهم الموت بسلام؟

تحسس فواز أشجار الصنوبر التي غرسها والده يوم ولادته، ولاحظ صلابة جذعها الصاعد عالياً. **يا إلهي كم كبرت دون أن ألحظ ذلك! فقد بقيت دائماً ذلك الصبي الخائف من غباء القصف والعاجز عن البوح بهمومه حتى للبيانو كوالده أو للأصباغ واللوحات كما كان يشتهي. بقيت دائماً ذلك الصبي السري المختبىء داخل جسد عملاق بقامة متينة، حين يقترب أحد من قلبي ليسحقه أو من الصبي المذعور ليضيف إلى ذعره أفانين جديدة، يركض الصبي داخل جسدي القناع ليختبىء في أكثر الأركان تهذيباً وعتمة من دهاليز روحي. إنه زمن الطفولة المتنكرة باللطف وزمن السهرات التنكرية للأطفال الموتى الذين تم اغتيال طفولتهم بلا رحمة بالحرب أو بالغربة، أو بالسلم المزوّر.. والنتيجة واحدة.**

بالمقابل، لا أدري لماذا أشعر أن هذه الحديقة تمدّني بالقوة، كما هذا البيت الرابض خلفها الذي لم أره منذ أربعة عشر عاماً..

انحنى فواز على الأرض كمن يركع وتناول عدة أوراق إبرية كانت قد سقطت من شجرة الصنوبر وفركها بين يديه وشمّها وأدهشه أن لا تفوح منها رائحة الصنوبر الأليفة بل رائحة إحراق جثة والده في مقبرة «البير لاشيز» الباريسية، وأذهله أن الأوراق الخضر كانت تتحول تحت أصابعه وأمام عينيه إلى أوراق صفر ثم تجف وتموت كما لو بقدرة ساحر. **لعلي التقطتُ أوراقاً جافة ولم أنتبه لذلك.. للأمر تفسير علمي منطقي بالتأكيد أما رائحة إحراق جثة والدي فقادمة بالتأكيد من داخل رأسي ربما لأنه غارس الصنوبر.. ولكن تلك الريح التي تبعث على القشعريرة وهي تهب من الصنوبر فقط، لماذا لا تحرك بقية أشجار الحديقة؟**

يتأمل فواز البيت وتبدو له النوافذ المعتمة في سطوع الضوء الخارجي الخريفي عيوناً تتأمله بدورها. **لا أدري لماذا أشعر أن كل ما حولي حيّ: الجدران، النوافذ، الأشجار، الإفريز الحجري، الدرجات السبع السحرية الأخرى التي قطعتها كمن يرتقي سلماً إلى أسطورة لا إلى بيت عتيق ينوي بيعه! لقد جئت إلى هنا لأبيعه، كأي شاب فرنسي بحاجة إلى رأسمال وليس إلى عقار ولم أحضر لأتواصل معه..**

أريد تأسيس مكتب أحلامي في باريس للاستشارات الاقتصادية والخلاص من نير العمل بإمرة الآخرين وإحضار من يأتمر بأمري. حلمي ككل فرنسي مهاجر آخر أن أكون حراً أعمل حين أشاء وأسترخي حين يحلو لي كالأثرياء الذين قد يعملون أكثر من موظفيهم جميعاً ولكنهم أحرار في اختيار ذلك. قالت أمي وهي ذاهبة إلى العمل في السابعة صباحاً شتاء والفجر لما ينبلج بعد في باريس: الفقر حتى النسبي حين يكون طارئاً ومفاجئاً، قيد وسجن وإذلال وعليك فوق كل شيء أن تقبّل يداً تشتهي عضها. فمتى تتوقف هذه الحرب اللعينة؟ يومها لم أفهم علاقة الحرب بالمال ولم أدرك أن توقفها يعني أنني لست فقيراً كما أتوهم. لولا ميراثي لما فكرت لحظة بزيارة هذه المدينة تماماً كأمي. وثمة لحظات لا أذكر فيها عن طفولتي إلا الجثة الأولى التي شاهدتها في حياتي وبلّل دمها وجهي في باحة المدرسة وكانت لرفيقي في الصف جورج، وفقدت بعدها لأيام حاسة السمع ظللت خلالها أسمع صوت انفجار القذيفة التي قيل إنها طائشة، وتلك الصرخة الصامتة على شفتي جورج ونظرته المليئة بالدهشة بدل الألم وهو ينهار بذراعين رفعهما في الفضاء كمن يستنجد بغيمة. كم بكيت جورج وما زلت وسأظل..

العينان اللامرئيتان تراقبانه ويعي حضورهما.

كأنه يرى البيت العتيق للمرة الأولى. يراه بعين جديدة. الحديقة المحيطة به

كواحة صارت تتوسط غابة من الحجارة والأبنية الإسمنتية البشعة العالية كأبراج اللعنة.

يتأمل بيته العتيق: الأعمدة الأندلسية الغزلانية الرشيقة. الأقواس الدافئة. الشرفات الدانتيلية المزخرفة بنقوش عربية قديمة. اللون الشمسي الأصفر البيروتي. يمشي صوب الشرفة ـ المصطبة التي تتقدم البيت كما الليوان الشامي ولكن المطروح إلى الخارج للناس، وتتصدر الحديقة كأنها دعوة البيت المفتوح لكل متعب وكرم ضيافة مكتوب بأنامل الحجر.. **مرة قال لي أبي: البيت البيروتي عندنا، بيت يختلف عن البيوت العربية الأخرى ويختلف عن بيت أقربائنا الدمشقيين. البيت هناك قلعة صلدة بنوافذ ضيقة بمشرفيات سرية ولكن شرفاتها تنفتح على الداخل فقط وليس كما عندنا، والجمال هناك لأهل البيت وحدهم ولمن يُسمح لهم بعبور الباب للاقتراب من «البحرة» المختبئة في الداخل كما الشرفات ومصطبة الليوان. هنا في بيروت البيت مفتوح، الحديقة لعابري السبيل والمصطبة لمن يحب الاستمتاع بالضيافة والأنس.**

لاحظ فواز للمرة الأولى أن بيته صورة عن بيروت التي تلعنها أمه في الغربة باستمرار لأنها كريمة هكذا وقليلة الحذر وترحب بكل قادم وطارق باب وطالب أنس أو حماية أو حتى السارق والمستبيح على حد قولها، وكانت تضيف بحرقة: ما في بيتي البيروتي مطروح للخارج، وأجمل ما في بيت خالتك، أختي المتزوجة في دمشق، مختزن في الداخل خلف واجهة حجرية حذرة تتقن إخفاء كنوزها ونسائها وحماية نفسها. **البيت في دمشق يختار من يدخل إليه، البيت هنا مفتوح بكل مزايا ذلك ومساوئه. كانت تكرر ذلك بحرقة وأنا أتثاءب. الآن أفهم كل كلمة.**

للمرة الأولى لاحظ كم البيت جميل. من المؤسف أنني مضطر لبيعه على عجل، وقبل تكريسه بيتاً تراثياً لا يباع كما قالت لي أمي! أجل، لقد تم اتخاذ القرار وانتهى الأمر ولم يعد مضطراً للشجار مع أمه حول ذلك إذ خيل إليه لوهلة أنه لا يريد بيع البيت!

يرى الجرذان تتقافز في الحديقة ويشعر بالغضب. لا. لن يُحضر القطط لتقوم بالتهامها. فؤاد حذّره من ذلك، فقد أُبيدت الجرذان عنده ولكن تكاثرت القطط بطريقة مروعة ولم يعد التخلص منها ممكناً ولا من موائها، إلا بإحضار نمور تلتهم القطط وسكان البيوت معاً كما أردف فؤاد!

ازداد فواز اقتراباً من مدخل البيت. على العتبة شاهد جرذاً كبيراً متربعاً كأنه صاحب البيت ينظر إليه بتحدّ دون أن يهرب حين اقترب منه على عادة الجرذان. لم

يطرده فواز إذ قرر أن التعايش معه قد يكون أهون من التعايش مع القطط فالنمور. إلى يمين العتبة لاحظ حوض أزهار سورياليا نحاسياً أخضر بأزهار هائجة برية صفراء. وتذكر فجأة أنه كان حوض استحمامه طفلاً، الحوض النحاسي الذي كان لجده قبلاً ووالده، لكن أمه طورته بمعونته.. وأنه تولى دهنه بالأخضر مع أمه يوم ٧/ ٧/ ٧٧ حين كان طفلاً إذ يومها عادوا إلى البيت بعد تهجير طال وقالت له أمه إنها ستحفر تاريخ اليوم في الدهان ويذكر جيداً أنه لم يستطع فهم حكاية ٧/ ٧/ ٧٧ بالرغم من محاولات أمه شرح ذلك له. كانت دوماً تتعامل معه كما لو كان أكبر سناً حتى منها، وربما كان يحبها لذلك! تذكر يوم ٧/ ٧/ ٧٧ ولعبه بالدهان على هواه وحوض الاستحمام الذي صار للأزهار. إنها لحظة من اللحظات السحرية العتيقة التي تذكّرها في البيت العتيق.. لن ينسى أن أمه سمحت له يومها بدهن الحوض على هواه بعدما تركته حراً مع الحوض على انفراد يلعب بسلام في منتصف الحديقة مع الدهان والفرشاة وألبسته ثياباً عتيقة معدة للرمي في القمامة. كم انتشى يومها لأنه لعب كما كان يشتهي حراً ولم يعد مهجراً عند عمته أو خاله في بيوت الناس حيث يتوجب الحذر مهما دللوه. ها هو الحوض السحري يبدو متآكلاً منسياً مهملاً. تأمله ولم يستطع أن يصدق أنه كان يستحم فيه ذات يوم وأنه كان طفلاً. شعر أنه ولد في ظل قذيفة، بل داخلها وأطفال أوروبا تحملهم البجعة داخل ملفوفة إلى بيوت آبائهم. أما هو فحمله غراب داخل قنبلة!

كم بدت فكرة بيع هذا البيت سهلة ومريحة وهو بباريس، وكم تبدو الآن مؤلمة. فقد يقومون بهدمه ليشيدوا مكانه ناطحة سحاب بشعة أخرى مرعبة كناطحات سحاب «حي الديفانس» في باريس. ترك الجرذ متربعاً بسلام بل وحياه وبدأ يصعد درجات السلم أمام مدخل البيت. شعر بالأرض ترتج تحت قدميه.

أهو زلزال جديد في بيروت؟ دوماً تحدثه أمه عن زلزال وقع في بيروت قبل ولادته بزمن طويل في الخمسينات ربما عام ١٩٥٦ حين كانت هي ما تزال بعد صغيرة. قالت له إن الهلع أصابها وأصاب الناس وناموا في مكان مكشوف لعله الحرش أو قرب المطار والخراب أصاب النفوس. أهو زلزال جديد آخر؟ لو كان زلزالاً للاحظ حركة غير عادية في الشارع والبيوت المجاورة ولكن كل شيء ظل على حاله فوضوياً وصاخباً وبليداً في آن دون أي تبديل.. أهذا الزلزال في قلبه؟ أم في بيته البيروتي العتيق؟ بل إنه خيل إليه أن البيت يغوص في الرمال تحته ببطء خرافي ولكن باستمرار كأن التربة صارت مستنقعاً للرمال المتحركة أو معدة جهنمية لحيوان خرافي لا يمكن رده كالقدر يريد ابتلاع بيته!

تذكَّر القرميد المكسر المقتلع المغدور ولا يدري لماذا قرر أن يصعد إلى السطح لتفقده قبل الدخول إلى البيت. للقرميد مدخلان: من سلم في مطبخ البيت من الداخل، ومن السلم الخارجي. لا يدري كيف تذكّر ذلك كله. تسلق السلم الخارجي أو سلم الحريق ـ كما كانوا يدعونه ـ الحديدي اللولبي الشبيه بسلالم الأفلام البوليسية وأفلام الرعب حتى السطح، وكان في حقيقة الأمر يريد التجسس على طفل لعله ما زال يلعب فوق السطح اسمه فواز! لم يجده ولم يجد ألعابه، ولكن تصاعدت من البيت موسيقى عزف على البيانو لشوبان ميّز فيها مقطوعة من «النوكتورن» كان يحلو لوالده أن يعزفها له في طفولته. **يدهشني أنني ما زلت أذكر أدق التفاصيل ولم أنس. وهذا المكان ليس مجرد عقار للبيع والهدم يتوسط حديقة بل هو مسقط قلوب أيضاً. لا يعقل أن يكون ثمة من يعزف على البيانو. لعل الغبار يغطي أصابعه منذ فارقته أصابع أبي.**

يمشي فواز ثملاً كالمسحور على سطح البيت ويصل إلى الإفريز الحديدي الأسود (الدرابزين) الذي سوّر والده به السطح حول القرميد خوفاً عليه من السقوط لأنه كان يحب اللعب هنا بدلاً من الحديقة. استند فواز على الإفريز وفوجىء به يهوي تحته، وكاد يهوي بدوره في الفضاء ويقع، بل لعله هوى لكنّ يداً لامرئية سندته أو لعله حافظ على توازنه في ومضة عين.. وفي ومضة قلب قال لنفسه: **هذا البيت يناصبني العداء. الطائر المتنكر في حمامة الذي جرحني. الصنوبر العدواني الذي ماتت خضرته بين أصابعي. الرائحة اللامنسية لإحراق جثة أبي التي فاحت عقاباً. الجرذ المتحدي. صوت عزف الشبح على البيانو.. شبح أبي؟ والآن انتقل البيت إلى محاولة قتلي بإفريز هوى، أهو العتق والزمن أم أن البيت يناصبني العداء وأشباحه تكرهني؟**

* * *

أنجز فواز غزله مع القرميد العتيق للبيت الذي قسا عليه الهجر والحرب والزمن فقد غمره ذعر من الإفريز الحديدي (الدرابزين) الذي هوى تحته وكاد «يغتاله» كما لو دبّت في صدئه حياة غاضبة. هبط عن السطح مشتاقاً لدخول البيت وهو ما يزال يرتجف رعباً من السقطة المحتملة ونفسه تجيش بمشاعر متناقضة مؤلمة. **لماذا خُيل إليَّ أن يداً لامرئية حمتني من السقوط؟**

دار فواز حول البيت العتيق قبل أن يدخل إليه مثل عاشق يريد إطالة أمد اللذة والتوقعات قبل الإنجاز. تلصص على البيت عبر النوافذ كما كان يفعل طفلاً. معظم

النوافذ موصد من الداخل بجفون خشبية باستثناء غرفة الاستقبال. إنها ما زالت على حالها. يتأملها من الحديقة.

يسمع صوت العزف على البيانو المغلق دونما أصابع ودونما عازف. يحدّق بدهشة ولا يرى أحداً. . يتسمر مُنصتاً إلى ألحان شوبان التي طالما عزفها والده. **إنني أسمع بالتأكيد مذياع الجيران أو عازفة ما في بيت قريب.** يحدّق. كأنه يبصر والده شفافاً من ضوء تخترق أصابعه الغطاء الخشبي المغلق على أصابع البيانو وتصل إلى الملامس العاجية وتعزف. ما كاد يحدّق جيداً حتى اختفى شبح والده وبقي العزف.

كان أبي يعزف «نوكتورن» شوبان بعذوبة دامعة وأنا جالس على الأرض لصق مقعده منصتاً بسعادة خرافية. بوضوح استحضر تلك اللحظة وأعيشها بل وأراهما داخل الغرفة، أبي شاباً وأنا طفلاً. لقد أحببته دائماً حباً كبيراً لكنني انشغلت بحياتي الصعبة في باريس كصبي في مدرسة جديدة ولم أبذلِ أي مجهود للتعارف معه من الداخل وجرفني النهر. كنت أظن أن الزمن أمامنا لكنه كان أمامي وخلفه. غمرت فواز لذعة ندم.

اتجه نحو الباب الرئيسي.

لم يعانده القفلِ بل انفتح الباب من تلقاء نفسه كما خيل إليه حين لامسه بالمفتاح وحرّكه قليلاً في الثقب الصدىء. كأن البيت يريد تجديد التعارف معه. كأن الحديد والصدأ وخشب الباب في لحظة حنين إلى الصبي العائد شاباً.

في ردهة الدار وقف فواز مذهولاً. كان كل شيء في موضعه كما يذكره. **يبدو أن عمة والدي التي أقامت في الدار خلال غيابنا إلى ما قبل عام ـ حين انتقلت إلى «دار الكرامة» للمسنين العجزة ـ لم تبدّل موضع كرسي أو لوحة أو حبة خرز واحدة من تلك الملونة التي ما تزال تتدلى من النجفة عربية النقوش في خيوط ضوئية تشع أحياناً بقوس قزح.**

أسمع أصوات همس خافتة لا أميز ما تقوله وتختفي إذا أمعنت إنصاتاً. كأن البيت يتهامس عليّ. كأن الأثاث يسأل بعضه بعضاً من أنا. كأن المرايا تتآمر عليّ وتريد ابتلاعي أم أنه خيالي يتآمر علي؟ هل أظلَمَ البيت حقاً لحظة دخولي إليه أم ثمة غيمة حجبت الشمس وهذا كل شيء؟

يدور فواز في البيت وصوت ألحان شوبان تعلو وتخفت. **إنها بالتأكيد قادمة من داخل رأسي.** هبت من غرفة أبويه المجاورة رائحة ذلك المزيج اللامنسي من العطر المفضل لدى والده ودخان سجائره. **لعل الرائحة أيضاً تفوح من داخل**

رأسي. وقف طويلاً في ردهة الدار مذهولاً بٱتساعها وقدّر أنها وحدها أكبر مساحة من بيتهم الباريسي!

تجرأ فواز على الدخول إلى غرفته.. تذكر أن الضبعة والغولة والعفاريت الغامضة كانت كلها تقطن تحت سريره حين تطفىء أمه النور وتغادر الغرفة لينام وكان يخاف ولا يجرؤ على النظر تحت السرير حتى نهاراً. ركع وحدّق تحته. لا شيء. لا مغاور ولا غابات ولا أكوان رعب، والبيت يوحي بأن ثمة من نظّفه. صار يدور على الجدران والسرير والخزائن. شاهد زي «السوبرمان» الذي اشتراه له والداه إثر مشاهدتهما لفيلم «السوبرمان» وكان يحلو له أن يرتديه حين كان في العاشرة من العمر ليحلق فوق المدن والغابات والشواطىء والمدرسة بالذات!... تفقّد بقية الثياب التي كانت على مقاسه يوم هربوا من البيت وكان صبياً صغيراً وأدرك ببعض الغموض معنى التقدم في السن رغم شبابه الغض. **سافرنا على عجل وزجرتني أمي كي نهرول بأسرع وقت إلى المطار وتهامست أصوات حول ضرورة سفرنا وخطر اغتيال أبي وربما إيذائنا انتقاماً. ولم أفهم شيئاً سوى أنني اضطررت لترك ثيابي وكتبي في مكانها. حين استفسرت من أمي نفت كل شيء واتهمتني بإساءة الفهم!**

انتقل إلى غرفة أبويه يتفقدها والحنين يخترقه كسيف لامرئي ويوجعه بحزن عذب. **لم أكن أدري أنني رومانسي سرّي**. كل شيء ما زال على حاله.. كأن العجوز عمة والده لم تطأ يوماً غرفتهما أو غرفته وتركت كل شيء في موضعه.. أجل..

كل شيء ما زال على حاله.. ولا شيء على حاله...

لاحظ شيئاً جديداً في الغرفة يراه للمرة الأولى. ثمة كوكبة من الصور تغطي أحد الجدران، لم تكن هناك. إنها صور تمثل بيروت القديمة بالأبيض والأسود. وقف يتأملها. وجد تحت كل صورة كتابة بخط والده. طالع تحت صورة تمثل بيتاً بيروتياً جميلاً مكللاً بالقرميد عبارة تقول: في هذه «المدرسة الألمانية» تعلمت أختي ناديا سنة ١٩٣٤ القراءة والكتابة؛ وعلى أشلائها عمّروا مبنى «الستاركو»... مبنى الستاركو؟؟ تذكر فواز هذا الاسم لكنه نسي ما هو وأين يقع بالضبط. صار يتأمل بقية الصور وأدرك أن والده نبشها حين عاد بمفرده إلى بيروت لوداعها واستخرجها من صناديق العتق والعثة وعلقها على الجدران.

خيّل إلى فواز أن رائحة كئيبة ذكرته برائحة إحراق جثمان والده في مقبرة «بير لاشيز» الباريسية تهب من جدار الصور في ما يشبه نفخات الريح. أدهشه أنه وجد النوافذ محكمة الإغلاق، فمن أين تهب تلك النسمة التي تكويه بلذعة ندم غامض

وشعور بالذنب؟ التفت خلفه فشاهد لوحتين تمثلان جديه من رسم الفنان فروخ. **فروخ؟ لا أعرف من هو فروخ هذا، لكنني أذكر أن أمي طلبت من أبي في زيارته الأخيرة إلى لبنان (عقب إصابته بالسرطان ورفضه المعالجة وإخفائه الحقيقة)، أن يحضر لها اللوحتين واستنكر ذلك قائلاً إنه ضد هجرة البيت وكل ما فيه يجب أن يبقى في مكانه. وأصرت على أن يحمل لها اللوحة التي تمثل والدها على الأقل، ورفض مكرراً أن البيت يجب أن يظل على حاله بانتظار عودة فواز أي أنا!... كدت أسألها: من هو فروخ ثم سكتُ وتركتهما يتشاجران بسلام. لم يكن أبي يتشاجر وأمي إلا حين يرد ذكر لبنان. هي تصرخ به أن الموت بانتظاره هناك وهو يقول لها إن الموت بانتظاره في كل مكان ويريد وداع لبنان... لم نكن نفهم ما يعنيه. لقد أخفى عنا سر مرضه حتى اللحظات الأخيرة!**

يتأمل فواز اللوحتين كما كان يفعل طفلاً ويراهما على حالهما: فروخ رسم جده لأبيه مبتسماً وجده لأمه عابساً بشارب مهيب من القرن التاسع عشر!

أطال النظر إلى اللوحتين. خيل إليه أن جده لأبيه بدأ يعبس له في اللوحة.

لا. لا يعقل ذلك، ولكنه يحدث. لوحات أجدادي كلهم تعبس الآن في وجهي، أم أن حواسي تعبث بي؟ يغادر الغرفة شبه هارب. تقوده قدماه إلى المطبخ ويشم رائحة الطعام الشهي التي كانت تفوح يومئذ بدلاً من روائح إحراق الموتى.. **وعلى السلم الداخلي الذي يقود إلى السطح يخيل إلي أنني أرى على كل درجة من درجاته روحاً من أرواح أجدادي الذين أقاموا في هذا البيت الذي أنوي بيعه...**

«في الليلة الثانية عشرة يمشي الموتى، وعلى كل واحدة من قرميد البيت تجلس روح بانتظار صلواتك ودعواتك لتخرجها من مطهرها ولتنجو من جحيمها المحتمل». لا يدري لماذا وجد فواز نفسه يردد هذا القول القديم الأوروبي المأثور مرات متسائلاً: **أرواح أجدادي هل جحيمها ضياع لبنان عن لبنان؟**

أم أنني جحيمها لسبب أجهله؟ أم أن الأمرين متلازمان؟

حين غادر فواز البيت لم يجرؤ على الالتفات خلفه فقد كان واثقاً أنه لو فعل لرأى على كل واحدة من قرميد البيت روحاً من أرواح أجداده بانتظار صلواته... والموتى يمشون خلفه.

يجب أن أبيع هذا البيت وأعود إلى باريس قبل أن.. قبل أن...

حين نام فواز تلك الليلة حلم بموتى يجلسون على قرميد البيت.

* * *

كما في كل صباح منذ عودتها تدلل ماريا مكتبتها وهي تمسح الغبار عن الكتب فيها. تتحسس مئات الكتب على الرفوف بلوعة المشتاق وحنين العاشق.

تشم بعضها. تلامسها وتزنها بميزان الحب والماس. تطالع في بعضها سطوراً ثم تتابع مسح الغبار. تقرأ إهداءات من ناس ماتوا وآخرين غدروا وأوفياء ظلوا على العهد يراسلونها في غربتها. تجسّ أوراق الكتب كمن يتحسس وجه حبيب. تلاحظ أن الزمن ترك بصماته عليها. **لقد حدث لي ذلك أيضاً بالتأكيد!**

أدين بدين الحب أنّى توجهت/ ركائبه فالحب ديني وإيماني.

هذا البيت من الشعر لابن عربي كتبه فنان خطاط بخط جميل بالألوان وعلقته ماريا كلوحة في غرفة المكتبة لصق خارطة لبنان.

تحاول عبثاً أن تمسح الغبار العنيد عن اللوحة، كما لو أنه تكلس وبدأ محاولاته لالتهام حروف الكلمات بل وعبارة «دين الحب» بالذات. . كيف أستطيع إزالة الغبار من دون تخريب الألوان والكلمات؟

يخيل إليها أنها تسمع رنين جرس الباب. تفتحه. تجد على الأرض باقة من الورد الأصفر وإلى جانبها رسالة. كانت باقة الورد ذابلة تفوح منها رائحة شبه كريهة، تناولتها ماريا عن الأرض بحذر خوفاً من أن تكون مليئة بالنمل أو بالصراصير كما الباقات السابقة.

أما الرسالة فضمت كالعادة جملة مقتضبة جاء فيها للمرة الأولى عبارة غير محايدة على العكس من المرات السابقة. تقول البطاقة: تخططين لقتلي؟ أنا أيضاً أخطط لقتلك!

ذهلت ماريا. **من الذي يبعث لي بباقات الأزهار الميتة والرسائل الغامضة التهديدية منذ وصولي؟**

تعرف ماريا جيداً أن فعل الكتابة عمل استفزازي سلباً أو إيجاباً، ولكل كاتب مهووسون به بطريقة أو بأخرى يحبونه حتى القتل ويعشقونه حتى الإجرام كما كتبت لها مرة إحداهن، ولكل كاتب مراسلون عاقلون وموهوبون وهم الأكثرية وندرة من المهزوزين «المفتولين» عقلياً، بينهم من يعتقد جاداً أن الكاتب سرق منه كلماته وسطرها أو سرق منه حياته أو أنه أفضل من الكاتب وعليه بالتالي معاقبته على شهرته أو أشياء من هذا القبيل. وقد ألفت ماريا ذلك كله وصارت تكاد لا تلحظه ولا تتوقف أمامه. ما أذهل ماريا هذه المرة هو أن التي/ الذي يرسل الباقات والبطاقات شخص يعرفها جيداً بالتأكيد، إذ إنه يرسل لها أزهارها المفضلة.

الباقة الأولى كانت من الأزهار البرية الليلكية التي لا يفسدها تجفيفها، وكانت البطاقة شبه محايدة إذ تقول: «ها أنتِ أخيراً تعودين، ثمة أشياء كثيرة بانتظارك. . .».

الباقة الثانية كانت من القرنفل الأحمر المفضل لديها ولكنها أزهار ذابلة وبعضها ميت متفسخ وتفوح منها رائحة كريهة هي رائحة السمك الفاسد ويغلي النمل فيها والبطاقة كانت تقول: «لستُ ألعوبة بين يديك تقتلينني حين يحلو لك». عبارة أيضاً كما في الرسالة الأولى لا ضمير فيها يشير إلى جنس صاحبها: أنثى أم ذكر.

الباقة الثالثة كانت من الأوركيدة البيضاء الجميلة لو لم تكن جثث أزهار نادرة، وما كادت تتناولها عن الأرض حتى خرجت منها عدة صراصير فرمت بها مشمئزة نصف مذعورة وقرأت في البطاقة التي رافقت جثة الباقة عبارة «يبدو أن لقاءنا سيكون صاخباً».

حملت ماريا باقة الورد الأصفر ورمت بها في القمامة وجلست تتأمل في البطاقة التهديدية بالقتل. **سأفكر بطريقة منطقية عقلانية: التي أو الذي يبعث بهذه البطاقات والباقات شخص يعرف أنني أحب الورد الأصفر والقرنفل الأحمر والأزهار الجبلية الشوكية الليلكية والأوركيدة البيضاء. أي أنه شخص قريب مني يعرفني من الداخل أو يعرف شخصاً قريباً مني جداً، فأنا كاتبة سرية لا أحد يعرف حقاً شيئاً عن حياتي الداخلية (وهذا يضيق كثيراً دائرة الشكوك) ناهيك عن مزاجي في الأزهار، وقلما استطاع أحد الاقتراب من جلدي أو الانسلال إلى دورتي الدموية. الصديق فايز وزوجته عاطفة يعرفان ذوقي في الأزهار، ولكن لماذا يبعثان لي بباقات كهذه وينتهي بهما أو بأحدهما الأمر إلى تهديدي بالقتل؟ لا أستطيع الشك بهما فهما صديقان فوق الشبهات ولولاهما لتم احتلال بيتي وسرقته من زمان. ما فعله من أجلي اللبناني الجميل وزوجته لا يُنسى. ولماذا رائحة السمك التي تفوح من الأزهار الميتة في باقة القرنفل الأحمر زهرة الموت؟ الرسائل كلها موقعة بحرف م ومن الواضح أنها من الشخص ذاته كما الأزهار الجثثية.**

تتأمل ماريا الخط الذي كتبت به البطاقات وتضعها جنباً إلى جنب. إنها مكتوبة بالحبر الأخضر السائل العتيق الذي كانت تستعمله فيما مضى وكتبت به روايتها الأولى حول نجيب الصياد الشاب الشاعر الكادح. **ما الذي ذكّرني بها روايتي الأولى تلك؟ أهي رائحة السمك التي فاحت من باقة القرنفل كأن مرسلها يحاول أن يلعب معي ويرمي لي بألغاز أحلها لأصل إليه، هذا ناهيك عن الشحنة**

العدوانية المكهربة التي خيل إليّ أنها انطلقت من الرواية حين فتحتها؟ نجيب الصياد صاحب هذه «المداعبات» السمجة؟ هذا تفسير ألطف من بحثي عن قاتل لي بين معارفي كأي مصاب بعُقدة العُظام (البارانويا) يعتقد أنه مهم ويتوهم أنه لأهميته المفرطة ثمة من يريد حقاً قتله؟ هل يكتب أبطال قصصي الرسائل ويحاكمونني كما أحاكمهم ويحاولون التدخل في مسرى حياتي كما أفعل بهم؟ هذا جنون، والتفسير الأكثر عقلانية هو أن جنوني الشخصي الداخلي ـ كالأدباء جميعاً فنحن مجانين سريون ـ بدأ يخرج من يدي ولم أعد قادرة على استدعائه حين يحلو لي وفقط حينما أكتب. هل أنا مصابة ككل الكتاب بالشيزوفرانيا لكن المرض بدأ يغلب عندي جانب العافية؟ هل أنا التي أبعث لنفسي بهذه الباقات دون أن أدري وأكتب هذه البطاقات لذاتي كما يكتب الكثيرون رسائل الحب لأنفسهم؟ ألهذا تحمل البطاقات توقيع ميم وهو الحرف الأول من اسمي؟ ولكن ميم هو الحرف الأول من الاسم الكامل لنجيب واسمه منير نجيب. يا لحماقتي! أفتش عن المذنب في قاع رواية وفي قاع كاتبتها بدلاً من التلفت قليلاً حولي.. واكتشاف من الذي له مصلحة في عودتي إلى باريس و«تطفيشي» من بيروت؟ إنه لغز بوليسي بسيط، وليس لغزاً غرائبياً.

* * *

بموت أمي «أم ناجي» كما كانوا يدعونها وعيثُ كم تقدمتُ في السن. فجأة تبدلت صورتي في مرآة ذاتي من صبي في الخامسة إلى كهل على مشارف الخمسين يعمل نادلاً في مطعم ليس له في الغربة، متوحداً في وكره يعيش حياة عاطفية وهمية مع بطلات المسلسلات التلفزيونية تنتهي حين ينتهي المسلسل.. يلتهم أحياناً الشطائر الباردة في المترو بعدما سئم وجبة المطعم ذاتها عاماً إثر عام، لا ابن له ولا زوجة وإذا احتضر فسيحتضر وحيداً، وإذا مات في غرفته فلن يدري به أحد قبل أن تزعج جيرانه رائحة جثته. هذا أنا، وهذه هي الهجرة والغربة التي يحلم بها كل شاب لبناني التقيته منذ وصولي بدءاً بالأحمق عبودي الكذّاب ومروراً بشادي الفندق وباعة الصحف وبقية الباعة في شارع الحمرا وغانيات الحانات وانتهاء بمعظم أبناء قريتي. فيا للمهزلة؟

لم ينم عبد الكريم جيداً في جناحه الفاخر في «فندق الأمراء» على شاطىء البحر البيروتي الجميل. نهض مع الفجر وهو يكاد يختنق بأحلام ألهبت توقه للقاء والده وشقيقاته وصديقه عدنان ودنياه وزيارة قبر أمه. . .

أهي رغبتي الجارفة في استعادة برناديت أم أنها الخيوط التي رُبط إليها جسدي وحواسي ونطقي لتحركني هي التي تجعلني أتحمّل هذا السجن الصغير المذهب المرفه الذي وجدت نفسي فيه وكان حلماً فصار كابوساً.

منذ وصولي، والخيوط التي تحركني تصير مرئية أكثر وأكثر يوماً بعد آخر. . بل بدأت تلك الخيوط تبدو محددة المعالم وواضحة وبدأت صورتي أنا تزداد شحوباً في المرآة يوماً بعد آخر وأتحوّل شيئاً فشيئاً إلى شبح باهت مربوط بخيوط واضحة المعالم. . ولكنني لا أستطيع مشاهدة اليد أو الأيدي التي تحركني. . وفوق ذلك كله، حرّم عليَّ رفيق مغادرة غرفتي دون استشارته خوفاً من صحافي يعرف عبد الكريم الخوالقي الأصلي ويكشف اللعبة إذا شاهدني وقيل له إنني نجل رئيس الوزراء في قهرستان.

قال لي رفيق: أسبوع واحد، وبعدها تصبح حراً وثرياً وتلتقي بأسرتك.

هذا يومي السادس. في اليوم الأول عدت إلى التدخين بعدما كانت برناديت قد حرمته علي حين خسرت عملي وصرت لا أغادر البيت. كانت تزدهر وتزداد «رجولة» وصلابة وعجرفة وقوة وانتهازية وتنتقل من نجاح إلى آخر في الوكالة العقارية حيث تعمل وكل ما في وطنها يقويها، وصرت أذوي كربة منزل بائسة، وأحلم بأن تنجب طفلاً وأجد عملاً وتتبدل الحال، وحين اكتشفت أنها تتناول حبوب منع الحمل سراً عني أدركت أن خططها لا تتطابق مع أقوالها لي. والغريب أنني ازددت تعلقاً بها ورغبة في استعادتها ولو لإذلالها أو لطردها بنفسي فيما بعد. مشاعري نحوها يغمرها الضباب وكل ما أعرفه تلك الرغبة الجارفة باستعادتها، لهجرها!

تمنى أن يزور صديقه عدنان ويخلع قناعه ويروي له حكاية أيامه الفتاكة مع السجن المذهَّب حتى تحولت الرفاهية إلى تعذيب له.

في اليوم الثاني ضاعفت من تدخيني. في اليوم الثالث تعبت من الراحة وقتلني

الضجر فدخنت للمرة الأولى الحشيشة التي طالما سمعت عنها بعدما اقترح علي رفيق ذلك ريثما يعدّ الصفقات والأوراق للتوقيع. حاول أن يشرح لي شيئاً عنها، فأنا كابن لرئيس وزراء قهرستان بوسعي احتكار العديد من المشاريع والالتزامات: مطار جديد. شق طرقات، صهاريج مياه، ثياب للمجندين. مخازن قمح وتلزيمها لتجار لبنانيين بعقد شراكة بيني وبينهم حيث يدفعون لي الآن دفعة (كاش) من أجل الرشاوى هناك أما النفوذ فمني! لم أفهم شيئاً طبعاً سوى أن عليّ أن أظل نصف صامت ـ إلا من التحيات والمجاملات ـ كي لا ينكشف أمري من جهة وكي أبدو متعجرفاً مثل سميّي الشهير، ومن الأفضل برأي رفيق أن أكون «مسطولاً» بتدخين الحشيشة قبل وصولهم لأبدو مسترخياً ولامبالياً.

شاركني رفيق تدخين لفافتي الأولى. أفرغ تبغ لفافة عادية ذات «فلتر» في منفضة نظيفة ومزجه بقطع صغيرة فتتها من قطعة أكبر أخرجها من جيبه لونها بني مخضر داكن. وكان يقوم بذلك بسرعة من ألِف الأمر ثم أعاد المزيج إلى داخل اللفافة بهدوء وصبر وأشعلها. هبّت منها رائحة خاصة تكاد تكون عطرية وقال رفيق: هذا أفضل أنواع الحشيش اللبناني، أحتفظ به لزبائن مميزين، ويخصني به صديق يعمل في مكتب «مكافحة المخدرات»! إنه يختار لي دائماً أفضل ما يصادره من الأنواع كلها. هل تريد تجريب الكوكايين؟ شمّة واحدة وتطير.. رجوته أن يدعني أغادر الفندق قليلاً. قال إن ذلك خطر وانتشار خبر عن وجود الخوالقي في الفندق سيواكبه زحف العشيقات وطالبي الحاجات، والاختباء ضرورة ريثما يرتب الأمور ونقبض «الرعبون».

في اليوم الرابع جربت لضجري شمة من الكوكايين بعدما أعطاني رفيق أنبوباً ضيقاً جداً (شاليمو) خاصاً بذلك وضعت طرفه في أنفي والطرف الآخر على الورقة حيث ترك لي ما يشبه القليل من الملح لاستنشاقه. فعلت الشيء ذاته ثانيةً بالمنخر الآخر.

لم أطر حين غادرني، ولم أجد صوتي لأستنجد به. شعرت فجأة بالاختناق وعجزت عن التنفس وحتى عن ابتلاع لعابي وضاق صدري بإحساس داهم شبيه بالموت، وصرت ألهث ككلب صيد متعب.

دخلت إلى الحمام لأفرغ ما في جوفي. عجزت. صار مرمره ورخامه يدوران بي ولم أجد صوتاً أصرخ به. نظرت إلى المرآة. شاهدت بوضوح تلك الخيوط الشفافة التي رُبطت إليها كأية دمية في مسرح الدمى، وثمة أيد لامرئية تحركها. صارت اليد تحرك الخيط الذي ربطت إليه حنجرتي وسمعت صوتي وأنا أئن وأنيني

يخفت شيئاً وشيئاً وشاهدت خيطاً آخر يتحرك بشدة مغروساً داخل دماغي فتلاشيت. .

في اليوم الخامس تابعت تدخين الحشيشة طوال النهار أمام شاشة التلفزيون، وتداخلت البرامج والصور وشاهدت برناديت بطلة لفيلم غرامي وأنا بطله وبينما كنت أقبلها داخل الشاشة جاء رفيق واستدعاني لتجريب ملابس ثمينة تليق بابن رئيس للوزراء وثري كبير رجل أعمال يقضي نصف وقته في أوروبا ويتقن ارتداء الثياب الأنيقة كنجم اجتماعي عالمي. أحضر لي عطراً بعدما رمى بعطري في سلة المهملات وأمرني بخلع خاتمي الاصطناعي «الماسي» والسلسال الرخيص في عنقي قائلاً: الأثرياء الحقيقيون لا يستعرضون ذهبهم هكذا إلا في السنوات الأولى، والخوالقي الأصلي ليس حديث نعمة. حين غادرني جرّبت الثياب التي طالما حلمت بارتداء ما يماثلها، ووقفت أمام المرآة لأتأمل وسامتي فصعقني أنني شاهدت بوضوح مروع تلك الخيوط التي تملي عليَّ أفعالي وأقوالي دون أن أملك لأمري شيئاً ونسيت كل شيء عن أناقة ثيابي. رفعت سماعة الهاتف وطلبت من موظفة ترتيب الغرف إحضار مقص لي. أحضرته وعلى وجهها إمارات الدهشة. حين مضت حاولت قص تلك الخيوط التي تجعلني لا أملك لأمري شيئاً لكن المقص كان يخترقها، وصارت تملي علي الهرب من سجني وغمرني حنين موجع إلى أبي وشقيقاتي وندمت للحزن الذي سببته لأمي بزواجي من برناديت وازددت في الوقت ذاته رغبة بالحصول على المال لامتلاك برناديت ولقهرها كما قهرتني وبلدها بجمالهما. ما أشدّ حاجتي لمشاهدة صديقي عدنان بالذات لأحدثه عن تلك الخيوط. سيسخر مني بالتأكيد لكنني بحاجة لقول شيء عنها لصديق وإذا قادتني خيوطي إلى أسرتي سيسعدني ذلك. لا أدري لماذا يرفض رفيق أن أراهم الآن. قبل أن أنام قال لي: لقد رتّبت الأمر واقترب يوم خلاصك من الفقر. بعد ٤٨ ساعة سيأتي اليوم الموعود. الزبائن جاهزون، وقد استلمت «معاوِنتك» مني ملخصات عن المشاريع التي ستؤمّنها أنت لهم في بلدك قهرستان بنفوذك كابن للحاكم الفعلي وبالرشاوى. هيأنا عقود الشراكة بينك وبينهم، والسكرتيرة التنفيذية معاونتك ستتولى شرح كل شيء لهم. لقد رتّبنا لك سلسلة من اللقاءات في يوم واحد طويل. ستوقّع على بعض العقود وتقبض وما عليك إلا أن تقتصد في الكلام وتوقع على العقود وتقبض عشرات آلاف الدولارات كدفعة أولى (رعبون كاش) وبعد ذهابهم نتقاسم المبلغ بعد خصم أجرة معاونتك، ويمضي كل منا في طريقه.

تذكّر الثروة التي ستفوز بها ونفّذ تعليماتي. إذا طرح عليك أحدهم سؤالاً دع

معاونتك تجيب عنك فهي خبيرة في هذه الأمور وتعرف بالضبط ما ينبغي قوله. وإذا انكشف الأمر سأقول إنني لم أكن مطلعاً على ما تخططه أنت و«معاونتك» وأنني توهمتك الخوالقي الحقيقي بدليل جواز سفرك الذي قدمته للفندق والست سليمى التي اصطحبتك وزكّتك. سيكون كل ما أعرفه رسمياً أنك «الخوالقي» رجل الأعمال النافذ الذي طلب تحويل مخابراته الهاتفية إلى معاونته ليختلي بنفسه لأسبوع راحة وعلاج وأنني قدمت لهم خدمة بإعلامهم سراً عن وصولك، أعني شركاءك المخدوعين!

- معاونتي؟ هل قلت عبارة معاونتي وسكرتيرتي التنفيذية؟

- أجل. أنا لا أستطيع أن أكون حاضراً وهي سترشدك أين توقع، وتجيب على استفسارات «شركائك»! إنها واحدة من اللواتي أستعين بهن في أحوال كهذه. امرأة «نوفوبوفر» متعلمة وراقية خسرت كل شيء في الحرب وعملت طويلاً في شركة كبيرة استشارية نقلت مقرها وهاجرت، ثم في مكتب لاستيراد الخادمات الحبشيات مع شريك لا يفك الحرف ثم قررت أن العمل معي بين آن وآخر أفضل من راتبها الرث من شريكها المخزي. سأعرّفك عليها غداً. إنها خريجة إحدى الجامعات لكن الحرب قست على الكثيرين والضائقة الاقتصادية «أكملت» ما سهت عنه الحرب. ليس من مصلحة العمل أن تراها طويلاً خوفاً من رفع الكلفة. الخوالقي الأصلي مشهور بالعجرفة مع معاونيه، وأنت تبحث عمن تبكي على كتفه!!.. وجدت أنه من غير الحكمة أن تلتقيا قبل الساعة الصفر. لم أفهم معنى الساعة الصفر لكن الخيوط التي رُبطت إليها أمرتني بالموافقة فوافقت، تماماً كما تأمرني اليوم منذ اللحظة التي استيقظت فيها بالتسلل للقاء صديقي والحديث معه عن خيوطي. أريد أن يسخر مني ويقول لي إني واهم وأنه لا يرى شيئاً ولا يعقل أن يرى أحد شيئاً كهذا إلا إذا كان حشاشاً أو مصاباً بالحمى.

غادر عبد الكريم غرفته. لم يعترضه أحد ولم يلتق بأحد. استقل المصعد حتى مرآب السيارات مباشرة. كانت لديه خبرة بعالم الفنادق لطول ما عمل فيها، ويعرف المداخل الجانبية والمخارج المموهة في الفنادق الفخمة كلها. في المرآب مشى متحاشياً الالتقاء بحارس السيارات ثم غادره مشياً على الأقدام حتى وصل إلى رصيف الشارع واعتبر نفسه محظوظاً إذ لم تهبط سيارة خلال ذلك في نفق المرآب أو تغادره أخرى.

تنفس بارتياح حين صار في الشارع للمرة الأولى. منذ وصوله قبل خمسة أيام إلى بيروت أم تراها ستة أيام أم ستة قرون؟ بيروت «دوختني» وبالدوار أصابتني، ولم

أعد أدري شيئاً. على الرصيف لصق مدخل المرآب حدق به رجلان وخيل إليه أنهما يتهامسان عليه كأن أحدهما يشير إليه. **تراهما يريان الخيوط التي تحركني ولذا يحدقان بي هكذا؟**

* * *

صار هاجس إسماعيل أبو أدهم أن يرابط أمام باب ذلك الفندق على الشاطىء البحري البيروتي حيث حل عبد الكريم الخوالقي «فرخ ثعبان قهرستان»، فرخ «الخوالقي السفاح» كما يلقبه، بانتظار خروجه ليتحين الفرص لاصطياده، متسلياً في انتظاره الطويل بإحصاء المارة والجرذان الهابطة من شرفات الفندق ونوافذه، والصاعدة من المجارير إلى الشوارع، والشجار بين آن وآخر مع مخبره الذي ظل يجزل له العطاء كما وعده مقابل أن يرشده إلى «ضحيته»، والمخبر يتوهمه يريد التسول من الخوالقي باسم «المواطنية المشتركة» وليس قتله.

ذلك اليوم قال له مخبره: لا يعقل أن يكون عبد الكريم مرابطاً في الفندق طوال هذه الأيام. لعله يغادره بسيارته وهو يقودها بنفسه من المرآب، ولا يغادر الفندق من الباب الرئيسي مع سائق ومرافق. ربما كانت هذه خطته الأمنية لحماية نفسه. من ماذا؟ لا يدري المخبر. كل ما يدريه أن الناس «المهمين» يتخذون تدابير احترازية كما قرأ العبارة في الصحف ولم يفهمها ولكنه تلذذ بتردادها أمام إسماعيل أبو أدهم. وهكذا قررا الذهاب للوقوف على الرصيف أمام مدخل المرآب، وسقط فكاهما دهشة وهما يشاهدان «النجل» ماشياً على قدميه مغادراً المرآب على عجل كهارب. ما كاد المخبر يلمحه حتى كاد يهتف: هذا هو. هذا هو. ثم همس قائلاً: إنه الخوالقي الصغير الذي أرشدني إليه موظف الاستقبالات في «فندق الأمراء».

شعر إسماعيل بالراحة لخلاصه من مخبره، ولأن لحظة الانتقام دنت.

الآن صار بوسعه أن يخطط للقتل بهدوء وينتظر طوال الليل والنهار على الرصيف ريثما يغادره فرخ ثعبان قهرستان.

تأمل الرجل الذي ينوي إعدامه وشعر بما يشبه الشفقة. **هذا «الولد» لا يشبه والده، ولا الشخص الذي تخيلته. يبدو ضائعاً ومسكيناً مثلي، ولكن المظاهر تخفي خلفها الكثير وكما كانت تكرر أختي المتزوجة في دمشق «ياما تحت السواهي دواهي».**

* * *

يا لها من وردة متنكرة في امرأة!

هكذا قال فواز لنفسه حين شاهدها تدخل إلى «مقهى سيتي كافيه» حيث كان يتناول طعام الغداء مع رفاق ما قبل الهجرة في مدرسة «الآي سي» البيروتية: فؤاد وعفيف وعلي ورضا ومارون ونديم ومحمد ونقولا. وقد استطاع فؤاد تنظيم اللقاء ولما تنقضِ على وجود فواز في بيروت عشرة أيام، فقد نشط «الهاتف العربي» كما يتندر الفرنسيون بنا واتصلت ابنة عمة حماة جارة أخته بخالة عديل ابن عم أمه وأخبرته أمه بدورها بوصول فواز إلى بيروت في زيارة لعمته. كرر لنفسه: **وردة متنكرة في امرأة.**

ظل يتأملها، كما استدارت رؤوس الجالسين صوبها: **قامة كالنخلة بعنق بجعة بعيني عرافة بشعر كستنائي حريري طويل بمشية عارضة أزياء بشفتي شهرزاد بوعود ألف ليلة وليلة من الحب في العنق والخدّين.** خيل إليه أنها لمحته وتأملته فتسمرت مكانها، ثم تبين له أنها في حقيقة الأمر تفتش عن صديقتيها اللتين اتجهت نحوهم تشاطرهما مائدتهما لا أكثر. **لعلها لم ترني، وأنا لم أعد أرى سواها. ما هي تلك الكهرباء السرية لأزمان ما قبل اكتشاف الكهرباء التي تسري كالبرق منها إليّ وتشغلني؟ أهو الحب من النظرة الأولى الذي طالما سخرت منه؟**

كل ما يحدث لي في هذه المدينة كان يمكن لي أن أسخر منه لو روى لي صديق لبناني أنه حدث له خلال إجازته حين ذهب إلى بيروت ليبيع بيتاً ويعود خلال عشرة أيام بعد تكليف المحامي بذلك، لكنه بقي عشرة أيام دون أن يفعل شيئاً حقاً ولم يعد يدري هل البيت الذي ينوي بيعه حي أم يقيم فيه شبح ما، وهو العقلاني الذي لا يؤمن لا بالحب من النظرة الأولى ولا بالأشباح. أكاد أنسى من أنا وما الذي أفعله بالضبط هنا كأنني أتعارف مع نفسي من جديد على شاشة بيروت.

ظل فواز يحدق في الوردة المتنكرة في امرأة. لاحظ عفيف وفؤاد الجالسان إلى جانبه نظراته المكهربة نحوها. سأله عفيف: هل أعجبتك؟ سأله فواز بدوره: هل تعرفها؟ من هي؟

أجابه عفيف: إنها بنت سيئة السمعة.. غانية ليل..

قال فؤاد: إنها بنت رفضت غزله ولم ينلها. هذا تعريف سوء السمعة عند عفيف!

قهقهوا ومرّ بهم صاحب المقهى منصتاً لضحكاتهم وامتلأ قلبه بالغبطة. يحب أن يرى زبائنه الشبان يضحكون. لقد تعب من البكاء. من الخراب في الوجوه والمدينة. تعب من زبائنه المخضرمين المسنّين الذين تفوح منهم رائحة موت يذكّره بموته الآتي، وبالموت الحزين لمقهاه السابق «الهورس شو» الشهير بزبائنه من

الأدباء والرسامين. «الهورس شو» أي حدوة الحصان رمز الحظ لدى البعض، لكن الحرب نحسته وقتلته كما نحست حظ الناس في بيروت. وهو يريد أن ينسى ذلك كله.

أضاف فؤاد وفواز يعود بعينيه إليها لتأملها: هل تريد أن أعرِّفك بالفتاة؟ أنا أعرفها، فهي تزورنا باستمرار لا إكراماً لعيني بل لصداقة وزمالة جامعية تربطها بأختي الصغيرة وبوسعي أن أعرّفك بها. قال فواز: لا. شكراً. إنه مجرد فضول.

أموت شوقاً للقائها ولمعرفة كل شيء عنها لكن كبريائي اللعينة تأبى علي الاعتراف.

أضاف فؤاد: إنها طالبة ماجستير في قسم الأدب العربي في الجامعة الأميركية كأختي، وأظن أنها في الثانية والعشرين من عمرها.. أي أصغر سناً منا بسنوات... لقد كبرنا.. اسمها سميرة. تجاهل عفيف الإشارة إلى التقدم في السن وأضاف عن سميرة: عاشقة شهرة تزعم أنها أديبة ولا أفتح جريدة إلا وتطلع عليّ صورتها.. إنها من جيل النساء اللواتي يجدن في ادّعاء الأدب وسيلة للظهور على شاشة التلفزيون.

قال فؤاد: إنها أديبة صاعدة والأكثر موهبة بين بنات جيلها. إنها إنسانة ممتازة علّتها أو ميزتها أنها لا تحب عفيف.. ضحكوا. حتى عفيف ضحك وأخرج الهاتف النقال من جيبه وهتف إلى زوجته يحدثها بصوت خفيض.

إذن ليست غانية ليل كما ادعى عفيف. تراه يغار من كل ومضة حب لأنه تزوج صغيراً من امرأة بشعة والدها ثري كبير أعلن إفلاسه بعد حفل زواج ابنته بشهر في فضيحة مدوّية اتُهم فيها باختلاس أموال الناس كما روى لي فؤاد في لقائنا الثاني حين حكى لي أخبار رفاق الطفولة مضيفاً: وذهب المال وبقيت القردة على حالها. لكن عفيف صار ثرياً أو أنه يعيش كمليونير. كيف؟ أترك لك اكتشاف السر.

فوجىء فواز منذ وصوله بإقبالهم جميعاً على لقائه، وكل منهم يروي له الكثير عن مثالب الآخر وعلله وفضائحه إذا التقاه على حدة، لكنهم فيما يبدو له أصدقاء بمعنى ما ولا ينقضي شهر دون أن يتهاتفوا أو يلتقوا في نمط غريب من الصلات التي تلهب مخيلة فواز وتملأ رأسه بالأصوات والموسيقى والألوان والسيمفونيات اللونية للمهزلة البشرية. يتأمل سميرة من جديد، وداخل رأسه تتجمع سحب تتحول إلى ألوان على قماشة لوحة.. إلى تشكيلات ضوئية تشبه تلك التي تركض على الستائر قبل أن ينام ويراها منذ وصوله إلى بيروت، ترتسم حتى على الغيوم، كأن كل غيمة قماشة للوحة منصوبة في الأفق أو شاشة لامتناهية للوحة ضوئية تقطعها الظلال..

فقط حين شاهد جمال سميرة شعر برغبة حقيقية عملية في الرسم: حلمه القديم أيام الدراسة.

ظلت نظراته تروح وتجيء صوب سميرة. لاحظته وكأنما تواصلا بصمت وبلا لغة مثل عصفورين يحلقان معاً في سماء كوكب جديد.. تلك اللغة الحارة الهائجة كرقصة أفريقية لا يستطيع أي قانون إدانتها.. قوس قزح لامرئي امتد كجسر بين عيونهما، لكنه يشع بمناخات الدفء والفرح والحيوية ويسيل طاقة فيصير جو المقهى مفعماً بذلك الأنس الغامض المليء بوعود سرية جامحة ورعود ملونة. **قد تمضي ولا نلتقي بعد اليوم. يدهشني أن أشعر بالأسى لذلك. كم تشبه تلك الحلوة بيروت. كل ما في بيروت مثلها هارب بمعنى ما. بيوت عتيقة هاربة. ذكريات هاربة. مستقبل هارب. وجوه هاربة. إمكانية حب هارب. كل شيء هنا هارب. يركب قطار الأشياء العابرة ويمضي. وجوه متنكرة بأقنعة مركبة وكل وجه طبقات وكل وجه يمعن هرباً داخل قناعه على إيقاع «الدبكة» حولي ولكلٍ دبكته الخاصة: المال. الحب. الوطن. الجنون. الحلم. لعلها الشمس والدفء ومناخ مزاج أهل البحر المتوسط وأنا أكتشف يوماً بعد آخر أنني منهم.. ذلك يحزنني قليلاً ويخيفني كثيراً. في باريس كان كل شيء واضحاً لي ربما أكثر مما ينبغي...**

يسأله رضا عن إمكانيات الهجرة إلى باريس مثله. ينضم إليه نقولا ومحمد ومارون وعلي. الكل يريد الهجرة وهو لا يريد سوى الهجرة إلى عينيها.

أجل! إنها تبادلني النظرات. لست واهماً.

بل إنها تتأملني بإمعان. أشعر أنني أولد تحت نظراتها بالمعنى الحرفي للعبارة، وتحت مطر عينيها ينبت لي وجه، وكل ما تنظر إليه في جسدي ينبت تحت عينيها ويصير حياً نابضاً متأججاً. ينبت لي عنق، كتفان، ذراعان لضمّها.. صدر لاحتضانها..

أكاد لا أصدق ما يحدث لي أنا الشاب العقلاني (الكارتيزيان) ولكن بوسع بيروت أن تحوّل «بيل غيتس» نفسه إلى هاملت! وهو ما حدث لي، ولا أكف عن التساؤل، أهو شبح أبي الذي يعذبني كما عذّب هاملت شبح والده الغاضب؟ وهل جاءت تلك الجميلة لتضيف حيرة إلى حيرتي، وستمضي لتضيف حسرة إلى غصاتي البيروتية الغامضة؟

لم يسمع فواز جيداً بقية ما دار من حوار على مائدة الغداء. جزء منه كان يجيب باختزال وتهذيب على كل سؤال يوجه إليه ويشارك في القهقهة الجماعية، أما الجزء الآخر منه فكان يتأمل سميرة وقد أشاع حضورها على الطاولة القريبة غبطة

غامضة في قلبه وهي تثرثر مع صديقتين، وحين ضحكت أضاء وجهها بشمس سرية لعيد ونثرت على رواد المقهى الضوء والأوراق الملونة وغبار النجوم المشع التي لم يرها سواه.

واحداً تلو الآخر انفضّوا عن الطاولة وهم يودّعون فواز ويُقبلونه متمنين عليه أن يطيل البقاء. وبقي فواز برفقة فؤاد وقلبه لا يطاوعه على مغادرة المقهى ما دامت فيه. قال فؤاد معلقاً على كلام الأصحاب: سيبذلون جهدهم لإقناعك بالعودة إلى بيروت إذا لم تساعدهم على الهجرة. ويبكون لفراقك إذا قررت السفر. وإذا بقيت وصدقتهم واقتنعت سينسونك وينصرفون إلى مغترِب آخر لإقناعه بالعودة! فضحكا..

غاص قلب فواز، إذ شاهد سميرة تنهض مودعة صديقتيها، وتحمل حقيبة يدها وأخرى حافظة للأوراق وتتأهب لمغادرة المقهى.

ليتها تبقى، تلك الوردة المتنكرة في إهاب امرأة، إنها تمشي كما كانت ستمشي الورود، لو قيض لها أن تتحرك وتبدل أماكنها.

تقترب سميرة من مائدة فواز وفؤاد في دربها إلى باب المقهى، تهز رأسها لفؤاد محيّية. تلامس حقيبتها كأس الماء على طاولتهما حين تحاذيهما مارة بهما. يختل توازن الكأس وينسكب الماء فوق بزة فواز. وبينما هي تعتذر منه بخجل واضح يفرح فواز بالمصادفة «السعيدة» ويقول لها بصورة عفوية دون أن يكذب: هذه هي المرة الثانية التي تسكب فيها سيدة الماء على بزتي هذه، فهل هي بشعة إلى هذا الحدّ؟ المرة الأولى كانت في الطائرة بين باريس وبيروت حين «دلقت» ماريا الحراني كوب مائها في حضني مثلك دونما قصد طبعاً.

قاطعته سميرة كأنها نسيت فعلتها، وسألته بصوت بالغ الجدية: ماريا الحراني؟ ماريا الحراني الكاتبة؟

أجاب بفتور وخيبة أمل وهو يجفف الماء عن بزته بالمناديل الورقية: أجل. ماريا الحراني الكاتبة.

التهبت اهتماماً وأردفت: أعد رسالتي للماجستير عن رواياتها. هل تعرفها؟

لاحظت أن المسكين المبلل ما زال يجفف الماء عن بزته فأضافت: أرجوك أن تعذرني. إني آسفة حقاً.

قال ضاحكاً: لا.. لا تعتذري. هوايتي أن تدلق الجميلات الماء على ثيابي حتى لو نسين ابتلالي وسألنني عن ماريا الحراني بدلاً عن حالي!

ضحكت، وفجأة اكتسبت ماريا أهمية خاصة عنده!

انتهز فؤاد الفرصة ودعاها إلى الجلوس معهما فجلست دونما تردد وسألت سميرة فواز قبل أن يكمل فؤاد طقوس التعارف: كان حظك هائلاً أن تكون جارتك في الطائرة هي ماريا الحراني. هل تعارفتما؟

أدرك فواز أن لديه ما يجذب اهتمام تلك الحورية التي بدت عن قرب أكثر جمالاً بأهداب طويلة ترقص فوق عينين خضراوين هبت منهما رائحة غابات الأرز والصنوبر.

قال فواز لسميرة: إنها صديقة أمي، وهي تزورنا باستمرار في بيتنا في باريس.

ـ أرجوك أن تحدثني عنها.. قل لي كل ما تعرفه.. حلمي أن ألتقي بها.. هل تستطيع اصطحابي إليها؟

كاد يقول لسميرة: بل سأصطحبك فوق ظهر سلحفاة السندباد البحري إلى محيطات قلبي ومغاوره وأسراره.. لكنه أجاب بتهذيب: سأرتب لك لقاء بها. سنزورها معاً.

ألحّت: هذا وعد فلا تخيّبني. ستصطحبني إليها...

أريد اصطحابك معي في دورة تعارف محمومة، إلى جنّاتي وجحيمي وجنوني، إلى القطب الشمالي من قلبي وكل ما تطلبينه أيتها الجميلة التي أغرق في غمازتيها حين تبتسم.. أريد اصطحابك إلى لانهايات الفرح وإلى مناجم الماس في القمر وخزائن الماس في ساحة الفاندوم الباريسية حيث باعة المجوهرات. أريد أن أغطيك بالشمس وبالفراء وبجسدي فهل يعقل أن يكون، كل ما تطلبينه زيارة إلى بيت ماريا الحراني؟

ظل صامتاً، ولاحظ فؤاد أنهما نسياه فتنحنح وسعل ولم يلتفتا إليه.

تسأل سميرة فواز: هل قرأت كتبها؟

صوتها يحملني إلى أرض التأوهات.. كم صوتها رقيق ومليء بالدفء.

يجيبها كاذباً وبلهجة جادة: بالتأكيد قرأت كتبها.

سألته: أليست رائعة؟

ليتها تقول ذلك عني. يا لورطة حكاية الكتب. سارع في الإجابة: إنها رائعة. رائعة!

سألته من جديد: قرأت كتبها كلها؟

يا لورطتي من يستطيع قراءة كتبها الأربعين؟ امرأة لا تفعل شيئاً غير الكتابة

فهل تظنني سميرة معتوهاً لأطالع كتبها في سباق الوحوش إلى المجد والمال الذي أعيشه في باريس أنا ابن الأسرة المهاجرة (الغولدن بوي) الطامح إلى عرش البنك والدولار، خريج مدرسة الـ H.E.C الفرنسية الشهيرة التي خرجت نصف ملوك المال والسلطة والسياسة في فرنسا وخريج جامعة دوفين أيضاً..

كيف يخطر ببال أحد أن أترك سباق وحوشي حيث يُداس كل من يسقط على الأرض في ركضه إلى الجزرة الذهبية لأقرأ كتب الست ماريا الحرّاني.

على الرغم منه، سمع صوته يقول لها مسحوراً بها: أطالع ماريا باستمتاع.

قالت ثملة بالمفاجأة: كم يقربك ذلك مني. لا أستطيع أن أكون قريبة من إنسان غريب عن مناخات كتبها.

قرر فواز الهرب قبل أن تسأله تفاصيل محرجة عن كتبها التي يجهل معظم عناوينها، فاعتذر ذاهباً لمتابعة تجفيف ثيابه في الحمام، وانسحب بكل «جنتلمانيته» الآسرة. انتهز فؤاد الفرصة وأخبر سميرة عن الأسرة العريقة لفواز الذي ورث عن والده الكثير من الأملاك. لم يبد أنها معنية بذلك حقاً وحين عاد فواز صوبت إليه نظرات فاتكة من عينين يسيل منهما نهران من لبن وعسل.

وسألته ثانية: متى تصطحبني لزيارة ماريا؟ وهل قرأت حقاً كتبها؟

ـ بل وكتبت دراسة عن لبنان في أدبها. أستطيع إحضار نسخة لك من باريس إذا أحببت.

هذه المرة لم يكن يكذب. لقد حرص أبوه وكذلك أمه على تعليمه العربية حتى في قلب باريس. كان صبياً صغيراً يجهل أصول ركوب المترو والتجوال في المدينة الجديدة الشاسعة، وكان والده يصطحبه ثلاث مرات في الأسبوع مساء إلى المدرسة العربية في باريس، مدرسة مايا ضاهر، حيث يتعلم لغة أجداده وينتظره في المقهى المجاور ويعودان معاً في ليالي الصقيع تحت الثلج إلى البيت. لطالما أنهكه ذلك وأنهك والده المسن، لكنه كان كالحج إلى اللغة العربية. أخبرها ذلك كله وبدت سميرة مبهورة وأخبرها أنه فيما بعد اختار العربية كلغة ثانية إلى جانب الإنكليزية في البكالوريا الفرنسية بدلاً من الألمانية والإسبانية وحينما طلب منه الأستاذ خوري معلم العربية في مدرسته الباريسية «الإيكول أكتيف بيلانغ» كتابة تعريف بأديب عربي وأعماله، اصطحبته أمه إلى بيت ماريا وطلبت منها مساعدته على كتابة دراسة عنها وعن أعمالها وكانت رقيقة معه حتى أنها أملت عليه الدراسة كلها بنفسها!

أنصتت إليه سميرة مبهورة على شيء من الغيرة لأنه يعرف ماريا وتركت بين يديه أرقامها الهاتفية: «النقال» ورقم المكتب والبيت والفاكس وقالت إنها تنتظر مخابرته على أحر من الجمر، بانتظار الزيارة المرتقبة إلى مثلها الأدبي الأعلى!

فقط حين عاد إلى بيت عمته تساءل: كيف سأرتب اللقاء؟ وقرر تكليف صديقته المخلصة دانا بذلك عن طريق والدتها.

استجوبته دانا عن سر اهتمامه المفاجىء بزيارة ماريا فاعترف لها وقهقهت طويلاً قائلة: «العاشق اللاتيني» وقع في الحب من أول نظرة؟ وأردفت شامتة: أمثالك ينتهون دوماً هكذا.. حسناً.. خدمة بأخرى. أريد بالمقابل أن تعرفني بالثري ابن عم والدك، السيد أمين، فقد يرضى بالدخول كشريك في مشروع شركة الكومبيوتر التي أمثلها. وافق دونما تردد، فقد كان قد تعلم أصول «الصداقة» في وطنه الثاني فرنسا، والشيك بالشيك والبادىء أكرم والمثل الفرنسي يقول: الحسابات الصحيحة تصنع صداقات جيدة. أما في بيروت فتبدو له الأمور أقل وضوحاً وأكثر صعوبة.. إذ تضيع الحدود الفاصلة بين العاطفة والمصالح وتختلط وتصير الصلات سوريالية.

في اليوم التالي رافق فؤاد صديقه فواز إلى مكتبة أنطوان. اشترى فواز ما وجده من كتب ماريا ثم مشيا إلى مكتبة بيسان لشراء الباقي وقال لفؤاد ضاحكاً: اللعنة عليها، لماذا تكتب ماريا كثيراً هكذا؟ ولماذا لم تعجب سميرة بكاتبة من اللواتي لم يصدرن أكثر من كتابين أو خمسة على أبعد تقدير؟

ضحك فؤاد وقال لفواز محذراً: انتبه.. أنت تتصرف كعاشق. ثم أضاف جاداً بقلق: نسيت أن ألفت نظرك إلى أنها من دين آخر. من واجبي إعلامك بذلك.

حين شاهدت عمته كتب ماريا تزنر الغرفة قالت له: هل سمعت ما يقوله الناس عنها؟ وروت له حكايا حاول عبثاً إلصاقها بالسيدة التي يعرفها وطالما شاهدها عند أمه، وكانت رقيقة وإنسانية في تعاملها معه.

تُرى هل تخفي ماريا في قاعها امرأة أخرى يعرفها الناس وتعرفها عمته؟ أهي أيضاً من أهل الأقنعة والسهرات التنكرية؟ لا. لا يعرف الكثير عن ماريا ولكنه لا يظنها كذلك.

* * *

لم تصدق الدكتورة ماري روز أنه سيكون بوسعها الاستحمام في شاطىء جميل ودّي متحضر كهذا، دافىء في الخريف على عتبة الشتاء، يغمرها رواده القلائل بنظرات الرضى والاحتفاء بـ «سائحة فرنسية باهرة الحسن مثلها» كما قال لها

«الدونجوان» الأنيق بربطة عنق مخططة بالأبيض والأزرق وسترة بحرية كحلية بأزرار ذهبية، ذلك الدونجوان العجوز السبعيني اللبناني الذي يدخن النارجيلة على الشاطىء بشفتين توحيان بأيام عز وجولات على أجساد بضة وأكاذيب شعرية عذبة، وغزوات مع الفرنسيات وسواهن مضيفاً: أنت تذكّريننا بأيام العز السياحية وغير السياحية. أضاف نصف ضاحك نصف باك كقناع إغريقي حي: تحسرنا أيام «الميني جوب»، لأنهن قصَّرن ملابسهن حين قصّرنا وصرنا اليوم نشكو «عدم الإمكان». حاول أن يشرح لها بالفرنسية لعبة الألفاظ بين «تقصيره» وتقصيرهن لثيابهن، وتظاهرت بأنها فهمت لكنها شردت بذهنها عنه وهي تتلذذ بذلك النهار المشمس في عز الشتاء الباريسي القارس. **درجة الحرارة الآن في شرفتي الباريسية في «أفينو فوش» أو في عيادتي في «بولڤار فلاندران» هي خمس درجات تحت الصفر وتحت الثلج! ثم إن الثلج لا ينقصني هنا بعدما تزلجت البارحة ظهراً قرب شاليه أسرة دانا في الأرز.. وها أنا أنعم بدفء عشرين درجة مئوية على الأقل تحت شمس حارة وسماء صافية الزرقة. السابحون قلائل، لكنني ألفت البرد وبحار الشمال من حيث جئت. غداً تزلج، وبعد الغد سباحة. صيف وشتاء على سطح واحد حقاً اسمه لبنان بمعاني الكلمة كلها.**

كم وعيت ذلك يوم اصطحبتني دانا إلى كورنيش المنارة للمشي بين «فندق الفاندوم» و«فندق الميديتيرانه». تدفق على الرصيف كرنفال تنكري عجيب غريب متعايش.. بنت «بالشورت» ومعها دراجتها، وأخرى بالتشادور تتسامران. امرأة بالفراء وماكياج السهرة وحليها وأخرى بالزي البدوي وثالثة بالجينز المتقشف. سيدة مسنة بالميني جوب وشابة تبدو ابنة لها محجبة. رجل ملتح يغطي رأسه بعمامة ترافقه شابة تغطي شعرها وعنقها بحجاب لكنها ترتدي البنطلون الضيق وتسبح عيناها في بركة من الكحل وطبقات من الماكياج تغطي ملامحها وقد رسمت شفتيها بالقلم البني الغامق وأحمر شفاهها «الفوشيا» يشع تحت الشمس. أدهش د. ماري روز أن المحجبات اللواتي شاهدتهن كن الأكثر تبرجاً لكنها قررت أن الأمر لا يعنيها. ثم إنها تجد أن أجمل ما في بيروت تلك التناقضات المتعايشة بما يشبه الوئام.

دانا قالت لي: إنه وئام ما بين جولة حربية وأخرى من معاركنا. في القلب لما نتعلم التعايش بعد، ودبكة احترام المختلف يمكن أن تنقلب في أية لحظة إلى معركة حربية لحظة تتبدل موازين القوى حولنا. ولا نجاة لنا إلا بالديمقراطية الحقيقية.

تنقلب د. ماري روز على صدرها لـ «تحميص» ظهرها الأبيض تحت شمسٍ تبدو لها شبه محرقة حتى شتاءً وتداريها بالزيوت.

أجل أحب بيروت وبالأحرى ما عرفته حتى الآن من بيروت. سليمى استعادت شبابها هنا وتخلصت من بعض كيلوغرامات من وزنها - مثلي - في أيام.

أما أنا، فلم أشعر يوماً في الماضي أنني جميلة بسبب امتلائي - بالأحرى بداناتي بلغة حبيبي الفرنسي جان باتيست - إلا في هذه المدينة. لقد جعلني رجالها أعي ذلك أو أتوهمه لا فرق، ولم أنس يوماً قواعد الريجيم وأتلذذ بالطعام والشراب إلا في حضن النظرات الخبيرة لرجالها في اليخوت والنوادي والسهرات والمعارض الفنية التي لا يرى أحد فيها اللوحات بل تصير ديكوراً «إبداعياً» للقاءات اجتماعية مُلذّة.. لم أدرك أن كوني أنثى شقراء زرقاء العينين طويلة القامة بيضاء البشرة سيجعل مني ملكة في مدينة ما، إلا يوم دخلت إلى «مقهى المودكا» البيروتي متأبطة ذراع ذلك الشاعر بالفرنسية الخمسيني اللطيف وسيم (ولعله في الستينات من عمره ولكن ما الفرق ما دام يتقن فن الركض بي على الشواطىء وفن الصهيل؟).

مشى باحترام خلفي كأنه يرافق بريجيت باردو في شبابها إلى «مطعم ماكسيم» الباريسي، فخوراً بي وهو يحدثني بالفرنسية بأناقة وتلذذ ويترنم ببودلير ورامبو ويرمق صحبه بابتسامة تواطؤية، متجاهلاً حضورهم في الوقت ذاته، ووجهه يسيل نشوة لأنهم ينظرون إلي كملكة خرافية ببشرة بيضاء لعقتها الشمس ووردتها، ناعماً بملامسة يدي (على حد تعبيره)..

عاشق «جنتلمان» يقف بسرعة نابذاً مقعده كلما نهضتُ إلى الحمام لإصلاح زينتي. تلك الليلة شاهدت نفسي للمرة الأولى جميلة وشهية على ضوء عيون رجال بيروت، جميلة كربّة إغريقية توقظ الآهات لا بدينة كما يقرعني جان باتيست خطيبي الذي يعيّرني أبي بأنه طامع في لقبي النبيل لا أكثر. اللبنانيون؟ أحببت صورتي في مرآتهم ودفء قلوبهم وكرمهم وطيبتهم وتعاملهم الاستثنائي مع الأنثى.. إنهم أبناء بهجة العيش وحب الحياة وحب النساء ولم يقعوا بعد في فخ التحول إلى رجال معدنيين آليين، وربما لذلك ما زالوا يتابعون حروبهم بمعنى ما.

أجل! لم يخطر ببالي أية حياة باذخة تعيشها دانا وأمها سليمى في لبنان. كنت أتوهمها تتبجح كمعظم المهاجرين الذين شردتهم الحرب ولم تترك لهم من الكبرياء إلا الإدعاء بالثراء. وإذا بالقصر على شاطىء البحر حقيقة، كما بركة السباحة في الحديقة. اليخت في الشاطىء الخاص بالقصر. الشاليه في الفندق البحري الفخم والشاليه الآخر في جبال الثلج الدافىء. ذلك كله لم يكن كذباً، فما الذي يفعله أولئك اللبنانيون الحمقى المهاجرون في مترو باريس؟

* * *

من جديد تنقلب ماري روز على ظهرها لتحميص صدرها ووجهها بعدما أنجزت توريد ظهرها أو الجانب الآخر من القمر كما يدعوه وسيم.

أين تلك الرفاهية التي أرفل فيها من حلمي البشع عن بيروت: الزقاق الموحل الموحش. الكلاب الشاردة التي تعوي وتطاردني. الجرذ بحجم رجل يدخن الحشيشة. الزقاق المرعب الذي تكاد تغطي سماءه غيوم واطئة ومظلمة، وغابة من الأسلاك الكهربائية السوريالية الشعثاء كشعر جنّي وحبال ممدودة من نافذة محطمة في شبح مبنى إسمنتي بشع إلى أخرى مقابلة نُشر عليها غسيل كئيب وتدلت الثياب الخاوية كجثث موتى مرفوعة كأعلام في ذلك الدرب المرعب إلى جانب أعلام سوداء متدلية بين جثة وأخرى وصور رجال ملتحين على طول أهوال.. زقاق الرعب هذا..

كم يبدو ذلك الحلم/ الكابوس المتكرر هزلياً على ضوء ما أعيشه هنا.

لكن الرفاهية كلها التي أرفل فيها خلال إجازتي البيروتية هذه لن أدعها تشوش صفاء الرؤيا لدي، فأنا من أسرة لها صلة بالرؤيا المستقبلية، وبلغة العلم بـ «الغريزة الحدسية الاستباقية» أو «الحاسة السادسة الاستباقية» التي تأكد العلم من وجودها مع جهله بكل ما يحيط بها من غموض. وربما كان من الأفضل لي النظر إلى كابوسي هذا بغير عين الاستخفاف أو اللامبالاة.

قبل عامين قالت أمي لوالدي ونحن نتناول طعام الإفطار: حلمت حلماً غريباً. أمشي في زقاق عريض مليء بالناس مسدود. في آخره مبنى شرقي جميل بشرفات عريضة يغطيها الناس كما لو كان البيت العتيق مقهى. إلى اليمين أرى دكاناً تتدلى على جانبي مدخله سجادتان عجميتان جميلتان، أخطو إلى الداخل. الدكان دهليز شبه معتم، ولكنه مزود بواجهتين مضيئتين على يمينه ويساره. أحدق فأرى داخل الواجهتين الزجاجيتين حلياً قديمة للبيع. تتعلق نظراتي بعقد فضي بديع تتوسط قطعه المشغولة كالدانتيل فصوص من الفيروز. أقرر شراءه. أغادر الدكان/ الدهليز والقلادة تحيط بعنقي وأمشي صوب المبنى. يأتي صبي يحيط عنقي أيضاً بعقد من أزهار بيضاء بقلب مصفر لها رائحة تشبه الياسمين وأنا أصعد درجات السلم في المبنى الأبيض بنوافذ خضر في آخر الشارع على ما يشبه المرتفع. أجلس وأتجرع الشاي في كوب صغير برسوم مذهبة.

بعد ذلك بعام، ذهبت أمي في رحلة سياحية إلى تونس وعادت مذهولة وهي تروي لنا أن الشارع الذي حلمت به وجدت نفسها فجأة تمشي فيه حين قادتهم الدليلة إلى ذلك المكان والبيت العتيق/ المقهى كان هناك على المرتفع في آخر الشارع وكذلك الدكان، والقلادة، وقد اشترتها وصبي الحلم الذي أحاط عنقها

بطوق الأزهار الياسمينية خرج من الحلم الرؤيوي إلى الحقيقة وهو بائع متجول للعقود.. ثم قادتهم الدليلة إلى المقهى الشهير. قالت أمي إنها عاشت كل شيء تماماً كحلمها، وفي البداية ظنت أنها عاشت ذلك من قبل ثم تذكرت أنها لم تزر تونس قبلها، ثم توهمت أنها عاشت حياة سابقة تكررها، وأخيراً تذكرت كلام جدتها عن أن الخالق أسبغ على نساء الأسرة القدرة على الرؤيا المستقبلية والجيران كلهم يخافون من أحلامهم بموت شخص ما قريب لأنها تتحقق غالباً. وأرتنا أمي العقد الذي اشترته وكان تماماً كالذي وصفت لنا أنها شاهدته في حلمها بفضته وفيروزه.

ومن طرفي، لا أستطيع أن أنفي ذلك الحلم المرعب من قاعي، والمشكلة أنني لا أستطيع بعد التمييز بين مخاوفي اليومية وبين حدسي الاستباقي، أي ما حدث لي في المستقبل.

* * *

من أين تداهمني هذه المخاوف؟ لم ألتق هنا إلا برجال لطفاء معجبين ونساء جميلات أنيقات مرفهات تكاد تتمزق ملابسهن عند الصدر والفخذين والردفين.. وأبدو رشيقة قياساً إلى امتلاء معظمهن بحياة بالغة الرغد.

ولم ألتق إلا برجال يبيعون الدنيا مقابل لحظة حب، ولا يمارسون الحب وعينهم على الساعة مثل خطيبي (خطيبي؟)..

قال لي جان باتيست: سيتدفق بركاني وأنت ما زلت في القطب الشمالي.. وقبّلني بجنون لعله مصطنع إذ لاحظت أنه كان يسترق النظر إلى ساعته حين أحببت أن أرى كيف تبدو عيناه وهما مغمضتان حين يُقبّل. وكنتُ أحث الخطى إلى خط الاستواء فسقطت من جديد في سيبيريا... تابع نشاطه كنمر ملحاح وقال: هل أنت مستعدة.. هل أنت.. كدت أنفجر ضاحكة..

شعرت أنه مثل جندي صغير في معركة الحب، لا يعرف الاسترخاء ويحرمني منه ومن متعة التحليق إلى النجوم والكواكب الأخرى. أضاف بصوت حماسي: سنصل معاً. وكدت ثانية أنفجر ضاحكة، كأننا نتسلق الهيمالايا لنغرس راية وليس لنتحول إلى غيمتين تحلقان باسترخاء إلى مجرّة أخرى لها موسيقاها الخاصة الهامسة بين وشوشات الجنون والنعاس وانهمار أمطار الجسد..

رن هاتفه النقال. لم يسكته لكنه حاول أن يثابر على تسلق هيمالايا التنهدات بالإيقاع ذاته، وقال عبارة «آلو» بصوت يشبه ضربات الآلة الكاتبة، بل وتابع حوار البورصة والعمل وهو يتابع في الوقت ذاته رحيله الإيقاعي الرتيب داخل براكيني التي تحولت إلى جليد.

أنجز مخابرته الهاتفية وأعطى تعليماته لعميله في البورصة، وقال لي: أنت امرأة باردة!.. بكلمة واحدة أمسك ممحاته وشطبني عن قائمة الأحياء ونقلني إلى خانة التماثيل الرخامية في شارع كئيب خاو داخل لوحة للفنان دي غيريكو!

وأضاف وهو يقوم بتزويج اللاعدالة إلى الأذى وقلة اللياقة: أنت امرأة مثلجة.. وفقدت يومها احترامي لذاتي كأنثى ولجسدي وبدأت أزداد سمنة في المساءات الشتائية الباريسية المعتمة الباردة الكئيبة حين كنتُ أختبىء داخل كيس البطاطا المقلية (الشيبس) والبوب كورن وأزداد سمنة.

وها أنا في بيروت، أكاد أستعيد رشاقتي. أخسر وزناً كلما ازددت أكلاً وحياة وشغفاً بمن حولي وكلما مارست الحب أكثر والتهمت الطعام المتوّج بماء نار زحلة وبهجة أهل لبنان...

جاء صبي الشاطىء، يسألها هل تريد مظلة تقيها الشمس، مضيفاً بلا صوت وهل تريد شيئاً غير لبن العصفور وعصارة قلب أهل ذلك البلد السخي الذي لا نهاية لقلبه، وهذا ما فهمته من كلامه بالعربية التي تجهلها، وكان وهو يحدّق بها يبدو لها وهو ينتقل من المراهقة إلى الرجولة وجسده يرتعد وهو يتحسس بعينيه كل ما فيها باستثناء وجهها!! شكرته بهزة من رأسها وهي تكاد تنفجر ضاحكة وصرفته..

مع وسيم، وعيت جماليات جسدي.. لم يذهب إلى عمله ذلك الصباح بعدما تناولنا معاً عند حلويات «البحصلي» طعام الإفطار وهو كنافة بجبن. اصطحبني إلى بيته الذي تغطي جدرانه الكتب ونوافذه البحر والفراشات. في ضوء النهار الساطع الاستثنائي لا في عتمة الليل كما درجت العادة مع جنون الجسد، تحول سريره إلى معبد لرفع القرابين الشعرية لجسدي.. قرأ عليّ أشعار بودلير وهندرلن وقصائده التي يفترض أنه كتبها عني منذ لقائه بي. قرأ عليَّ أشعاراً بالفرنسية وبالعربية وبدت لي اللغة العربية طلاسم للحب والشهوات ونشوات ألف ليلة وليلة والعالم القديم المسحور بالمتع الغامضة.. ساعات وساعات.. لم يذهب إلى عمله، وخلع ساعته ورمى بها كالمجنون عبر النافذة، وحين رن الهاتف اقتلعه من الجدار وأنا أضحك، فقط ليتابع إحصاء مسام بشرتي وينفخ فيها دفء روحه الآتية من حرارة شرقي المتوسط على طول آلاف السنين من عشق الجمال والتبتل لتبذل الحب.. شيئاً فشيئاً صار جليدي يذوب تحت شفتيه، وصرت أغادر قوقعتي وأنشر جسدي على طول قارتين ومحيطين وشعرت أنني الأنثى الأزلية، تخرج من قارة الأتلنتيد المدفونة في قاع المحيطات لتنشر أجنحة الجنون والبراكين والمياه الجوفية.

فتحت صندوق جنوني فطارت الفراشات من صناديق آثامي ولم تكن كصندوق باندورة مليئة بخفافيش الشرور. اكتشفت نفسي في ذلك السرير البسيط العذب الشبيه بقصيدة طفل، وانتشرت شاسعة على طول الأشعار كلها التي قيلت في النساء على مر عصور. وكان هو يشقّ طريقه ببطء إلى محرق هذياني مثل ملاح غريب يستمتع بالطريق أكثر من الوصول. وحين رمى مرساته في جزيرتي البكر النائية وعرفت متعة الزلزال للمرة الأولى في عمري المليء بالنزهات الجانبية، أضاءت مناراتي كلها مرة واحدة، وشع جسدي بضوء صاعقة ضربت محرق كياني، وحاولت أن أصرخ آه فلم أجد صوتاً ولا حنجرة، وجاءت تنهيدتي نفخة ريح حارة في حقل استوائيّ الروائح. . لحظتها فقط طار بي السرير البسيط كما لو كان بساط الريح وحلّقت وحلّقت ووعيت أنني تعارفت مع جسدي وأني لم أعد عذراء حقاً وقبلها راحت وجاءت سفن في موانئي وكنت أتثاءب وأنا أرى رجالاً يحدّقون في ساعاتهم خلسة، ويوشوشون عملاءهم في البورصة، وزوجاتهم على الهواتف وهم يحاولون لعبة الجسد ويشكون: المرأة العاملة لم تعد عاشقة!! ويشترون كتب «هويلبيك» النوّاح كاره العرب والنساء.

حين انتهيت بدأ وسيم ذلك العجوز الطفل الشاعر المجنون الملعون بالنشوات. . ركع أمامي وهو يهمس: شبيك لبيك عبدك بين يديك. فقط افركي الخاتم. وحين فركته تحول إلى حصان أبيض امتطيته فركض بي حتى الفجر في وديان من الفضة فجبال من الذهب بصخور من الماس الشفاف حتى بلغنا القمة حيث الينابيع من ماء النار والعسل، والخدر بالسعادة حتى إلغاء الزمان والمكان. . .

حين غادرنا البيت صباح اليوم التالي كنا جائعين كقطين بريئين وملعونين، فعدنا إلى الطاولة ذاتها والتهمنا الكنافة بالجبن ذاتها.

وعدنا إلى الشقة ذاتها لنمتطي من جديد بساط الريح وأفرك من جديد خاتم علاء الدين.

تتقلب الدكتورة ماري روز تحت الشمس بانتشاء حتى لتكاد تنسى هواجسها كلها. . لقد وفى الحلم الجميل بوعوده معي عن لبنان، لا حلم النبتة الصبّارية على طرف بطاقة السفر التي تتحول إلى أفعى بفم أحمر ينفخ السم بلسان بشطرين ونابين، فم له حمرة أزهار النباتات الصبارية المشتعلة سحراً وعدوانية. . كأنني أغلقت باب المترو في باريس ليلاً وفتحت باب الحلم في بيروت. التزلج فالسباحة هنا تحت الشمس في الزرقة الدافئة الشتوية الحنون. . العشاء ليلاً على شاطىء البحر في ضوء القمر أو التقلب على الثلوج الحارة في حضن غزل يمطرني به اللبنانيون،

والقبلات المسروقة بخفة ظل خطى الغزلان.. ذلك الحب كله.. ذلك اللطف كله.. روائح العطور الباريسية والموسيقى والابتسامات والرقص المجنون وشارع مونو والحمرا وجونيه والكازينو والإطلالة من الغابة على البحر ووسيم ويحيى الذي أناديه «يايا» وأعجز عن لفظ عبارة «يحيى» ويصرخ نشوة «يايا» يا حياتي ولا أفهم ما يقول وأفهم جيداً في آن. والعناق المسروق خلسة عن عيون النجوم وال «جت ست» اللبناني الخرافي بنساء خارقات الحسن وذكور يسيل السحر من نظرات عجائزهم قبل شبانهم.. وغيرة وسيم شاعري العجوز من يحيى رجل الأعمال الشاب الوسيم صاحب اليخت. مدينة بنساء مرفهات، يرتدين مجوهرات لم أر مثيلاً لها من قبل إلا في أعياد مونتي كارلو والسهرات الرسمية لطبقتي الباريسية وواجهات «كارتييه» وبقية مبدعي ساحة الفاندوم الباريسية، ناهيك عن واجهات «معوض» الماسية السحرية.

لم أصدق يوم دعتني دانا لقضاء إجازتي، أن الأمر سيكون راقياً حتى على الصعيد الفني التاريخي الإبداعي بالمتحف الوطني وبعلبك وصيدا وصور العراقة وبيت جبران وجماليات جعيتا و.. و...

تنهض ماري روز للسباحة. ربما كانت المرأة الوحيدة ذلك اليوم التي تجرأت على قذف جسدها في البحر وحرارة المياه لا تزيد عن ١٦ درجة مئوية بدت لها مقبولة وهي التي أَلِفت الصقيع.

المياه الباردة نسبياً لسعتها. أنعشتها. تلاحقت ضربات قلبها بنشوة وتحفزت عضلاتها وفارقتها تهديدات الترهّل. شعرت بالأسف لأن إجازتها شارفت على الانتهاء. الشابان الرياضيان الوحيدان اللذان كانا يسبحان حاما حولها ورمقاها بنظرات الإعجاب وأحاطا بها خوفاً من غرقها وأملاً بغرقها كي تناديهما مستنجدة!

حين غادرت د. ماري روز الماء اشتعل جسدها بالدفء والعافية وصلابة العضلات بدلاً من ترهل اللحم الممتلىء.. تنهد العجوز السبعيني الدونجوان السابق واستنشق نارجيلته حتى الاختناق وهو مستمتع بذلك وبتأملها!

* * *

يقرع عبد الكريم الخوالقي باب صديقه الصحافي عدنان. الجرس المقتلع من مكانه شبه المتدلي على الجدار ما زال على حاله منذ اليوم الذي زاره فيه ليودعه في دربه إلى «المجد» في باريس! حتى الكهرباء على حالها، إذ إنها مقطوعة ولا مفر له من قرع خشب الباب بقبضته كما فعل آخر مرة قبل أعوام طويلة.

يفتح عدنان الباب. يتأمله عبد الكريم.. **يا إلهي، ها هو بكل وسامته ونضارته وقد زادته الأيام إشعاعاً**. يدهش عبد الكريم، كان يظنهم ـ في لبنان ـ ماتوا

حرباً وجوعاً. يذهله أن عدنان يبدو كمن عاد للتو من شهر العسل!

بالمقابل عدنان يكاد لا يتعرف على عبد الكريم للوهلة الأولى. يبدو له معتلاً طحنته الحياة وسرقت اللون من خديه وفي عينيه بريق مجنون له ضوء أسود.

يتعانقان، يقول عبد الكريم: تبدو في أحلى حالاتك.

يجيب عدنان بصدق: لا أستطيع قول ذلك عنك دون أن أكذب! يبدو أن الانتقال من نجاح إلى آخر في باريس أتعبك.. ادخل.. ادخل ودعني أراك جيداً.. كم أفتقدك.

بعدما تيسّر من المقدمات سأل عبد الكريم عدنان عن أسرته، فأجب الأخير: إنهم بألف خير، لكن والدك مريض قليلاً.. ألم ترهم بعد وجئت تراني أولاً؟ بدا الزهو على عدنان وتابع: ألم تنزل عندهم؟

أجاب: أنا في «فندق الأمراء». قالها للتشاوف وندم، فقد حرّم عليه رفيق مغادرة الفندق ناهيك عن الإدلاء بمعلومات، فأردف: وهذا سر. أنا في إجازة قصيرة تحولت إلى رحلة عمل مفاجئة. فسأزور أهلي بعد أن أنجز عملي.

قال عدنان بطيبة: أفهم ذلك. المهمّون يطاردهم الرزق والعمل، ولا يحبون أن يعرف طالبو الحاجات مكانهم. لن أقول شيئاً حتى لأسرتك. اختر التوقيت الذي يناسبك. والآن هيا أخبرني بكل شيء منذ البداية.. منذ لحظة سفرك من بيروت إلى العز في باريس. هذه المرة لن أدعك تغادر بيروت دون أن تصطحبني معك إلى باريس.. إذا لم أهاجر سأقتل نفسي.

لم يصدقه عبد الكريم فقد كان وجهه يسيل عافية، وبدا مرتاحاً داخل إنائه المحلي. **ثم إنني لا أبالي به أو بسواه حقاً ـ كما علمتني تجاربي أن أحداً لا يبالي بي ـ وقد جئت لأفرغ ما في جعبتي من سموم تعذبني ولأكلّم إنساناً بدلاً من نفسي في المرآة.**

قال فجأة: هل تظن أن خيوطاً لامرئية كالتي رُبطت إليها الدمى هي التي تسيطر علينا وتخطط لنا وتحركنا وتملي علينا مصائرنا أم أن الذين يعتقدون بذلك هم من أهل الخرافات المجانين؟

بدا الذهول على وجه عدنان. كان يتوقع أن يتحدثا عن كل شيء أولاً: الصحة. العمل. الحب. النساء. الأشواق. فهل أصيب عبد الكريم بمس؟ لكنه بالمقابل كان ما يزال يحبه ويفتقده ولم يشأ صدمه!

ضغط عدنان زراً في «كلافيه» الإنترنت فأضاءت الشاشة وسمع عبد الكريم أصواتاً معدنية بعد دقائق صمت ظنها ساعة من النكات الآلية. قصّ عدنان ورقة من

الطابعة (البرينتر) وقال لعبد الكريم: بالتأكيد أؤمن بتلك الخيوط التي تحرك مصائرنا. ليس بيننا من هو حر، والذي يتوهم ذلك توحي له مشيئة الخيوط بذلك. كل ما يحدث لنا مكتوب من الأزل.. وثمة مصادفات فوق طاقتنا العقلية على الفهم. أسمع مثلاً هذه المعلومات المذهلة التي وجدتها على الإنترنت حول رئيسَيْ جمهورية الولايات المتحدة أبراهام لنكولن وجون فيتزجيرالد كنيدي، ففيها دليل على تشابك الخيوط أحياناً أو تكرارها بعد قرن من الزمان:

لقد تم انتخاب لنكولن للكونغرس عام ١٨٤٦.

وتم انتخاب كنيدي للكونغرس عام ١٩٤٦.

تم انتخاب لنكولن رئيساً للجمهورية عام ١٨٦٠.

وتمّ انتخاب كنيدي رئيساً للجمهورية عام ١٩٦٠.

كل من اسم لنكولن وكنيدي بالإنكليزية يتألف من سبعة حروف.

زوجة لنكولن كما زوجة كنيدي أجهضت خلال إقامتها في البيت الأبيض.

لنكولن وكنيدي تم اغتيالهما يوم الجمعة، وإصابتهما كلاهما كانت في الرأس.

سكرتيرة لنكولن كانت تُدعى كنيدي.

وسكرتيرة كنيدي كانت تُدعى لنكولن.

لنكولن وكنيدي اغتالهما رجلان من جنوب الولايات المتحدة الأميركية.

خليفة لنكولن كان يدعى جونسون.

وخليفة كنيدي كان يدعى جونسون.

أندرو جونسون خليفة لنكولن ولد عام ١٨٠٨.

وليندون جونسون خليفة كنيدي ولد عام ١٩٠٨.

جون ويلكس بوث قاتل لنكولن ولد عام ١٨٣٩، ولي هارفي أوزوولد قاتل كنيدي ولد عام ١٩٣٩.

القاتلان عُرفا باسمهما الثلاثي، ويتألف كل من الاسمين من ١٥ حرفاً.

لنكولن قتل في مسرح يدعى مسرح كنيدي.

وكنيدي قتل في سيارة ماركة لنكولن.

القاتل جون ويلكس بوث هرب من المسرح الذي ارتكب فيه جريمته إلى مستودع.

القاتل لي هارفي أوزوولد هرب بعد ارتكاب جريمته من مستودع إلى مسرح حيث وجدوه.

القاتلان بوث وأوزوولد تم اغتيالهما قبل محاكمتهما.

مصادفات مقلقة أليس كذلك يا عبد الكريم؟ وهل من تفسير لها غير تلك الخيوط القدرية التي تحدثني عنها، المتقاطعة/ المتوازية/ المتكررة. والآن أخبرني كل شيء عن حياتك الحلوة في باريس..

ـ.... (صمت!).

ـ قل لي، لِمَ تبدو متعباً هكذا؟

ـ.........

ـ لماذا لا تهرب من كل شيء وتبقى عندي أو تنام عند والدك؟ إنه يفتقدك ولا يريد شيئاً كشقيقاتك إلا الصلح معك. لقد كبر هو الآخر وهو مريض..

ـ لا أستطيع الذهاب اليوم للقائه. لدي غداً نهار عمل مهم جداً لتوقيع العقود.

فجأة استعاد عبد الكريم تماسكه، كأنه لا يجد ذاته حقاً إلا حين يلعب دور سميّه الشهير الثري ويتلبّسه! وبالأحرى يتلبس صورة ذلك الغريم كما يتخيلها.

قال عدنان: الذين انتظروك أعواماً لن يضيرهم انتظارك أياماً.. وأضاف مداعباً: المهم أن تقودك خيوطك إلينا بأسرع وقت.

سأل عبد الكريم بجدية: ماذا يحدث للذين يرون بوضوح الخيوط التي تحركهم، والمشدودة إلى أفعالهم وأعضائهم وحناجرهم وسيقانهم وأقوالهم، أعني يرونها بالمعنى المادي للكلمة، في حين تبدو لهم صورتهم في المرآة شاحبة تتلاشى وتتلاشى يوماً بعد آخر؟

أجاب عدنان بعفوية: ربما معنى ذلك أن أجلهم قد حان.. حين يرى شخص ما، ما لا يحق للأحياء مشاهدته فذلك معناه أنه يخطو فوق الجسر بين عالمين.. ولكن لماذا تطرح عليَّ هذه الأسئلة؟

ـ لا شيء.. لا شيء..

ـ ثيابك أنيقة وفخمة وكلها ذوق، وعطرك باريسي... متى ستساعدني على الهجرة؟

ـ.........

ـ اعذرني فقد أنسيتني بزيارتك المفاجئة أصول الضيافة. لكنك لست غريباً..

سأحضر لك قهوة عربية بالهال.

-.........

غاب عدنان قليلاً في مطبخه وعاد بصينية القهوة، ولم يجد في الغرفة عبد الكريم.. لم يكن التفتيش عنه صعباً في بيت صغير كالقن من غرفتين. بحث عنه على الشرفة ولم يجده. ترك القهوة على المنضدة وتساءل: هل كنت أحلم أم أن عبد الكريم زارني مثل شبح آت من دنيا الأموات أو ذاهب إليها؟

لولا رائحة عطر عبد الكريم التي طغت على رائحة القهوة لاقتنع عدنان بأن شبحاً زاره أو بأنه كان يحلم..

يرتدي ناجي معطف الفراء وحذاء فاخراً من جلد التمساح. يحمل حقيبة سوداء مماثلة لحذائه بأطراف ذهبية وبقفل مرصع بالماس. يفتح له السائق عبودي الكذّاب باب السيارة، وهو يرتدي ثياباً رسمية خاصة بالسائقين على الطريقة الفرنسية. يأمره بالذهاب به إلى قريته. السيارة كما صندوقها ملأى بالهدايا الثمينة لأسرته ولأبناء القرية. ساعات «بياجيه» لوالده وإخوته مطرزة بالأحجار الكريمة وساعات «رولكس» ذهبية لبقية أهل القرية صورته داخل إطاراتها تحت عقارب الساعة كما أوصى عليها وليس بوسع أحد أن يرى كم الساعة دون أن يطل عليه وجهه البهي المفدى، فهو ملك أثرياء لبنان في الوطن والمهجر.

يصل إلى القرية ويهبط من سيارة الرولزرويس بينما هو يتحدث على هاتفه النقال. أهل القرية يهتفون باسمه لأنه يوقع شيكاً لوالده ليشيد للأسرة القصر الذي يليق بها، وشيكات جانبية لتشييد مدرسة هنا ومستشفى هناك أي ما يدفعهم لمديحه ولتذكر عظمته ونجاحه المحسود.

ستعطس الضريرة ذهبية التي أصيبت بالعمى يوم علمت بمصرع ابنها في الحرب على يدي قناص وستبصر بعد تلك «العطسة» التي سببتها حساسيتها ضد نوع عطره، وسيشيع في القرية أن له مكرمات، العمياء تُبصر على يديه والكسيح يمشي. لقد وجد كهف «علي بابا» في باريس وكان في طفولته يظنه في تخوم قريته ولطالما قال للجبل في صغره «افتح يا سمسم» فأنا ناجي الأعظم، فلم تنشق الصخور له في طفولته ومراهقته. ولكن الكهف كان في المغترب وقال لباريس «افتح يا سمسم» وركعت باريس أمام قدميه وغرف من كنوز علي بابا المرصودة له وها هو يعود إلى القرية عودة الفاتحين بمعطف من الفراء ورولزرويس وهدايا ومكرمات! يلتف أهل القرية كلهم لتهنئة أمه فتفخر به وتتباهى وتضمه إلى صدرها.

استيقظ ناجي من حلمه على عضة «بقة» في سريره القذر، في الفندق الحقير في الزقاق المتفرع من شارع الحمرا، ووسادته نصف مبللة بدمعه، فقد بكى أمه أياماً لم يحصها وشعر أنه ذئب وحيد مسكين تعرى حتى من فرائه وقصوا ذيله في الغربة وصار يشبه جرذاً بذيل مستعار في مدينة الجرذان. . هل سيعود إلى باريس

ليتابع المسيرة بين الوحشة والمترو والطعام المثلج؟

كغريق يتمسك بإطار النجاة الوحيد المتبقي له في البحر الهائج، أمسك ناجي ببطاقة سليم. ارتدى ثيابه على عجل، وهبط إلى الردهة ليتصل به هاتفياً. فوجىء بترحابه وبأنه في المكتب بانتظاره بعد ساعة. حين وصل ناجي إلى مدخل المكاتب الفخمة لسليم في مبنى يصرخ مرمر جدرانه وأرضه مباهاة، أرشدته مضيفة حسناء إلى زر المصعد الذي ينبغي أن يضغطه مردفة ذلك بإدارة مفتاح خاص في اللوحة على جدار المصعد معتذرة عن عدم مرافقته لترد على رنين الهاتف الملحاح في المدخل.

صعد إلى حيث أرشدته وما كاد باب المصعد ينفتح حتى فوجىء بأنه داخل مكتب شاسع يحتل طابقاً والبحر يغطي نوافذه كديكور باذخ الجمال، وطاولة كبيرة أدارت ظهرها للبحر تصدرها سليم وثمة عجوز ضئيل يشهر عليه مسدساً. قبل أن يفكر ناجي أو يقول شيئاً اندفع بجسده الضخم كالقذيفة، قافزاً فوق الرجل النحيل حامل المسدس ودهسه تحت جسده وجرّده من مسدسه وطلب من سليم الاتصال برجال الشرطة.

بسرعة، استعاد سليم رباطة جأشه وقال: لا. لا مبرر لتدخل رجال الشرطة في سوء تفاهم بين الأصحاب. وأضاف مخاطباً العجوز النحيل الضئيل الذي كان يهدده بمسدسه: أليس كذلك يا فريد؟

-........

- دعه يذهب، يا ناجي، سامحه الله!

أكبر ناجي قدرة سليم على الغفران لرجل كاد يقتله، ودخلت السيدة الحسناء التي قدمها سليم لناجي في المطعم الباريسي على أنها زوجته كما لو كانت تتلصص على المشهد واقتادت الرجل الضئيل الذي بدا لناجي متألماً وبائساً إلى المصعد، وضغطت الزر بعدما أدارت مفتاحاً في ثقب جداره وابتلعه الباب الحديدي. دخل حارس مهرولاً فزجره سليم: أين كنت؟ لولا صديق القرية ناجي لقتلني هذا المجرم.

- «يا بيكنا» تغيبت لحظة في الحمام لقضاء حاجة عاجلة. لم يخطر ببالي أن هذا العجوز يمكن أن يكون مؤذياً.

قال سليم بعدوانية: لك جسد شوارتزينغر وعقل ذبابة. هيا بنا فلدي موعد مهم. لفظ العبارة الأخيرة بصوت هادىء وبأعصاب باردة أو جهد أن تبدو كذلك.

قال ناجي متمسكاً بعبارة «صديق القرية» لتذكير سليم بالاهتمام به قبل الهرب

هكذا: متى ذهبت إلى القرية لآخر مرة؟

ـ من زمان. . منذ صرت ثرياً!

ارتاح ناجي للإجابة رغم تنصلها منهم وربما منه، فعدم ذهاب سليم إلى القرية معناه أنه لم يبح لأحد بأنه مجرد نادل في باريس ـ كما رآه حين خدمه ـ لا صاحب المطعم كما يشيّع والده.

أضاف سليم: لقد أنقذت حياتي ويسعدني أن تتعاون معي إذا أحببت. وفاء ستشرح لك الأمر، أما أنا فعلي الذهاب الآن. وفاء ستدعوك إلى الغداء وتتولى شرح كل شيء، أليس كذلك يا وفاء؟

وفاء؟ ذهل ناجي وبدت الدهشة على وجهه. أليست حقاً زوجة لسليم؟ لو كانت كذلك لما. .

قال سليم وكأنه يطالع كتاب دهشته: أنت تشبه رجلاً نام في الكهف طوال سنوات الحرب هي التي قضيتها في باريس واستيقظ في بيروت على عتبة ٢٠٠٠ محتفظاً بطيبته وبراءته. هذا يعجبني فيك ولا يعجبني.

سأله ناجي بقحة: ولماذا لا يعجبك يا أفندي؟

ـ لأن بيروت سنة ٢٠٠٠ ليست بيروت ١٩٧٤ حين كنا أطفالاً نلعب وانفجرت الحرب وظللنا نلعب. المدينة ذاقت طعم الدم وتوحشت، وهي تتغذى من الحمقى. سأحدثك بلغتك كنادل في مطعم: الخيار الآن في بيروت هو ببساطة هل تريد أن تأكل أم أن تؤكل؟ ما من خيار آخر. . ووفاء ستشرح لك الأمر! أنصت إليه ناجي، ولاحظ أكثر من أي وقت مضى أن نابين طويلين لسليم قد تدليا أكثر طولاً مما شاهدهما في باريس في المطعم، وأنه يبدو لعينيه شبيهاً حقاً بمصاصي الدماء الذين طالما شاهد على شاشة التلفزيون حكاياهم ولم يصدقها بالطبع، لكنها كانت تخيفه كما يخيفه نابا وفاء المتدليان على شفتيها فوق حمرة شفاهها. نابان ملطخان بأحمر لعلّه الدم، ولكنه تذكر أنه من عشاق أفلام «مصاصي الدماء» وأهل الأفلام. . **لا. . لوفاء نابان حقاً كمصاصي الدماء**. كاد يصرخ هارباً ثم تذكر عضة البقة التي أيقظته صباحاً من حلم عمره المتكرر الذي لم يتحقق. .

وسمع صوته الخاص قادماً من حنجرته وهو يقول لسليم مجيباً: أريد أن آكل طبعاً.

ـ حسناً، في تلك الحالة، لدي مشاريع أخرى لك. بوسعك أن تصير أحد معاونيّ الخلّص. تبدو مخلصاً وقادراً على اتخاذ المبادرة.

ـ أنت صديق طفولتي وحياتي فداء لأصدقائي. هل نسيت شعارنا في القرية؟

ـ لم أزر القرية منذ ألف عام ولا أشعر برغبة في ذلك. إذا لم يقطع المرء الخيوط كلها التي تشده إلى الماضي وموتى الماضي وأصوات الماضي فسيظل عاجزاً عن التحليق. . والآن وداعاً فأنا مضطر للذهاب حقاً.

أعجب ناجي بقوة سليم وقرر الاقتداء به ليحلّق.

* * *

اصطحبته وفاء إلى مطعم جديد عليه كمعظم ما في بيروت، يُدعى «كافيه روايال».

جلس ناجي ووفاء إلى مائدة وجيهة تتسع لستة أشخاص وتطل على البحر مباشرة. كنادل، يعرف ناجي معنى أن يفوز الزبون بمائدة كهذه، كما لاحظ أنهم يعرفونها ويُدلّلونها. . ما تكاد تشير بأصبعها حتى يقفز نادلان بسرعة يسألانها بلطف مفرط عن أوامرها. وهو كنادل يعرف معنى خدمة كهذه: الزبون مهم مالياً على الأقل ويسخو بـ«الإكراميات»! انتشى. لم يكن يحلم في باريس حين خدمها وسليم، كنادل في مطعم «أفراح بيروت»، بأن يجلس يوماً على مائدة منفرداً بها. ثمل بتلك الفكرة حين صارحته: لست زوجة لسليم لكنني زوجة مشاريعه وشريكته وهذا أفضل من البقاء في المطبخ. فسّر كلامها: سليم رفض الزواج مني وأعمل الآن لحسابي كشريكة مال بلا أوهام، بدلاً من الاستسلام لمعاونيه المهمين الذين حولني عليهم! رغم ذلك انتشى ناجي بجمالية الجلسة إلى جانب جرعات من ماء النار اللبناني (العرق) جعلته يقتنع بكل ما كان سيناقشه ساعات لو قيل له في جلسة مختلفة! ثم إن فكرة جلوسه كثري في مطعم مع حسناء وثمة من يخدمه راقت له كنادل لا يفعل شيئاً غير خدمة الناس.

كان يتمنى لو كانت وفاء زوجة لسليم ليسجل ولو انتصاراً صغيراً عليه، ولكنها رائعة! طار فوق الغيوم وقالت له وفاء: لدينا عمل لك وأنت تختاره. . بوسعك الإشراف على تعبئة صناديق المياه المعدنية بمبلغ زهيد ومعقول، وبوسعك أن تكون معاوناً لي في أمور استثنائية تدر الكثير من المال.

قال ثملاً بحسنها، وبالرفاهية والعز الذي يذوقه كزبون مهم بدلاً من العمل نادلاً مع الذين يدللونه: لا أتمنى غير أن أكون من معاونيك وسليم.

ـ هل أنت واثق؟

ـ بالتأكيد. .

ـ حسناً. لن أدور حول الجدار وأستعمل لساناً من خشب كما يقول الفرنسيون مثلك. ثمة أساليب أخرى لربح عشرات أضعاف ما تربحه في أعوام، بل ومئاته وآلافه، فهل ترغب في ذلك؟

تذكر حلمه. معطف الفراء. الرولزرويس. السائق. الهدايا الثمينة. قصر الأسرة. إعادة الاعتبار له في قريته وعند الذين يحبهم. راحته الخاصة ورفاهيته أسوة بالذين يقطفون أجمل ما في الحياة.

لم يتردد حين أجاب جاداً بإعلان سمعه في راديو بيروت: «أنا بدي عيش إكسترا» وسأفعل أي شيء لربح المال.. أي شيء.. فقد تعبت وسحقتني الغربة بجزمتها! ضحكت وهي تعتبر الاستشهاد بالإعلان نكتة ذكية وطلبت من النادل زجاجة أخرى من ماء النار وقالت: سأشرب نخبك. يبدو أننا سنتعاون طويلاً..

بهره جمالها في ضوء النهار الساطع كما سبق وبهره في الإضاءة الباريسية الخافتة في المطعم حيث يعمل وشاهدها للمرة الأولى. أجل: بهره جمالها رغم عدم ضعفه عادة أمام جنس النساء وتفكيره بهن فقط كأدوات لإنجاب أولاد له وخادمات طباخات تحت اسم زوجات، كما بهرته «رجولتها» في المبادرات والقرارات والثقة بالذات. ثم إنه ثمل بالبحر وبالرفاهية وبأن ثمة نادلَيْن يخدمانه وروى لها حكايته (وهو يعب كأسه من «ماء النار» بسرعة) وشكا من فندقه الحقير وشادي المبهور الساعي إلى تأشيرة إلى «يوتوليا» التي اخترعها.. وصدَّقه شادي. وروى لها ضاحكاً أن شادي مستعد لدفع ألفي دولار للحصول على تأشيرة إليها. قالت فجأة: ما رأيك بأن تعمل قنصلاً لدولة يوتوليا؟ الكل يريد الهجرة، الزبائن مني والتأشيرة سيزوّرها (أعني سيعدّها!) سليم وعليك أن تكون القنصل..

ثمل بالسعادة وبغنج عينيها واختلاج الأمواج الزرق خلف النافذة، ومرمر صدرها المكشوف، وفرح لأنه صار قنصلاً لدولة ما (ولو وهمية) فذلك خير من نادل في مطعم حقيقي.. واستعاد بنشوة لحظة مجده العابرة في المطار حين قدمه منتحل لصفة الخوالقي الابن على أنه صاحب فندق «باري روايال».

ـ إذاً أنت موافق؟

سعادته قادته إلى لحظة رفاهية ومنها إلى لحظة حزن صادقة على أمه، وقال لوفاء بحسرة: أمي ماتت ولم أودعها، وأيقظتني هذا الصباح عضة بقة في سريري في الفندق الحقير.

أجابت وفاء شبه ساخرة دون أن يلحظ نبرتها تلك: إذا شكوت لي بكيت لك.. أنا لم أتعارف طويلاً وأمي لأبكيها، فقد قتلتها قنبلة أخوية في خلاف محلي

في زقاقنا الضيق. أما فندقك الحقير فقضية بحاجة إلى معالجة عملية. ستنتقل بعد الغداء منه إلى شقة مفروشة تطل على البحر سأصطحبك إليها بنفسي..

تلاشت موجة حزنه. إنه على وشك أن يهمس «افتح يا سمسم» أمام المغارة الصحيحة.

قال ثملاً بحسنها ورفاهية الجلسة والنادل الذي يرفع باحترام عن الطاولة منفضة السجائر ويستبدلها بثانية نظيفة كلما أطفأت لفافتها: يغيظني أن رامي بك يملك شقة بديعة في الرملة البيضاء على شاطىء البحر ثمنها يوازي أكثر من مليوني دولار لكنه لم يقم فيها بل ولم يزرها منذ عشرة أعوام، فهو يقيم بين باريس ونيويورك وجنيف كما يقولون وكل مرة ترافقه إلى مطعمنا حسناء جديدة.. وأيضاً، يقولون في المطعم إنه «مناضل» متقاعد ولم أر من نضاله إلا الثراء والنساء! لو يعيرني شقته لأقيم فيها بدلاً من دفع نفقات شقة مفروشة...

ـ لن تدفع شيئاً. المبنى كله ملك لسليم بك. ولكن ماذا عن شقة رامي بك؟

ـ إنها مدهشة. سأريك إياها إذا أحببت. أحمل مفتاحها. كلما عرف رامي بك أنني سأزور أهلي في لبنان تذكّرها وطلب مني تفقدها ودفع إكرامية للناطور، وتسديد ما يتوجب لمسؤول صندوق المالكين من جيرانه. لا أحد في المبنى يعرف عنوانه ولطالما طلبوه مني. حتى أنا لا أعرفه لكنني أعرف أنه يتنقل بين باريس ونيويورك وسواهما.

ـ لماذا لا تبيعها له وتقبض ثمنها ما دامت عبئاً عليك وعليه وهو لا يبالي بها وقد لا يُلاحظ الأمر إلا بعد زمن؟

بدت له الفكرة مجنونة وممكنة التحقيق كأفكارها واقتراحاتها كلها وهو يعب ماء النار.

سألها: هل أنت جادة؟ قالت: بالتأكيد. بل إن بوسعك بيع أملاكه كلها.. ولنبدأ بالشقة.. أضافت: بوسع سليم بك استخراج رقم العقار من دائرة «الطابو» وترتيب وكالة رسمية لك لبيع الشقة، مصدقة من الخارجية بختم مزور! اطمئن، لدينا نموذج غير مزور عن وكالة كهذه وسنقلدها ولدينا فنان ماهر في هذا المجال، والمفتاح معك لعرضها على الزبون ولدي أكثر من مرشح. كاد الخوف من لعبة كهذه يؤرقه وعاد يرى بوضوح نابيها الطويلين فتجرّع كأساً من ماء النار وسمعها تضيف: ستقبض عند كاتب العدل «رعبون» الوعد بالبيع وقدره مائتا ألف دولار لبيت ثمنه مليونا دولار على الأقل كما فهمت منك. نصف الرعبون لك ونصفه الباقي لنا. وبصراحة إذا انكشف الأمر نحن لا نعرفك ولا نعرف من زوّر لك الأوراق. وإذا انكشف أي أمر من أمورنا فأنت لا تعرفنا!

ـ . . . .

ـ أكرر: أنت تعرف ناطور المبنى ويعرفك والمفتاح معك، وستقوم بعرض الشقة على الزبون الذي ينوي الشراء وتصطحبه إلى البيت ليراه وتطوف معه في أرجائه، ولا تنس المرور به على الكاراج للمواقف الخاصة بسيارات صاحب الشقة الفخمة. من طرفنا سنعد الأوراق الرسمية اللازمة لك.

ـ . . . .

ـ لا تخف. . سيكون كل شيء على ما يرام. . لا تحزن على صاحب الشقة فهو كما قلت لك ليس بحاجة إليها. . نحن سنربح وهو لن يخسر! وجد نفسه يوافق على مشاريعها كلها، وباح لها بحلمه وهو أن يكون صاحب مطعم عربي في باريس. . . ولو كلفته ببيع القمر في تلك اللحظة لوجد الفكرة ممتازة وللعب دور صاحب القمر!

وهمست وهي تمسك بيده: حلمك ممكن التحقيق عملياً. وسنتعاون وسيمر الأمر بسلام. .

ثملاً بالسعادة كان حين انتقلت به بعد ذلك من فندقه الحقير إلى شقة تطل على البحر، مفروشة بأثاث فاخر نظيف جديد. . ومجنوناً كان حين اقترب بوجهه منها مصادفة قبل ذلك وهو يحاول لملمة أشيائه من غرفة الفندق الحقير خجلاً من رثاثتها، وقبّلها كمجنون ساكباً في تلك القبلة أحزانه كلها وخيباته وطموحاته. واستسلمت له، وخُيّل إليه أنها انتشت وكادت تطلب المزيد على السرير الحقير في تلك الغرفة لو لم يقرع شادي الباب محاولاً إقناعه بالبقاء بعد وعد بنقلِهِ إلى غرفة أخرى أفضل سماها «السويت الملكي»!

قالت وفاء لناجي وهي تودعه: فكِّر بما دار بيننا من حوار وإذا أعجبك الأمر اتصل بنا غداً صباحاً. . وتذكَّر أن علينا أن نعمل بسرعة. يُستحسن أن تبيع التأشيرات إلى يوتوليا، وتبيع بيت رامي وما تيسر من أملاكه وبالأحرى تقبض عربون الوعد بالبيع خلال عشرة أيام على أبعد تقدير، وترحل بنقودك بسرعة قبل أن ينكشف أي من أمور «تجارتك»!. اضرب واهرب وأسس مطعمك الحلم في باريس، والأفضل في بلد آخر يجهل البوليس الفرنسي وجودك فيه. تحاشَ المدن الصغيرة فالناس فيها يعرف بعضهم بعضاً، وباريس نفسها أقل خطراً عليك من جنيف مثلاً. مع المال لا مستحيل بما في ذلك استخراج أوراق ثبوتية مزورة باسم آخر. . مع المال كل شيء ممكن. . واسألني أنا!!

* * *

لم تتصل ماريا بأحد من أصدقائها في بيروت فقد كانت تريد أولاً التسكع مع ذكرياتها في مدينة عشقتها حتى الثمالة ذات يوم، وهجرت وطنها الأصلي لتكون من رعاياها: رعايا الحرية كما أعلنت. وغابت عنها زمناً طويلاً وحين عادت أدمنت تسكعها اليومي هذا. **إنني أكذب. لا أريد فقط تفقد بيروت والتبدلات المروعة التي طرأت على شوارعها وهيئة نسائها وذكورها، وأصواتها وعطورها، بل تحسس آثار أقدام حبنا فيها، فادي وأنا. الشوارع والمطاعم والشواطىء التي ما تزال قائمة شاهدة على حبي الكبير. . أتفقدها لأعيش من جديد ما كان كعرافة تُحضّر روح حبيبها. في حياة كل أحمق مثلي حكاية حب تستعصي على النسيان، ويبدو فيها ظل الحبيب الغابر حقيقياً وملموساً أكثر من ذراعي حبيب حالي أراقصه أو يضمني إلى صدر جنونه. . وأنا أتابع جنوني مع صدر آخر وجسد آخر وآهة أخرى في سرير آخر.**

غادرت ماريا بيتها ذلك الصباح الخريفي المشمس الدافىء. . رن الهاتف وهي تكاد تطبق الباب. لم تجب. لم تقرأ البطاقة المرفقة مع باقة الأزهار الميتة التي صارت روتيناً بإيقاع القلق المشوب بالخوف، وهو خوف تدفعه بيقينها أنها لم تؤذ مخلوقاً ولم تسطُ على مال ليس لها ولم تحاول احتلال مساحة لا تحق لها من أي نمط.

باقة الأزهار الميتة تربعت كتابوت بانتظارها أمام الباب كما في كل صباح. لم تستقل المصعد. هاجمها زعيق أولاد الناطور الستة وأمهم من الغرفة الضيقة التي يقيمون فيها. فسرّ لها الناطور سر ذلك الزحام في غرفته الخاصة بالعمل والتي صارت مساحة محتلة بأسرة وأولاد، منع الحمل حرام وتلك مشيئة الخالق. هرولت نصف هاربة إلى الشارع. مشت وهي تتنفس الدفء البيروتي «الشتوي» الرطب المالح كمدمن يدخن لفافته الأولى ويستنشق روحها بعد رحلة جوية منعوا التدخين خلالها وطالت سنوات. .

حتى لو ثقبت رياح شتاء باريس صدري مثل مزمار وصارت تصفّر عبره بموسيقى حادة كشفرات تقطع اللحم النابض حياة وأشواقاً، لن أعود للإقامة في بيروت حتى لو فتكت بي وحشتي في بعض الليالي العاصفة وإدماني الحنين. حتى لو طارت روحي عبر القارات لتقرع أبواب شهود حكاية حبي مع فادي ويتوهمونها صوت الريح، لن أعود. حتى لو صار نومي في باريس سياحة ليلية عبر قارتين إلى بيروت أدور فيها على نوافذ الأحباء النائمين وشرفاتهم وأصرخ داخل نومهم فيستيقظون ويشتمون العاصفة، لن أعود إلى بيروت. حتى لو دخلت في مرآة الجنون لن أعود إلى تلك المدينة. . هذا ما كنت أردده لنفسي في الليالي التي تنبض

بوجع الحنين إلى ما كان ولا أصدق أنني سأعود يوماً إلى بيروت. . وها أنا أتسكع في شوارع طالما حلمت بها. . شوارع يقطنها أشباح موتى وأبطال قصص وكل من عداهم يبدو لعيني وهمياً وعابراً.

ربما كان علي الاعتراف بأن تلك الشوارع ليست أكثر من مساحة شاسعة خالية من كل مبنى إلا النادر الذي بقي. . ولكن، أي قانون يستطيع منع الخيال من إعادة تشييد مُدُنه؟ وأي دليل سياحي يستطيع حرماني من سياحتي التي قد يتوهمها خيالية؟ مشت طويلاً طويلاً على غير هدى. . ها أنا أمشي على «خط الترين» كما يدعونه في بيروت أي على آثار سكة الترامواي الذي كان قد اختفى حين وصلت إلى بيروت وبقيت آثار خطاه في الإسفلت. أبدأ من مدخل الجامعة الأميركية في شارع بلس كما كنت أفعل من زمان وأنحدر باتجاه «حاووز الساعاتية» حتى باب إدريس، الكبوشية، السراي، ساحة رياض الصلح وتمثاله يتوسطها وإلى اليمين «كراج العلمين» و«التياترو الكبير» كأن بيروت ما قبل الحرب عادت إلى حالها كما أحببتها مرة وعرفتها.

أمضي حتى ساحة البرج الثرية بنخيلها ومبانيها العتيقة. لا أريد أن يُصوّب لي عقلي ما تراه عيناي. أرى وأنا واقفة في وسط ساحة البرج وظهري للبحر شارع المتنبي إلى يساري وفي مدخله مبنى الشرطة. أتسكع في شارع المتنبي كما فعلت في سنتي الأولى في الجامعة الأميركية وكلي شهية للتلصص على حياة النساء اللواتي يحرّم مجرد ذكر وجودهن على كوكبنا في بيتنا. ماريكا الإسكندرانية. أنطوانيت الحلبية. أفراح المغاربية. . لوحات ولوحات. . شتمتني قوادة عجوز ونصحتني بالهرب مع كتبي التي كنت أضمها إلى صدري كأنني أحتمي بها من عالم مرعب وحقيقي في آن. بعدها، اكتشفت أن شارع المتنبي ليس حياً لبنات الليل، بل إنه أسلوب في الحياة تعيشه بعض نجمات مجتمع بيروت «الراقي» على مشارف الحرب، سراً، بديكورات مختلفة وثياب راقية! أغادر أزقة شارع المتنبي وبعض دكاكين باعة الأثاث العتيق المحيطة بها باتجاه سوق سرسق، والشوارع تغلي حياة وضجيجاً والكل في ملابس مطلع السبعينات وتسريحاتها وأرتاح قليلاً تحت تمثال الشهداء وأنا أشعر أن الشهداء في بيروت هم الأحياء.

ألمح عند المنعطف ندى صديقتي التي قُتلت في الحرب برصاصة قناص وكانت راجعة من بيت حبيبها. تزوجت بعد حكاية حب ورحل إلى الخليج للعمل في مطلع الحرب وصار ثرياً وعلمت أنه تزوج من صبية محلية في السادسة عشرة من عمرها فجنّت حزناً ثم قررت أن تنساه وتحيا حياتها. وحين كانت في دربها إلى

الحبيب الجديد قتلتها رصاصة قناص أراحتها من عذابها ولم تتح لي يوماً فرصة استجوابها. . . أطاردها حتى المنعطف وتختفي كلما لمحتها. .

أتسكع في الساحة بزحامها وصخبها ونخيلها وألمح نبال صديقي العتيق الوسيم المتزوج من سيدة تكبره أعواماً لكنها من أسرة ثرية، وألحق به لأكلمه وأظنه شاهدني وهرب ثم أتذكر أنه مات مقتولاً في الشياح حين رافق صحافية أجنبية للاطلاع «النضالي».

إنني أرى أمواتي الأحباب أحياء ولكن لماذا يهربون مني؟

هل تخاف الأشباح من البشر، ولماذا تتصرف كأنها تخاف الأحياء وليس العكس؟ لماذا تختفي الأشباح، ما يكاد حي يظهر؟ حائرة أتابع جولتي وقد أدرت ظهري لمبنى شرطة الأخلاق متغلغلة في سوق الصاغة.

أشتري خاتماً للخطبة لفادي وآخر لي وأنا كعرافة أنصت إلى صوت في قاعي يقول إن ذلك الزواج لن يكون. . ولكنني أشتريهما من «محل نوبر». مات نوبر يا حمقاء ومكان الدكان إسفلت. . لا. لم يمت. ها هو جالس خلف طاولته يضم إليه خطيبته. . أتابع تسكعي إلى سوق أبو النصر فسوق العطارين، فالنورية، سوق الخضار واللحوم، وأتوقف طويلاً أمام دكان بائع الدجاج الحي الذي ينتظر لحظة الذبح، فأرى للدجاج وجوه أحباب لي ذُبحوا في الحرب لأسباب عبثية، أليست الحرب الأهلية كل ما لا نقدر على فهمه أو تبريره؟

«الصيصان» الصفر اللطيفة تكاد تغرد في أقفاصها وفي قلبي شحنة عدوانية، إنها «الصيصان» التي كانت تبيع عقود الياسمين والزنبق وصارت بعدها تبيع الموت على المفارق ذاتها وقد استبدلت الحب بالحرب. . ذلك الصبي الذي كان يبيعني وفادي عقد الياسمين أمام مدخل «السكوتش كلوب» على كورنيش الورشة شاهدته بعدها وقد كبر وتخشب صوته وهو يحمل رشاشه ويطلب مني تذكرة هويتي. . أية بحار مشتعلة عبرت بمركبي الورقي الطفولي فكيف بقيت حية؟

كنت أتسكع هنا ممتلئة بحب فادي، أمشي حتى «الأتوماتيك» لشرب فنجان قهوة ثم أتابع تعارفي مع بيروت في شارع البطريرك حويك بعد أن أبتاع الجينز الأول في حياتي من «محل ألفا» فقد كان ارتداء السروال للنساء مُحرّماً عليّ في مدينتي الأم. أتسكع في سوق الجميل، وأنفاس حارة تلفح عنقي تهب منها رائحة عطر فادي. لا يعقل ذلك، فالسوق لم تعد موجودة، وفادي رحل عن عالمنا، لكنني طوال تسكعي كنت أشمه تماماً كما كنت أرى كل ما تهدم قائماً حياً نابضاً بالأصوات كمن ينظر إلى صورة ثم يمشي إلى داخلها وتنبعث منها الروائح

والأصوات ودفء الأجساد الحية. . ها أنا في الأزقة الضيقة أمام المبنى العتيق لدائرة «السكك الحديدية»، ففي أزقة سوق الطويلة، أشهق حبوراً أمام واجهة مجوهرات الداعوق وأنحدر حتى مطعم العجمي بعد تسكع في سوق الجوخ فشارع اللنبي. كنت أشرب الجلاب على بركة العنتبلي والزحام يكاد يدوسني ومنه إلى سوق أياس وأصابعي متشابكة مع أصابع فادي. . مات فادي يا حمقاء منذ ألف عام وشبّت حرب ومات جيل وولد جيل. . لا. الحرب لم تقع وفادي لم يُقتل وعليّ أن ألتهم بسرعة الشاورما والحمص مع فادي ثم أصعد إلى مكتب إحدى الصحف لإيداع قصتي الأولى للنشر ثم أهرول راجعة إلى الجامعة الأميركية. . ألمح رجلاً يخيل إلي أنه نجيب بطل روايتي الأولى وما أكاد أركض خلفه حتى يختفي. . لا يعقل ذلك. ما الذي تفعله بيروت بحواسي فأرى أمواتي أحياء وأشباحهم تخافني وتهرب مني وألتقي بأبطال رواياتي أحياء بأجساد؟

يوقظ ماريا من استغراقها في مدينتها اللامرئية وتسكعها صوت سائق تاكسي يناديها: تفضلي يا ست. ارتمت في التاكسي وقد استيقظت من سباتها، وكي تقول أقل ما يمكن بصوت غاض في أرض الماضي كينبوع في أرض الجفاف نبست بكلمة واحدة: الحمراء.

أيقظتها قذارة التاكسي من سباتها النهاري، وتذكرت كيف كانت سيارات الأجرة في بيروت مؤسسة كبرياء لبنانية وعنفوان سياحي قائم بذاته.

بدأ السائق ذو اللحية الطويلة المشعثة يروي لها همومه البيتية فلم تتعاطف معه واكتفت بالصمت لأنه سيعتدي عليها باستعمالها أذناً بدلاً من مواجهة السبب الحقيقي لبؤسه ويبتزها لتدفع له إكرامية/خوة! ولعله حدس عدوانيتها فعاقبها بالاستماع إلى برنامج ديني يحمّس على ضرب النساء مع الاستشهادات، وحين وصل إلى القنطاري هبطت عند إشارة ضوئية أدهشتها أنها تعمل بعدما نقدته أجرته مع نظرة سامة من عينيها. **لطالما واعدت نفسي: لن أعود. . لن أعود. منذ اللحظة التي أوقفنا فيها الحاجز الغامض، فادي وأنا ونحن في طريق العودة من غارة حب بحرية على الشاطىء وأمرنا بإسكات صوت موسيقى بيتهوفن في «كونشيرتو الكمان» (فايولين كونشرتو) التي كانت تتدفق من آلة التسجيل دنيا من الرهافة، وبالهبوط من السيارة طالباً أوراقنا الثبوتية، منذ تلك الليلة المشؤومة في بدايات الحرب اللبنانية غير اللبنانية أقسمت أن لا أعود أبداً حين أطلقوا رصاصة واحدة على رأس فادي ولم يقتلوني، لأنهم اعتبروني منهم وفقاً لتذكرة هويتي وعاقبوني حين حفروا لي بالسكين على ذراعي رمزي الديني، وتدفق الألم منه والدم وأنا أصرخ وهم يتلذّذون بألمي. منذ**

ذلك اليوم أقسمت على مغادرة تلك المدينة المظلمة بأفعال بعض أهلها و«ضيوفهم».

أدركتُ أن بيروت التي تخلّيتُ عن بلدي الأم لألتصق بها بدأت تحتضر، وعلي ما دمتُ حية أن أقف ضد قتلها كي لا يموت الضوء في هذا الشطر الشاسع من الأرض العربية.. ولكن كيف والهرب يغويني؟ وهربت إلى باريس.. وكان ما كان..

ظل الجرح الذي رسمتْ به سكين المسلح رمزي الديني على ذراعي يؤلمني طويلاً كلعنة. من جديد أشعر أن فادي يمشي إلى جانبي. خفت أن ألتفت صوبه لأراه فتعاقبني الآلهة كما عاقبت أورفيوس حين التفت ليرى في قارب الموت وجه زوجته الحبيبة، فأعادتها إلى الجحيم على الرغم من عذوبة عزفه..

لقد بدأت مأساتي لحظة إطلاق الرصاصة على رأس فادي. لم تنطلق الرصاصة ليلتها على رأس فادي بل على رأس بيروت، فبيروت التي عشقتها كانت عاصمة الحرية العربية لا مجرد مدينة.. وسواء كان ذلك المسلح اللعين قد حفر على جلدي صليباً أو هلالاً، فقد شعرت يومها أنه دمغني كماشية في قطيع، وأنني أرفض ذلك ويدميني كقتل حبيبي فادي الصحافي والشاعر الرقيق الذي يدين بدين الحب ولكنه قتل لمجرد أنه ولد في أسرة دون أخرى وكان هو الذي أهداني بيت الشعر المعلق في مكتبتي:

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

شعرت ماريا بإرهاق مفاجىء.. رمت بجسدها في أول تاكسي توقف أمامها (وما أكثرها) وعادت إلى بيتها. أمام الباب كانت باقة الأزهار الميتة ما تزال بانتظارها وبرقية تهديد بالموت تسيل كراهية وحقداً.. **يا إلهي، ما الذي اقترفته غير الحب في هذا الكون المتوحش الذي أطلق فيه اللاموهوبون العقال لأحقادهم؟ من يبعث لي بهذه الرسالة المكتوبة بالسم؟ إنه بالتأكيد ليس قاتل الجرذان الشهير الذي تتحدث بيروت عنه..** فهي لم تفعل شيئاً في أي يوم غير الانحياز إلى المعذبين في البحر والأرض والمقهورين، منحازة إليهم حتى ضد مصالحها كثريّة وارثة لقسط كبير من ثروة والدها الذي أدهشها أنه لم يحرمها من الميراث رغم استقلاليتها. كانت في نظره من أولئك الحمقى الذين تخلوا عن طبقتهم وكادوا يخسرون ميراثهم المعنوي والمادي إكراماً لمبادئهم ولعله كان مثلها في شبابه.. لكن تلك الرصاصة في رأس فادي أيقظتها من سباتها الشعري وأجبرتها على إعادة النظر في رومانسياتها السياسية كلّها.. وحين لم تجد يقيناً رحلت علّها ترى بوضوح بعدما خلعت عنها نضالياتها الشعرية كمن يخلع ثوباً واهياً اهترأ في عاصفة.. ولم تجد البديل.. ولكنها ظلت دائماً وفية لحبيبها الأوحد: الحرية.

ليلة باع ناجي أول تأشيرة إلى يوتوليا، واصطحب الزبون تمهيداً لبيع بيت رامي، لاحظ وهو يتأمل نفسه في المرآة بعد تنظيف أسنانه قبل النوم أن نابيه قد كبرا حقاً واستطالا مثل نابي سليم ووفاء، بالمعنى المادي للكلمة.

كانت لديه عادة حافظ عليها منذ طفولته وهي الوقوف أمام المرآة معجباً بوسامته الخاصة، مبتسماً تارة وعابساً تارة أخرى، متأملاً فحولته وحمرة شعره من عدة زوايا مستعيناً بمرآة ثانية.

هذه المرة لم يستمتع بصورته إذ ضايقه منظر نابيه. وقرر أن لا يبتسم بعد ذلك كي لا يلحظ أحد نابيه كمصاص الدماء. وقال لنفسه بصوت عال إن ذلك لن يكون صعباً إذ ليس في حياته ما يدعو للابتسام بعد موت أمه، حتى المال. كان قد ألف مخاطبة نفسه بصوت عال وأدهشه أن صوته هذه المرة كان شبيهاً بعواء ذئب.

* * *

ـ أريد مقابلة رامز بك المندال.. ليس لدي موعد معه! نظر إليها مدير مكتبه وحارسه الشخصي الذي اقتادها إليه بكثير من الاهتمام من خلف طاولته. آتية بلا موعد؟ ذلك يعني أنها شخصية من «علية القوم» وهو يعرفهن كلهن فمن هي؟ لم يسألها عن اسمها فالكثيرات يأتين بأسماء مستعارة للقاء «البك». قال في محاولة لاستدراجها: ألم نلتق في كوكتيل فندق البريستول منذ شهر؟ تذكر يومها أن عشرات الصبايا الحسناوات الصغيرات حمن حول رامز بك وكانت له علاقات عابرة خلال الحرب مع بعض أمهاتهن وتساءل: تراها واحدة من بناته اللواتي لا يدري عنهن شيئاً لا هو ولا أزواج السيدات؟

أجابته: لا. لا يمكن أن نكون قد التقينا منذ شهر. فأنا أعيش في باريس وكنت هناك منذ شهر. اسمي دانا نعيم.. قاطعها: أنت ابنة المرحوم نعيم بك الـ.. رن الهاتف. لم يتابع.. المخابرة اقتصرت على كلمة حاضر، فأضافت: وهذه واحدة من زياراتي القليلة إلى لبنان منذ صغري.

قال لها باحترام: تفضلي واجلسي لحظة من فضلك.

ـ ألو.. ثمة شابة لبنانية تعيش في فرنسا تريد مقابلتك.. اسمها..

قاطعه: هل هي جميلة؟

ـ جداً. . ثم إنها ابنة المرحوم نعيم بك صديقك القديم. .

ـ دعها تدخل!. .

ـ سأل هامساً: ألا تريد أن أسألها ماذا تريد منك؟

ـ دعها تدخل!. . .

لم تصدق دانا أنها استطاعت أخيراً الوصول إلى ملكوت رامز بك والنجاة من سكرتيرته الغيورة التي كادت تطردها بما يشبه الغيرة قبل أن يتلقفها مدير مكتبه! أهذا مكتب تجاري أم قلعة حصينة؟ من الأسهل مقابلة الرئيس شيراك! جيش من المعاونين والسكرتيرات تقاذفني حين حاولت أن أكلمه هاتفياً حتى اضطررت «لاقتحام» مكتبه بعد المرور بجيش من الحراس وعشرات من نقاط التفتيش وكلها في مبنى واحد كأنه «البنتاغون»! وها أنا أخيراً أمامه أستطيع أن أحدثه بالوكالة عن شركة الكومبيوتر التي أمثلها لكنه يثرثر على الهاتف..

وأخيراً، صافحها، استقبلها بوسامة تشع من كهولته السحرية، وشعره الفضي وأناقته وثقته المفرطة بالنفس وقامته الفارعة وبنيته القوية واسترخائه في مملكته وداخل جلده كرجل لا يعرف التردد ولا الارتباك. ذكّرتها نظرة القوة والثقة بالذات في عينيه بوالدها وشعرت بأنه مغناطيس يجذبها بسطوة. هنا دخلت إلى المكتب السكرتيرة «الغيورة» التي كادت تطردها متذرعة بضرورة أن يوقع أوراقاً عاجلة ورن الهاتف ثم دخل أحد مساعديه من دون أن تتاح لدانا فرصة الكلام عن غرضها من المجيء (كممثلة لشركة فرنسية لبيع الكومبيوتر تبحث عن شريك محلي قوي يبيعها للمؤسسات التجارية والعلمية) إلا بصورة متقطعة. فاقترح عليها رامز أن يتابعا الحوار في بار «سيدني» بفندق الفاندوم، وهناك أدهشها أنه وافق مبدئياً على المشروع الذي حملته من مرؤوسها السيد بوايو وأمر بإحضار زجاجة شمبانيا احتفالاً بموافقته المبدئية، لكنه طلب فرصة للتفكير في الموضوع والتدقيق في التفاصيل وكانت قد استعدت لذلك وأعدّت إضبارة حملتها معها لكن أحد معاونيه لحق به إلى البار لشأن هام فاعتذر رامز بك منها و«طيب خاطرها» قائلاً إنه يعرف المشروع الناجح الذي يغويه لحظة يراه!. .

تخيلت وجه السيد بوايو حين تهتف لتقول له إنها على وشك الفوز بأول اسم على لائحته!. . . امتلأ قلبها غبطة وحبوراً وهي تتخيل النجاح المهني الذي ينتظرها في باريس لدى عودتها.

ودعها رامز بك ولكنه دعاها للعشاء لمتابعة البحث. . . وتابعت دانا شرب الشمبانيا وحيدة وتساءلت بينها وبين نفسها للمرة الأولى: لم لا أبقى هنا وأشرف على المشروع؟ كانت قد ثملت وهي تتجرع الشمبانيا وتتأمل البحر البديع حتى خليج جونيه في ذلك النهار الشتوي المشرق، وفندق السان جورج يربض في القاع خراباً وحطاماً. . . لم يكن المكان يعني لها شيئاً لكنها تذكرت أن أمها تكاد تبكي كلما مرت به كما تئن بالقرب من «خرابة» أخرى كانت فيما مضى فندقاً قالت إن «قبوها الراقص» كان يدعى «الكاف دي روا»، ولها فيه ذكريات مع الوالد وعلى الرصيف المقابل حيث كان ثمة مطعم قالت إنه كان يدعى «الجرينييه» وكان. . وكان. . . **أمي معنية بالماضي وأحقاد الماضي وربما لذلك حذرتني من التعامل مع رامز المندال دون أن تفصح عن السبب مما زادني رغبة في لقائه ربما نكاية بها، وربما لأنني معنية بالحاضر والمستقبل. الحاضر هو نجاحي المهني مع ذلك الرجل القوي الوسيم، النمر الفضي الشبيه بوالدي الرائع اللامنسي.**

الموت، رواية أولى

نام عدنان باكراً على غير عادته لزكام ألمّ به. حلم بمقص معدني أسود كبير يتحرك في السماء بين الغيوم ويد لامرئية تفتحه وتغلقه وتقص به غيمة تلو أخرى وتصل إلى حبال متدلية كما لو من كوكب ما وقد ربط إليها أعضاء صديقه عبد الكريم الخوالقي، مثل دمية في مسرح دمى شاسع فضائي وقد تدلى كريم (كما كان يناديه في صغرهما) فوق هاوية مظلمة. ظل المقص ينفتح وينغلق وهو يقص كل ما في طريقه من غيوم ونجوم ويقص القمر. يصرخ عدنان داخل حلمه منبهاً صديقه: كريم.. احذر يا كريم..

لكن المقص يقطع الحبال التي ربط إليها عبد الكريم ويراه يهوي في الهاوية وهو يناديه: كريم. استيقظ عدنان على حلمه مذعوراً. كانت الريح تقرع النوافذ بشدة، وتنذر بعاصفة.. والساعة تشير إلى العاشرة والنصف ليلاً. نهض من سريره لشرب الماء وصار يُهدّىء من روع نفسه: **إنه حلم عادي. لقد أقلقتني زيارة كريم واضطرابه ـ على الرغم من فخامة ثيابه الباهظة الثمن ـ وحديثه عن الحبال التي تُملي عليه تصرفاته. اختفاؤه قبل أن أعود بالقهوة أقلقني، كما تعجبت من زيارته الغامضة تلك لي وعدم زيارته لوالده، فقد مررت به قبل أن أنام ولم أقل له شيئاً عن وجود ابنه كريم في بيروت وكان واضحاً أنه يجهل ذلك.. ولكنني قلق على كريم ولو كنت أدري أين هو لاتصلت به ولحذرته من خطر ما**.. عاد إلى النوم وهو يقول: اللهم أعطنا خير هذا الحلم المقلق..

سمع المطر ينهمر مدراراً، والرعد يزمجر، والبرق يكاد يضيء الغرفة بضربات متلاحقة. شعر بالخوف. منذ طفولته والمطر يرعبه: تلك الحبال المائية المتدلية من السماء المرفقة بصوت مزمجر يدعونه الرعد وبنظرات مكهربة غامضة يلقبونها بالبرق. يعرف التفسير العلمي لتلك الظواهر كلها، تمنى أن لا يكون حلمه نذيراً بشرّ ولا تواصلاً إدراكياً بينه وبين كريم في لحظات «بارانورمال». تمنى أيضاً لو كان غير مفلس وبالتالي متزوجاً ليضم إليه جسداً دافئاً يحتمي به ويتظاهر بحمايته كلما هطل المطر العدواني هكذا.. ريثما ينام.. ي. ن. ا. م.

* * *

الموت، رواية ثانية

تنهد عبد الكريم الخوالقي بما يشبه الراحة حين غادره رفيق حاملاً حقيبة فيها عشرات آلاف الدولارات ليضعها في الخزنة، ريثما يطلع نهار الغد ويتقاسما المبلغ ويغادر الفندق إلى الحرية والرفاهية. شعر بشيء من القلق: ماذا لو لم ينقده حصّته؟

غادرت الغرفة أيضاً «الست نوال» معاونته وحدس أنها ستقضي ليلتها في جناح رفيق، ولكنه لم يرغب في الاستحواذ عليها واستبقائها، فبرناديت ما تزال تمسك بمفاتيح جسده ولا تتفجر «الآه» الآتية من شرايينه كلها وأعصابه إلا على كثبانها وأعشاب بحرها ومرجان قاعها..

برناديت.. ها أنا قادم على صهوة حقيبة محشوة بالمال، فانتظريني لأفرشها تحتك في السرير كما حلمت. ها أنا عائد يا حلوتي فأوسعي لي مكاني القديم في قلبك وسريرك، ولا تضيقي ذرعاً بي وبدخان لفافات الحشيش والماريوانا التي صار يطيب لي تدخينها.

بعد نشوة اليوم، وأنا أعيش دوري الحقيقي المسروق مني، دور الخوالقي نجل رئيس الوزراء لا نجل موظف البلدية المسكين، لن أعود إلى جادة البؤس الملقبة بجادة الصواب.. نعم. أنا الآخر الخوالقي ابن العز وسأتصرف انطلاقاً من ذلك وأعقد الصفقات وأربح المال. آن الأوان ليتنحى غريمي عن المسرح وتنقله خيوطه إلى أرض الموت لأحتل مكانه وأرث ثروته.. أجل، لم لا أرث ثروته، ألسنا شخصاً واحداً في تقمّصَين باسم واحد؟

أنجز النادلان جمع بقايا العشاء والصحون الفارغة والكؤوس وخرجا بها من غرفته. تأمل نفسه في المرآة فشاهد بوضوح الحبال التي شُد إليها وتأملها بفرح وهو يشكرها فقد حرّكته كما يلذ له أن يحيا ويكون وصار شخصاً آخر، بل استعاد ذاته.

إنه بالتأكيد أسعد أيام حياتي.. فقد كنت طوال النهار نجلاً لرئيس وزراء قهرستان. الذين كان أشباههم ينهرونني في فندق «باري روايال» حضروا بربطات عنقهم الحريرية وسيجاراتهم الضخمة وساعاتهم الماسية لخطب ودّي وإبرام الصفقات معي. الجميلة سكرتيرتي أو معاونتي لا فرق الست نوال لم تخاطبني إلا بعبارة «يا مولاي» و«طال عمرك» وأتمنى أن يطول لأعيش أياماً أخرى كهذه.. كنت أتوجس شراً من ذلك اليوم وأنا مذعور: سيكتشفون أنني كذاب، ومدّع. لكن تلبّسني دوري، كأنني كنتُ في حقيقة الأمر الخوالقي الشهير، وسلب مني دوري وجسدي وها قد عدت لأكونه.

سألوني عن مشاريع كثيرة ثم وقّعنا عقوداً بشأنها، وتواعدنا على التعاون في مجالها. الست نوال كانت تجيب بلغة لا أفهم منها شيئاً لكنهم فيما يبدو يفهمونها. وقعنا عقوداً بأكثر مما كنا نحلم على حد تعبير رفيق وقبضت أكثر من رعبون «نقداً» لدفع الرشاوى كما زعمت «معاونتي» نوال وتحريك الأمور بسرعة في قهرستان.

ثري يأتي وآخر يروح، وأنا أدخل إلى غرفة النوم، وأتزود بشمة كوكايين من تلك التي تعلمت كيفية تعاطي كميات تناسبني منها ليتدفق دم الزهو في عروقي الخامدة، وأشع بضوئي.

والآن أشعر برغبة في الذهاب إلى بيت صديقي عدنان، لأروي له مجدي. لا لن أحدثه عما يدعوه الناس انتحال صفة وهو في نظري استعادة صفة، بل سأروي له الصفقات التي عقدتها والأموال التي حصدتها لأرى صورة عن نظرات الدهشة والإعجاب المشوب بالحسد التي سأراها في وجه برناديت حين أعود بما غنمت. وقد أمنحه ساعة ذهبية من تلك الهدايا التي حملوها لي واحداً تلو الآخر كرشوة أو كعربون تعاون طويل المدى لا فرق. لا. سأحتفظ لنفسي بالساعات الذهبية كلها والخاتم الماسي والسلسال البلاتيني وسأرتدي بعضها، وحين يراني ثرياً هكذا سيتغاضى عن إيقاظي له إذا كان نائماً وسأعده بهدية في الزيارة القادمة.

ما أجمل صوت الريح، إنها تحرك الرياح الخامدة في روحي على طول سنوات من الذل الاختياري، أما الآن فقد أطلقت الحبال التي رُبطت إليها نزواتي من عقالها، وسأكون من أشتهي وما أشتهي، وسأغادر هذا الفندق اللعين خلسة لساعة، فقد تعبت من التوسل إلى رفيق كي يدعني أغادر غرفتي قليلاً.

في الصباح أذِنَ لي رفيق بمغادرة غرفتي قبل وصول «ضيوفي» وكنت لا أشتهي أكثر من شراء جريدة من بائع الصحف والتذكارات في ردهة الفندق الفخم. أطلت من عيني البائع نظرة تحسدني على رفاهيتي وثرائي المفترضين، هي ذاتها بالتأكيد النظرة التي كانت تطل من عيني أنا حين أنظر إلى زبائني المرفّهين. تُرى هل كان بينهم من هو مثلي، محتال منتحل، أم كانوا كلهم أثرياء عن جدارة؟

قلت للبائع متواضعاً ومتلذذاً بدوري: ما رأيك بالوضع في البلد؟

أجاب الرجل بتحفظ كأن لجدران الدكان آذاناً. لا أعرف شيئاً فأنا مشغول بزوجتي وأولادي! غبطته. لديه زوجة ترعى الأولاد، أما أنا فقد عشت زمناً تعيلني زوجتي فيه وترعاني كما لو كنت ولداً! كنت أشعر عبر إعالتها لي أنها تضطهدني وتتلذذ بذلك، وصرت أخترع أساليب أخرى للاضطهاد المضاد، وانتهزت الحملة الفرنسية ضد التدخين وكففت عنه للنكاية، وأمرتها بأن تكف عن تسميمي.

وصارت حين تدخن تنفخ لفافتها في وجهي ضاحكة وهي تقول: الكسل والعزلة سيقتلانك لا دخان لفافتي!

حسناً، ربما لم تكن تقصد إذلالي لكن الأمور سارت على هذا النحو.. في البداية، حين ارتفعت العين على الحاجب كما خُيل إلي انتقلت بها من البيت في الدائرة السابعة الوجيهة إلى ضاحية «نوازي لوغران»، ولم أدر أنني سأصير أنا سجين المكان أما هي فستعود مساء اليوم التالي وقد اشترت سيارة بالتقسيط وذهبت لتحصيل رزقها لامبالية بي! والمرعب حقاً أن ذلك راق لي وأراحني من سباق الجرذان الباريسي. ثمة جزء مني كان سعيداً بحملها للمسؤولية، وجزء آخر غاضب ومهان ويسيل الخجل من جرحه. ذلك كله انتهى وذهب إلى غير رجعة فقد اهتديت إلى درب المال ونشواته. الآن سأسارع للذهاب إلى عدنان واستعراض عظمتي. ما قيمة المجد بلا مرايا في العيون؟ سأزور أبي أيضاً قبل سفري وسأطلب منه أن لا يغفر لي زواجي من برناديت فأنا لا أغفره لنفسي.

هبط عبد الكريم إلى المرآب كما فعل في المرة الأولى حين تسلل وزار عدنان، ومنه تسلق الدرجات الجانبية إلى الشارع ومشى بحثاً عن تاكسي يقله إلى بيت عدنان. رغم ظلمة السماء شاهد بوضوح مقصاً يقص الغيوم.. سمع وقع خطوات خلفه. غمره خوف مفاجىء صاعق: هل أرسل رفيق من يراقبه ويتعقبه ويؤذيه؟ شعر بمناخ أذى والمقص ما زال يقص الغيوم. وقبل أن يلتفت خلفه شاهد حباله بوضوح دونما حاجة إلى مرآة. شاهد المقص يقترب من الحبال التي ربط جسده وأعصابه وصوته إليها وهو ينفتح وينغلق.. إنني أهذي... المقص يقترب كثيراً من حبالي.. يا إلهي.. إنه يقصها، حبلاً تلو آخر. انفجر المطر، والرعد يزمجر، والبرق يضيء بضربات متلاحقة. شاهد عبد الكريم بوضوح في ومضة برق وجهاً يسيل كراهية ويداً تشهر مسدساً وقبل أن يسأله بدهشة من أنت ولماذا، سمعه يقول له بلهجة أهل قهرستان: «خذ يا فرخ ثعبان قهرستان».. ووعى أن الرجل يظنه ابن رئيس الوزراء وقبل أن يوضح له الأمر، كرر الرجل الغامض عبارته، ولم يسمع عبد الكريم صوت الرصاصة التي انفجرت داخل رأسه ولم يسمعها أحد فقد دوّى الرعد لحظتها، كما لم يشعر عبد الكريم بشيء حين سقط على الأرض. أعاد إسماعيل المسدس إلى جيبه وهو يتلفت حوله، ثم انحنى على عبد الكريم وعلّق في عنقه جرذاً ميتاً.

لم يشعر عبد الكريم بذلك أيضاً..

ففي اللحظة التي لفظ فيها أنفاسه الأخيرة كانت الدهشة تغمره إذ شاهد

بوضوح المقص الهائل يقص خيوطه كلها ليقع في الهاوية السحيقة المظلمة.

* * *

الموت، رواية ثالثة

صار هاجس إسماعيل أبو أدهم المرابطة أمام باب فندق الأمراء حيث حلّ عبد الكريم الخوالقي، متسلياً بإحصاء المارة والجرذان الهابطة من شرفات الفندق ونوافذه ومن السيارات الفارهة أمام بابه ومن أغطية مجارير الشوارع. وبدلاً من صيد الأسماك صار يُحصي عدد الأسماك النافقة التي غرقت وصار البحر يصفقها على الشاطىء كثباناً من الموت.

لم يكن إسماعيل يدري متى ستتاح له فرصة قتل ابن قاتل ابنه. وكان يكره أن يقول اسمه حتى لنفسه: عبد الكريم، كي لا يصير شخصاً له حضور خارج انتقامه، وحياة مستقلة خارج حربه مع والده، ولذا كان يدعوه «فرخ ثعبان قهرستان».

حمل المسدس في جيب والجرذ الميت في جيبه الآخر بعدما ربط ذيله بخيط.

لم يكن صيد جرذ صعباً فقد صارت بيروت مدينة مليئة بالجرذان الضخمة ولا أحد يدري بالضبط من أين جاءت وكل واحد يتهم بلداً ما بتوريدها والبعض يقول إنها جرذان محلية تستقوي بطعام مستورد ومحلي فتصير بحجم رجل، في حين تناقصت الأسماك وهو يعرف ذلك من تجربته كصياد، إذ صارت الأسماك تغرق وتنفق في البحر ويجد الناس كل صباح مقبرة أسماك ميتة مرمية على رمل الشواطىء وصخورها ونفاياتها والعلماء يجتهدون في التفسير في الصحف التي يُطالعها، لكنه يعتقد كمعظم الناس أن ثمة من يُسمّم أسماك لبنان ويسرق الأوكسجين حتى من مياهها.

تمنى إسماعيل أن تتاح له فرصة تعليق الجرذ في عنق القتيل، وأن ينفرد به ولا يضطر إلى قتله وهو محاط بالناس كي لا يخطىء هدفه أو يحول بينهما حارس أو صديق. أجل سيقتله وسيظن الناس أن «قاتل الجرذان» هو المسؤول، فعبد الكريم ووالده جرذان يقرضان حيوات الناس ورزقهم بامتياز، ومن أجدر منهما بالموت على يدي قاتل الجرذان الذي يختار الذين ينزل بهم عقوبة الإعدام من بين الذين لا يطالهم القانون أي فئة المجرمين بخمسة نجوم.

هبط الليل وهو يمشي جيئة وذهاباً على رصيف البحر مقابل «فندق الأمراء».

هبّت الرياح القارسة ولم يبال فقد كان وجه ابنه يُصفّحه وهو يقسم له في كل لحظة على انتقام يليق بميتته. انتظر أمام مدخل المرآب، إذ لا يعقل أن يخرج في طقس كهذا دونما سيارة. . لا. . لن يخرج عبد الكريم الخوالقي في هذا الطقس العاصف بدون سيارة. . بل لعله لن يغادر الفندق، والسحب المظلمة تستسلم لتباشير الرعد والبرق وانسكاب المطر. .

الساعة تكاد تشير إلى العاشرة والنصف تقريباً والليلة عاصفة وماطرة، فلماذا أعذب نفسي، ولا أذهب لأنام؟ وما كاد يصمم على ذلك حتى ذهل وهو يشاهد «فرخ ثعبان قهرستان»، ابن قاتل ابنه، يغادر الفندق من المرآب - والشارع خاوٍ إلا من زمجرات الرعد ووميض البرق وهطول المطر - ويمشي وحيداً. كان ذلك لا يصدق. . وفوق كل ما حلم به. . . لحق به. قال له: خذ يا فرخ ثعبان قهرستان. بدت على وجه ابن رئيس الوزراء الدهشة وكدت أشفق عليه ولكنني كررت العبارة وأنا أستحضر وجه ابني وعذاباته في ومضة البرق ودوي الرعد وأطلقت رصاصة واحدة. سقط «فرخ الخوالقي» أرضاً. انحنيت فوقه وعلقت الجرذ في عنقه كي يظن الناس القاتل هو قاتل الجرذان الشهير الذي لا حديث للناس في بيروت إلا عنه. . وصرت أعدو في الليل وأنا أقهقه كالمجنون كلما تخيلت وجه رئيس الوزراء والدموع تغطيه حين يبلغونه خبر مصرع ابنه! سيبكيه كما بكيت ابني، وكما بكى المئات من الأمهات والآباء أبناءهم في قهرستان بسببه. . حين ابتعدت وأنا أعدو شعرت برغبة جارفة للعودة ومشاهدة جثة «فرخ ثعبان قهرستان» ثانيةً. . أكاد لا أصدق أنني قتلته أخيراً. . والآن ما الذي سأفعله بذلك الخواء المرعب الملقب ببقية حياتي؟

* * *

الموت، رواية رابعة

قالت لي زوجتي: سأعود إلى كندا يا سعيد. بوسعي أن أسوق للناس آلاف الأعذار عن سلوكي هذا متهمة بيروت التي لا تطاق، والحقيقة هي أنك أنت لا تطاق بخياناتك وهياجك النسائي منذ عودتنا.

- أنا فنان وبحاجة إلى وحي. . وبيروت أشعلتني من جديد. أنا فنان.

- وأنا أستاذة جامعية متزنة وأم وبحاجة إلى رجل متزن. لقد انتابتك نوبة العودة إلى لبنان في اليوم الذي نلنا فيه الجنسية الكندية وأرغمتنا على ذلك.

قلت لها للمماحكة وأنا لا أعني ما أقول: سأحرمك من مشاهدة «سعيد جونيور». سيبقى ابننا معي في بيروت.. ستعيشين بدون «سعيد جونيور».

قالت هازئة: أنت مصر على لعب دور الفنان الكبير محور الكون. ابننا يكره بيروت الفوضى والانفجارات والكهرباء المقطوعة والغش وشجار الشوارع والحرائق والصراصير والحجارة والجرذان والغبار والمسلحين و«الزعران» وفوق ذلك كله قصف «حرب التحرير» وفجور «أبو الغوانم» على المبنى والناس وعلينا و«قلة أخلاق» جماعته وعربدتهم. أنت لا تعرفني ولا تعرف ابنك، ولا تعرف حتى ذاتك، ولا تحبنا حقاً إلا كإطار لصورتك المعبودة أو للاستعمال كمصدر للوحي، والحقيقة الوحيدة في حياتك غرامك بنفسك. ولذا لم تلحظ أن ابننا المراهق الذي كبر في كندا لا يطيق بيروت.

آلمني كثيراً قولها ذلك فقد كانت على حق! لكنني قررت مفاوضتها بعد يومين حين تهدأ والاعتذار والتراجع لكنها كانت قد رحلت يرافقها «سعيد جونيور» وعادت إلى كندا.. ولعنت اليوم الذي قررتُ فيه الهجرة منذ عشرة أعوام فقد عدتُ أنزف شوقاً إلى بيروت، واستسلمت لها كما يستسلم عاشق فنان لحبيبة «راقصة تعري» في كباريه المزادات الأممية و«الوطنجية»!

ومع مرور السنين تناقصت رسائل ابني لي وفترت نبرتها وكادت تنقطع بزواجه منذ عام وانشغاله بحياته الجديدة وتكلستُ داخل وحشتي وأحزاني إلا من ليال تستيقظ فيها ذاكرتي اللعينة.

اضطر سعيد تلك الليلة إلى مغادرة الشرفة ذات الجدران الزجاجية المطلة من علٍ على البحر إلى الغرفة الصغيرة الدافئة، وأشعل حطباً في موقده فقد هاجمته العاصفة، ولم تكن «الشومينيه» عنده علامة رفاهية بل ضرورة فرضتها حاجات التقشف بالمازوت في ليالي الحرب، وذهبت الحرب واكتشف محاسن رائحة الحطب وجماليات اشتعاله، كالتهاب عمر فنان مجنون، عمر هارب. **أجل! كانت زوجتي على حق حين هربت مني، لم تطق حرب بيروت وخياناتي في آن.. وحنّت إلى السلام والهدوء في وطنها الجديد كندا.. إنها هناك مواطن حر كالرجل، له الحقوق كلها فمن يعيدها؟ والآن ذهبت الحرب ولم يعد تقدمي في السن يبيح الخيانات!**

لف سعيد حوله عباءته واسترخى، وتفرّغ لتعذيب نفسه متذكراً حواره الأخير مع زوجته التي هجرته مع ابنه إلى الأبد.. إنه حوار مرت عليه حوالى ثمانية أعوام لكنه يستعيده بين آن وآخرِ نصف نادم. فكر بأن ينهض ليرسم، لكنه كان متعباً

و«مستوحشاً» كذئب البراري في صحارى شتائية. إنه التقدم في السن يغلبني، وها أنا أقضي أمسياتي في نصف إغفاءة أمام شاشة تلفزيونية أقطع الصوت عنها أحياناً وأترك الصورة ولا أنظر إليها إلا بين حين وآخر، وأطالع الصحف بين إغفاءة وأخرى وأنا لست بالنائم ولا بالصاحي، متهرباً من عشيقاتي الصبايا لحساب هذا «اللانوم» الخامد المعذب دون أن أشرح لهن السبب فيزددن التهاباً وأشواقاً ويجدنني سرياً وغامضاً. وكل ما في الأمر أنني خسرت أسرتي وشبابي ويقيني ولم يبق لي إلا عذاباتي لأنني تحولت إلى قاتل، وغصاتي أمام عملي الفني، فيا لوحشتي ويا لعظمتي!!

لعلي متعلق بفواز لا لمجرد حبي لوالده الراحل بل لأنه يذكّرني بابني الذي فقدته. الشبان كلهم يهاجرون والنساء أيضاً بحثاً عن وطن جديد وحياة جديدة. بعض الذكور عاد وبقيت النساء متعلقات بـ «المنفى» مع الأولاد. فهنّ هناك «مواطن» مساو للرجل له صوته وحقوقه والدولة تدافع عنه بمحاكمها وبوليسها. كم أحسدهن! منذ بدايات الحرب لم أعرف السلام الداخلي وازدادت عذاباتي يوم قتلت «أبو الغوانم».. لم أقتله لم أكن أنوي ذلك لكنني قتلته. ومن يومها وأنا لا أجرؤ على النوم في سريري هرباً من كوابيسي التي تتحقق. لم أكن أريد قضاء شيخوختي الآتية وحيداً، لكن ذلك لن يعيدني إلى كندا. لن أعود رقماً وأنا هنا إنسان يجد عشرات الذين يحبّونه بلهفة حين يمشي على أي رصيف، ويتحرك في عالم مضمخ بذكرياته وطقوسه ووعائه الخاص وجذوره... أخطأت توقيت العودة، لكن جنون الشوق استفحل، وأخطأت بنبش عشيقات الماضي، ولكن بيروت وذكرياتي البيروتية ذهبت بصوابي وخسرت أسرتي.

انطفأت النار في الموقد. عوى الرعد. أرسل البرق ومضاته في الفضاء الكوني وانهمر المطر وسعيد يزداد التفافاً بعباءته. يسقط رأسه فوق صدره بين نصف إغفاءة وأخرى..

وجد نفسه فجأة وهو يمشي جيئة وذهاباً على رصيف البحر. قرأ اللافتة المشعة على الرصيف الآخر: «فندق الأمراء».

هبت الريح القارسة لكنه ظل يحدق كأنه ينتظر فريسة ما. نظر إلى ساعته وشاهدها بوضوح في الظلام. إنها تشير إلى العاشرة والنصف تقريباً والليلة عاصفة وماطرة وهو لا يدري بالضبط ما الذي يفعله في ذلك العراء. ثمة رجل يغادر مرآب الفندق، رجل لم يره من قبل لكنه يتبعه، يرى وجهه بوضوح في ومضة خاطفة، ومضة فلاش البرق، ويبدو له مذعوراً ومدهوشاً في آن، ولا يدري لماذا لكنه يطلق

رصاصة على رأس ذلك الرجل المذعور.

من أين جاء المسدس؟

ولماذا قتلته؟ من هو؟ ما هو ذلك الصوت الذي يخرج من قاعي وليس صوتي صارخاً مرتين بحقد لامتناه وأنا أطلق النار: «خذ يا فرخ ثعبان قهرستان»؟ ولماذا أسمع نصف مذعور الصوت قادماً من قاعي كأنه صوت رجل آخر تلبسني؟.. من جيبي أستخرج جرذاً وأعلقه في عنق الرجل الذي خرّ على الرصيف تحت المطر بلا حراك. انطلقت أعدو هارباً وأنا أقهقه كالمجنون ولا أدري شيئاً غير الوضوح المرعب في الرؤيا والصوت الذي ليس صوتي وسمعته آتياً من قاعي يقول: خذ يا فرخ ثعبان قهرستان.

استيقظ سعيد على أريكته إلى جانب الموقد مذعوراً. نظر إلى ساعته ووجدها قد تجاوزت العاشرة والنصف بدقائق. ثيابه جافة لكنه يرتجف برداً بالرغم من العباءة التي لفّها حوله. **ما الذي يحدث لي؟ أية قوى خفية تجعل شاشة روحي تلتقط موجات أي مقهور يقتل جلاده ويزينه بجرذ، فأتلبسه أو يتلبسني أو أراه بالتخاطر أو أي تفسير باراسيكولوجي لن أعرفه إذا لم أستشر طبيباً نفسياً؟ وماذا أقول للطبيب؟ قتلت رجلاً قذراً مؤذياً؟ نعم! أبو الغوانم فارض خوات، سارق أموال بصفاقة استثنائية وتاجر شعارات وحامل رشاش في الحرب ومهدد بالقتل في السلم؟ أياً كانت صفاته، فقد قتلته وعلقت له في صدره جرذاً ومن يومها قتلت نومي أيضاً.. وصرت أرى في كوابيسي كل جريمة قتل على نسق جريمتي، أراها وهي تحدث وأنا القاتل كل مرة وأنا الذي يعلق جرذاً في عنق القتيل.**

نهض مكسوراً لينام في سريره. تذكر زوجته وسعيد جونيور: إنه بعد الظهر بتوقيتهما.. إن فراقهما سيودي بي إلى الجنون لا محالة.. فراقهما وقتل ذلك اللعين أبو الغوانم الذي أسعد موته كل من عرفه! **لم أكن أنوي قتله بل كنت أدافع عن نفسي. لكن سري صار فيما يبدو أكثر ثقلاً من أن أحمله وحيداً. كنت أتمنى أن تشاركني زوجتي في حمله، لكنني أسأت التقدير واكتشفت متأخراً أنها لم تعد تطيق حمل ثقل خياناتي، وكنتُ أراها ـ أي خياناتي ـ طفولية بريئة محرضة على الإبداع لكنها عابرة وآنية وسطحية ولم تكن زوجتي فيما يبدو تراها بالعين ذاتها.**

يا له من كابوس! ها أنا أعيد قتل أبو الغوانم في كوابيسي، وأعلق له في عنقه جرذاً ميتاً كما فعلت يومها، ومن يومها لم يبق «قاتل» بريء منتقم لم يعلق جرذاً في عنق «القتيل» المختلس أو المرتشي أو آكل أموال الفقراء ربما لتذكيري في كل لحظة بما كان. وربما لأن الشحنة الروحية الكثيفة التي أطلقتها لحظة قهري وغضبي هي

في حقيقتها موجة كهرطيسية تتجاوب معها مفاتيح الأرواح المعذبة وشاشاتها النفسية اللاقطة. . ثم إن تعليق الجرذ في عنق القتيل لعبة فنية اخترعتها أنا! فمن يمارس معي السرقة الفنية؟

تذكر سعيد بوضوح مرعب وجه الرجل الذي أطلق عليه في كابوسه رصاصة. إنه لا يعرفه ولم يره من قبل. . لكنه تلبس قاتله. . من أين تأتيني تلك الوجوه التي أجهلها وأقتلها وبأية حنجرة تنطق تلك الأصوات التي تنفلت من عقالها داخل روحي وتوقظني من نومي فأسمعها وأدهش لذلك؟ هل حولني قهري إلى محطة فضائية روحية تلتقط الأمواج الروحية المشابهة؟ ما التفسير العلمي لقتلي كل قتيل وغد كما فعلت مرة، كأنني أشارك في قص حلوى احتفالية لكل من انقاد لصدقه الأليم وأعدم جلاده الظالم دفاعاً عن حياته؟

* * *

الموت، رواية خامسة

حين شاهدت ماريا صورة عبد الكريم الخوالقي في صحيفة بيروتية واسعة الانتشار قتيلاً تحت عنوان عن اغتياله لم يدهشها ذلك، كما لم تدهشها صورة الجرذ المتدلي من عنقه. منذ اللقاء الأول في مطار باريس نفرت منه. منذ اللحظة الأولى أدركتُ أنه محتال حين كان جليساً للمائدة في كافيتيريا المطار.

لم أصدق للحظة واحدة أنه ابن لرئيس للوزراء في قهرستان أو سواها. . كان واضحاً لعيني كبطل قصة رديئة، مزوراً وهشاً ومنتحلاً لصفة ليست له. شاهدته يفتش عن المتاعب بانتحاله لشخصية رجل آخر بحجة تشابه الأسماء. أعتقد أنه قُتل وقاتله يتوهمه ابناً لرئيس وزراء قهرستان. كيف لم يخطر لي ذلك حين شاهدته؟ كيف لم أفكر بكتابة قصة يحاول بطلها أن يصيب مغنماً من تشابه الأسماء فيتمّ اغتياله بالنيابة عن الذي انتحل صفته بصفاقة؟ حقاً، إن القدر يكتب الحبكات الروائية بأفضل منا، القدر، ذلك المؤلف العبقري يحرّك مليارات الحبكات القصصية في كل ثانية وأنا أقضي عمري في رصد عدة أبطال. . وأفشل غالباً في ذلك!!

* * *

الموت، رواية سادسة

حين شاهدت سليمى صورة الخوالقي الذي أوصلته بنفسها إلى «فندق الأمراء» شعرت بالدهشة. . من قتل نجل رئيس الوزراء وعلّق له فوق ذلك جرذاً

كميدالية اللعنة في عنقه؟ الأمر لا يهمها حقاً! لم تتوقف لقراءة الخبر بل اكتفت بالصورة وبجزء من العنوان. كان عليها أن تسارع إلى موعدها مع وليد الموالدجي.. وليد الذي يصفحها ضد التفاصيل اليومية ويعيدها إلى صباها مع شبيهه نعيم حبها الكبير. وليد الذي يملأ حياتها ويعيد إليها «اللامبالاة الشبابية» بما يدور حولها باستثنائه.. وليد الذي يهديها خفقات النشوات والآهات شبه المنسية.

منذ انشغال زوجها عنها بعشيقة هنا وأخرى هناك وهي تتظاهر بالغباء وتتجاهل وتنتظر بصبر عودته إلى جسدها، لكن العشيقة الأكبر، الموت، استولت عليه ولم يعد بوسعها منافستها! ونسيت في غمرة ذلك أنها امرأة، وها هي تستعيد جنونها الموؤود بعودة نعيم إليها متقمصاً جسداً جديداً شاباً هو وليد.. وصورة قتيل إضافي، أكان نجلاً لرئيس وزراء أم لا، لن تهزها أو تسرقها من دنياها الخاصة المشعة بألوان قوس قزح والتي بزغت داخل عالم من القتامة والعدوانية واللامبالاة بها وبأمثالها من الزوجات المنسيات المهجورات لمجرد أنهن بلغن الخمسينات من العمر، كأن تقدم المرأة في السن جريمة اقترفتها هي وتستحق عليها عقاباً!

مع وليد تعود صبية، تغادر «جلد الحمار» إلى أجنحة الفراشة، وتطير، وتطير.. ولم تعد بحاجة إلى تعذيب نفسها كي لا يزداد وزنها، بل صارت تلتهم ما تشتهيه وأتون سعادتها يحرق كل شيء.. وتزداد رشاقة.

فليذهب إلى الجحيم الخوالقي، ابناً لإمبراطور كان أم ابناً لمتسول.. كل شيء سيّان.. المهم أن يأتي وليد ببهائه كله.. بذراعيه.. بحضور نعيم في لمساته وتعابيره وأسلوبه في المداعبة كأنه تقمصه.. بضحكاته.. بذكائه الاستثنائي.. بجسده الاستثنائي.. برحيله الخارق في المغاور التي كانت مهجورة حتى شروق شمسه. لقد مرت سنوات طويلة من هجر زوجي لجسدي حتى شعرت بعدها أنني عدت عذراء، وها أنا من جديد أكتشف مباهج تلاحم ألسنة البراكين بقاع البحار والمغاور السرية...

كأنني أعيش ثانية زواجي الأول ونشوتي الأولى.. وحبي الأول الكبير نعيم حتى أنني أتساءل أحياناً: هل يمكن لروح أن تحل في جسد آخر لتحقيق مشيئة أخيرة لمحتضر في لحظة ندم على فراش الموت؟ أم أنني أتمسك بفكرة تقمص نعيم لحبيبي وليد كي أريح ضميري وأبرر جنوني في كهولتي؟ أعرف أن زوجي نعيم ندم على إيذائه لي وخياناته وهو على فراش الموت، ولكن تراه عاد حقاً ليحل في وليد ليعوّضني عما خسرته؟ إني بحاجة للحوار حول ذلك مع ماريا. والآن يستحسن أن أغادر البيت قبل عودة ابنتي دانا التي تعاملني كما لو كنت ابنتها، تُقرّعني إذا التقيت

وليد وتُضيق عليَّ وتستجوبني.

أجل! يستحسن أن أهرول قبل أن تصل وتسألني «إلى أين» وأجيبها ساخرة: كُفي عن قول «كوفاديس» - أي إلى أين باللاتينية - ثم نتشاجر تماماً كما كنت أتشاجر معها حين كانت مراهقة وأصر على معرفة من ترافق إلى السهرة، وعلى مناكدتها وانتقاد رفيقها والتأكيد أنه لا يستحقها!

والآن، تبادلنا الأدوار، فيا لنشوتي للخلاص من دور الزوجة المخدوعة والأم التي لا ينصت لها أحد، المأكولة المذمومة وعودتي لدور المراهقة الحمقاء العاشقة المنتشية!

* * *

الموت، رواية سابعة

شعر ناجي بالهلع حين شاهد صورة الخوالقي قتيلاً مرمياً على الرصيف الماطر وقد تدلى من عنقه جرذ.. لومضة شاهد نفسه في الصورة بدلاً عن الذي يزعم أنه الخوالقي ابن رئيس الوزراء.

أعرف الخوالقي الحقيقي ابن رئيس وزراء قهرستان، نجم المجتمع، «الدونجوان» الوسيم، وزبون مطعمنا في باريس ونجم مطعم «أفراح بيروت» حين يحضر، السخي بالإكراميات حتى أن نادلاً مثلي يفرح بإطلالته على المطعم، لكن ذلك الولد المحتال قدم لي رشوة لأسكت عنه ضعفت أمامها: أن لا أبوح بسره أي لا أعلن أنه ليس الخوالقي الحقيقي مقابل ترقيتي إلى منصب صاحب فندق «باري روايال».. وضعفت وقبلت وسكتُّ! نشوتي لأن أكون شخصاً مهماً استولت عليَّ وغلبتني ومهدت لقبولي لعبة سليم/وفاء.

مصرعه هكذا يرعبني، يذكّرني بأننا نحن معشر المحتالين الذين نتحول إلى مصاصي دماء بالمعنى الحرفي للكلمة - كما يحدث لي على الأقل - قد نجد من يدق الاسفين في قلوبنا ونعود كومة من الرماد! عليَّ أن أنسحب من اللعبة الخطرة الملتبسة التي تورطت فيها رغم ما تدرّه من مال لا أحلم بجمعه طوال ستين سنة من العمل نادلاً والهرب بعنقي الجاهز لتعليق جرذ.. الهرب به بعيداً وبعشرات آلاف الدولارات التي أنا على وشك الظفر بها، ولحظات الطيبة التي عشتها وأعيشها مع العشيقة السابقة لسليم، الحسناء وفاء، التي اكتشفت أنها ليست زوجته، لكن ذلك لم ينتقص من سحرها في «رقصة الجنون» حتى أنني بدأت أجد أن النساء لا ينقصن

جمالاً عن الذكور أحياناً ـ أنثى مثلها تعيد الاعتبار إلى بنات جنسها لدى رجل مثلي يفضل «أمثاله»!

أجل! عليّ الانسحاب بسرعة عائداً إلى باريس مع ثروتي الصغيرة التي غنمتُها وسأغنمها قريباً وذلك لتأسيس مطعمي الحلم هناك. يجب أن «أضرب وأهرب» كما يقول المثل الشائع في قريتنا.. حيث قبر أمي.. آه أمي.. أمي.. أمي..

ممددة بين قرص الشمس والنوارس على الشاطىء، وأنا نصف عارية بلباس البحر «البيكيني». يمر بي العجوز البيروتي العذب بكامل أناقته البحرية ومنديل عنقه الحريري وقبعته القشية، ويلتهمني بنظراته وشهواته متظاهراً بتحيتي رافعاً قبعته بتهذيب باريسي:

ـ صباح الخير يا دكتورة ماري روز.

بدأت أصير مَعْلَمَاً سياحياً على هذا الشاطىء الجميل!

يا للأسف.. تكاد إجازتي البيروتية تنقضي. اقترب موعد عودتي إلى شتاء باريس وإيقاع باريس وثلوج باريس هناك حيث الشتاء يستحق اسمه وسمعته الرديئة؟

ما يزال شاطىء البحر مكاني المفضل ترافقني دانا أحياناً وتتهرب مني غالباً. «الديها قطط أخرى تجلدها» على حد تعبيرنا كفرنسيين، ومن طرفي تعلمت منذ صغري الاهتمام «بيصلي»!

ما زلت أتمدد نصف عارية تحت الشمس وأنسى كل شيء..

لكن د. ماري روز لم تنس كابوس ليلة السفر عن الأفعى الصبارية في حقيبة يدها كأنها قفزت من بطاقة السفر..

تحت شمس بيروت،

تحت شمس النظرات الدافئة،

في ذلك الصباح الشمسي المشرق وهي ممددة بين قرص الشمس والنوارس بدا لها كابوس ليلة السفر عن الأفعى الصبارية حلماً نائياً يجب أن تنساه. شعرت بالتعب كمن سيصاب بزكام. هل التقطت الجرثومة من ذلك الشاب الوسيم الذي لم يستطع مقاومة جمالها فقبّلها فجأة دون أن يعرف اسمها أو تعرف اسمه في مصعد البنك وتمنت أن تنقطع الكهرباء لحظتها وتطول القبلة. أم تراها التقطتها من ذلك النادل اللطيف في «مطعم البريستول» المصر على أن يقترب بوجهه منها وهو يضع أمامها صحن سمك السلمون المدخن (الصومون فوميه)؟ أم التقطت الجرثومة من «ببي عبد» في غرائبية مطعمه الأنيق العريق (بتاريخ من لحظات الفرح لمشاهير عالميين مروا به في جبيل) حين أصر على تقبيلها لمجرد أنها فرنسية وجميلة متذرعاً

بتقدم سنه وهو يخفي شبابه سراً خلف تجاعيده؟ وحين قبّلها ترك شفتيه تنزلقان قليلاً عن خدها نحو شفتيها كأنما بفعل المصادفة أو السن (أم العادة؟!). . أم تراها التقطت الجرثومة من تلك «الصبحية» التي أقامتها سليمى والدة دانا على شرفها ودعت إليها النساء فقط وبالذات الأجنبيات المتزوجات من لبنانيين. .

كم دهشتُ لحفل لا تحضره إلا النساء. . يا لأناقتهن وجمالهن وتبرجهن النهاري كما نجمات الأوبرا على المسرح وكثرة مجوهراتهن كما في حفل تتويج إمبراطور وعطورهن وضحكاتهن فيما بينهن وما من رجل إلا «الجرسونات» نصف الثملين بذلك الحريم العصري المدهش، ولكن رائحة الأدوية القاتلة للجرذان كانت تطغى على رائحة العطور كأنها تنبعث من بشرة بعضهن. كنت قد قرأت الكثير عن الحريم، ولم يخطر ببالي أن جلساتهن تُعقد في المطاعم الفخمة والفنادق الباذخة حيث يذهب الرجال إلى العمل أو إلى عشيقاتهم وتنفق النساء ما يربحه الذكور في حياة سهلة مريحة عمادها التنافس على البذخ وحب الظهور والثرثرة عن الجرذان التي يستعصي قتلها والمستحسن تدليلها، وهل حضروا من العراق أم ليبيا أم إسرائيل أم سوريا أم الخليج، وتأكيد النادل متدخلاً في الحوار أن الجرذان محلية ودود الخل منه وفيه، كما ترجمت لي دانا قوله، ناهيك عن الأحاديث حول الأسماك النافقة التي تعوم على وجه البحر وتقذفها الأمواج على الشاطىء بروائح كريهة كالفضائح المالية التي حدَّثها عنها شاعرها الخمسيني اللطيف وسيم، وعن أشباح البيوت العتيقة التي يجب هدمها وبناء فنادق سياحية في موضعها. ولكم أدهش الدكتورة ماري روز التشابه الخارق بين ثلاث شابات تصادف جلوسهن على مائدة غداء نسائي احتفالي مقابلها كأنهن مستنسخات من الماكينة نفسها. وحين سألت دانا عن ذلك قهقهت وقالت لها إنّ طبيبهن التجميلي واحد وهذا كل ما في الأمر وقد زرع لهن سيليكون الشفاه بالمقدار ذاته، وشد البشرة المحيطة بالعيون بأسلوب واحد.

في ذلك الغداء العجيب الغريب «الحريمي» في روف الفندق الفخم، حيث الحريم يرفلن في أحدث الأزياء، تحدثن عن سيارات المرسيدس التي تنتقل ملكيتها بالإرغام إذا لم يدفعن الخوة، وفهمت أن المقصود هو أن السارق يعيد بيع السيارة لهن وأذهلني ذلك، وبالذات إلفتهن مع ذلك!! وأخيراً وصلت زوجة الملياردير. . حبست النساء أنفاسهن ليتأملن بتمعن حاسد ملايين الدولارات المحيطة بعنقها والمتدلية من أذنيها والمحيطة بأصابعها الملقبة بمجوهرات. بل إنهن كن ينتظرن وصولها بلهفة. لا أدري لماذا خُيّل إليّ أنها كانت ترتدي مجوهرات اصطناعية من

«دكان تاتي» الرخيصة الباريسية وأنها كانت تسخر منهن جميعاً بعينين يسيل منهما الحزن الأسود. عيونهن كلهن بدت لي آباراً من الخواء ومن الحزن مسوّرة بالكحل الأسود الفاقع.. ولكنني أحببتهن، من لبنانيات حقيقيات وأجنبيات صرن أكثر لبنانية من اللبنانيات. لقد أذهلتني قدرة اللبنانيين على تبديل كاثي البريطانية مثلاً إلى بيروتية عتيقة تشكو بفرنسية ذات لكنة لبنانية إنكليزية من اختفاء الفجل الطويل الذي يحب زوجها تناوله مع الملفوف المحشو باللحم والرز ـ أي «شوفَرْسي» كما شرحت كاثي ـ وتعتبر غيابه عن أسواق بيروت كسوق الفرنج المغدور المنقرض من أهم مساوىء الحرب برأي حماتها البيروتية وبالتالي برأيها هي أيضاً!... أما دانا فأكدت لي أن كاثي صارت تتقن العامية البيروتية كأنها ولدت في لبنان!

ما الذي فعلته بيروت بكاثي؟ وبي؟ ما الذي تفعله تلك المدينة الأسطورية بكل من يلامسها أو يحل بها أو حتى يغادرها ولكن بعدما لثم شفتيها، ويعجز عن نسيانها؟

أدهش د. ماري روز أن كاثي صارت أكثر شبهاً بالسيدات اللبنانيات حتى من دانا نفسها.. فما الذي فعلته بها بيروت وذلك الشعب اللطيف الطيب المجنون رقصاً في السلم وعنفاً في الحرب وشعراً زجلياً في المقاصف كما شرح لها شاعرها الخمسيني.

شعرت بالاسترخاء ونسيت حذرها. قررت أن لا تنتظر السائق عبدول الذي وعدها بإعادتها إلى البيت في الرابعة، غادرت المسبح المشمس في الفندق الفخم. على رصيف الكورنيش لاحظت وهي تستقل التاكسي الأول الذي توقف أمامها واستقلته دونما حذر، سيدتين واحدة بالشورت تهرول رياضياً وأخرى على الرصيف ذاته بالتشادور. تحب هذه المشاهد الطريفة في بيروت والتعايش بين الأمزجة. أعطت سائق التاكسي عنوان بيت دانا، وفقط حين انطلق بها تذكرت أنها في بيروت إياها «المرعبة»، بيروت أحلامها الحدسية الاستباقية الإنذارية، بيروت الخطف والقتل والرهائن، بيروت الأذى للغرباء.. ووعت ماري روز أنها قد تكون ارتكبت للتو غلطة ستدفع ثمنها حياتها. ولكن الكابوس في تلك اللحظة بدا لها ذكرى سحيقة نصف وهمية..

لقد وجدتُ في بيروت بساط الريح وجربتُه وفهمتُ مدلوله، وفركتُ خاتم علاء الدين، ويبقى أن أجد مرآة الحقيقة.. فما الذي يخيفني غير ذلك الكابوس وقناعتي بأنه من صنع حاستي السادسة الاستباقية؟ السائق أوصلها إلى وجهتها بل وكلمها بفرنسية «مكسرّة» طريفة، ولم يصمت طوال الطريق وهو يشكو لها غياب

السياح عن لبنان وجماليات بيروت ما قبل الحرب «بيروت العز» وقالت لنفسها إنه يدعوها بيروت العز لأنه كان شاباً يومئذ!

وأجزلت له العطاء حين لاحظت في الشمس الساطعة أن فمه يكاد يكون خالياً من الأسنان، وهبطت بأمان أمام بيت دانا.

حين هتف ليلاً شاعرها الخمسيني الطريف الذي يكتب لها قصائده بالفرنسية، نسيت زكامها ورافقته. وراقصت سواه. فقد كانت بحاجة إلى شاب يرافقها في رقص الجنون الشاب، ووسيم يرمقها بعينين حزينتين ككلب مضروب ويكتب رغم الضجيج والصخب. وحين عادت إلى الطاولة شكرها لأنها آلمته وأتاحت له فرصة كتابة قصيدة وأصر على قراءتها لها رغم الموسيقى الصاخبة التي أسماها بالضوضاء فهربت منه ثانية إلى حلبة الرقص. لكنه قبّل يدها كفارس شهم حين أوصلها بسيارته حتى باب فيللا دانا!

اللبنانيون الطريفون، كم تحبهم، وتحب تناقضاتهم! لن تنسى يوم قبلت دعوة رجل الأعمال إلى يخته وأغواها بوسامته المتحالفة مع ضوء القمر وتركت نفسها تستسلم لنشوة اللحظة. وحتى قبل أن يمضي معها إلى فراش اللذة المسروقة اتصل هاتفياً بزوجته وتشاجر معها لأنها ذهبت تزور إحدى صديقاتها دونما استئذانه وكان يلثم ماري روز على عنقها بين صرخة غضب وأخرى في سماعة الهاتف موجهة إلى زوجته التي غادرت البيت دونما إذن منه! وانهمر الجليد وتوج بقية السهرة.

ما أطرف تناقضات اللبنانيين!

* * *

تزداد الدكتورة ماري روز ازدهاراً وحُسناً تحت الشمس الخريفية/ الربيعية لبيروت وتحت الأنظار المعجبة لرجالها. **تبدو لي النزوات المجنونة المسروقة مع غير الزوجات قضية جدية عند الرجل اللبناني، تماماً كما لحظات لعبة «الصيد» المتأججة الهاربة. الضحك أيضاً قضية جدية عنده والطعام والشراب والأناقة والرائحة العطرة والسيارة الفخمة والوجاهة والعشيقة الحلوة صغيرة السن إلى جانب الزوجة التي «لا ينقصها شيء» من وجهة نظره، فهو يغمرها بالمجوهرات والحماية والخادمات والسيارة المرسيدس «السبور» فماذا تريد أكثر من ذلك؟**

الدكتورة ماري روز تتسلق السلم إلى غرفتها في فيللا سليمى/ دانا، متحفزة لتحضير نفسها لواحدة من سهرات لياليها الأخيرة في بيروت. التقت بسليمى. شاهدتها في أعلى السلم وبدت وكأنها خسرت عشرة أعوام من عمرها وعشرة

كيلوغرامات من وزنها. تعرف أنها عاشقة فلطالما شكت لها دانا من علاقة أمها بوليد وكادت تعكر عليها سعادتها على الشاطىء وهي «تنقّ». لم تفهم معنى الـ «نقّ» اللبناني إلا من خلال علاقتها بصديقتها الحبيبة دانا!

قبّلتها سليمى بحرارة المحبين الذين يعشقون الدنيا ويسيلون دفئاً نحو كل ما حولهم، وبعين الرضى يرون الوجود جميلاً. . . يحبون الناس جميعاً ويبدو لهم كل شيء على ما يرام.

مشتعلة بحلاوة الصبا، ضاحكة، متوهجة بالأيام الأخيرة من إجازتها سألت الدكتورة ماري روز سليمى: هل الرجل اللبناني استثنائي في حلبة «الفروسية النسائية» أم أن الشمس البيروتية الشتائية الحارة خربت مقاييسي؟

قالت لها سليمى بمرارة: انطباعك في محله. الرجل اللبناني استثنائي في «تلك» الحلبة لكنه للأسف لا يجود مع الموجود ـ أعني مع الزوجة ـ بل يتوهج في العلاقات الجانبية السرية. إنه نمر في ليل العشيقات وفأر في سرير الزوجات!

انفجرت د. ماري روز ضحكاً، لكن سليمى تابعت بجدية: انظري إلى طعامنا اللبناني (الوطني) أي ما ندعوه بـ «المازة»، تكتشفي مزاج ذكورنا وروحهم. عشرات الأطباق، من هذا وذاك، لا تشفي غليلاً وليس بينها ما يُشبع إلا غريزة تذوق لقمة من هنا وأخرى من هناك، من عشرات الصحون الجانبية الشهية مع إهمال الطبق الرئيسي: الزوجة!! وأضافت سليمى وهي تمضي مع غلالة عطرها الآسرة: الرجل اللبناني مدهش مع امرأة جاره! وهرولت ولم تترك للدكتورة ماري روز الفرصة لتحدثها عن «رجل أعمالها» يحيى الذي لم يلتهمها في ضوء القمر، بل اكتفى بالمقبلات العاطفية (المازة) لكنها ستلتقيه الليلة بعدما أشعل براكينها وترك الأنهار الجوفية تعلن عن حضورها بجداول جانبية بانتظار انفجار كبير ترقبه بشوق، وبفضول مراهقة تتجسس على جسدها وتتحسس تبدلات تضاريس كتفيها وصدرها وتتأمل بدهشة انبثاق الزغب تحت إبطيها. **مشاعر كهذه لا أستطيع البوح بها لصديقتي دانا النسوية المتعصبة نصف العدوانية نحو ذكور كوكبنا على طريقة بعض نسوياتنا الغربيات للألفية الثالثة الآتية!**

تأنقت د. ماري روز وسارعت إلى سهرتها حين مر بها أمير ليلتها يحيى. ولم يخيب أملها «يايا» الذي تعجز عن لفظ اسمه يحيى بل تناديه «يايا» ويصرخ هو: يا أنا. .

ويخته؟ أدهشها أن ذلك اليخت مكرس لاكتشاف كواكب قد لا يرتادها اللبناني مع زوجته حتى في شهر العسل. . كواكب لتجاوز الحدود المعلومة للمباهج. . كواكب «المريخ» الجنون و«المشتري» الهذيان و«الزهرة» المشتعلة آكلة

اللحوم، ومدارات أقمار النشوة حتى الهذيان على حافة الابتذال والتوسل.

في البداية أدهشني في غرفة «السونا» التي لم أر مثيلاً لها في يخوت موناكو على كثرة من رأيت من عجائب طبقتي، طبقة «النبلاء» الأوروبيين المزدهرين في ظل الجمهوريات!

فغرفة السونا عنده في اليخت تكاد تكون متحفاً. . الجدران السيراميكية تقلد بإتقان لوحات استثنائية: لوحة الجميلة الشهوانية «دانايي» للمبدع غوستاف كليمت بكل شهواتها المتوجة بشعر أحمر وصدر عار تتصدر الجدار الأول. أما تمثالي المفضل «دافيد» الذي يجسد نضارة الشباب للمبدع مايكل أنجلو فقد تحوّل هنا إلى لوحة بالسيراميك على الجدار الآخر لغرفة السونا. لوحة متحركة خلف الأبخرة، بكل نبض الشرايين الحارة حتى خيل إليّ بينما «يايا» يقبلني أن «دافيد» مايكل أنجلو هو الذي يحتضنني بكل زخمه وبتورم مفاجىء لفحولته. ولكنه مكان لا صلة له بالابتذال. شعرت وأنا أتوسطه عارية أنني فينوس التي غادرت للتو صدفتها في لوحة بوتيشيللي، بينما موسيقى موزار تأتي من مكان خفي كأنها روح المكان. ذلك كله كان راقياً وباهراً و«أيروتيكياً» ولا صلة له بـ «البورنو». أما الموقد في غرفة السونا فحرّ صحراوي ناري ينسكب من حلمي العتيق بارتياد «ألف ليلة وليلة»، ومن رسوم لشموس مدسوسة في زوايا الغرفة ذات الأرائك الخشبية التي تبدو حية تتعرق كغابة استوائية من الأسرار وروائح الأزهار العملاقة لحظة التلاقح بالطلع. بعد المداعبات في غرفة السونا التي لم تتجاوز لمسات الفراشات على أوراق الورد، رمى بي فجأة في بركة سباحة صغيرة مثلجة في غرفة ملحقة بالسونا. . وشعرت بالدم يهرول في عروقي كقطيع من الزرافات المجنونة المشتعلة الخارجة من لوحات الفنان ماغريت الراكضة بين قلبي وقلبه. . وقفز معي، ثم تحولنا إلى حضور واحد مكهرب بجنون الساخن والبارد وهذيان الحديد المحمي المغموس في مياه ينبوع جبلي. . غادرت مرحلة المعدن الجامد إلى الزئبق الرجراج سريع الغليان ودخلت في مرحلة الهذيان ولم أكن أدري أنها البداية. . البداية فقط. . .

هذه المرة لم يكن ثمة بساط ريح، بل مركبة فضائية لا تنساب بين النجوم برفق ويسر كبساط الريح بل تقلع بها بجنون إلى مجرة أخرى في طيران أكثر ارتجاجات وارتجافات وانفجارات، أكثر عنفاً وحدّةً وإشعاعات كونية وسنوات فضائية عرفتها الإنسانية على طول تاريخها غير المدون إلا جزئياً مع النشوات الكاوية حتى الصرخة الشبيهة بالأغاني المحمومة. . للمرة الأولى سمعت نفسي وأنا أصرخ في عرض البحر وذلك الفضاء الكوني والنجوم تتساقط حولي مشتعلة كألعاب نارية

لها أضواء سحرية، كقوس قزح بعد يوم أمطر طويلاً. . وأمطرتُ طويلاً، وشهقت وصرخت وتأوهت مثل سمكة أخرجت من البحر وأعيدت إليه مرات ومرات. . فقد عشت لحظة الخروج من الجاذبية الأرضية وفهمت مدلول عبارة «مرة واحدة لا تكفي». . وعشت لحظة الخروج من الجاذبية الأرضية مرات ومرات. . .

حين غادرت ذئبي الجميل تلك الليلة، مصاص دمائي حتى الجنون، شعرت أنني أعود من رحلة فضائية في كوكب الهذيان. . كان ذلك كله لا يصدق. . كان ذلك كله يُدعى الرجل اللبناني في نظري. وحمدت خالقي لأنني غير متزوجة من لبناني ما دام ذلك لا يحدث للزوجات، وضحكت لفكرة ضرورة البحث عن صديق لبناني في باريس يوم زفافي بالذات إلى فرنسي! فالزوج اللبناني برأي سليمى فخ، لكنه هدية كعشيق! مؤكدة باستمرار أنه زوج فأر وعشيق نمر. . وسليمى في نظري سيدة العاشقات ولو كرهت صديقتي دانا. صرت أشعر في بيروت أن سليمى أقرب إلى سني من دانا فهي رفيقة جنوني!

حين عدتُ إلى الفيلا مع الفجر كانت دانا في انتظاري في غرفتي والقلق يسيل من وجهها وهي تقول لي: أمي ووليد. . ماذا أفعل؟

قلت لها: اذهبي و«عيشي» أنت أيضاً. . اطمئني، إنها أذكى من أن تتزوجه. . ولكنها تعشقه، فاتركيها تحيا، وعيشي حياتك أنت أيضاً. . أؤكد لك أنها لن تتزوجه حتى لو طلب منها ذلك! ولم يبدُ على دانا أنها صدقتني!

* * *

صرخت دانا في أمها سليمى وقد ضَبَطَتْها متلبّسة بالعودة متأخرة إلى البيت بعد سهرة قضتها مع وليد وودّعها أمام الباب بقبلة مجنونة شاهدتها دانا وهي تتلصص عليهما: ما تفعلينه يا أمي ليس جميلاً. . إنه يصغرك بحوالى عشرين سنة!!

إذا لم يكن ذلك الجنون الشهي جميلاً فما فعلوه هم بي أيضاً، زوجي وبناتي، طوال أعوام طويلة لم يكن جميلاً أيضاً! بل إن نسيانهم لي بعد استعمالهم لعمري كشيء هو أكثر بشاعة. ثمة لحظات أتحسّر فيها على عمري الباريسي منذ رافقت زوجي إلى فرنسا حين استفحلت الحرب ولم يعد بوسعه العمل الفعال في بيروت. لقد خسرت هناك أسرتي بالمعنى الذي ألفته من قبل للأسرة. لقد خسرت زوجي وبناتي بمعنى ما، خسرت ما يدعوه الأدباء بـ «التضامن والتواطؤ».

بناتي؟ صرن يطالبنني بميزات البنات الشرقيات ومكاسبهن ويمنحنني إهمال البنات الغربيات!

صرن يعاملنني مثل سيارة عتيقة مستهلكة منسية في المرآب. . أجابت سليمى بعد صمت طويل: هل تظنين أنني لست أنا أيضاً امرأة حية بحاجة إلى العاطفة والاهتمام مثلك تماماً؟

- إذا كانت إدارة شركات والدي التي أورثك إياها لا تكفي لملء حياتك، لماذا لا تشترين كلباً؟

- لأن الكلب لا يجيب حين نخاطبه. . ولأنه يموت كل سبع سنوات أو أكثر قليلاً.

- هل تظنين أن هذه العلاقة ستدوم أكثر من سبعة أسابيع ناهيك عن سبع سنوات؟

- سأعيشها حتى ولو دامت سبعة أيام!

- إنه لا يحبك. إنه يحب مالك وثراءك.

- إنه يحبني كما أنا أو يعتقد ذلك على الأقل! لقد عرّتني الغربة من كل شيء إلا المال. لقد خسرت والدك هناك وخسرتك وشقيقاتك وصارت لكل منكم حياة مستقلة لا مكان لي فيها ولم أعد أريد شيئاً غير القليل من الدفء والحب والاهتمام. . فلمَ لا أساعده، أنا التي احترفت مساعدة الجميع كي يصعدوا حتى على أشلائي؟

- كيف تقولين إننا لم نبال بمشاعرك أنا وشقيقاتي؟

- هل نسيت أنكن صادقتن عشيقة الوالد دونما مبالاة بمشاعري؟ لقد منحتنّ حق الخيانة لوالدكن لمجرد أنه الذكر، ولكنكن تتشدقن بتحرير المرأة وتتباهين بنسويتكن؟

- لن تَرَيْ وجهي في بيتك بعد اليوم!

- وهل أراه أصلاً؟ حين نعود إلى باريس ستذهبين إلى بيت حبيبك بدرو أو تعتصمين بغرفتك، وإذا اقتحمتها بذريعة ما لكسر وحشتي ستحرصين على ترك السماعتين على أذنيك لأفهم أنني أزعجك. . وسأستمع إلى أشرطة عتيقة مسجلة لك ولشقيقتيك في زمن الطفولة وأنتن تنشدن أغانيكن الأولى وأنتحب.

- ما الذي يمكن أن يربطكما معاً وليد وأنت غير شهوة المال. . والجسد؟

- يربطنا الجرح. . والخيبة. . وأسى القلب.

كلانا خذلته الحياة وغدر به الذين أحبهم! لقد ذهب للعمل في باريس وكان يحمل محبة صادقة واحتراماً لصاحب المؤسسة ومطبوعته. لكنه كان أول مطرود

منها. إنه مثلي، أعطى ولم يعطه أحد. تربطنا أيضاً الوحشة في عالم مرعب، فقد توفيت والدته وهي تنجبه.. ستقولين إنه يحبني لأنني صورة عن أمه التي لم يعرفها. فليكن!

ـ هذه العلاقة خطأ!

ـ ما الخطأ؟ ألأنه الأصغر سناً في العلاقة، وأنا الأكثر ثراء وقوة شرائية؟ وإنني قد أساعده مالياً، وماذا في ذلك؟ ألم تباركي وشقيقتيك بحماس عشيقة والدكن بياتريس السكرتيرة وكانت تصغره سناً ولا تملك فرنكاً وكان ينفق عليها؟ ما الفرق بيني وبينه وأنتن تتشدقن بالمساواة؟ لماذا ألفتن كما ألف الناس نموذج الرجل الثري الذي «يساعد» صبية هي عشيقته وترفضن رؤية أن العكس يمكن أن يحدث أيضاً وتبادل الأدوار في عصرنا لم يعد أمراً عجيباً غريباً؟ ألم تذهبي مرات في باريس إلى الملهى الليلي النسائي مع رفيقاتك للسهر ولمشاهدة فرقة شبان «الشيينديل» الأولى الشهيرة للتعري الذكوري، حيث يتم تبادل الأدوار. عارضو المفاتن ذكور والزبائن نساء وعدتِ سعيدة بالمساواة في الأدوار؟ لقد صادقتن بياتريس العشيقة، فتعلَّمن الآن قبول وليد ومصادقته ومحبته.

ـ لن نحبه وننسى والدنا.

ـ لسنا مضطرين للنسيان لنحب من جديد!

كادت سليمى تضيف أنها هي أيضاً لم تنسه ولم تخنه وكل ما في الأمر أنه تقمص وليد منذ اللقاء الأول في المطار وجاء ليعوضها عن خياناته لها وجرحها واستغلاله لها، ولكنها أدركت أن دانا لن تفهم شيئاً من ذلك كله ولن تصدقه. إنها لا تؤمن بالتقمص ولا بالحب ولا بما لا تستطيع لمسه أو قراءته في أرقام على الكومبيوتر. أضافت دانا غاضبة: ماريا مسؤولة عن هذا الجنون. هي التي شجعتك على علاقتك بوليد لتدرسكما كفأري اختبار وتكتب عنكما قصة.. إنها متماسكة ومكتفية بذاتها وعالمها ولكنها تدفعك لعيش ما لا تجرؤ هي عليه أو ما ترفضه!

ـ نعم. لقد شجعتني ماريا على أن أعيش قصة حبي.. ماريا تفهمني وتتكلم لغة قلبي.. إنها صديقتي، ربما الوحيدة التي تفهمني. لقد عرتني الغربة من أوهامي ووهم حب زوجي وبناتي لي وها هي بيروت تكسوني من جديد بالحب أو بالوهم لا فرق. المهم أنني عدت حية ولن أتخلى عن فرصتي هذه. لقد قبلتِ وشقيقتيك سلوك والدك فلم لا يحدث العكس؟ كان «متسرياً» وبياتريس «محظية»، واليوم، أنا المرأة «المتسرية» ووليد الرجل «المحظي» في أسوأ الأحوال. ألا يفترض أن يفرحك ذلك كمدافعة عن حقوق المرأة؟

ـ يا أمي سيقرض مالك ونفوذك ويتخلى عنك.

ـ لم تقولي كلاماً كهذا لوالدك حين رحبّت بالست بياتريس في حياته! ولم تعاتبيه لأنه صار يخونني كمن يعاقبني على فشلي في إنجاب صبي له. ثلاث مرات أنجبت فيها البنات. تساءلت سليمى بلا صوت: **تُرى هل وليد عثة جاءت حقاً لقرض قلبي العتيق أم فراشة فرح؟ لا فرق. سأستمتع بحبه الآن وسأقبل ما يجيء.. دوماً تجري الأمور على هذا النحو بلا ضمانات!.. وستكتشف دانا تلك الحقيقة المرة ذات يوم حين تغدر بها الدنيا وكل من أحبته كما فعلت بي أيامي مرة.**

ـ ما الذي حدث؟ ما الذي أصابك بهذا الجنون كله يا أمي؟

لم تجرؤ سليمى على أن تقول لدانا إن ذلك كله بدأ ليلة عيد «السان فالنتان» في باريس.. ليلة عيد المحبين.. حين مر النهار والليل ولم يرن هاتفها مرة.. لم يقل لها صوت في كوكب الأرض أنه يحبها وسعيد لأنها ما زالت حية.

وحين جاء عيد الأم ولم يرن هاتفها أيضاً مرة لتقول لها ابنة أو حفيدة: أحبك. بكت بصمت وشعرت بالخواء ووعت وحدتها. لم يخطر ببال بناتها أن بوسع النساء الخمسينيات أيضاً البكاء جوعاً إلى الحب والدفء والانفجار شوقاً إلى الحنان العذب، لا الرجال من أمثال نعيم وحدهم! **الأزواج الخونة مثله الباحثون عن الدفء والثقة بالذات عند غبية مثل بياتريس التي صادقت بناتها وصرن يدعونها مع والدهن إلى بيوتهن سراً وسليمى تدري وتتجاهل. فلِمَ هذا التمييز العنصري تجاه وليد؟ لن أغفر له ولهن جميعاً ذلك.. وعقابي لهن سيكون بأن أعود إلى الحياة حين تناديني بيروت لذلك وحين يناديني وليد!..**

قالت سُليمى بهدوء لدانا: تخفن أن أنفق ميراثكن والثروة التي وهبها لي والدكن ربما في لحظة شعور بالذنب؟ لِمَ لا.. عاطفتكن نحوي ليست أكبر من حبه لي والتصاقه بي.

أضافت سليمى في لحظة صدق قائلة لدانا قبل أن تذهب إلى النوم: لقد سمعتُ يا دانا صرختك الأولى يوم ولدتك، وأنتِ الآن تسمعين صرختي الأخيرة في حكاية حبي مع وليد التي لن تتكرر. فاستقبليها بالحب ذاته، فوليد هو فرصتي الأخيرة لأستعيد ذاتي! وحبي للحياة.. إنه عودة والدك نعيم أيام كان شاباً ومرحاً ووسيماً وعاشقاً متقمصاً اليوم وليد.. وكل ما أفعله الآن هو أنني أحب والدك للمرة الثانية ولكن داخل جسد وليد!

* * *

تضايقت ماريا حين رفعت سماعة الهاتف فوجدته معطلاً وقد توفي فجأة! كانت تريد الاطمئنان على سليمى فهي تشعر بشيء من القلق عليها. ولم تدر هل تذهب إليها بلا موعد أم تنتظر حضورها. **لن تفطن سليمى إلى أن هاتفي معطل. ستظنني بدأت بكتابة روايتي الجديدة عن بيروت فقد قلت لها إن مناخ هذه المدينة ولقاءاتي بأمواتي في شوارعها توحي لي بكتابة شيء ما، وهي تعرف أنني حين أكتب أنقطع عن العالم إذ يصير لدي عالمي البديل ويمتلىء رأسي وبيتي بأبطال قصصي. أحسهم أحياء وأكثر حياة من المحيطين بي وأخاطبهم بصوت مرتفع وأسمعهم يردون عليّ ونتشاجر أحياناً وأحلم بهم ليلاً وتكتسي جماجمهم بالوجوه الحية الأكثر حياة مني.. كأنني أصب روحي فيهم. وحين أحتضر سيحيطون بفراش موتي ويدهش المشيعون لوجودهم في جنازتي وهم يتحبون كالأيتام.. كأنني أتحول بهدوء وببطء من امرأة إلى رف في مكتبة، وأحيا في بيوت قرائي بعد موتي كلما فتحوا أحد كتبي وتدفق منه أبطال قصصي وهم لا يمرضون ولا يشيخون ولا يموتون إذا لم أكن قد قتلتهم أنا قبل موتي.**

استيقظت ماريا من خواطرها على رنين الهاتف. قالت لنفسها إنه تعطل و«تصلّح» من تلقاء نفسه. ولم لا، في هذه المدينة العجيبة الغريبة التي يمشي في شوارعها الأحياء والأموات جنباً إلى جنب ويبدو أمواتها أحياناً أكثر حياة من أحيائها؟

توقعت أن تسمع صوت سليمى، وخاب أملها حين جاءتها «ألو» من حنجرة خشنة لرجل ناداها باسمها الأول: ألو ماريا؟

- نعم. من حضرتك؟

- تعرفين جيداً من أنا.. ليس بوسعك نسياني..

- أتذكّر الجميع وأنسى الجميع في آن. من أنت؟

- ولو.. ألم تميزي صوتي؟

خيل إليها أنها تعرف هذا الصوت الأجش ولكنها لم تنجح في تركيب وجه على حنجرته أو اسمه. قالت دونما حرج: إني آسفة. أذكر أنني سمعت هذا الصوت لكنني لا أعرف من أنت.

تجاهل تجاهلها له وقال: هل بدأت بكتابة روايتك الجديدة؟

دهشت ماريا وتساءلت: من أين يعرف أنها تنوي كتابة رواية جديدة؟ أهو صديق لسليمى؟ ولكن سليمى لا تبالي عادة بالإنصات إلى تلك التفاصيل ناهيك

عن نقلها. فهل التقت بمعجب لها وأحبت أن تدهشه بمدى صداقتهما كعادتها؟

كرر صاحب الصوت الأجش سؤاله: هل بدأت بكتابة روايتك الجديدة؟ أم أنك تكتفين الآن بتدوين الملحوظات والنوتات تمهيداً لكتابتها «على رواق» في باريس؟

ذهلت ماريا لأنها كانت في حقيقة الأمر حائرة بين الاحتمالين. أضاف وكأنه يقرأ أفكارها: لقد عاودتك أوجاع ظهرك وأظن أنك تميلين إلى تأجيل الكتابة بعد عدة جلسات تدليك لعضلات ظهرك، فأنت لا تشكين من عارض صحي كانزلاق الفقرات بل من «اللمباغو» وهو مجرد تشنج عضلي ولكنه أليم جداً...

ذهلت ماريا. كل ما قاله صحيح، فمن أين يعرف هذه التفاصيل الدقيقة حتى عن أوجاعها؟ أهو قريب لطبيبها في باريس؟ وكيف وهذا لبناني والآخر فرنسي جداً؟

سألته: هل أنت ممرض لدى طبيبي واطلعت مصادفة على سجلي الطبي؟

ما كادت تنطق بتلك العبارة حتى ندمت. إنها لا تسمح لمجهول عادة بجرّها إلى حوار حميم ودّي أو عدواني لا فرق. وازدادت ذهولاً حين قال صاحب الصوت الأجش: أنت الآن نادمة على جملتك الأخيرة. ليس من عادتك السماح لأحد باستدراجك إلى حوار حميم ودّي أو عدواني لا فرق.

قالت ماريا لنفسها: إنه بالتأكيد يقرأ أفكاري عن بعد.

قال لها: تعتقدين أنني أقرأ أفكارك عن بعد. لست مخطئة. أحببت فقط في هذه المخابرة أن أقول لك أن لا تستهيني بي، بحياتي وموتي، وإلا عرَّضت نفسك لخطر كبير! يستحسن أن لا تقتربي من حدودي وسأدعك بسلام.. لا تحاولي قتلي ولن أحاول قتلك.. وإلا فستكون الحرب بيننا شرسة!

لم تفهم ما يعنيه، وقبل أن تستفسر أغلق سماعة الهاتف بعنف.

شعرت ماريا بما يشبه الاختناق وهي تعرف أن باقة من الأزهار الميتة تنتظرها أمام الباب ككل صباح، وتدرك بما يشبه اليقين أنه هو الذي يرسلها لها. فما تفسير ذلك اللغز؟ ومن هو؟ حاولت عبثاً أن تتذكر صاحب ذلك الصوت. لم تستطع. حاولت تحليل الأصوات المرافقة لمخابرته. لم أسمع صوت أبواق سيارات في زحمة السير. سمعت ما يشبه هدير معمل رتيب غير معدني. أعتقد أنه صوت هدير البحر. أجل إنه صوت هدير البحر. فمن هذا الرجل البحري الذي يزعم أنني أقترب من حدوده وأحاول قتله؟ كل ما أفعله في هذا العالم المتوحش هو أنني أحاول حماية

نفسي من حاسداتي وحسّادي على مكابدتي مع الكتابة وعذاباتي الأبجدية التي يجهلونها ولا يرون إلا القشرة: الشهرة.. فصلتهم بالكتابة تشبه صلة القرد بقيادة مركبة فضائية! أليست الكتابة سفينة دهشة إلى اكتشاف كون جديد لم يطأه قلم آخر من قبل؟

يتحدث عن القتل، وأنا أتردد حتى قبل قتل بعوضة وأحاول التخلص منها بسلام.. ولم أقتل في حياتي حتى بطة تحت عجلات سيارتي وكدت أتدهور إكراماً لقنفذ فوجئت به على الإسفلت بين ميلانو ولوغانو. فلماذا يتوهم هذا الأحمق أنني أريد قتله ولم أقتل في حياتي كلها إلا بعض بطلات وأبطال قصصي، بصورة خاصة في روايتي الأولى حين قتلت الجميع، باستثناء بطلي نجيب صياد السمك المتعلم النقي الفقير الذي توسمت الخير فيه. وكانت بيروت في حقيقة الأمر هي التي قتلتهم متحالفة مع جشعهم ونقاط ضعفهم، ولم أجد يومها وسيلة أخرى للتعبير عن مخاوفي من انفجار حرب ولسوء الحظ صحّت نبوءتي وانفجرت الحرب.. بلى.. قتلت بعض أبطالي الآخرين، وكان ذلك قتلاً رمزياً لأشخاص سبّبوا لي ألماً بالغاً في حياتي واكتفيت بعقابهم على السطور وأهلت عليهم الحبر والورق ودفنتهم في قاع كتبي ونسيتهم، لكنني لم أسمح لهم بتحويل قصصي إلى مقابر لحكايا حبي وخيباتي وانكساراتي. تلقيت الكثير من الأذى، وتأملت القاتلات والقتلة وهم يمشون صوبي بخناجرهم ويبكون في الوقت ذاته ويرشون دموعهم على القبيلة متظلمين كاذبين، ولم أفعل شيئاً سوى رصد الطبيعة البشرية بحياد كأنني أتأملهم وأتأمل نفسي من بعيد.

فمن أين جاء هذا الرجل ذو الصوت الأجش ليتهمني بالتخطيط لقتله؟ أهو مختل عقلياً؟

قررت ماريا أن تنسى ما حدث مؤقتاً ما دامت من غير عشاق النكد، وتتصل بسليمى للقاء على شاطىء البحر. وحين رفعت سماعة الهاتف فوجئت بأنه ما زال معطلاً! فكيف استطاع ذلك الرجل أن يكلمها بهاتف معطل ويقرأ أفكارها عن بعد؟ تُراها تخطط في اللاوعي لقتله أو ستفعل ذلك لا محالة؟ حدسها يؤكد لها أنه هو الذي يبعث إليها بباقات الأزهار الجنائزية.. فلماذا يرسل إليها باقات أزهارها المفضلة ميتة؟ أهذا مجرد إنذار؟ أم أنه حكم رمزي بالإعدام؟

* * *

أين أنا؟ وأي جنون تسكبه بيروت في شراييني؟ ما الذي أفعله هنا؟

حين استيقظت سليمى لم تدرِ للوهلة الأولى ما الذي تفعله في تلك الغرفة..

وقعت عيناها على خواتمها الزمردية الذهبية وبالذات على خاتمها الماسي الثمين «السوليتير» فوق علبة كرتونية لماء «الصحة» استعملها وليد بدلاً من طاولة صغيرة ملاصقة للسرير. . أما السرير فكان فراشاً ممدوداً على الأرض. كادت تنفجر سليمى ضاحكة وهي ترى ثيابها الثمينة ماركة «كريستيان ديور» مرمية على الأرض إلى جانب حذائه العتيق، ورائحة عطرها الفاخر ممتزجة برائحة مدفأة الغاز الخانقة. حركت رأسها ببطء كأنها تخشى أن تخدش لوحة السعادة الطريفة التي غرقت فيها كما لو أن الموناليزا حركت هدباً من أهدابها وأفسدت سكونية الحياة في اللوحة وأعادتها إلى الابتذال اليومي. **كل ما حولي مبتذل لكنني أحسه نقياً واستثنائياً ونادراً. . ثمة معجزة صغيرة حدثت هي أنني عدت إلى الحياة، ونبت لي جسد. . لماذا في بيروت بالذات؟ ربما لأننا نشعر في باريس أن كل شيء على ما يرام حتى لنتوهم أننا سنعيش إلى الأبد أما في بيروت فنشعر أننا سنموت غداً وعلينا أن نحيا. عاد قلبي طبلاً أفريقياً يقرع دقاته على شاطىء استوائي ينادي الفرح والمباهج والحب ويرتعش لغروب الشمس وهطول المطر وصعود القمر.** تتأمل سليمى جسدها في سرير الحب. من زمان لم تره هكذا عارياً في الضوء إلا على منصة الطبيب مرة في العام حين يحين موعد الفحص الروتيني السنوي. لاحظت سليمى أن صداعها الصباحي الذي تفتح عينيها كل فجر في باريس عليه كضربة فأس يومية قد فارقها تماماً. . استعادت الرأس الذي كانت تستيقظ به حين كانت طالبة في القسم الداخلي في الجامعة الأميركية، ورفيقتها في الغرفة ماريا. . حين كانت عاشقة لنعيم الرجل الذي صار زوجها فيما بعد وحبيبها ثم غدر بها كما يحدث غالباً بعد ولادة البنت الثالثة! حدقت في وجهه. ما يزال نائماً بملامحه المتفجرة شباباً وقد وضع ذراعيه تحت رأسه كوسادة، تماماً كما كان يفعل نعيم. . من زمان كنت أجد الرجل الذي تجاوز الثلاثين عجوزاً، أما اليوم فأغبطه وأنا أخطو في الخمسينات من عمري.

للمرة الأولى لا تشعر بغصة وهي تتذكر سنّها، فقد قال لها وليد إنها لو كانت أصغر سناً لما أحبها، ولكنها تعي أيضاً أنها ليست شابة بقدر ما تبدو لمن حولها، كما كان يُذكّرها نعيم باستمرار. نعيم. كم أحبّته وكم جرحها وظلت تحبُّه. ولو لم يكن وليد شبيهاً به لما استطاعت الانزلاق الجميل في تلك العلاقة معه بل إنها تؤمن ضمناً أو تحب أن تؤمن أن نعيم قد تقمصه، وأنها لا تخون ذكرى زوجها حقاً بل تتقبل اعتذاره شبه المتأخر عن أخطائه معها وتعاستها معه في الماضي، ربما لتغفر له سنوات من الألم المكبوت الصامت.

النافذة عارية بلا ستائر وضوء الفجر الخافت ينسكب منها على وجه وليد

وبدايات صلعته التي تفرح بها فرحها بكرشه المعتدل حيث يبدو معهما أكبر سناً مما هو! الضوء يعانق حاجبيه داكني السواد وعينيه باهرتي الزرقة المغلقتين كمن أسدل ستاراً فوق نافذة تطل على بحر، وجسده الممدّد كأجمل تمثال شاهدته لرودان بذلك الكرش الشهواني الصغير. تأملت شفتيه النهمتين اللتين أيقظتا في الليلة الماضية مسامها وهما تتفقدان بشرتها لغماً بعد آخر وتقومان بتفجيرها كلها! خطر ببالها أن تنهض بسرعة لتصلح من زينتها قبل أن يستيقظ كما كانت تفعل في السنوات الأولى من زواجها، ثم تذكرت قول وليد إنه يحبها كما هي لأنها كما هي وظلت ممددة على ظهرها متلذذة بالضوء البيروتي الذي يزداد توهجاً وغير خائفة. تعرف أنه يحبها ذلك الشاب المجنون. . يحبها بالرغم من أنها تكبره بعشر سنوات أو أكثر. **ها قد عدت للغش في الحساب وخداع الذات وماذا في ذلك؟ ماذا في أن أكون أيضاً أكبر سناً منه بعقدين؟ ألم أعشق في صباي حتى الجنون رجلاً يكبرني بأكثر من عشرين عاماً؟ وما الفرق؟ ألم يحب نعيم شابة أصغر منه بأكثر من عشرين عاماً؟**

هل للحب قانون حقاً؟

إنني أصدق أنه يحبني الآن وهذا يكفيني. لا أدري كم سيطول عمر تقمص نعيم له وحتّام سيحاول تعويضي عمّا فات.

لاحظت سليمى شقوق الرطوبة في الجدران ولم تشم غير رائحة الصنوبر والعطر، بعد تلك الليلة السحرية التي عاشت فيها ليلة عرسها للمرة الثانية.

ظلت تجيل طرفها في الغرفة دون أن تتحرك. حسناً. تعترف. ليست مغرمة بتلك النافذة الموسخة العارية من الستائر، والجدران محتضرة الألوان وقد وحّدها البؤس فبدت رمادية مرقطة بالرطوبة، والخزانة المحرومة من الأبواب وقد علّق فيها وليد ثيابه القليلة إلى جانب البزة الفاخرة التي اشترتها له كهدية. ذلك كله بدا لها تفاصيل تافهة قابلة للتعديل وهوامش على دفتر قلبها.

ها أنا أتنفس براحة بأكثر مما أفعل في منتجع شتاد السويسري، وأشعر بالطمأنينة والسلام أكثر مما في غرفتي المبطنة بالحرير، المشعة بالثريا النادرة من مدينة فينيسيا، وبالمصباح الثمين «الجاليه» على طاولة جانب السرير العاجية. إني حية وعاشقة وسعيدة وكل ما تبقى تفاصيل تافهة يمكن تبديلها. لقد استعدتُ الرعشات والشهوات والآهات والانكسارات وركوب الحصان المجنح بلا سرج في الغابات المسحورة المرصودة للتفاح والأفاعي وهطول النجوم وتفجر الينابيع في المغاور السرية كأيام غرامي الأولى مع نعيم وأشعر أن بوسعي أن أغفر للكون كله أخطاءه ولزوجي خياناته إذا كان ذلك ما كان يحصل عليه عند سواي.

ومنذ ولادة دانا ابنتي الثالثة أهملني نعيم كأنه يعاقبني لإنجابي ثلاث بنات بدلاً من صبي واحد على الأقل أو لعله سئمني لا أكثر ومات جسدي أو توهمت ذلك إلى ما غير رجعة. نعيم لم يحاول مرة اللعب بمفاتيح أرغن جسدي، بل ترك العنكبوت يحيك خيوطه ويقيم بين الأوتار ويتحجر مع الزمان متهِماً موقدي بالانطفاء. نسي أن الموقد بارد دائماً لمن ينسى إشعال النار والنفخ بشفتيه في الجمر الغافي ودغدغة الرماد الحي. ولكن وليد استطاع في ليلة واحدة كسر الصواعد والنوازل المتكلسة وتعرية المغارة لضوء القمر والفرح والريح وعواصف النار الملونة بعد أقل من ثلاثة أسابيع من الألفة والعذوبة والحنان.. والمذهل أنه تحول إلى حصان مجنح أبيض بالأسلوب ذاته الذي كان لنعيم في ليالينا الأولى المحمومة.

شعرت سليمى فجأة بضربة من فأس صداعها اليومي المألوف حين تذكرت أن يوم العودة إلى باريس اقترب وكان من المفترض أن تعود ودانا والدكتورة ماري روز.

واتخذت قراراً لا عودة عنه: لن أرحل. لن أرحل الآن. لا أستطيع أن أرحل وأتركه، ولا أستطيع اصطحابه معي إذا لم أجد له عملاً. سيكرهني إذا صار عالة علي. أشتَمُّ استقلاليته وقوة شخصيته في التفاصيل كلها صغيرها وكبيرها. وهي استقلالية فوجئت بمداها ليلة البارحة خلال سهرتنا.

اصطحبني إلى مطعمه المفضل. شعرت بالحرج في التايور «الديور» الكلاسيكي وتسريحتي «الشينيون» الهادئة اللاعصرية حيث عقصت شعري كله فوق قمة رأسي لتتماشى مع أناقتي المتحفظة، ولولا عشقي لإبداء الخواتم الكثيرة لبدوت في دربي إلى التعزية بميت! ازددت حرجاً حين جاء صديق وزميل جامعي له لتحيته وبرفقته بعض رفاق الدراسة والرفيقات والصديقات وكنّ «ثلاثينيات» يرتدين الجينز والقمصان الملونة التي تكشف عن جزء من البطن المشدود وعن أكتاف مستديرة وصدور من مرمر. وقال الصديق عن جهل وبطيبة أو بلؤم: لم أكن أدري من قبل أن والدتك صغيرة وجميلة هكذا! أدركت أنني لست في «إنائي» في المطعم الشبابي لكنني حين أكون إلى جانبه أحس أنني في مكاني الطبيعي!

أجاب وليد بصوت لا يشوبه الامتعاض بل الفخر: هذه السيدة هي حبيبتي. وقدّمني للجميع كخريجة قسم إدارة الأعمال وبصفتي الشخصية والمهنية كصاحبة مملكة اقتصادية. وصافحتهم بود ودعاهم للجلوس معنا بكرمه المعهود (لا أدري من أين يأتي بالنقود فهو ينفق بسخاء) وراقصني بحرارة وهو يهمس بأعذب كلمات الحب وبدت جملته تنهيدة سعادة وهو يقول: يكفيني فخراً أنك لم تعرفي سوى

رجلين أحدهما كان زوجك، وأنا الثاني أو الأول لا فرق. لم يعد المرء يتعارف في هذا الزمان إلا مع «زيرات رجال»! التعفف أضحى نادراً في يومنا، في حياة سيدة مثلك عرفت الدنيا وتكيفت مع الظروف كلها، شرنقة تارة وأخرى فراشة، واستطاعت أن تحافظ على نقائها، وعلى تلك الطفلة في قاعها. إنني أحبك يا سيدتي.

حين عدنا إلى المائدة كنت سعيدة ومرحة ودار الحديث عذباً بيني وبينهم ونسيت أنهم يقاربون عمر دانا واستجوبتني الشابات طويلاً عن حياتي في باريس واستجوبني الشبان عن حياتي كمشرفة على إدارة شركة كبيرة لها فروع في عدة عواصم. وحين طلب «الصديق» مراقصتي رفض وليد بظرفه المعهود قائلاً إنه لن يدع أحداً يضم إليه حبيبته بذريعة الرقص. من زمان لم «يغر» أحد عليَّ. شعرت أنني عدت شابة وأنا أبحر في عيني وليد، كما كنت أيام الدراسة في الجامعة الأميركية. ثم إن ذلك لم يحدث منذ زمن طويل قبل ربع قرن فقط لا غير كأنها البارحة. ها قد عدت إلى لعبة خداع الذات حين يتعلق الأمر بالزمن. حدث ذلك قبل الحرب بأعوام أي قبل حوالى ثلاثة عقود.. كررت سليمى العبارة داخل رأسها مثل تعويذة للصحو: قبل ثلاثة عقود. ربع قرن. ثلاثة عقود. ثم قهقهت وقالت لنفسها: ما الفرق؟ حسناً. إنه يصغرني بكثير ويحبني وأحبه وسأقوم بتأجيل سفري إلى باريس مع دانا ود. ماري روز وأبقى معه..

توقف فأس الصداع عن تهشيم رأسها حين اتخذت ذلك القرار! عاودتها سعادتها وهي تتساءل: ما الذي سنفعله معاً بذلك اليوم البيروتي الشتوي البديع المشرق؟ لستُ مضطرة اليوم للذهاب إلى المكتب بفضل المرحوم زوجي، فقد رتب الأمور في شركته على نحو يريحه في الأعوام الأخيرة: لا أحد سواه ينفرد بالقرار الأخير، وفي كل منصب حساس كبير موظفان ذكيان يتصارعان وبالتالي يخشى كل منهما وشاية صاحبه ويتصرف على أكمل وجه، والمحصلة حسن سير العمل ليتغيب هو قليلاً عن المسرح ويستمتع بالحياة مع بياتريس بل بياتريساته الكثيرات الأخريات. والآن جاء دوري لأتابع «نهجه» في العمل وسواه!

دون أن يفتح وليد عينيه، ودون أن يقول كلمة واحدة استدار في الفراش وتحسس شعرها ووجهها وقرأ شفتيها بأنامله ثم غطاها ورحلت معه من جديد إلى جزر الجنون الفجري الصباحي التي لم تزرها منذ ألف عام.. منذ أيام نعيم وحب نعيم. ومنذ كان نعيم يهوى تلك النزهات الصباحية معها إلى جزر «الآه». وأذهلها أن أسلوبه في ارتياد الجزر والتجوال شبيه بأسلوب نعيم وأنه يتفوه مثله ببعض

العبارات اللذيذة «النابية» التي تزيد دمها اشتعالاً لأنها لم تألف سماعها. عبارات تسمي الأشياء بأسمائها. كانا، نعيم ووليد، يختاران دروباً متشابهة في ارتياد تلك الجزر البركانية «للآه» وينشدان الأغاني بالإيقاع ذاته وينفثان نيرانهما بالأسلوب نفسه أيضاً.

حين غادر وليد وسليمى الغرفة لاحظت أنه يدس بين شفتيه سيجارة غير مشتعلة وهو يستعد لمواجهة العالم الخارجي تماماً كما كان يفعل نعيم وهو يفتح عينيه الزرقاوين كأفق بحري.

* * *

ذهبت ماريا لزيارة فادي في قبره والحنين إليه يقصّها كسنبلة، والطقس الشتائي الجميل يذكّرها بأيامها معه. في المقبرة، قرعت باب قبره فلم يجب. ولكن على عادة الناس في حوض البحر المتوسط مدت جارته رأسها من القبر الملاصق وقالت لماريا: قد ذهب ليتنزه في بيروت، أما أنا فلا أحب مغادرة البيت أعني القبر كثيراً... إنه يعود متأخراً عادة.. شاهدت ماريا صبية قُتلت في الحرب في مجزرة جماعية كما تقول شاهدة قبرها وهي تغادره وتخلع كفنها وتتمدد بالبيكيني فوق رخامه الوقور للاستمتاع بحمام شمسي..

تتابع ماريا سيرها لمغادرة المقبرة. ترى شاباً جالساً يرسم. تسأله: ماذا ترسم؟ قال: أرسم اللامرئي. أرسم سكان المقبرة. خيل إليها أنه يشبه صديقها الرسام سعيد في شبابه، كما لو كان هو.

تابعت ماريا سيرها. شاهدت سيدة تبدل ثياب الحداد السود خلف شاهدة قبر إلى ثوب أحمر يلتمع تحت الشمس الذهبية وهي ترقص على أنغام موسيقى لامسموعة كراقصة تعرّي (ستربتيز). سألتها: هل أنت حية أم ميتة؟

قالت السيدة وهي تتابع رقصها بانتشاء: لستُ حية ولا ميتة. أنا كسكان بيروت كلهم، نصفي وهم ونصفي الآخر حقيقة. أنا امرأة ملتبسة إذ أعيش بين عالم لم يعد موجوداً وعالم لم يولد بعد.

- ولماذا ترقصين في المقبرة؟

- جئت إلى المقبرة منذ ساعات لدفن زوجي الذي استطاع أن يحظى بميتة طبيعية، وقد بكيته لكنه مات والحياة تستمر، والآن أرقص احتفالاً بالحياة. لقد تعلمت من جداتي الغابرات والحاضرات أننا نبكي الميت بمقدار ثم نبدل الثوب الأسود إلى أحمر، فالحياة تستحق الحفاوة، كالموت تماماً..

- ما اسمك أيتها السيدة؟

ـ اسمي بيروت. . ألم تعرفيني؟

قرب مدخل المقبرة التقت ماريا بطفلة تبكي. سألتها لماذا فقالت: لأنهم قتلوني قبل أن أكبر. فجّروا البيت لقتل الوالد ولم يكن فيه وقُتلتُ أنا وجُرحت أمي وشقيقي. .

أمام باب المقبرة دنت ماريا من حفار القبور وسألته: هل «تتشمس» تلك الصبية دائماً فوق قبرها؟ وهل تأتي تلك الأرامل للرقص كل يوم؟ وهل يأتي ذلك الشاب للرسم دائماً؟ وتلك الطفلة هل تحاول أن تواسيها؟

حدّق حفار القبور جيداً في الأماكن التي تشير ماريا صوبها وقال لها بدهشة كمن يحدّث مجنوناً وهو يمسح عنه عرق التعب: لا أرى أحداً. . . هذه مقبرة. . لا أحد هنا. . وأضاف هامساً كمن يبوح بسر: وحتى إذا شاهدتهم لن أبوح. هل تريدين أن يظنني الناس مجنوناً وأخسر عملي؟

قالت له ماريا: أما أنا فسأخسر عملي إذا كففت عن جنوني!

* * *

سأل ناجي وفاء وهما يتناولان طعام العشاء في «كازينو لبنان»: ما حكاية فريد العجوز هذا؟ لقد شاهدته واقفاً على الرصيف الثاني حين جئت اليوم إلى المكتب.

قالت وفاء وهي تقهقه وتبتلع ماء النار من كأسها مرة واحدة: الخادمة التي كانت تعمل عنده وطردها صارت ـ مصادفة ـ تعمل عندي. فأخبرتني عن سيدها السابق فريد الذي أضحى هاجسه بعد ترمله الحفر في حديقة بيته بحثاً عن كنز. رويت الحكاية لسليم على سبيل التندر، وومضت في رأسه خطة لربح المال أقنعني بها. وهكذا، ذهبت إلى بيت فريد وقرعت بابه وقلت له إنني «عرّافة» وأخبرني الجان عن كنز مدفون في مكان ما من بيته.

ـ يا للجرأة. وهل صدّقك؟

ـ صدّقني فوراً وآمن بقواي لكنه رفض أن ينقدني عشرة آلاف دولار لشراء العنبر والمسك و«الزئبق الأحمر» الثمين القادر على جذب ملوك الجان لإرشادي إلى مكان الكنز بالضبط، هذا إلى جانب ثمن «البخور اللبان الذكر». قلت له إنني بحاجة إليها لأعرف هل الكنز في الحديقة أم القبو أم في إحدى الغرف. تركت له رقم هاتفي النقال وطلبت منه أن يفكر في الأمر. كنت أعرف أنه سيضعف أمام إغراء الكنز ولم أكن مخطئة. بعدها بأيام اتصل بي بنفسه ورجاني الحضور لاستلام الدولارات، فقلت له إن سواه اشترى الزئبق الأحمر والمادة نادرة في السوق لعشق الجان لها وإن السعر قد يضاعفه الساحر الذي يتاجر بهذه المواد. بسرعة حزم أمره ووافق.

ـ هذا لا يُصدّق. . .

ـ وعرفت نقطة ضعفه: إنه يؤمن بالعرّافات والمشعوذات والعفاريت وتحضير الأرواح وضرب المندل وكشف الغيب وقدرة الجان على الإرشاد إلى الكنوز الخفية، أي أنه نموذج مثالي لتصديقي. وقد وافق فوراً ونقدني حين زرته عشرين ألف دولار!

قهقه ناجي وهو يبتلع جرعة من ماء النار الراقي المستورد من إسكوتلندا وأضافت وفاء: ذات أمسية خاصة بتحضير الأرواح سقيته بناءً على إرشادات سليم شاياً مسوداً ذوبت فيه مخدراً وقلت له إن ذلك سيتيح له مشاهدة عفريت الكنز الحارس والتحاور معه في الحلم وسؤاله عن موضعه. وحين نام، أدخلت أحد موظفي سليم فحفر في أرض القبو الترابي وطمر هناك بعض المجوهرات الاصطناعية. الغريب أن فريد شاهد في حلمه حارس الكنز ـ كما روى لي ـ لكنه لم يفهم اللغة التي خاطبه بها!! قلت له إنني سأعيد الكرة وسأستجوب عفريت الكنز، وفي جلسة أخرى تصاعدت فيها أبخرة الحشيش الممتزج بالبخور ودسسنا له شمة كوكايين مناسبة دخل الرجل في الهلوسة على ضوء عتمة الشموع السود والحمر. وهكذا تسلل أحد موظفي سليم، الموظف ذاته الذي سبق له أن حفر ودفن «الكنز».

فتحتُ له الباب خلسة وهو يرتدي مئزراً أبيض، فتوهّمه فريد روحاً آتية من الماوراء ـ طالما انتظرها ـ ليسألها عن موضع كنزه. همست الروح في أذنه بأن يحفر في القبو، لاستخراج كنز لم ير الإنس ما هو في مثل جمال ماسه وندرة لؤلؤه محددة له المكان بدقة تحت الصندوق العتيق حيث سبق لنا أن دفنا المجوهرات الاصطناعية.

ولم يُخف فريد عليّ بما همست به الروح له، وظل يحفر في القبو ليلة بعد أخرى في المكان المحدد حتى عثر على «الكنز» الموهوم، فطاش صوابه فرحاً وصدَّق الأمر وصار مستعداً لدفع أي مبلغ وتصديق أية كذبة، تماماً كما خطط سليم للأمر ونفذتُ أنا، وسليم بالمناسبة عبقري في تدبير هذه القضايا، إذ لم يخطر ببالي مثله توظيف ما روته لي خادمتي الجديدة عن سيدها السابق المهووس بفكرة الكنز إلا على سبيل التندر، بينما لمعت في رأس سليم فكرة استغلال ذلك للربح. وكل شيء تمّ بإرشاداته.

حين وجد فريد «الكنز» قلت له كـ «عرافة» أن المجوهرات التي وجدها ليست الكنز الأصلي بل مجرد جزء تافه منه أودعته العفاريت لتجربة ولائه وعليه بالتالي ألاّ يُطلع أحداً عليه وأن لا يحاول بيعه كي تثق «القوى» الماورائية به، وكنت خائفة طبعاً

من أن يكتشف أنها مزيفة إذا حاول بيعها. وقلت له إن الثروة الكبيرة الحقيقية ما تزال بانتظاره. وأدهشني أنه صدقني من جديد، ونقدني دونما تردد سبعين ألف دولار «كاش» بعدما أكدت له أن الأرواح تكره الشيكات. وهذا المبلغ كان من المفترض إنفاقه لإحضار الشيخ صابح من الصحراء، الأشهر في كشف الكنوز الدفينة والأمهر في التواصل مع ملوك الجان كما زعمتُ له، وقلت أيضاً إنه لا مفر من شراء بذر خردل. جرجير. مرارة ذئب. صوفة سوداء. عفص. نجل منزوع الرغوة. زعفران شعر. عقدة ريح. كمون أبيض. لبان ذكر ـ مر ـ شيح. لدنسج. خرنفش. دربل. سنقر. قرض صعيدي. عرق انطراب. نشارة ركب. ورق البرنوف الأخضر. . سفوف الأصول. عين جمل. نترون سوداني. مدغة. غندزوت. زعفران. زنجبار. زنجفر. زرنيخ أخضر وسواها. . وكان فريد ينصت بإعجاب واحترام. . وهكذا عدتُ إلى سليم بسبعين ألف دولار «كاش» لم أصدق عيني حين حصلت على حصتي منها ومما تقدم: الثلث! وبعدها أهملت فريد وبدلت رقمي الهاتفي النقال ولم يخطر ببالي أنه ذات مرة كان قد تبعني من بيته إلى مكتب سليم وأنا التي كنت أتوهم أنه يكفي أن لا أتصل به ليخرج من حياتي وكنت مخطئة. وهكذا لم يعد يدعنا وشأننا بالرغم من ثرائه الواسع فهو يريد أن نعيد إليه المبلغ وكاد يطلق النار على سليم لولا تدخلك في الوقت المناسب في زيارتك الأولى إلى مكتب سليم، وانتزاعك للمسدس منه. . فما أبخل الناس!! (وقهقهت)

لم يشاركها ناجي الضحك هذه المرة بل سألها: ألا تخافين من تقدّمه بشكوى إلى الشرطة؟

ـ بالتأكيد لا، فليس لديه أي دليل على أنني تقاضيت منه مالاً، ولذا حرصت على أن يكون ما ينقدني إياه «كاش». سنقول للشرطة إنه مجرد عجوز أصيب بالخرف، وضاع صوابه في غمرة بحثه عن كنز موهوم. وستشهد الخادمة على ذلك!

قال ناجي: لقد بدا لي المسكين فريد عجوزاً رقيق الحال. .

ـ إنه ثري جداً لكنه بخيل، لا يسخو على نفسه بل على علماء السحر والفلك والمنجمات وضاربي المندل إلى آخر تلك التسميات. وأنا أسعدته وبعته أوهامه المفضلة. أنت وأنا وسليم لسنا من المحتالين، بل نحن من كبار التجار، إذ ثمة أشخاص يحبون شراء بضاعة الوهم ونحن نبيعهم إياها. هذا كل ما في الأمر.

جرعة بعد أخرى من ماء النار تبدلت لهجة وفاء ورقّت ملامحها وخفت صوتها وارتعش وهمست: لقد أدمنتك يا ناجي بسرعة. . منذ المرة الأولى.

قرر ناجي لحظتها أن يطرح السؤال الذي يعذبه: هل أعدّ لي سليم جواز السفر المزور؟ في الأسبوع المقبل سأنجز مهمتي، سأقبض «رعبون» بيع بيت المغترب رامي بك مبلغ ٢٠٠ ألف دولار كما قدرت أو نصف هذا المبلغ إذا ساومني وسأنجز مقابلاتي مع طالبي التأشيرة إلى يوتوليا والتأشيرة بألفي دولار وأجمع ثمنها ونتقاسم المبالغ وأطير عائداً إلى باريس.

أخرجت وفاء من حقيبة يدها جواز سفر مزوراً باسم غير اسم ناجي، لكنه يحمل صورته قبل عام، كان قد زودها بها بناءً على تعليمات سليم، ويبدو فيها قبل أن يطيل لحيته، ولا يظهر في تلك الصورة، بالأسود والأبيض، لون شعره المائل للحمرة. بدا في الصورة شخصاً آخر وسرَّه ذلك! قالت وفاء وهي تستعيد جواز السفر من يده: أنا آسفة لكنني لا أستطيع أن أعطيك إياه إلا بعد أن نقتسم المال الذي ستجمعه.

ضايقه ذلك كثيراً ولم يقل شيئاً.. **إنهما لا يثقان بي، ولكن لماذا يثق محتال بآخر؟ ومن أين جاءتني تلك الفكرة الغبية بضرورة التعامل (النظيف) معهما؟ ولماذا لا أستحوذ على كل ما سأربحه من مال، وأهرب به؟ لأن جواز السفر معهما، ولن أجرؤ على السفر بجواز سفري الذي يحمل اسمي الحقيقي!**

لقد احتاطا للأمر، فهما يعرفان بفضل الخبرة أن المرء لا يستطيع أن يكون قذراً مع البعض ونظيفاً مع البعض الآخر. فالوحل وحدة لا تتجزأ وحين يتسخ المرء فإنه يلطخ كل ما يمسه.

شعرت وفاء بضيقه وكانت قد بدأت تتعلق بجسده القروي الصلد وقامته الفارعة ولحيته التي تسيل رجولة كلما خدشت بشرتها، وقالت له وصوتها يرتعش كأنها تستذكر الليلة السابقة المجنونة معه: لماذا تريد الرحيل ولا تبقى معنا شريكاً دائماً؟

ـ ما الذي سأفعله بعد إنجاز بيع بيت المغترب رامي بك والتأشيرات وينتهي عملي بوصفي القنصل «ذي اللحية الحمراء» لدولة يوتوليا؟

ضحكتْ وقالت: أعمال سليم واسعة «المجالات» جداً. وخياله شاسع.. لقد كنا نعيد تصنيع بعض البضائع العالمية كمساحيق الغسيل والشمبوا ونبيعها بضعف سعر الأصلي منها.. كما نعيد تصنيع الويسكي وسواه من ماء النار ونقوم بملء زجاجات أصلية منها يجمعها أحد الموظفين. وقد ربحنا من ذلك ثروة طائلة، (قال ناجي لنفسه: ولكنك تنفقين كل ما تربحينه على القمار كما اكتشفت الليلة). ظل صامتاً وأضافت: وحتى حين انكشف أمر الغش في ماء النار تم اتهام الموظف

الذي كان يجمع الزجاجات الفارغة، ثم أفرج عنه لعدم كفاية الدليل!

قال لها بهدوء ضاحكاً وجاداً في آن: وما هو دوري معكم؟ دور كبش الفداء؟

ردت بشهوانية أشعلت عينيها: إذا قررت البقاء معنا ستصير واحداً منا. لم أكذب حين أكدت لك أنني أكاد أدمنك منذ المرة الأولى!

أجاب ناجي بلهجة مازحة جادة يتقنها: وقتها سيقدمنا سليم معاً ككبشي فداء! . . اثنان بسعر واحد كما تقول الإعلانات.

تجاهلت الإشارة إلى سليم. لاحظ أنها حذرة جداً في كل كلمة تقولها عن سليم، كأنها تخشاه (ريموت كونترول) في غيابه كما في حضوره، وأنه مهما أغواها وأمتعها لن يقدر على إقناعها بتسليمه جواز سفره، وليس أمامه إلا سرقته!

أضافت هي مستعرضة «عظمة» سليم الاحتيالية: ثمة فترة حققنا فيها ربحاً كبيراً من بيع إسوارة ادعينا أنها لفايزة أحمد وزوّرنا عليها نقشاً لكلمة حب موجهة إليها بالاسم، ولم تكن حقاً هدية من زوجها الأول كما ادعينا حين بعناها، كما قمنا ببيع منديل حريري على أنه للسيدة أم كلثوم نقلناه عن صورة لها وهي تعصر منديلاً في حفلتها البيروتية من زمان، كما تاجرنا بقميصين تعرّق فيهما عبد الحليم حافظ - كما ادعينا - ونسيهما في فندق «ستراند» في بيروت حيث حلّ في إحدى زياراته إلى لبنان، وبعنا جورباً قلنا إنه كان لبليغ حمدي في الزيارة نفسها. لا تستطيع أن تصدق المبالغ الكبيرة التي يدفعها بعض الأثرياء وحتى متوسطي الحال للحصول على «تذكارات» من الذين أحبوا فنهم فصاروا جزءاً من ذكرياتهم أو جسّدوا أحلامهم.

قال ناجي بصورة ميكانيكية: غير معقول. غير معقول! وكان يفكر بطريقة يسرق فيها جواز سفره منها حين يحين وقت رحيله، أي حين يقوم بتحصيل «عربون» بيع بيت المغترب، إلى جانب ثمن أكبر عدد ممكن من التأشيرات إلى يوتوليا.

أضافت ثملة مباهية: ملأت الكلاب الشاردة شوارع بيروت ذات فترة وكادت تعض سليم وهو يغادر سيارته، فماذا فعل؟ لقد صار يبعث برجاله سراً لإطعامها وتنشيط تكاثرها، وباع في الوقت ذاته أجهزة «شاسشيان» أي «طارد الكلاب» ولم تكن فعالة طبعاً إذ قلدناها وحين اشتكى البعض من لامبالاة الكلاب بالموجات الصوتية التي يفترض أن يصدرها جهاز الـ «شاسشيان» فتؤلم الكلاب وتدفعها للهرب، ولا تسمعها الأذن البشرية، قال سليم لهم إنه ليس مسؤولاً عن البطاريات المغشوشة التي يشتريها الناس من الحوانيت والخلل منها لا من جهاز الـ «شاسشيان» إياه.

أمرت وفاء النادل بإحضار المزيد من ماء النار وقال ناجي لنفسه إنها سكّيرة تثرثر لكنها لا تضيع صوابها بما يكفي لتعطيه جواز سفره في لحظة ضعف. **إنها مصفحة بخوفها من سليم وإعجابها به.** تابعت مقهقهة ولكن نصف هامسة: المياه المعدنية الجديدة التي نبيعها نقوم بملئها من ماء صنبور المطبخ (حين لا تكون المياه مقطوعة!!) ولحسن حظنا فإن الناس مشغولة بتحصيل رزقها (مثلنا!) وما من متفرغ لكشف الغش. وسبق لنا أن بعنا أملاك مغتربين بوكالات وهمية بل وحلنا دون عودتهم بتخويفهم واختراع بعض المتاعب لهم.

قال ناجي: يبدو مجال العمل معكم واسعاً..

قالت: بوسعك أن تنجز صفقتيك الكبيرتين ثم تحلق لحيتك (بالرغم من أنها عزيزة على قلبي وبشرتي) وتصبغ شعرك بالأسود وتبدأ باسم جديد ولن يعرفك أحد حتى أمك.

شعر بطعنة مؤلمة في صدره لذكر اسم أمه في جلسة كهذه وسياق كهذا. وكأنما حدست وفاء اضطرابه المفاجىء لكنها أساءت تفسيره فتابعت في محاولة للمزيد من ترغيبه: لدى سليم «مصالح» في العديد من البارات ومراكز التدليك وقد يسليك اكتشافها وربما الإشراف عليها وحمايتها من الدهم بصلات تعقدها مع من يلزم..

قال لها متملقاً: بوجودك في حياتي لا حاجة بي إلى مراكز التدليك والبارات وهذه المناخات. أفضل أن أظل معاوناً لك.. وكان في الوقت ذاته يفكر بطريقة يهتدي بها إلى المكان الذي ستضع فيه جواز سفره ليسرقه فيما بعد.

وأضافت وناجي يرى نابيها يزدادان طولاً مع كل كلمة ويسيل الدم منهما: مرة بعنا بطاقات إلى حفل ليلة رأس السنة الذي يفترض أننا كنا سنقيمه في مكان أثري كبير.. الشابة الجميلة التي دارت على رجال الأعمال الأثرياء في مكاتبهم وباعتهم إياها كانت أمينة معنا، وتقاسمت معنا «الغلة» وبدلت لون شعرها وسافرت للعمل في دبي في أمور مشابهة! العمل مع سليم مربح، فأفكاره لا تنضب.

شاهد ناجي الدم يقطر من نابيها، أم تراها حمرة الشفاه تلطخ أسنانها أم تراها أوهامي؟ جاء النادل يحمل الطبق الثاني من الطعام ولا يبدو أنه لاحظ نابيها إذ لم يصرخ مذعوراً هارباً كما توقع ناجي أن يفعل حين يراها ويراه. كان واثقاً من أن نابيه صارا كنابيها وهو يراهما هكذا كل يوم في المرآة ويخاف من نفسه ومن تحوله المستمر إلى مصاص دماء بالمعنى الحرفي للكلمة.

إنني أتحول بالتأكيد إلى مصاص دماء مثلها وسليم. تذكّر ناجي حادثة تركت

أبلغ الأثر في نفسه إذ كان جالساً ووفاء في «مقهى دبيبو» يدخنان النارجيلة حين اقترب منهما طفل المائدة المجاورة. وما كاد ينظر إليهما حتى انفجر باكياً مذعوراً ووفاء وناجي يبتسمان له، وعاد هارباً للاحتماء بوالده وهو يشير إليهما بهلع.

لاحظتُ ـ منذ بدايات عملي مع سليم ـ أن الأطفال يبكون ذعراً حين يشاهدونني، أما الكلاب فتخشاني وتهرب مني أو تركع لي وهي ترتجف كأنني وحش كاسر مرهوب. الطيور التي كانت في أيامي الأولى في بيروت تقف على نافذتي وأطعمها صارت تهرب مذعورة من شرفتي، وقطة الجارة في المبنى صارت تموء رعباً وتهرب وتختبىء خلف صاحبتها وتبخّ باتجاهي كما لو كنت ثعباناً إذا تصادف أن جمعنا المصعد.

شعر برغبة في مصارحة وفاء بذلك كله كطفل مذعور لكنه قرر أنه ثمل وعليه أن يتماسك ويصمت.

تابع ناجي الإنصات بتهذيب إلى وفاء دون أن يسمع ما تقوله وهو يستعيد بحزن شكله في المرآة بنابين طويلين لعلهما لامرئيان، لكن الأطفال وبعض زانيات الليل والحيوانات وبنات الشوارع الخائفات قرب ساعة الذئب الفجرية يرونهما بوضوح فيما يبدو، ولذا يهربون مذعورين. يغيب ناجي ويحضر، محاطاً بأطفال يبكون ذعراً في ساحات القرى لمجرد مروره، وكلاب تهرب منه أو تركع له وقطط تبخّ في وجهه بأسنان دقيقة منشارية أو مرايا تعكسه بنابين نازفين. استأذن وفاء وذهب إلى دورة المياه وحين نظر في مرآتها لم ير صورته فيها. . كأنه تحوّل إلى مصاص دماء شبح بلا جسد لا تعكس المرايا صورته، أو كأنه غادر عالم الأحياء الأصحاء إلى أصقاع الملعونين واخترق سطح المرآة إلى داخلها بفعل «رصد» ما وفقد صورته على صفحتها الفضية. **ما الذي يتتابني؟ أختفي تماماً في المرايا، أو تنعكس لي صورة مصاص دماء بنابين مرعبين يقطران دماً.**

حين عاد صارت وفاء تباهي بأنها وسليم لم يتاجرا بالأعضاء البشرية على الرغم من كثرة طالبي الكلى ووفرة الأطفال الشاردين في الشوارع وإغراء الثروة التي يمكن أن يجنيها المرء من وراء ذلك. وقالت له إن بيروت مرشحة في مناخها الحالي لأن تكون السوق «الأعظم» لبيع الأعضاء الجاهزة للزرع من قرنيات وقلوب وكلى كما هي الحال في «بوينس آيرس». وخجل من جهله ولم يسألها أين تقع «بوينس آيرس» هذه. بدت متلذذة بثرثرتها وبحكاياها، وروت لناجي قصة الإفلاس الاحتيالي عبر عقود وهمية لمغامر يدعى وليد السلهام كاد يصير شريكاً لسليم لو لم ينصحه محاميه بتجنبه قائلاً إنه مشروع لفضيحة ومحاكمة. . وروت له حكاية ذلك

المغامر وليد الذي أسس «الشركة العامة للإنمائيات» وهو اسم مطاط ونجح في إغراء عشرات الطامحين إلى الثروة بالاستثمار في مشاريعه السينمائية الهندسية الإلكترونية التجارية الغذائية الاستهلاكية إلى آخره.. وتبين أنه كان يستدين ويحتال على الناس وينفق الكثير كما يقوم بإيداع مبالغ كبيرة في حسابه الشخصي في سويسرا. وحين انفجرت فضائح وتفليسات استطاع سليم النجاة من ذلك الفخ. وأكدت أن المسؤول عن ذلك كله مقولة: «معك قرش بتسوى قرش». وليس مهماً من أين تستحوذ على القرش!!

وكلما حاولت وفاء ترغيبه بحكاياها لتقنعه بالبقاء في بيروت للعمل مع سليم ومعها ازداد ناجي نفوراً. وحين قالت له إن سليم سيدعو إلى مؤتمر صحافي لتأسيس «جمعية عليا لمكافحة الغش» شعر بالغثيان رغم كل ما اقترفه وسيقترفه، وفرح حين رفعت الجلسة وانتهى العشاء. وحين عادا إلى بيروت دعته وفاء للراحة ولشرب قهوة ما قبل النوم(!) في بيتها وقبل الدعوة لمتابعة ما سينتهي إليه جواز سفره وأين ستخبئه، وشاهدها تترنح ثملة وتعلق كعادتها مفاتيحها قرب باب البيت في المدخل وتضع جواز سفره في «الجارور» الأعلى الأيمن من طاولة مكتبها في بيتها الأنيق في حي بحري جميل. تمنى أن ترسله ذات يوم لشراء شيء ما، ليحمل معه مفاتيحها خلسة ويحصل على نسخة عن مفتاح باب بيتها ويتسلل فيما بعد لسرقة جواز سفره، لكنها كانت دائماً حذرة كسنجاب رغم سكرها.

حين قضت وطرها منه رافقته إلى الباب وأقفلته خلفه بالمفتاح الذي تمنى الحصول على نسخة منه!

عاد إلى شقته المفروشة الفخمة على شاطىء البحر. وقف أمام المرآة وأذهله أن الدم يسيل من نابيه.. حين حدّق جيداً اختفى الدم وبقي النابان!

بدأ الأمر بأن كنت مذعوراً من عالم وحش ويكاد ينتهي بي بأن أصير وحشاً.. كأننا نصير ما نخافه حرصاً على البقاء!

ما لم يتذكره ناجي هو أنه كان ثملاً مثل وفاء وأنه باح لها في لحظة ضعف في سريرها بمخاوفه من تحوّله إلى مصاص دماء.. مثلها!

* * *

بعد زيارة ممتعة، ودّع فواز وسميرة ودانا ماريا، ووقفوا أمام بابها بانتظار المصعد الذي وصل أخيراً. انفتح بابه. خرج منه قريب فواز الفنان سعيد. دهش فواز حين شاهده يهرع إلى ماريا ويضمها إليه بحرارة الأصدقاء القدامى ويقبّلها على خديها مرات، وقبل أن يسأل فواز قريبه سعيد عما يفعله هنا سارع سعيد إلى سؤاله:

ما الذي تفعله أنت عند ماريا مع هاتين الشابتين الجميلتين جداً؟
ـ وأنت ما الذي تفعله هنا؟

رد سعيد: ماريا صديقتي الرائعة منذ بداياتي كرسام وبداياتها ككاتبة ونحن من جيل واحد. . أما أنت يا ابن العم الصغير فما الذي تفعله عند الست ماريا؟ قبل أن يجيب متلعثماً معترفاً بأنه هنا لأنه وقع في غرام سميرة منذ النظرة الأولى وسميرة تكتب أطروحتها عن ماريا ومعجبة بها وعليه بالتالي أن يكون معجباً وهكذا كان عليه أن يطالع أربعين كتاباً في أربعين ساعة خوفاً من أن تمتحنه سميرة. أما دانا فصديقته التي لا تقرأ العربية لكنها رتبت اللقاء إكراماً لفواز الذي خجل من الاتصال بـ «التانت ماريا» خوفاً من صفعه بالرفض فسبقته ماريا إلى الكلام قائلة إنه لم يخطر ببالها أن تربط بين الاسمين، فواز وسعيد المنتميين لأسرة واحدة، فالأسماء لا تعني لها شيئاً بل الأفعال مضيفة أنها لم تجد يوماً شبهاً بين فواز رجل الأعمال الشاب «الصاعد» وسعيد الفنان «الهابط» كما أضافت مداعبة! ضحكوا وقال سعيد: اصطحب الشابتين الجميلتين وتعال لزيارتي. .

وأضاف ضاحكاً: أين اختفيت يا فواز؟ كنت تزورني كل يوم تقريباً منذ وصولك ولو لخمس دقائق لتتأمل لوحاتي ومنحوتاتي، فأين اختفيت في الأيام الأخيرة؟

بصورة عفوية انتقلت نظرات فواز إلى وجه سميرة والتقط سعيد بسرعة الشرارة التي ومضت في العينين فأضاف: أنتظركم جميعاً هذا المساء على العشاء عندي على شرفتي البحرية.

اعتذرت دانا بداعي عشاء عمل مع رامز المندال لا يمكن تأجيله لحساب شركة الكومبيوتر التي تمثلها ولم تلحظ دانا أن اسم رامز المندال سقط مثل دجاجة ميتة على رؤوس ماريا وسعيد وسميرة. لم يقل أحد شيئاً أما فواز فقال لسعيد: سآتي في الثامنة، وعسى أن ترضى الأديبة سميرة بمرافقتي، وتأتي الست ماريا.
كنتُ أناديها من قبل بـ «التانت ماريا» أما اليوم فقد شاهدتها بعين سميرة امرأة أخرى.

قال سعيد وهو يحدِّق في سميرة بإعجاب: لقد عرفتها من صورها في الصحف. . ولكن من هي صاحبة العينين الفاتكتين الصالحتين للرسم؟ ضحكت دانا وقال فواز والمصعد ينغلق بابه عليهم ويغيّبهم: إنها حسناء ستغادر بيروت عائدة إلى باريس بعد أيام، فلا تحلم برسمها ولا بغير رسمها!! وكاد يضيف: فأنت في سن والدها ثم أحجم إذ خشي أن لا يتذوق سعيد النكتة!

أمام المبنى الذي تقيم فيه ماريا كانت سيارة دانا وسائقها في انتظارها. أما سميرة فبدت له ثملة بذلك اللقاء مع ماريا كما أن دانا انفردت بماريا في المطبخ وهما تعدان القهوة وثرثرتا طويلاً بصوت مرتفع، إذ سمع حين ذهب إلى حمام الضيوف القريب حواراً بينهما حول سليمى والدة دانا ووليد الموالدجي، وبدت له دانا فيما بعد أقل اضطراباً ولم يفهم ما يدور ولم يستفسر من دانا فكواكبه كلها لم تعد تدور إلا حول شمسه: سميرة!

سعادة سميرة بلقاء ماريا انعكست على روح فواز كضوء وردي برعمي وقرر دعوة الشابتين إلى الغداء، وفرح حين وافقت سميرة واعتذرت دانا لارتباطها بموعد على الغداء مع الدكتور نبيل، ووفرت عليه سماع تعليقاتها «الخبيثة» عادة حول غرامه المفاجىء بسميرة إذ إن يومها مزدحم كما قالت وستتناول العشاء مع رامز المندال، فقد يرضى بالدخول شريكاً محلياً في الشركة التي تمثلها لبيع «الكومبيوترات».

قاطعتها سميرة بلهجة استنكارية لم تلحظها دانا: هل قلت رامز المندال؟

قالت دانا: أجل. وعليّ الآن أن أسارع إلى موعدي للغداء مع الدكتور نبيل.

سألها فواز مداعباً: أين؟ في فندق البريستول؟

أجابته جادة: لا. بل في كافيتيريا مستشفى الجامعة الأميركية.

بخبث قال لها: لا بد وأن تكوني مغرمة بالدكتور نبيل لترضي بالغداء في مكان كهذا وأنت زبونة مطاعم «الجران ڤوفور» وال «تور دارجان» و«لوكّا كارتون» وبقية المطاعم الراقية الباريسية.

تنهدت وقالت: لا أدري. لم أعد أدري شيئاً. لقد ضيعتني بيروت واكتشفت أنني لم أعد أعرف ذاتي ولا سواي ولا حتى أمي! تلك المدينة تعرّي المرء مثل «أشعة إكس»، وتبرز الهيكل العظمي لروح المرء وخباياها. هتفت سميرة شبه منتصرة: ها أنت تتحدثين مثل ماريا. تلك الكاتبة تصيب المرء بالعدوى، لا محالة!

ودعتهما دانا ومضت صوب سيارتها. ركب فواز إلى جانب سميرة ولم يقل شيئاً وسميرة تتحدث بإعجاب عن ماريا. كان يجد ماريا سيدة لطيفة هادئة كأمّه، لكنه شاهد اليوم وجهاً آخر لها حين تحدثت مع سميرة وكلاهما على الموجة الروحية ذاتها، **شاهدتها تشع وهي تتحدث بحب عن لبنان حين سألتها سميرة من أجل أطروحتها عن «كلمة السر» في أعمالها، إذا كان عليها أن تحدد كلمة واحدة أو مفتاحاً يفتح أسرار كتبها. أجابت ماريا دونما تردد: الحرية الحرية كلمة السر**

عندي، وبهذا المعنى أدعو إلى لبننة العالم العربي. أنا طبعاً مع عروبة لبنان شرط لبننة بقية العرب أولاً فيما يخص قضايا الحرية والديمقراطية. أنا ليبرالية لا تجتذبها اللعبة السياسية، بل الجوهر ولا نجاة لنا كعرب إلا باحترام قيم الحرية والتعايش بين الأديان والديمقراطية، أي باللبننة!

أيقظه صوت سميرة وهي ترمي بالهاتف النقال من يدها وتقول: لقد فشلت في الاتصال برولا للاعتذار منها فقد تواعدت معها على تناول شطيرتين للغداء في مقهى «المودكا». ولكن هاتفها النقال مغلق أو معطل. لا بد لي من المرور بها للاعتذار. هل يضايقك ذلك؟

أجاب بهدوء: بالتأكيد لا. **ما دمت معها فلتذهب بي إلى أي مكان وأي كوكب. إنني أتوق للانفراد بها ولكن الانتظار يشعلني.** تعذر على سميرة إيقاف سيارتها أمام باب مقهى المودكا للدخول برهة والاعتذار من رولا، ورفض شرطي السير السماح لها بذلك رغم «رفرفة» هدبيها، فاضطرت للذهاب إلى موقف للسيارات بعيد نسبياً. وبدلاً من الانتظار في السيارة رافقها فواز إلى «المودكا».

رحّبت به صديقتها رولا وعرف فيها فواز الشابة ذاتها التي كانت ترافقها يوم شاهدها للمرة الأولى في مقهى «سيتي كافيه». أما الصديقة الثانية على المائدة التي قبّلتها سميرة بحرارة وحسدها فلم يرها من قبل وهي محجبة تغطي شعرها وعنقها ونصف جبينها بوشاح أسود وقد غطت ما تبقى من وجهها بماكياج سميك كالقناع وأحاطت عينيها بكحل مسرحي ورسمت شفتيها بقلم بني ولوّنتهما بالوردي البراق. أما رولا فقد ابتسمت له بود بشفتين بالغتي الاكتناز كشفاه الزنجيات الجميلات رغم بياض بشرتها وزرقة عينيها. تذكر أن عينيها كانتا بنّيتين حين شاهدها للمرة الأولى، وشعرها طويل وفاحم السواد. لكنها كانت ذلك اليوم شقراء بشعر قصير. حين غادرا «المودكا» بعد اعتذار سميرة من رولا سألها فواز: لستُ معنياً برولا لكنني لا أريد أن تخذلني ذاكرتي. هل كانت يوم شاهدتها للمرة الأولى في مقهى «سيتي كافيه» بشعر أسود طويل وبعينين بنّيتين؟

ضحكت سميرة وقالت وسيارة تزاحمها من جهة اليسار دونما وجه حق: عليك أن تألف تحولات صديقاتي. رولا بشعر مختلف كل أسبوع فهي تحب الشعر المستعار ناهيك عن تبديلها للون شعرها. ثم إنها تبدل لون عينيها مرتين في الأسبوع بالعدسات اللاصقة. نحن في بيروت نحب التبديل. من طرفي أبدل كثيراً ألواني النفسية الداخلية ولا أبدل مظهري الخارجي! حين قام طبيب التجميل بزرع شفتين زنجيتين شهيتين لرولا اكتفيت بإبداء الإعجاب بها لكنني لن أفعل شيئاً كهذا

رغم انتشاره.

تأمل جمالها الخالي من المساحيق كما خُيِّل إليه وهي مشغولة بقيادة سيارتها العجيبة الغريبة، سيارة «رانج روفر» أو «جيب» من تلك التي لا تمكن مشاهدتها في شوارع باريس بل في الجبال والريف والغابات، وقد أدهشه أن الناس يشترونها ويتسلقونها في بيروت ويرتفعون بها فوق مستوى السيارات الأخرى. قال لسميرة بصدق: كنت أتخيل سيارتك شبيهة بك. غير استعراضية ومتكتمة، وهذه سيارة غابة لا مدينة، وتبدو هنا مضحكة و. .

ضحكت سميرة واعترفت لفواز: أنت محق في هذه الملاحظة، سيارتي لا تشبهني لكنها تصلح للغابة وبيروت غابة في معظم وجوهها وبصورة خاصة في أخلاقيات قيادة السيارات. وكل ما أفعله هو أنني أدافع عن نفسي وعن هشاشتي البشرية الجسمانية بسيارة متينة كالحصن. . قيادة السيارة في بيروت حرب شوارع والسيارات أسلحة تباع دونما رخصة!

فوجىء بأن سميرة أوقفت سيارتها لصق رصيف البحر في كورنيش المنارة. هبطت منها ولحق بها. مشت في المسافة بين الرصيف والبحر. لم ير مطعماً بل أرضاً مرشوشة بالحصى فوق ترابها. قال لها مداعباً: هل سنصطاد الآن سمكة للغداء؟ وأين المطعم؟ وضعت أصبعاً واحداً من أصابعها على شفتيه ليصمت وما كادت تمسه بطرف أصبعها حتى اشتعل الهواء. ارتعش. صمت. تبعها. هبطت في سلم بدائي إلى مكان نصف سري لصق البحر لا يمكن رؤيته من الشارع لأنه على مستوى مياه البحر. المقهى مصطبة إسمنتية كانت ستبدو له أقل جاذبية لولا حضور سميرة. الكرسي القشي حيث جلس يستند إلى الصخور والبحر لصق قدميه وتكفي موجة واحدة عالية لتغطيه بالماء. البحر، الجميل الهادىء. الشمس الصيفية بلغة باريس الشتائية وحتى بلغة بيروت تغسل خضرة عيني سميرة وغابات الأرز والصنوبر فيهما وأهدابها الطويلة كواحة وعنقها «البجعي» وشعرها الطويل حتى الجنون.

يا لعينيها! نشرتهما مثل مظلتين من الحنان فوقي. . تدفّقي نحوها يُحوّلني إلى حضور مائي بدلاً من حضور مدروس صخري. لقد حاضرتُ دائماً في رفاق الجامعة في الـ H.E.C معقل العقلانية بصفتي الخبير في فنون الغواية والحب ورفضت مقولة «السقوط في الحب» مدافعاً عن فكرة «الوقوف في الحب»، مطالباً باستبدالها نهائياً بعبارة «الوقوف في الحب». وها أنا أدرك دونما غضاضة أنني «وقعت» في حبها وانتهى الأمر ولا نجاة لي لأنني لا أريد النجاة ولا أريد سواها! لكل شيء في ظل عينيها وقع آخر، حتى البحر له صوت مختلف عنه في بحار أخرى، كصوت البحر

في دوفيل الفرنسية في زيارتي الأخيرة لها.

قالت سميرة وهي ما تزال تستعيد بنشوة تفاصيل زيارتها إلى ماريا لحظة بلحظة شبه ساهية عنه مما أثار غيرته الطفولية: أحب قول نيتشه حول ما نفعله بسبب الحب لاعتبارات تتجاوز الخير والشر.. أعجبني أن تردده ماريا.

هذه المرة ارتاح فواز لقولها إذ كان قد بدأ يشعر بالذنب نحو أمه القلقة من إطالته لرحلته دونما مبرر منطقي **ولكن ما المنطقي في بيروت؟! أشباح البيت العتيق؟ تلك الأمازونية الجميلة التي اجتاحت حياتي: سميرة؟ لوعتي على والدي وعدم تلبيتي لوصيته بدفنه في بيروت وندمي البالغ على ذلك ولأنني أحرقت جثته في مقبرة باريسية؟ لهفة الذين سألوني عنه، فأكتشف فيه رجلاً لم أعرفه ولم ألتق به، كأنه أخفى عظمته عني متفرغاً لخدمتي كي أنمو وأكبر متحرراً من ماضيه وخيباته وأمنياته؟**

استأذنت سميرة ونهضت عن كرسيها القشي لغسل يديها وإصلاح زينتها كما قالت. **أية زينة ولا أرى أية مساحيق على وجهها وغيبها «النايلون» الأزرق نصف الشفاف الذي استعاض به صاحب المقهى عن الجدران أو الشرفة الزجاجية برخص كنت سأنتقده لو لم تمر به سميرة ببهائها.**

فقط حين غابت سميرة صار بوسعه إلقاء نظرة متفرسة في المكان. كان قد شاهد مطاعم شاطىء الريفييرا الفرنسية في إجازاته المدرسية في مونتي كارلو وكان ونيس وسواها، بكل أناقتها حتى على شاطىء البحر، لكنه وجد هذا المطعم الأكثر جمالاً وسحراً ببساطته وفطريته، بل ويفوق جماله مطعم بيتزا «باوباد» المفضل لديه في جادة الأميرة غريس في موناكو، باستثناء أن مقعده في هذا المقهى ملاصق للماء بالمعنى الحرفي للكلمة. أما هناك فالمطعم/المقهى يقع على ما يشبه تلاً لصق البحر. إنني أخدع نفسي. في ظل عيني سميرة أراه الأجمل ولولاها لاخترعت له ألف علة!... بغياب سميرة عن المائدة صار بوسعه أيضاً أن يستعيد بدوره تلك الجلسة «الدامغة» مع ماريا: كم طارت سميرة سعادة لأن أستاذتها لم تخيب أملها ووجدتها كما كانت تحلم، شبيهة بجنون كتبها، دونما افتعال.

لقد بهرته ثقافة سميرة وهي تحاور ماريا. عشق رأسها وأدرك أن حبه لها ترسخ، **فهي ليست مجرد وردة متنكرة في امرأة، ولن يكون بوسعي استهلاكها في شمة واحدة.** حين عادت إلى المائدة، نهض من مقعده وجذب مقعدها إلى الأمام لمساعدتها على الجلوس.

ضحكت قائلة: يا لك من جنتلمان! أعتقد أن الصبايا الباريسيات مغرمات

بفروسيتك. هذا ما همست لي به دانا عند ماريا مؤكدة أنك «دونجوان» والصبايا يلقبنك في باريس باسم العاشق اللاتيني «اللاتن لافر»!

أسعده أن تذكّره سميرة بأن ثمة نساء سواها على وجه كوكبه وكاد ينسى، بل وبدت له دانييلا ومارلين وإيزابيل وحتى كوليت أشباحاً نائية كوهم من أضغاث أحلام. كلهن بترت سميرة أعناقهن بسيف حاجبيها.. **خوى العالم من النساء وكففت عن رسمهن عاريات في خيالي كلما شاهدتهن!.**

نظرت سميرة إلى السماء المشمسة إلا من غيمة هنا وأخرى هناك: انظر إلى غيمة الفنان «ماغريت». لقد نسي أن يوقعها! في هذا المقهى يرسم «مونيه» غروبه كل مساء بين السماء وخط الأفق حين يصحو الطقس كما اليوم.

جاء النادل وترك فواز لها أمر اختيار الطعام. تذكر بحنان كيف طلبت سميرة أن ترى غرفة مكتبة ماريا حيث يزورها كل ليلة «مفستوفليس» الوحي حين تكتب، وكم هزتهما تلك اللوحة التي تتصدر المكان وعليها بيت بديع من الشعر مسه في شغافه:

أدين بدين الحب أنى توجهتْ ركائبه فالحبُ ديني وإيماني

وخيل إليه لحظتها أن ماريا كانت تنظر إليه وسميرة بحنان بالغ وتداريهما كما لو كانا بطلين إغريقيين مرشحين لمأساة عاشقين من دينين مختلفين في زمن عدواني سراً وطائفي من خلف قناع أما علناً فالخطاب الرسمي «سمن وعسل».

للمرة الأولى يفكر فواز بماريا كمخلوقة حية مستقلة عن أمه، ويتساءل: تراها أحبت ذات يوم رجلاً من غير دينها وتعذبت لذلك؟ من يدري؟ من يستطيع أن يكشف جماجم الراقدين في مقابر الآخرين السرية داخل مغاور روحهم، وداخل ماريا السرية بالذات؟ من يدري أية جثة محنطة تخفي في خزانة قفصها العظمي؟

قالت سميرة: أظن أنني سأكف عن هدر وقتي والجلوس في المقاهي وأنصرف للعمل على إصدار كتابي الجديد. كم كانت ماريا على حق حين قالت: فكرة نصف جيدة على الورق أفضل من فكرة جيدة غير مكتوبة! دهش فواز من مشاعره، فقد سره أنها ستكف عن الجلوس في المقاهي! يا للهول. **هل بدأت أشعر بالغيرة وأرغب في احتكار جمالها الفاتك وقامتها النخلة وإبعادها عن العيون؟ ولماذا لا أعترف بأنني لا أبالي حقاً بما تكتبه هي أو ماريا وأنني في الوقت ذاته أشعر بالخجل من ذاتي على شعور «لاإنساني» كهذا أُلقُبه دونما خجل بالحب؟ ألم أكن أبشر من قبل بأن الحب هو نمو المحبوب وليس خنقه؟**

أضافت سميرة وهي لا تدري مدى لامبالاته بأدب ماريا وأدبها: أقنعتني ماريا بقولها إنها تحب أن تروى لها القصة قصة، ولا تميل إلى الركام اللغوي الجثي المتأنق برخامه والمزارات اللغوية الفاخرة التي تكومت فيها الهياكل العظمية للأبجدية.

تابعت سميرة: أحببت بصورة خاصة تأكيد ماريا أن هذا هو مزاجها الشخصي في الأدب، وأنها تعتقد أن إعراض البعض عن القراءة ظاهرة صحية، فالقطيعة بين القارىء وهذا النمط من الثرثرة اللغوية التجميلية (وليس الجمالية) والرغوة الاستعراضية شهادة للقارىء العربي.

لم يفترقا بعد الغداء بل شربا القهوة مُرَّة ولم يغادرا المطعم إلا و«مونيه» يرسم على الأفق تباشير غروبه. صار الوقت ينزلق كالرمل من جعبة مخملية وردية مثقوبة.

شعر فواز أنه عاد طفلاً يقفز في الفضاء بحبل من ضوء (لعبة نطّ الحبل) ويدور به حول جسده يحيط به نفسه وماريا وهما يرتفعان عن خط الأفق حتى قبة السماء.

بعد العشاء في بيت سعيد الفنان ابن عم والده الذي صارت تربطه به مودة خاصة، حيث ثملت سميرة بصحبة ماريا حتى كاد «يغار» منها، قالت له وهي توصله إلى بيت عمته بعدما أوصلا ماريا إلى بيتها: نسيت أن أقول لك. والدي يحب أن يراك!

شعر فواز بالنشوة والهلع في آن. لماذا يريد والد سميرة أن يراه؟ هل باحت بشيء؟ أضافت: هل تذكر حين اتصلت بي هاتفياً لإبلاغي بموعدنا مع ماريا، وسألك عن اسمك وقلته له؟ لقد انتابته حالة من الذهول والنشوة إذ يبدو أنه صديق حميم جداً لوالدك لكن رحيلكم إلى فرنسا سبَّب الانقطاع. والدي يدعى خليل الدرع. كاد يقول لك شيئاً عن هذا ويتأكد من أن لا تشابه أسماء بينك وابن صديقه فايز لكنه ارتبك.

صعق فواز: كيف لم يخطر بباله أن يسأل سميرة الدرع عن قرابتها وصديق كان والده يلهج بذكره هو خليل الدرع على قلة ما يذكره من ماضيه أو بالأحرى يرضى بتذكّره علناً؟

سألها بذهول: أنت ابنة خليل الدرع؟

قالت بهدوء: أجل، وماذا في ذلك؟

إذاً هي ابنة خليل الدرع المثال المحتذى من وجهة نظر والده، الصديق

الأمثل اللامنسي «الآدمي»، ولطالما روى له ولأمه عن الأحمق الجميل الذي عاهد نفسه على أن يقول الصدق في كل لحظة فكرهه الجميع وتخلت عنه حتى زوجته، والدة سميرة. ولطالما روى له عن ذكرياتهما في «الكشافة» والمدرسة والتظاهرات. لقد نجح أبي في إسدال ستار كثيف بينه وبين الماضي، لكنه ظل دائماً يتدفق نسياً حين يتعلق الأمر بالحديث عن المدرسة الابتدائية وخليل الدرع، وهجرة خليل إلى سويسرا ثم عودته بأولاده إلى الوطن في فترة الاجتياح الإسرائيلي بالذات كي لا يصيبه ما أصاب اللاجئين الفلسطينيين، وانتحار زوجته كفى والدة سميرة التي رفضت العودة معه إلى بيروت الموت المجاني وتجّار الثورات. لا إنّ ذلك لا يصدق.. لو كتبته ماريا في إحدى رواياتها لقالوا يا للرداءة والمبالغة في الصدف، لكن الأقدار أكثر رداءة حين تكتب رواياتها!.. وهو ما حدث لي منذ يومين إذ ذهبت إلى البنك، إلى الموظفة سهام التي امتدحوا لطفها وخدمتها للناس. لم أكن بحاجة إلى شيء غير تصريف بعض الشيكات السياحية (الترافلرز شيك) إلى دولارات، إذ لم أكن أتوقع تأجيل سفري وتمديد إقامتي في مملكة عيني سميرة دونما تأشيرة، أو فيزا، كأي صعلوك حدود!

يومها رفضتني سهام ورفضت «الترافلرزشيك» كما لو كانت مزورة بالرغم من أنني شهرتُ أوراقي الثبوتية كلها حسب الأصول وطردتني بتهذيب شديد ولذا استغرق ذلك ساعة من الزمن ماطلتني خلالها عسى أن أنصرف من تلقاء نفسي، وحين ذهبت إلى موعدي مع وائل واعتذرت عن التأخر لأن موظفة بنك قاسية شكت بي وعاملتني على الطريقة اللبنانية ولم أفهم لعدم ألفتي مع هذا الأسلوب وهدرت وقتي اسمها سهام، اتصل بها معاتباً سوء معاملتها لي واكتشفت أنها أخته!! كل ما يحدث في بيروت عجيب غريب بما في ذلك المصادفات التي يساهم صغر بيروت في إمكانية وقوعها. بعد السهرة الرائعة على شرفة سعيد الزجاجية، وزيارة طفنا خلالها بين إبداعاته حتى دهشت لفنان حقيقي في أسرتنا العملية المنصرفة للتجارة، وبعدما أوصلت سميرة ماريا إلى بيتها وقبل أن أهبط من السيارة أمام باب بيت عمتي دون أن أمس يدها أو أقبلها أو أسألها موعداً آخر سألتني: هل تريد التعارف مع جانب من ليلنا في بيروت؟ هل تريد التعارف مع شارع مونو أم مع نهر الفنون؟

قلت لها: مع الاثنين معاً.

كان كل ما يهمّني أن أظل معها دون أن أفرض نفسي عليها وأصير لزجاً.. ثم إنها كانت العاشرة فقط والليل في أوله..

وهكذا تنقلنا بين مرابع «سيركوس» و«راي» و«أوراغون» و«بلو فلفت»

و«بوكان» و«سيكلون» و«أتلانتيس» ومشارب «زينك» و«باسيفيكو» و«تياترو» ورقصة هنا وكأس هناك. . ثم اقتادتني إلى مشارف النصب التذكاري للجلاء كما فسرَت لي حيث «نهر الفنون». في ذلك المكان البديع الخرافي كان «نهر الكلب» قبل أن يجف كما شرحت لي أيضاً كأي سائح مغترب جائع إلى وطنه.

رقصنا، ضحكنا، طربنا، شربنا، قهقهنا، صرخنا ترحاباً بموسيقى ليست بالتأكيد «نشيد البهجة» لبيتهوفن، لكننا طرنا بها.

تكهربت غير مرة لمجرد لمس يدها وضمها إليّ بذريعة الرقص والتهب الفضاء بي عدة مرات كما أيام مراهقتي الأولى، ولم أحاول تقبيلها فمعها أقبّل كوكبنا كله ونشوتي كونية دون أن أمس شفتيها. وفوجئت بأنها هي التي احتكرت المبادرة وقبّلتني. ذهلت إذ لم يحدث لي ذلك في باريس، وحمدت لماريا ما حدث إذا كانت هذه تعاليمها. بالغليان تعمد دمي ولم يعد الماء المثلج يجري في عروقي في المقاصف والملاهي التي تنقلنا بينها.

لم أنظر إلى امرأة سواها وحين فعلت فوجئت بأن للنساء كلهن وجهها. لم يعد في الكون سواها، وفي كل ملهى ومطعم خلف الموائد كلها، النساء كلهن هي، لقد اقفر الكون إلا منها، وامتلأ بها وبسعادتي بها وفخري ببهاء حضورها وضيائها الذي يدير الرؤوس أينما ذهبنا.

وهي تودعني شعرتُ أنها تتوقع أن أقبلها لكنني لم أفعل. تذكرت ذلك الشاعر العربي المجنون الذي نسيت اسمه ولعله قيس ووعيت أنني معها أكتشف للمرة الأولى اختراعاً مذهلاً أظن أن اسمه «الحب العذري» ولست واثقاً لكن بالفرنسية اسمه «لامور بلاتونيك». حاولت عبثاً أن أتذكر تعبيراً عربياً عن ذلك وسألتها عن ذلك الشاعر المجنون وقهقهَتْ، وتحوّلتُ إلى رومانسي جديد عليَّ وكنت أريد أن أبكي لها الهجرات الزئبقية لأسرتي و«السفرات» الغامضة المترجرجة المرحلية، كنت أريد أن أضمها كذئب لطيف وأبشر بأن سر الحب في الإيقاع المتناغم روحاً وجسداً، لكنني في تلك اللحظة بالذات شعرت بأن السر في الروح ووعيت بأنني لم أعد شرقياً لكنني لم أصبح غربياً بعد كما كنت أزعم لنفسي.

وكدت أفتح فمي لأقول شيئاً مثل كلمة: أحبك. . . أحبك. . لكن سميرة الذكية المرهفة وضعت أصابعها على فمي وقالت: حان وقت فراقنا ولو لليلة واحدة طويلة كأبدية. دعنا نستمتع بهذا الشعور العذب الحزين. دعنا نترك مكاناً لفن *اللاقول. أجمل من الكلام ما لم نبح به*.

أمسكت بيدها ومن جديد اشتعل هواء المجرة، واشتعلتُ!

منذ اللحظة التي علّق فيها إسماعيل الجرذ في عنق من يظنه «فرخ ثعبان قهرستان»، وهو يصطاد الأسماك كعادته ويعيدها إلى البحر ثملاً بنشوة الانتقام، مدمدماً بأغاني طفولته في بلده، حريصاً على عدم قتل سمكة واحدة ولو خطأً. . إلا أن هواية قتل الجرذان في غرفته امتدت إلى الشارع حتى أنه صار يثبت صنارته بحجر حين يرى جرذاً على الشاطىء بين نفايات المتنزهين على كورنيش المنارة ويطارده ليقتله، وازداد الصيادون تندراً بجنونه غير المؤذي كما يصفونه. وازداد تفجعه على الأسماك التي تموت غرقاً في بيروت وتطفو على وجه الماء وتقذفها الأمواج على الشاطىء جثثاً بالمئات.

رمى بصنارته في البحر لامبالياً بالطقس المزمجر المهدد بالمطر، سعيداً بشمس الانتقام المشرقة في براري روحه. **أشعر برغبة جارفة في العودة إلى الوطن لمتابعة قتل الجرذان في بلدي. أجل. ربما كان عليَّ أن أعود لافتتاح فرع لقتل الجرذان كما يفعلون في لبنان. لا يمكن تركها هكذا تسرح وتمرح. لم يعد ذلك يُطاق. تلك السجون كلها، تلك القبور، ذلك الذل كله. سأبدأ بقتل الخوالقي الكبير الثعبان، أم أن مصرع ولده بذّله وجعله يذوق طعم خسارة الابن، وصار أكثر إنسانية مع أولاد الناس؟ سأعود إلى بلدي، وأقتله. نعم. لا.** شاهد إسماعيل جرذاً. تتشتت أفكاره قبل أن يقفز خلفه ليقتله ثم نسي لماذا قفز. جاءه صوت المخبر اللبناني يقول له: حضرتُ للاعتراف بإنفاقي لما «قبضته» منك من مال مقابل إرشادك إلى نجل الخوالقي ولمفاوضتك على طريقة إعادته بالتقسيط.

- ولماذا تعيد لي المال؟

- لأن الذي أرشدتك إليه على أنه الخوالقي الابن لتطلب منه إكرامية لم يكن ابن رئيس الوزراء بل مجرد منتحل ومحتال سرق أموال الناس وانتهى به الأمر جثة على الشاطىء. انظر إلى صورته في الجريدة.

أطلع المخبر إسماعيل على صورة القتيل فارتعش، إذ شاهده كما تركه بعدما قتله، وقد تدلى من عنقه جرذ تحت عنوان كبير: قاتل الجرذان يضرب من جديد. . . وفي العنوان الفرعي أن قاتل الجرذان قتل محتالاً انتحل صفة نجل شخصية كبيرة هي رئيس وزراء قهرستان، وقبض مبالغ مالية كبيرة وهذا سبب قتله

على الأرجح. بالضبط يرجّحون أنه السرقة إذ نفى مدير الفندق وجود أموال في غرفة القتيل ورجّح هربه بها!..

فشل إسماعيل في إخفاء اضطرابه وهو يتلقى النبأ الرهيب: **لقد قتلت رجلاً بريئاً، ولم أحقق انتقامي. حسناً، إنه ليس بريئاً. هو الذي انتحل صفة الآخر. يا لحظ الآخر!**

قال المخبر لنفسه وقد لاحظ اضطرابه: يا لرقة قلبه!

تماسك إسماعيل وتمالك نفسه، وقال للمخبر: احتفظ بالمال وأخبرني حين يحضر الخوالقي الحقيقي.

قال المخبر وقد تنهد الصعداء «والنزلاء»: أرحتني يا رجل، فقد أنفقتُ المال ثمناً لأدوية لوالدتي. أنت ابن حلال وتستحق «إكرامية» كبيرة من ابن الخوالقي الحقيقي! ولن يطأ هذه المدينة بقدمه إلا وتكون أول من يعلم وهذا عهد!

حين غادره، صار إسماعيل أبو أدهم يلعن حظه وقد استشاط غضباً ولكنه دمدم بصوت لم تسمعه حتى السمكة التي كان يطلق سراحها من صنارته تمهيداً لإعادتها إلى البحر: **دوماً يحدث الأمر على هذا النحو. المحتال الصغير يموت والمحتال الكبير يبقى وينجو.. لا. لن ينجو. إذا لم أقتل طاغية قهرستان بنفسي سيأتي محروق قلب آخر وينفذ حكم الإعدام به باسم الآباء مثلي المقهورين محروقي القلوب على أولادهم في زنزاناته.. لا.. لن ينجو.**

ثمة جرذ ستعلقه أصابع رجل ما في عنق ذلك الرجل، الذي «في عنقه» عشرات القتلى ظلماً وغيلة. وعسى أن تكون تلك الأصابع لي..

* * *

صعق عدنان حين طالع في الصحف نبأ مصرع صديقه الخوالقي وشاهد في الصورة الملتقطة لجثته جرذاً متدلياً من عنقه واكتشف أنه كان محتالاً صغيراً لا رجل أعمال كبيراً.

لكن ذهوله تضاعف حين مرّ ثانية بعد أسبوع للتعزية من جديد بعبد الكريم والتقى هناك ببرناديت التي حضرت من باريس. انفطر قلبه وهو يرى والد صديقه ما يزال ينتحب على مصيبتين حلّتا به وهو موظف البلدية الصغير «الآدمي»: مصرع ابنه، واكتشافه أن ذلك الابن كان محتالاً حتى أنه أتى إلى بيروت ولم يزره. ولكن الذهول عنده غلب الأسى وكان يكرر طوال الوقت وهو يعبث بسبحته: لعن الله الغربة. وكاد عدنان يذكر له أسماء نجحت في الغربة لكنه خجل من حزنه وصمت.

برناديت لم تكن باهرة الجمال كما كتب له صديقه، بل كانت أقرب إلى الامتلاء وقصر القامة ولا يمكن اعتبارها شقراء بل «خرنوبية» الشعر تشبه اللبنانيات بمظهرها أكثر من الأوروبيات، حتى أنها كانت تشبه شقيقات عبد الكريم اللواتي التففن حولها بودّ كواحدة منهن. لكن عبد الكريم كان يراها فيما يبدو كما يتمناها، ككل ما في حياته وكما كان يرى نفسه مصفحاً بأوهامه.

حين عرفت برناديت أن القادم هو عدنان الصديق الحميم لزوجها، غادرت الغرفة معه إلى الشرفة باقتراح منها وروت له ما قاسته مع عبد الكريم الذي أصيب بمسّ يوم أخبرته عن تشابه الأسماء بينه وبين نجل رئيس الوزراء على سبيل الدعابة، مضيفة بأسى وجده صادقاً: أضحى يجن غيرة ويتوهم أنني على علاقة بسميّه ولا يُلاحظ أن الآخر على علاقة بنجمات المجتمع الأوروبي من ممثلات خارقات الحسن وأميرات ومطربات، ولن يرضى أصلاً بامرأة مثلي إلا كمدبرة منزل! ثم صار عبد الكريم ينتحل صفة غريمه ويحتال على الناس ويذهب إلى الصحف العربية في باريس ليشكو من الاضطهاد المزعوم لغريمه له وكيف يتآمر عليه ليدمر له حياته. وازداد جنوناً فصار يحاول تحصيل المال الذي يخص الآخر مستعيناً بمفكّرة نسيها الخوالقي الأصلي في ردهة الفندق وانتهز عبد الكريم الفرصة وسرقها. وقالت برناديت بحسرة: باختصار، أراد أن يعيش عن الآخر حياته فعاش موته، وأنا أعتقد أن الذي قتله كان يظنه الخوالقي الحقيقي ولم يكن يضمر قتله. من يريد قتل مجنون صغير غير مؤذ مثله؟

كان عدنان ينصت إليها مذهولاً، ففي رسائل عبد الكريم إليه ما يناقض كل كلمة تقولها برناديت. ولكنها تبدو متألمة وصادقة ولو لم تكن طيبة وتحب زوجها لما طارت من باريس لتتعارف بأسرته وتودعهم وتودع جثمان زوجها.

أضافت برناديت: لقد توقف عن العمل وتفرغ لأعمال البيت حين انكشف أمره وخسر عمله وطلب مني قطع دراستي لأعيل البيت وكنت أحلم بالحصول على الدكتوراه. والمأساة أنه كان يحتفي براتبي وينفقه لكنه يتشاجر معي كلما عدت من عملي متأخرة لأسباب قاهرة ويستجوبني ويتخيل أموراً لم تحدث حتى جاء يوم ضربني فيه فغادرت البيت غاضبة مكسورة القلب، وحين عدت بعد يومين وجدت ورقة منه تفيد بأنه عاد إلى بيروت! ثم إنني كنت أريد إنجاب طفل لكن الفحص الطبي أثبت أن عبد الكريم عقيم لا ينجب وبالرغم من ذلك نقم عليّ ولم يصدّق الطبيب!

شعر عدنان بالدوار.. أين الحقيقة؟

تذكّر الزيارة الغريبة التي قام بها عبد الكريم له في بيته، وحديثه عن تلك الخيوط التي تملي على الناس أقدارهم.. تراه بريئاً كما برناديت، ولكنه راح ضحية خيوط كانت تُملي عليه هذيانه المالي وعربدته النفسية مثل دمية في مسرح الدمى لا تملك لأمرها شيئاً غير طاعة الأصابع التي تحركها...؟

غادر عدنان جلسة التعزية الخانقة متسائلاً في حيرة: أين الحقيقة؟

أقسم بينه وبين نفسه على البقاء في بلده محافظاً على رأسه محتفياً بفقره واكتفائه وليكن ما يكون! لن يراسل بعد اليوم صديقاً ويحلم بـ«مجد» كمجده ونجاح كنجاحه.. لن..

* * *

إنه المطر.

حين ينفجر الفضاء دموعاً على غير هدى.

مطر ما بعد البرق والرعد والزمجرة والضوضاء. مطر القلب حتى الانتحاب توقاً كما قالت سليمى لنفسها وهي تنتظر وصول وليد، كمراهقة تنتظر حضور خطيبها حبها الأول وهي بكامل براءة عذرية القلب!

وليد لم يصل مبتلاً كما توقعت دانا بشيء من الشماتة المسبقة. كأنه عصفور أو ملاك نفض عن جناحيه الماء وقرع الباب ودخل بكامل أناقته!

لم يبدُ الارتباك على وليد وهو يصافح دانا بود، ثم سال وجداً وهو يقبّل يد أمها ويخرج من جيبه هدية أنيقة «التغليف» ويطلب من سليمى أن تفتحها.

سألته دانا بعدوانية شبه ساخرة: ما المناسبة؟

أجاب بصدق: المناسبة أننا أحياء وسعداء.. إذا قمت بإحصاء عدد سكان كوكبنا الأحياء الآن قياساً إلى عدد الذين ماتوا خلال الألفي سنة الماضيتين فقط ستلاحظين مدى حظنا نحن الذين نعيش برهة كونية عابرة خارج السجون القمعية والمستشفيات والأوبئة والمجاعات. أضيفي إليها النسبة المئوية الضئيلة للعشاق السعداء مثلي، تكتشفي كم هو رائع ونادر أن يكون على وجه كوكبنا من يلتحم بالسعادة مثلي. سليمى تشهق بذهول غير مفتعل، بعدما فتحت العلبة الصغيرة التي قدمها لها، واستخرجت منها خاتماً ماسياً بماسة واحدة من خمسة قراريط على الأقل (تعرف ذلك بحكم خبرتها بالهدايا التي كان نعيم يحملها إليها كلما خانها!)، وتفتش عن كلمة تقولها غير عبارة: يا إلهي ما أبدع هذا الخاتم! انظري يا دانا ما أجمل صياغته! على العلبة قرأت دانا «مجوهرات معوض»! وذهلت. **خاتم ماسي**

بديع من «مجوهرات معوض»؟ لقد سرقه وليد بالتأكيد. . من أين له بالمال لهدية ثمينة كهذه وهو المطرود من عمله، المفلس الذي يتودد إلى أمي طمعاً في مالها؟ إنه يراهن على تعلّق أمي الغبي به وعماها العقلاني لغرامها بشبابه. . كيف أقنعها بحماقتها وهي كالمراهقة ترفض أن ترى وجهة نظر ثانية؟

قال وليد وسليمى تشهق حبوراً: هيا بنا. سأحضر السيارة حتى مدخل البيت كي لا يزعجك الطقس الماطر ويفسد تسريحتك البديعة. الخاتم هدية ما قبل سفرك إلى باريس كي تذكريني هناك ريثما أصل.

قالت سليمى بغنج مراهقة: سأعيد الهدية إليك إذاً لأنني لن أسافر!

ما كاد الباب يغيّبه حتى قالت دانا لأمها: **هذا يا أمي سارق.** لعله استغل ثقة آل معوض. لعله بدأ للتو عملاً في خدمتهم ولم يتردد في سرقة هذا الخاتم ليفوز بقلبك أولاً وبالتالي بثروتك. ألا ترين ذلك بوضوح؟

قالت سليمى دون أن يرف لصوتها جفن: وليد لا يمكن أن يكون سارقاً. إنه إنسان رائع ونظيف، وثمة تفسير بسيط لإهدائه لي خاتماً كهذا، تفسير لا أعرفه الآن لكنني مطمئنة إلى وليد وإلى نظافة كفه ولا تسأليني لماذا! إنه النسخة المصححة عن والدك!

انسحبت دانا من الغرفة لتتصل بفواز صديقها الوفي، وتُعلمه بتأجيلها لسفرها وتروي له مأساتها مع هول عشق أمها لسارق. . متمنية أن لا يروي لها شيئاً عن غرامه وسميرة! أما ماري روز «فمشغولة» بالتأكيد بوداع عشاقها!

غادرت سليمى البيت وخاتم ماسي من «مجوهرات معوض» يطوق أصبعها. كانت خواتم ماسية كثيرة قد أهديت لها وأحاطت بأصابعها، وأقراط كثيرة وقلادات وأساور اشتراها زوجها لها من متاجر موناكو وتيفاني نيويورك وبياجيه جنيف وبوند ستريت لندن وصاغة ساحة الفاندوم الباريسية، ولكنها لم تر من قبل خاتماً (سوليتير) بماسة قطّرت روح الضوء في «حجر» بديع الصياغة كهذا.

قبّلت وليد على خده شاكرة حين استقرت في مقعدها في السيارة، فرفض قبلة كهذه وأهداها شفتيه. ثملت بهما لكنها لاحظت بعدها أن سيارته جديدة وفخمة وقلقت قليلاً وهي تدير الخاتم البديع في أصبعها. فالسيارة من ماركة فيراري الثمينة غير «الشيفروليه لومينا» الجديدة التي اشترتها له تحت شعار «لتنقلاتنا معاً»!. . وسجلتها باسم دانا دون أن تقول لها شيئاً!

تذكّرت أن نعيم كان يحب أيضاً سيارات «الفيراري». بل إن في مرآب بيتها

في باريس سيارة فيراري حمراء كهذه كانت المفضلة لدى زوجها. لا تدري لماذا سألت وليد: هل تؤمن بالتقمص؟ أجاب: بالتأكيد. وإذا قتلتُ في حادث سيارة سأعود ثانية لأحبك!

قالت سليمى جادة: هل تذكر أنك عشت حياة سابقة؟

قال مداعباً: أجل حياة أحببتك فيها ثم غدرت بك. وصار يقهقه ولم تضحك للدعابة بل شعرت بالرهبة إذ تذكرت أنها كتبت على شاهدة قبر زوجها في مدفنه الباريسي: ستولد ثانيةً.

* * *

حين عادت سليمى متأخرة إلى البيت كانت دانا بانتظارها كعادتها مؤخراً لتفسد لها سهرتها التي قضتها بين العذوبة والضحك والقبلات المختلسة. بادرتها دانا بلعب «ورقة عتيقة» طالما لعبتها هي معها حين كانت مراهقة، إذ قالت لها ببرود مصطنع ولهفة كاذبة: تأخرت كثيراً وقلقتُ عليك.

أجابت سليمى ابنتها دانا كمراهقة تتحدى أمها: كنتُ معه طبعاً. وحين لا أعود ليلاً أكون معه. تعرفين ذلك.

للمرة الأولى تحاورها كصديقة أو كعدوة لا فرق حوار الند للند، لا حوار الأم مع ابنتها الملفوفة بقطن الدلال. حوار امرأتين، بصدق وبلا حنان بالغ. تغاضت دانا عن نبرة التحدي في صوت أمها وقالت: حسناً.. بعد غد تقلع طائرتنا باكراً، فهل تريدين أن أتفرغ لك وألغي ارتباطاتي لأساعدك في إعداد حقائبك وشراء الهدايا؟

- لن أسافر.. قررت تأجيل موعد سفري. بوسعك أن تسبقيني برفقة ماري روز.

انفجرت دانا ولم تداور: وليد لا يحبك يا أمي، فلمَ تبقين؟ إنه يستغلك. أنت كهلة ثرية وهو شاب مفلس ومطرود من عمله باعترافه، وسارق فوق كل شيء. الآن سرق لإرضائك وغداً يسرقك.

تألمت سليمى من وصف ابنتها لها بكهلة، فهي في الخمسينات لكنها ما تزال تدير رؤوس الرجال في أي مكان تحل فيه. إنها ببساطة ما تزال جميلة! قالت متحدية: لعل الحب هو الاستغلال المتبادل. وليد يمنحني الشباب وأنا أمنحه الطمأنينة والمال. وماذا في ذلك؟ ثم إنه ربما كانت الأمور تجري على هذا النحو دائماً بين الذكور المسنين والشابات. فلماذا يضايقك أن يحدث ذلك لي في علاقة

عصرية كعلاقتي بوليد، وأنت التي لا تشبعين من المناداة بتحرر النساء باستثناء أمك!

ـ سيهجرك قريباً حين لا يعود بحاجة إليك.

ـ لقد ألفت ذلك مع كل من أحببت. لقد هجرتني أنت منذ اليوم الذي لم تعودي فيه بحاجة إليّ كما هجرتني شقيقتاك. لم أعد إنسانة حية لها همومها وأحزانها وشهواتها في نظركن. أختك الكبيرة لا تتذكرني إلا كفندق لرعاية أولادها حين تذهب في رحلة «شهر عسلها» السنوية. أختك الثانية تستعملني حاضنة لكلابها حين تقوم بالسياحة في عطلتها السنوية. وأنت؟ هل أنت صديقتي حقاً؟ تعودين من العمل وتحملين ثيابك الليلية وتذهبين إلى شقة بدرو أو تعتصمين بغرفتك إذا لم تذهبي مع رفاقك. وحين أقطع عليك خلوتك لأكلمك عن عالمي الداخلي وهمومي وأشواقي وأحزاني لا ترفعين عينيك عن شاشة «الإنترنت» ولا تنظرين إلى وجهي وأنا أكلمك ولا ترفعين سماعتي «الووكمان» عن أذنيك، وإذا ألححت على البقاء معك في غرفتك تنتابك نوبة تثاؤب وتتظاهرين بالحاجة إلى النوم ريثما أغادرها ثم أسمع صوتك وأنت تثرثرين على الهاتف إلى ما بعد موعد نومي، فأهرب أحياناً للعب الورق في النادي المحترم. . ووالدك نائم عند إحدى عشيقاته. هل تذكرين؟ فما الذي يضايقك في علاقتي مع وليد؟ إنني حية؟ وبماذا يتهددك ذلك أنت وشقيقتيك وليس بينكن من يبالي بي حقاً؟ تخافين على الميراث؟ اطمئني، إنه ليس كما تظنين. إنه. .

قاطعتها دانا: بيروت المجنونة نقلت جنونها إليك يا أمي. . ما كنت لتتصرفين هكذا في باريس.

كلام ابنتي صحيح هذه المرة. نعم بيروت توقظ روحي العتيقة، توقظ حقيقتي. تُذكّرني بحياة سلبتني الغربة إياها وودعتُ فيها أحبابي واحداً تلو الآخر وتعريت من أحبابي وأوهامي. زوجي غرق في تحصيل الرزق ونجح وازداد ثراء ولمع، وقيل لي إنه لا يقضي وقته كله في العمل حين يكون بعيداً عني وتجاهلت طويلاً واضطررت للسكوت لأني كنت عاجزة عن فراقه وربما أيضاً عن إعالة نفسي وترك بناتي مرميات لتربية المدارس الداخلية، أو الخالات الصبايا زوجات الأب اللامباليات. ثم شاهدت بناتي ينزلقن من حياتي حين يكبرن واحدة تلو أخرى على غير مألوفي العائلي في الوطن، ويعاملنني كغريبة كما تفعل ماري روز مع أمها باستثناء أن لأمها المطلقة حياتها الخاصة أيضاً وكنت أنا مهجورة وأكثر من مطلقة وبناتي حياتي كلها. ثم تزوجتْ الأولى في «النورماندي» ولم تعد تلتقيني إلا في عيد

الميلاد مرة كل عامين. سنة لأهل زوجها والأخرى لي. لكنها لا تنسى إيداع صغارها عندي كلما ذهبت في «شهر عسل» جديد مع زوجها. أتعلق بهم ثم تنتزعهم مني لأشهر، فأنا الخادمة لا الجدة. أما الثانية فتعيش مع عشيقها بلا زواج (كونكوبيناج) على «الموضة» التي أقرها القانون الفرنسي ويقيمان في ستراسبورغ وتستعمل بيتي كفندق بخمسة نجوم في باريس لحضانة كلابها كلما ذهبت في إجازة. بالمقابل لا أذكر أننا التقينا بالمعنى الحقيقي للكلمة وتحاورنا حواراً من القلب منذ أعوام لكنها ترسل لي في عيد الأم سطرين متكوبين على الآلة الكاتبة مهنئة. بناتي كبنات الملك لير الثلاث في مسرحية شكسبير. أشعر باستمرار وإلحاح أنهن بانتظار موتي ليكون بوسعهن بيع القصر الباريسي في «أفنيو فوش» وتقاسم ثمنه. وكان والدهن قد اشتراه وأهداه لي قبل موته ككل ما تبقى من ثروته ربما في لحظة من لحظات صحوة الضمير وقد حدس قرب موته.. وحسناً فعل وإلا لفعلن بي ما فعلته بنات الملك لير بوالدهن حين قذفن به إلى العاصفة. وها هو يعود ليتقمص وليد ربما ليعوضني عن كل ما فات.. ظلت سليمى صامتة.

قالت دانا مؤكدة: وليد سيحاول أن ينال ما يستطيعه منك ومن ثروتك ومعونتك له مع معارفك بتوسطك لديهم من أجله.. تذكّري كلامي: وليد سيعصرك ثم يرميك.

بحسرة ردت سليمى: ولمَ لا؟ ألم تفعلوا جميعاً ذلك كبنات «الملك لير»؟ ربما اختطف وليد طائرة حياتي لكنها كانت تحلق على غير هدى إلى اللامكان. وحدها ماريا كانت رفيقة أحزاني وتسأل عني.

شعرت دانا للمرة الأولى بما يشبه تأنيب الضمير.. لا. لا يؤنبني ضميري، لكنني متضايقة لأن لأمي مشاكلها الخاصة وحياتها الخاصة ولا أستطيع أن أروي لها ما يحدث لي مع د. نبيل ومع رامز المندال. أريدها لي وحدي حين أحتاجها فقط.. أريدها أن تظل في «الثلاجة» وحين أحتاجها أخرجها منها و«أذوّبها» وأروي لها متاعبي وحيرتي ثم أعيدها إلى الثلاجة ريثما أواجه مشكلة ثانية! لعلها على حق. أنا لست حقاً صديقة لها وأريد منها صداقة من جانب واحد حين يناسبني ذلك. أليست تلك مهنة الأمهات؟ ولماذا صرن يتمردن في هذا الزمن الرديء؟ ولكنني لن أتخلى عنها، وسأقوم بتأجيل سفري لأكون إلى جانبها يوم يتخلى وليد عنها. كأن بيروت تعيدني إليها.. قالت دانا في محاولة أخيرة لابتزاز أمها: أنا كورنيليا ابنة الملك لير المُحِبّة والتي لا تعرف كيف تعبّر عن عاطفتها. سامحيني إذا قصّرت.

قالت سليمى بصوت محايد: وأنا امرأة توجعت طويلاً. هل تذكرين حين

مرضتُ وكنت تحضرين لزيارتي مرة كل خمسة أيام في المستشفى الأميركي في «نويي» بضاحية باريس.. هل تذكرين صمتك، وكيف كنتِ تراقبين التلفزيون في غرفة مرضي طوال وقت زيارتك وأنا أتسول نظرة حنان منك وأبكي حسرة حين تذهبين؟

ـ قلت لك إنني كورنيليا المُحِبّة التائبة.

صمتت سليمى. لا. لم يبالِ أحد يوماً بالنظر إلى آلامي. **كان عليَّ أن أموت أو أتبدل، وصرت اليوم قوية وباردة الأعصاب ككل الذين جرحتهم الحياة كثيراً وتخلى عنهم الذين أحبوهم أكثر حتى من حبهم لحياتهم، لكنهم تعلموا بعدها الوقوف منتصبين ولو في قبورهم. آه كم من المرارة يختزن قلبي. وها أنا على قيد الحب.** قالت سليمى لابنتها: ها أنا على قيد الحب والحياة من جديد. حب خائب آخر في حياتي لن يقتلني لكنه قد يحييني. وسأحيا اللحظة، فالغد شيك مؤجل، والبارحة شيك باطل والآن «كاش» بلغة المرحوم والدك!

وماذا عن الغد يا أمي؟

كادت سليمى تقهقه بصوت عال لكنها ظلت صامتة..

ـ وماذا عن الخاتم المسروق يا أمي؟ هل سألتِ وليد خلال سهرتكما كيف استطاع الحصول عليه، وعلى السيارة «الفيراري» التي جاء بها؟

ـ قلتُ لك إنني أثق به وأعرف في قرارة نفسي أنه إنسان نظيف وثمة بالتأكيد تفسير ما لهذه الأمور كلها. ولكن حتّام نكرر هذا الحوار كل ليلة بعد عودتي من السهرة؟ حوار عقيم بنبرات مختلفة جوهرها واحد.. أريد أن نتوقف عن هذا. سأذهب الآن إلى النوم.

أطفأت سليمى المصباح واستعادت لحظاتها المسروقة مع وليد لمسة حنان بعد أخرى وجنوناً بعد آخر.. **ما الذي يحدث لي في هذه المدينة ذات الشوارع المظلمة المليئة بالجرذان والمصابيح المكسورة والأعقاب البشرية وحطام السيارات التي ما تزال تتحرك كالهياكل العظمية ورائحة الحرب ما تزال تفوح من الوجوه المتعبة القلقة كأنها تنتظر باستمرار كارثة ما، كتجدد الحرب التي قالت ماريا إنها لم تنته بل بدأت الآن حقاً!**

ترى هل ملامسة الموت هي التي تعلّمني اكتشاف النبض في عروقي والاحتفاء بالحياة والبهجة ولو على سبيل مقاومة موتي الشخصي؟ ألهذا أشعر بالرغبة والشهوات الجسدية في زيارات التعزية لأقارب أصحاب ماتوا؟ أم أن بيروت تختزن

مثلي حياة سرية داخل موتها المفترض وتمدني بقوة سحرية لأحيا. . . ها هي دانا تذكرني بـ «الغد» في علاقتي مع وليد. . كلام عقلاني في محله سأفكر به ذات يوم أما الآن فسأحيا وليكن ما يكون. تلك حكمة العاشقات الخمسينيات والمدن المحروقة. . تلك حكمة بيروت. لقد جُرحت من قِبل الذين أحببتهم كبيروت، وسأفعل مثلها. . سأحيا وأستمر بهم وبدونهم وبمن حضر وبما تبقى مني ومنهم!

* * *

رن جرس الهاتف بعد منتصف الليل بكثير. بالضبط في الثانية والربع كما تشير الساعة في غرفة المكتبة. لم تكن ماريا نائمة، بل كانت تطالع باستمتاع بعض الكتب التي اشترتها من مكتبات بيروت لجيل شاب بدأ الكتابة في غيبتها في باريس ووعت عبرها كم طالت الغيبة. ردّت على زعيقه الملحاح بتحدٍّ: نعم؟

توقعت أن تسمع صوت صاحب الهوية الجنائزية: باقة الأزهار اليومية الميتة!

ـ أنا دانا. . أحمد الله لأن هاتفك تم تصليحه. أعرف أنك لا تنامين باكراً ولذا تجرأت على الاتصال. . متى أصلحوا هاتفك؟

ـ هاتفي لم يكن معطلاً! لقد قطعوا لي «الخط» لأنها الطريقة اللبنانية لتنبيه المشترك إلى أن موعد دفع الاشتراك قد حان! هكذا اكتشفت!

ـ غير معقول! قالت دانا ذلك وسكتت. ماريا صمتت أيضاً بانتظار أن تتكلم دانا وتفصح عن سبب اتصالها بها في هذا الوقت المتأخر، وأي خطب جرى وأخرجها عن هدوئها المألوف البارد. حين ظلت دانا صامتة قررت ماريا أن تثرثر ريثما تلتقط دانا أنفاسها.

رددت ماريا عبارة دانا: نعم، غير معقول. ولبنان هو اللامعقول والممارسات فيه تزداد لاعقلانية، ولكنه للأسف ما زال كابوسي المفضل. . وهكذا، بدلاً من فاتورة عادية أو رسالة كومبيوترية في صندوقك البريدي تطالبك بدفع الاشتراك، «يقطعون» الهاتف ويريدون فوق ذلك كله من الشركات الأجنبية أن تحضر وتعمل هنا! والحد الأدنى من الخدمات يعاني المواطن عبره نمطاً من أنماط الإذلال.

سكتت ماريا بانتظار أن تفصح دانا عن غرضها من المخابرة. ظلت دانا صامتة فتابعت ماريا: لا أنصحك بتأسيس فرع لشركة الكومبيوتر التي تعملين فيها. فلبنان يا دانا لم تنته حربه بعد. ولم يعد مناخ البعض يحترم إنسانية البشر وارتباطاتهم والتزاماتهم العملية وأعمالهم ومصالحهم، لكنه بصفاقة يطالب الجميع بإدخال أموالهم إلى وطن الزلزال هذا. فالدبكة العامة تقضي بإنشاد المدائح في إعادة

المغتربين لأموالهم إلى البلد! أي أحمق يرضى بذلك إذا لم تكن له مصالح أخرى سرية أو إذا لم يكن معتوهاً بلبنان مثلي! على أية حال، لا أظن أنك اتصلت بي لسماع محاضرة عن لبنان.. ماذا تريدين؟ لم تضحك دانا.. لديها همٌّ آخر غير لبنان وإلا لما اتصلت بعد الثانية ليلاً، وهو وقت يبدو لماريا وقتاً معقولاً جداً للمخابرات الهاتفية! أضافت ماريا: ما دُمتِ صامتة وحائرة كيف ومن أين تباشرين بالكلام. سأتابع محاضرتي. لو فرضنا جدلاً أنهم أرسلوا الفواتير بواسطة البريد فهل ستصل؟ نصف المباني بلا صناديق بريد وقد نسيتُ أن هذا الأسلوب في التواصل ما زال معمولاً به في البلدان الراقية. ونصف «النواطير» وحراس المباني من الأميين وغرفة الناطور تُستعمل مكاناً لإقامة أسرة من ثمانية أشخاص وهاجس معظم «النواطير» جمع المال بأية وسيلة، أو النواح على حاله.. يا لحال لبنان الذي كان بوسعه الانضمام إلى العالم الأول لو لم يختر بحماقات بعض أبنائه الدخول في سلك البلدان المتخلفة التي اخترع لها التخلف اسماً لطيفاً هو «النامية».. وأي نمو؟ النمو نحو المزيد من الأمراض؟ النمو نحو الخرافة؟ نحو الأوهام؟ آه كل شيء مهما صغر يقودنا إلى جرح وطن كان بوسعه أن يتألق نجماً واختار بعض أبنائه المستنقع ولكن بأسماء ملطفة لها أدباء يُلمّعون صورتها ويفرحون بحفلات تكريم لهم مفتعلة زائفة تشبه أسناناً اصطناعية في كأس ماء قرب سرير محتضر! اسمعي يا دانا. تعبت من الثرثرة فقولي لي لماذا اتصلت بي؟ قاطعيني، أو دعيني أعود إلى أوراقي.. وإلى كتبي.

فكرت دانا بأنها أخطأت باتصالها بماريا لتشكو لها من جديد أمها وحكاية الخاتم المسروق التي تقلقها.

ظلت دانا صامتة ومرتبكة. قالت ماريا: حسناً. لن أعاقبك ببقية المحاضرة. أنت تتصلين الآن بي لقلقك على أمك؟ منذ زيارتك لي مع فواز وسميرة وأنا أعايش قلقك. ثقي من تعاطفي معك كما أتعاطف مع أمك.. ولكنك لم تتصلي بي في الثانية ليلاً لتسمعي رأيي في الهاتف البيروتي، فما الحكاية؟

نسيت دانا ترددها وانزلقت ببوح حميم: لقد حمل إليها خاتماً ماسياً من «مجوهرات معوض». تخيلي، وليد المفلس يحمل إلى أمي هدية خرافية الجمال والثمن. من أين حصل عليه إذا لم يسرقه هو والسيارة «الفيراري» التي جاء ينقلها بها إلى السهرة بدلاً من «الشيفروليه لومينا» التي اشترتها أمي.

بهدوء قالت ماريا: قلقك في محله شرط عدم الاستنتاج على هواك. دعينا ننتقل إلى الحقائق بدلاً من التخمينات. صاحب الدار الصحافية التي كان يعمل وليد

الموالدجي فيها في باريس أحد معارفي، وهو يعيش الآن في سويسرا. دعيني أتصل به وأستفسر عن وليد. علينا جمع المعلومات قبل اتخاذ القرارات. ماذا لو كان وليد قد ورث ثروة وليس مفلساً وسارقاً كما تظنين؟ حتى الأغنياء يمكن طردهم من عملهم!

شكرتها دانا. **هكذا هي ماريا دائماً، تنتقل من الخرافي إلى الواقعي العقلاني بغمضة عين، وما زلت أحبها.**

تنهدت دانا: يا لها من إجازة بيروتية!

ثم أضافت بلهجة حازمة: على أية حال سأقوم بتأجيل سفري للبقاء إلى جانب أمي. لن أدعها في براثن ذلك الوغد الشرير!

ضحكت ماريا وقالت: ليس وغداً شريراً، بل لعله عاشق. على أية حال أنا مضطرة لتأجيل سفري مثلك إذ أشعر أنني على وشك البدء بكتابة رواية جديدة ولا أريد إجهاضها بالسفر إذ ما من امرأة ترحل وهي على وشك الوضع ناهيك عن خلق حيوات روائية. من طرفك. . تذكري دائماً ما قلته لك يوم جئت لزيارتي مع فواز وسميرة. أمك من نسويات السبعينات العربيات، ونحن لا نكنّ للرجل أي عداء على العكس من معظم النسويات الأميركيات من بنات جيلنا اللواتي تأثرتِ بهن أنت والعديد من الأوروبيات في زمنك هذا. . فلا تنتقدي نسوية أمك انطلاقاً من علاقتها بوليد. نحن نسويات لا نكره الرجال بل نعشق من يستحق ذلك، فأحبّي، وافتحي قلبك.

قالت دانا بعدوانية عفوية فطرية خيل إلى ماريا أنها ورثتها عن والدها المليونير المر: لماذا لم تتزوجي إذاً وفضّلت البقاء «عانساً»؟

ـ لست «عانساً» يا دانا. أنا امرأة «عازبة»، كأي رجل لم يختر الزواج. هل تدعين الرجل «عانساً» أم مجرد متعصب لعزوبيته؟ تذكّري أن النسوية الحقة تفرض إعادة النظر في تسميات مثل «عانس». لو فرضنا أنك كُنتِ في الخمسين من العمر ولم تقرري الزواج، فهل أنت وقتئذ يا دانا «عانس» أم «امرأة عازب»؟

* * *

أيقظ ناجي رنينُ الباب. نهض من فراشه مستعداً لشتم الطارق أياً كان وإذا به يجد وفاء بكامل أناقتها وزينتها! نظر إلى ساعته فقالت معتذرة: أعرف أنها التاسعة صباحاً، لكنني أحببت أن أرى كيف تبدو حين تستيقظ من نومك.

لم يصدقها. كانت تهز مفاتيحها بعصبية بالغة ولاحظ أن تلك المفاتيح المألوفة في حلقتها الفضية المطرزة بالفيروز الأصلي هي مفاتيح بيتها التي لا يحلم

بغير الحصول على نسخة عنها كي يسرق جواز سفره المزور وليست مفاتيح سيارتها التي تضمها عادة حلقة ذهبية. سيسرق جواز سفره ويرحل بالمال الذي غنمه بقلقه وتعبه وتحوله إلى مصاص دماء بالمعنى الحرفي ودونما تأنيب ضمير، فالسرقة من السارق ليست سرقة بل «شطارة» وسليم ابن قريته ليس أفضل منه!

قالت بتحدّ: هل تسمح لي بالدخول؟

اشتمّ في كلماتها رائحة بوليسية تسيل غيرة تريد تفتيش المكان، فابتعد عن دربها قائلاً بتهذيب: تفضلي. **الحمقاء! إنها لا تدري كم أكره النساء عادة وأفضل عليهن أمثالي!**.

دخلت كمن أضاع رشده إلى غرفة النوم فالشرفة فالصالون ولم تجد أحداً. سألها متجاهلاً هزلية المشهد! ما رأيك بفنجان قهوة؟

وافقت دونما تردد وما يشبه صفرة الخجل النادم تصبغ خديها.

هرب منها إلى المطبخ! ماذا لو وجدت لديه أحد غلمانه وهي التي تفتش عن غريمة ما؟

كانت حارّة، متوهجة بحب الامتلاك، ادّعت أنها حلمت بأنه يخونها ولذا جاءت وقال لنفسه إن ذلك قد يكون صحيحاً وقد يكون سليم طلب منها إجراء تلك «الزيارة» التفقدية المفاجئة التجسسية التي لها صلة بالمال أكثر من القلب والجمال!

لم يُخيّب أملها. منحها ما تعشقه! لحيته الكثة الجوالة في نعومة البراري وقامته القروية المتينة التي تتسلقها كما «أليس» في طريقها إلى بلاد العجائب وهي تتحسس دربها فوق الشجرة السحرية إياها.

نظرت إلى ساعتها فجأة وهي فوق قمة الشجرة وقالت: عليَّ أن أذهب فوراً. ثمة اجتماع مهم عند سليم وعدته بحضوره.

اتصلت بناطور المبنى (فالمبنى ملك سليم) وطلبت منه أن يستوقف لها تاكسي «وجيهاً»، مضيفة أن سيارتها معطلة، وكل ذلك قبل أن تلتقط أنفاسها وتهبط عن الشجرة المسحورة وقبّلته كالمجنونة ولفّت عطرها حولها وغادرته مسرعة.

كان قد بدأ يستعيد كراهيته للنساء ويطلق شتيمة لائقة ويكاد لا يصدق أنه حسد ذات يوم في باريس سليم على سيدة بديعة مثلها. ثم لاحظ بفرحة مجنونة أنها نسيت في غمرة عجلتها حلقة مفاتيحها التي كانت تعبث بها بعصبية لحظة دخولها، وتركتها إلى جانب السرير وتضم مفاتيح بيتها التي لم يحلم إلا بسرقتها والحصول على نسخ عنها لسرقة جواز سفره والهرب بالمال المسروق.

لم يتردد لحظة في اقتناص الفرصة. ارتدى ثيابه على عجل، قبل أن تتنبه للأمر وتعود وهرول إلى دكان متفرع عن أحد أزقة شارع الحمرا كان قد لاحظه حين كان يتسكع ليلاً أيام إقامته في الفندق الوضيع. هرول إليه قبل أن يغسل وجهه لاستخراج نسخ عن المفاتيح، وفرح حين وجد صاحب الدكان ضجراً يفتش عن زبون، وحصل على نسخ عن مفاتيح بيتها ومدخل المبنى والباب الجانبي للمطبخ ستمكّنه بالتأكيد من سرقة جواز سفره حين يحين الوقت. وبينما كان «الغالاتي» ينجز استنساخ النسخ عن المفاتيح إياها، رن هاتفه النقال، وجاءه صوتها وقد تنبهت إلى مفاتيحها التي نسيتها، وقال لها إنه في الطريق لتسليمها لها حتى دون أن يغسل وجهه ولم يكن يكذب في جملته الأخيرة.

ولم ينس ناجي شراء صبغة نسائية سوداء ادعى للبائعة أن زوجته أوصته عليها! **في باريس يصبغ الذكور شعرهم في الصالونات جنباً إلى جنب مع النساء، أما هنا فأنا مضطر لاختراع كذبة أبرر بها شرائي الصبغة النسائية من الحانوت في شارع الحمراء الذي يغلي بالنساء. . كذبة إضافية لن تضيرني، بل إنني صرت ماهراً في هذا الفن الذي يدر المال! المفتاح معي أي جواز السفر للهرب، والمال جاء بعضه من التأشيرات إلى يوتوليا، وسأقبض الأهم غداً حين أبيع شقة رامي بك إلى «أحمق بك» وأقبض ١٢٥ ألف دولار رفض الشاري أن يدفع أكثر منها رعبوناً «كاش» وتظاهرت بأنني أراعيه وأكسر تعاليم سيدي صاحب الشقة.**

كيف له أن يدري أنني أعمل لحسابي الخاص والأوراق المزورة تبدو حقيقية ككل مزوَّر في بيروت؟

* * *

على الرغم من السماء الملبدة المكفهرة، تمددت الدكتورة ماري روز على شاطئها الذي ألفته خلال إجازتها البيروتية. ما من سابح آخر.

طيور البحر تزعق وتتناثر في طيرانها في الاتجاهات كلها كأنها تحذرها من عاصفة. العاصفة في داخلها، وكل ما يحدث على الشاطىء هو امتداد لعواصف روحها.

إنه يومي الأخير في لبنان ولا مفر لي من وداع البحر. لن أودّع الشاعر الخمسيني وسيم ولا رجل الأعمال الشاب يحيى. سنقول كلمات لا نعنيها، ووعوداً ستبهت مع الزمن وتتحول إلى عبء مُربك. وقد نتراسل. «بابا» ليس من النمط الذي يُراسل إلا على الإنترنت ليقول لي إنه سيمر بباريس ويريد قضاء سهرته معي. ما جدوى ذلك؟

سأحملهما في ذاكرتي. رجلان أحببتهما في آن، وسيم الشاعر العذب الخمسيني الرقيق الذي يجتاحني برقة الضوء ويحيى الشاب الذي يلتهمني كإعصار، «يايا» رجل الأعمال الشاب سيد المتَع المدبية. أحببتهما معاً حباً حسياً عنيفاً وعابراً، لكنني عبر علاقتي بهما ركبت بساط الريح وحلقت فوق البراكين. . ألف ليلة وليلة من الجنون في ثلاثة أسابيع وكنت أظنني امرأة من جليد، ولا مفر لي حين أعود إلى باريس من فراق خطيبي جان بابتيست الذي ينوي الزواج مني (رغم برودي المزعوم) لأن والدي بارون ومن جهة أخرى فإن والدي الثري جداً نصف المفلس بنظر نفسه يريد مني الزواج بثراء جان بابتيست الذي كاد يقنعني أنني قطعة من ألاسكا أو سيبيريا واكتشفت هنا ذاتي وعرفت أنني أكثر من بركان متأجج ولكن تغطيه الثلوج ينفجر حين يتقن «رائد حب» مشاركتي في إزاحة الجليد عن فوهته! وأن العلة ليست في الكمان بل في أنامل العازف. في بيروت اكتشفت جسدي وهو جانب حقيقي من ذاتي لم أفطن إليه قبلاً. . ووعيته في الوقت المناسب قبل أن أتورط بزواج خاطىء وأساهم في رفع نسبة الطلاق المرتفعة أصلاً عندنا. في بيروت عرفت الجانب الحسي مني ووجدته قادراً على الانتشار والإعلان عن ذاته كعبير نبتة اللاڤندر في ربيع حار.

شاهدت حارس الإنقاذ يرفع العلم الأحمر على الشاطىء الشتاء رغم خلوّ المسبح من الزبائن، ربما كي لا تسول لها نفسها السباحة في البحر ويضطر إلى إنقاذها، وتكتفي بالسباحة في البركة، ثم يمر بها ويلقي عليها تحية صباح دافئة لا تشبه الرياح الباردة التي بدأت تهب والسماء تزداد ظلمة بغيمة سوداء توسطتها. ما ألطف أولئك اللبنانيين.

القلائل الذين كانوا قد جلسوا بثيابهم تحت مظلة يفترض أن تقيهم من الشمس لا المطر غادروا المكان. بقيت د. ماري روز وحيدة ولم يبق صامداً خلف نارجيلته إلا ذلك «الدونجوان» العجوز البيروتي السبعيني الأنيق الذي يكاد يلخص روح بيروت بإصراره على الأناقة وعشق الحياة والجمال وهو يغسلها بنظراته كشلال من الرقة والعذوبة والحنين إلى ما قبل زمن «عدم الإمكان» وعهد «التقصير» الذي يشرحه لها كلما التقاها معبِّراً عن حسرته لأنه «قصّر» حين «قصّرن» ثيابهن مصراً على إبراز لعبة الألفاظ بالعربية وكأنه ينسى ما قاله قبلاً ويكرر حكاياته ويكرر. . تقدم منها ونصحها بأن ترتدي شيئاً فوق البيكيني الرمزي الذي يعريها للعاصفة، مضيفاً بظرف أنه الخاسر لكنه لا يريدها أن تصاب بالزكام وحتى الطبيبات الشابات الجميلات مثلها يمرضن! ضحكتْ وارتدتْ ما قل ودل وذهبت تشاركه مائدته

الملاصقة لجدار شاليه يحميه نسبياً من الريح. صارت تودعه بعينيها كمن يودع زمناً جميلاً غابراً في مدينة قيل لها بأنها كانت بديعة وتدفقت نحوه بعذوبة تشبه الأسى: **لن أراه بعد اليوم على الأرجح...**

صامتة وسعيدة جلست.. احترم سكوتها واقتدى بها وهو يحاور نارجيلته. **كل رجل في بيروت طبيب نفساني حين يجالس امرأة يجدها جميلة. يعرف متى يكون قطاً ومتى يتحول إلى نمر. لو بذل الجهد ذاته للتفاهم مع أقرانه سياسياً لما وقعت حرب هنا.. ولكن من أنا حتى أحاكم أم أنتقد؟ فلأستمتع بيومي الأخير هنا..**

سليمى قررت تمديد إجازتها ولن تعود الآن إلى باريس. دانا قررت تمديد إجازتها خوفاً على أمها كما شرحت لي ولم أشاركها قلقها. أظن أنها متعلقة مثلي برجلين في آن، طبيب وصاحب شركات، الرجل الخطير الذي حذرها منه صديقها الحميم فواز نقلاً عن آراء قريبه وسميرة وحتى ماريا.. وأنا لا أشاركهم قلقهم على دانا. إنها عاقلة أكثر مما ينبغي.. فواز مدد إجازته أيضاً والسبب المعلن بيع البيت والحقيقي غرامه بلبنانية أديبة صاعدة هي سميرة كما نقلت لي دانا.

نجل رئيس الوزراء قُتل كما قيل لي ـ ذلك الذي يُفترض أننا التقيناه في مطار باريس يوم سفرنا ـ أو شيء من هذا القبيل. لم أكن ساعتها أنصت لدانا وهي تروي حكاية طويلة. كنت أفكر بما يتنظرني في «غرفة الجنون» أي في غرفة السونا في يخت يحيى... حين التقيته للمرة الأولى، غازلني وقال بالظرف اللبناني الذي صرت أعشق: كنت في طريقي لركوب يختي من أجل لعبة صيد في البحر. ثم اكتشفت أن الصيد على الشاطىء أجدى حين شاهدتك. تساءلت يومها: أهو كاذب أم صادق في غزله ويعيش لحظته بامتلاء؟ والأهم(!) هل له يخت حقاً: وما الذي يجذبه إلى بدينة مثلي برأي جان بابتيست؟ من طرفي يجذبني في الرجل اللبناني أن المرء لا يدري معه أهو جاد أم ساخر من الدنيا أم من نفسه أم من كل شيء.. أم أن ساق امرأة جميلة بيضاء توازي عموداً من أعمدة بعلبك في قلبه كما زعم شاعري اللبناني؟ لكنه بالتأكيد «جنتلمان» مع من تعجبه على الأقل، أعني الذين عرفتهم وهي معرفة لا تسمح لي باستنتاج موضوعي. خلال الأسبوعين الأخيرين التقيت بالعديد منهم أولئك الذكور وكلهم ساحر للحب ومسحور بالحب، وأذكر أن أمي طالما تحدثت عن قريبتي الأميرة إيزابيل دي فرانس التي وقعت مرة في غرام لبناني وسيم ونجل لرئيس الجمهورية يدعى «ريمون إده» قبل أن أولد، وأنها لم تتزوج منه لأنه رفض هو ذلك إكراماً للحب.. وخوفاً على جذوته من الانطفاء بالزواج! بهذا

المعنى، الرجل اللبناني يتقن حقاً فن الحب في نظري أكثر من «أوفيد»، فقد كان متزوجاً من عزوبيته ليظل عاشقاً إلى الأبد. أجل! كلهم قام بتأجيل موعد سفره: سليمى، دانا، فواز، وحتى ماريا التي قالت إنها ستبدأ بكتابة رواية جديدة. اللبنانيون/ الفرنسيون يختلفون عنا نحن أحفاد جان دارك ونابليون وديغول.. فهم ما زالوا يطيعون صوت القلبِ والعمل لا يأتي عندهم قبل كل شيء وذلك جميل، أما أنا فقد تمت برمجتي على العمل قبل كل شيء وعلي أن أكون في عيادتي بعد ٤٨ ساعة أي صباح اليوم التالي لعودتي. يومها سأغادر «أفينو فوش» حيث أقيم أياً كانت مشاعري لأمضي إلى عيادتي في «بولفار فلاندران»، وسيكون أمامي يوم مزدحم بالمواعيد مع الحوامل اللواتي سيلدن بين يديّ وما من متعة تشبه الصرخة الأولى لطفل ضربته أو بالأحرى تلقى مني ضربة الحياة الأولى المفيدة على مؤخرته الطريفة الملطخة بسوائل بيته الأول: رحم أمه... لحسن حظي أنني أعشق عملي وجسدي لن يكون في أي يوم قضيتي الأولى لكن من الآن فصاعداً لن يعود قضيتي الأخيرة..

لم يخطر ببالي يوماً أن بيروت مدينة الهلاك ستنعشني هكذا وتعيد الحياة لجسدي المتهم بالبرود وأنها وهي تحث الخطى نحو الشتاء ستغدق عليَّ ربيعاً من الدفء والانتعاظ حتى جنون المسامات.

هنا نبتت حواسي، وعلى هذا الشاطىء تمددت فوق قرص الشمس بين الموجة وطيور البحر «أحمّص» بشرتي الشمالية البيضاء بضوء البحر المتوسط... أتذكر يوم جاء وسيم الذي يخشى الماء والسباحة لكنه يحب تناول الغداء هنا.. تحرش بي وهو يناديني باسمي الأول إذ تحرّى عني. في بيروت الكل يتحرّى عن الآخر ويبدو ذلك عادياً! قال لي: انظري إلى المسبح الخاوي. لا أحد في بيروت يأتي إلى «البحر» في هذا الفصل للسباحة.. وأنت مختلفة عن نسائنا، أنت شمالية تكفي شمسنا الخريفية الشتوية لتحميص بشرتك، أما نساء المتوسط فيغلين تحت شمس آب ويحرقن ولا يحترقن.. فهل ستحرقين أم ستحترقين وتحرقين في آن؟

سألته: وأنت، ما الذي تفعله هنا؟ لم يعترف بشراهته!

قال: جئت لألتقيك وأكتب القصائد في جمالك.. ولدت من أجل ذلك. سأخلدك في ديوان شعري..

ذكريات.. ذكريات.. ذلك كله صار جزءاً من الذكريات.. وغداً ليلاً أنام في غرفتي الباريسية الأليفة! ينهمر المطر، وتطفىء الريح الماطرة نارجيلة الدونجوان الجميل السبعيني فيقول لها بجنتلمانية وفروسية لبنانية: سأبقى معك إذا أحببت

ولكن ربما كان من الأفضل أن نحتمي من العاصفة في الداخل قليلاً ريثما تنجلي.

تقبّله ماري روز على خده مودعة دون أن يدري أنه الوداع الأخير وتقول له: عليّ الآن أن أذهب... «آديو».

قال لها: بل قولي إلى الغد.. وأكتفي بكلمة «أورفوار». أكره عبارة «آديو» فهي وداع لفراق لا لقاء بعده! **ما أعذب ذلك اللبناني الذي دفن شبابه على عتبة حرب لم يخترها ولم يشارك فيها..**

قبّلته ثانية وكررت: «آديو»..

شعرت د. ماري روز بغصة حقيقية لأنها لن ترى ثانية ذلك اللبناني السبعيني المتعلق بالحياة، بكل أناقته وربما رقة حاله السرية، ووجاهة وشاحه الحريري المعقود بأرستقراطية حول عنق دقيق لعصفور منهك طار طويلاً في ساحة حرب واستطاع النجاة ببريق عينيه. **ها قد بدأت تظهر عليَّ أعراض الرومانسية. لا. إن ذلك لا يطاق، فما الذي تفعله بي بيروت؟ بل ما الذي لم تفعله بي وبسليمى ودانا وماريا وفواز الذين مددوا إجازاتهم؟**

بيروت مدينة الموت، تهبني الحياة ومرآة الحقيقة لأرى قاعي وأتعارف مع جانب مهم من ذاتي.. بيروت الرعب، مدينة المخطوفين الفرنسيين مثل جان بول كوفمان ومارسيل كارتون وروجيه أوك وجان لوي تومراندان الذين كبرت وأنا أرى زوجة المخطوف الآخر ماري سورا صديقة أمي تبكي زوجها في بيتنا، وتنتحب بينما التلفزيون يذيع كل ليلة في ختام نشرة الأخبار أسماءهم كي لا ننساهم.. وكنت مراهقة مشغولة بأمور أخرى لكن ذلك دمغ ذاكرتي كما دمغها كتاب أحد أولئك الرهائن عن الأهوال التي عاناها مع «وحوش» اختطفوه هناك وأذلوه.

أجل. بيروت مدينة الهول في خاطري وذاكرتي وذاكرة مئات آلاف الفرنسيين والأوروبيين وكوابيسهم وكوابيسي، كيف منحتني بهجة العيش هكذا، وكشفت لي جانباً من حقيقتي الداخلية وأرتني طرفاً من وجهي في مرآة الحقيقة؟ بيروت الثرية ببشرها الذين ظلمْتُهُم قبل أن أتعارف وإياهم. بيروت الكريمة الطيبة بناسها وشتائها الخريفي المشع بالذهب الوردي والدفء كيف عالجتني من كآبتي وكنتُ أظنها مدينة الحزن وحده؟

تدور ماري روز تحت المطر في أركان المسبح، وتتفقد صخور الشاطىء التي أحبتها كأنها تودعها.

كيف يقدر أولئك اللبنانيون الذين طحنتهم الحرب واللامبالاة واللاوفاء على

منح ذلك الدفء كله وسلام الروح والتدفق والأناقة الروحية والنبل النفسي العذب؟ كيف يغمروننا بكرمهم وبسخائهم النادر وأنا الآتية من عاصمة الوفرة؟

تلقي ماري روز وهي تمضي إلى الداخل نظرة أخيرة على البحر، والعلم الأحمر المَرفوع شعاراً له وربما لجزء من أمواج المدينة تجهله وتشعر أن ذلك العلم الأحمر بالذات صفارة إنذار لها. وهكذا غمرها شعور بانقباض حاد مفاجىء ذكّرها بكابوسها المتكرر، لكنها شطفته بينما هي تستحم تحت رذاذ معطر (رغم زعمهم أن المياه مقطوعة!) غسلت غمها عنها مع ملح الريح البحرية. إنه يومها الأخير في بيروت وكابوسها لم يتحقق عن هلعها في زقاق مرعب بأعلام سود وغابة من الأسلاك الكهربائية والمباني الإسمنتية الواطئة البشعة والمياه المبتذلة على الأرض والوجوه الملتحية العابسة وكانت تظنه حلماً رؤيوياً وصوتاً من أصوات الحاسة السادسة الاستباقية أو الغريزة الحدسية الاستباقية، التي تجلت في حكاية أمها مع رحلة تونس وهي شاهدة على ذلك. وتفسير أمها أن ذلك من الصفات النفسية لأسرتها ولما يحط به العلم بعد، لكنه من بعض تلك الأمور الروحانية الغامضة والقوى الخوارقية التي يتمتع بها البعض بمشيئة الخالق.

لم تنتظر ماري روز السائق عبدول الذي كان من المفترض أن يمر بها بعد ساعة، بل اتجهت كعادتها مؤخراً صوب باب الخروج واستقلت دونما تردد أول سيارة تاكسي توقفت أمامها وقد اطمأنت لبيروت.

السائق الوسيم المتأنق يسألها بالإنكليزية «المتأمركة وبلهجة تضايقها» عن وجهتها. تملي عليه عنوان دانا بإنكليزيتها ذات اللكنة الفرنسية، ويجيبها: «أوكي». **ثمة ما يحزنني قليلاً كفرنسية وهو أن المسنين في بيروت يتكلمون الفرنسية بطلاقة أما الشبان كهذا السائق فيتكلمون الإنكليزية كأن لغتنا الفرنسية تغرب مع جماليات بيروت ما قبل الحرب ورومانسياتها تاركة مكانها لدنيا جديدة «متأمركة» لا أحبها كفرنسية.**

سألها السائق: أنت إنكليزية؟ قالت: بل فرنسية. قالتها بنزق مستنكِر.

بلطف أبناء البحر المتوسط سألها: هل تحبين الاستماع إلى شارل أزنافور وأديث بياف؟ ضحكت. **لا يخلو اللبنانيون من لمسة دفء إنسانية استثنائية، المليونير كما سائق التاكسي وصبي المسبح وشاعري الخمسيني العذب، ويتقنون فن إرضاء الآخر إذا لم يكرهوه!**

كادت تطلب منه الاستماع إلى عجائز أقل شيخوخة مثل باتريك برويل وليان فولي وباتريسيا كاس، ثم تذكرت أنها ليست في ستوديو إذاعة فرنسية بل في تاكسي

بيروتي مهلهل، واختارت أزنافور الذي تعشق أمها أغانيه. أنصتت للمرة الأولى إلى كلمات أغنية «لابوهيم» التي جاءتها نشازاً من الشريط المسجل العتيق الذي أحرقته الشمس وفيها يقول: «أحدثك عن زمنٍ يجهله الذين سنهم أقل من عشرين سنة.. زمن البوهيمية» قالت لنفسها: **إنه أيضاً زمن «عز بيروت» ما قبل الطوفان كما تؤكد لي سليمى.**

فتحت النافذة للاستمتاع برذاذ المطر ورائحة البحر ففاحت رائحة المازوت السام المحترق الذي تنفثه شاحنة تتقدم التاكسي في زحمة سير لم تلحظها قبل ذلك لانشغالها بتفقد اللون البرونزي البديع لبشرة ساقيها. حاولت إغلاق النافذة العتيقة وفشلت. لاحظ السائق ذلك وكان يتلصص عليها في مرآته والتفاتاته. أوقف السيارة غير مبال بأبواق السيارات خلفه، وهبط منها ليغلق لها النافذة، وذلك برفع زجاجها بيده وبدس «مفك براغي» بين زجاجها وحديد باب السيارة. تأملته بإعجاب وتعجب. **في لبنان يحتالون على كل شيء كما احتال هذا السائق على النافذة الهرمة ويرتبون الأمور دائماً على نحو ما، على نحو مؤقت يصير دائماً**. ارتفع زعيق أبواب السيارات خلفهم وبدلاً من الاعتذار التفت السائق وراح يشتم سائق السيارة المتوقفة خلفه كما فهمت من نبرته وإشارات يديه. قالت ماري روز لنفسها: **ما أغرب اللبناني. عنده، الصوت الأعلى هو دوماً للمذنب الظالم!** صارت تضحك لطرافتهم وقدرتهم على تخريب كل شيء وإصلاح كل شيء باحتيال خفيف الظل. إنهم يحتالون حتى على نافذة سيارة عتيقة لم تر ما يماثلها إلا في متحف السيارات العتيقة في باريس. ضحكت باستمتاع.. إنها سعيدة كما لم تكن من زمان.

في روح بيروت ما يحرّض شهوة «الآن» في دمها. لا البارحة ولا الغد، بل نشوة الآن، ربما كمرض مجهول شهي، وليكن بعد ذلك الطوفان. شهوة المغامرة واكتشاف الذات والآخر، بل والذهاب إلى آفاق القومندان كوستو، عالِم البحار الشهير، والتعارف مع أقوام أخرى وأخرى.. وندمت لأنها لم تزر مرة متحفه في موناكو حيث تصطاف كل عام.. عاودها حلم عتيق، حلم مراهقتها بأن تكون مفيدة وتناصر أقواماً لم يكن لهم حظها من العافية والوفرة، وتساندهم بعلمها ومعارفها كأوروبية طبيبة ثرية بمعارفها مرفهة في كوكب أكثر من نصف سكانه يعانون من الجوع والمرض والجهل ويحتالون على البقاء البيولوجي كما احتال هذا السائق الطيب على نافذته الصدئة المتهرئة بالحرب والزمن. انتهت أسطوانة أزنافور. بدون أن يستشيرها ألقم الآلة العتيقة أخرى لإديث بياف تغني فيها «اذهب وارقص يا مولاي». تذكرت أنها في زمن مراهقتها كانت فرنسية حقيقية من وجهة نظرها، أي

تبالي بالآخرين حتى الثمالة، لها حلم «ديغولي» كبير عن دور فرنسا في كوكبها وأنها كادت تنساه بين مخاوف والدها من الفقر (النسبي جداً حتى الخزي!) وجوع المليونير جان بابتيست إلى لقب نبيل!

أجل. قبل ذلك كله، حين كنت مراهقة، حلمتُ بأن يكون لوجودي في كوكبنا فائدة. بل كانت تلك متعتي الحقيقية قبل أن أتعثر بجسدي ونيراني وعقدة سمنتي وهرموناتي: أن يكون ثمة من هو بحاجة إليّ ليحيا وأنا بحاجة إلى أن أعطيه ليصير لحياتي معنى. علاقتي مع جان بابتيست مكتملة حتى التثاؤب المنظم كالشخير. إنه ليس بحاجة ماسة إليّ ولكن لا بأس بي كلقب، ولا بأس به كصاحب ملايين. حتى شاعري اللبناني الخمسيني العذب بحاجة إليّ لتأكيد فحولته الوهمية أمام رفاقه في المقهى، ولن يضايقني الإدلاء بشهادة غير مباشرة، شهادة زور غير مزورة كثيراً، فهو يحلّق بي كما لم تفعل رماح مسنونة قبل رمحه المكسور. لكنني ذات يوم درست الطب لأنني كنت أحلم بشيء آخر. بإنقاذ حياة.. كررت ماري روز لنفسها: **أجل كنت أريد أن أشعر أنني مفيدة للإنسانية. هذا ما تعلّمته منذ نعومة أظفاري في كتب أدبائي وشخصياتي التاريخية الوطنية كديغول وفلاسفتي وأدبائي. ولعل ذلك ما كنتُ أفتش عنه وكدت أنساه في غمرة تعثري بجسدي. جميل أن يؤكد لي ذكور بيروت جمالي، وأطلق العنان لشهواتي الجسدية التي تعبث بها أصابع البحر المتوسط ودفئه كأنامل عازف خبير. ولكنني ما زلت أفتش عن شيء آخر رضعته مع أبجديتي الفرنسية اسمه العطاء الإنساني لا الذاتي الجسدي وحده.**

رن الهاتف النقال للسائق، ثرثر بالعربية مع محدثه أو محدثته بلهجة عصبية وأسكت إديث بياف. مع موت الموسيقى مات مناخ الأمان والود الإنساني. أخافتها نبرة صوته إذ شاهدت عبرها وجهاً آخر له. قرأت اسمه على اللوحة النحاسية «علي محمد مصطفى» وجربت أن تحفظه وتوجست من عصبيته شراً لسبب تجهله وشعرت أن مركبتها الفضائية غادرت المدارات الآمنة الواضحة إلى أكوان نصف مظلمة تجهلها. شرح لها بإنكليزيته المهلهلة المتأمركة أن عليه أن يسارع إلى بيته لنقل زوجته التي تعثرت ولادتها إلى المستشفى، فهل تريد الهبوط من السيارة؟

قرر قلبها: إنه يكذب وسيختطفني إلى زقاق كوابيسي.. هذا ما تقوله كهاربه وسيالاته. سيختطفني بذريعة أو بلا ذريعة والأمر مسرحية! كالمنومة استسلمت لما يدور، كأن كوابيسها أهّلتها لانصياع فضولي. وقبل أن تعترض أو ترفض أو تصمت هلعاً أو تصرخ مستنجدة أو تطلب منه إنزالها من السيارة، بدّل وجهة سيره بانعطافة مرعبة.. وانعقد لسانها!

قاد بسرعة مجنونة. تبدلت تضاريس المدينة، غابت الشوارع المعبدة وحلت محلها طرقات شبه ترابية مليئة بالحفر. ندمت لأنها لم تطلب منه إنزالها في الرملة البيضاء أو أمام «فندق سمرلاند» وهو آخر مَعْلم تعرفه. أدركت أنها اقترفت غلطة العمر بصعودها إلى سيارة غير المتوقفة عادة أمام باب المسبح. تقفز السيارة كجرادة فوق دروب شبه ترابية مليئة بالحفر. . تمر قوافل نساء «بالتشادور». **تذكرت بعد فوات الأوان فيلم «لن أرحل بدون ابنتي» الذي اصطحبني إليه في باريس صديق يهودي وتدور أحداثه في «مجاهل دنيا الإسلام» في نظر كاتبته الأميركية التي يفترض أنها تروي حكايتها مع زوج طبيب إيراني سامها مر العذاب حين رافقته في إجازة إلى طهران واحتجزها وطفلتها معاً وقمعها وأذلها لأسباب غيبية وصار غريباً عنها وشبيهاً بالجماعة وكان هاجسها الفرار بابنتهما إلى العالم المتحضر. . كم هي مرفهة قياساً إلى ما ينتظرني كرهينة في أزقة الرعب التي شاهدتها في حدسي الاستباقي.**

غابت بقايا الشمس خلف غيوم سوداء كثيفة تجددت وزمجرت وبدأت أحمالها الغامضة تنفجر مطراً من السواد كما تبدى لها. **أهذه الدروب الموحشة البائسة هي أيضاً بيروت؟ هل يعقل ذلك؟ هل أنا الآن في مجاهل «دنيا الإسلام» التي تحدثت عنها كاتبة الرواية التي شاهدتها فيلماً؟ هل أنا في قلب الزلزال حيث الحياة بلا قيمة إنسانية ناهيك عن المرأة؟ أهذه بيروت الحقيقية الخفية لا بيروت الصبحيات النسائية واليخوت والمقاهي واللطف الذكوري والرهافات الشعرية؟**

أهذا هو الوجه الخفي لبيروت في مطلع الألفية الثالثة في مرآة الحقيقة وما تبقى واجهة سياحية للحمقى مثلي، أم ثمة بيروتان تتعايشان بصعوبة بالغة على طريقة سائق التاكسي في رفع النافذة لي، بيروتان تشبهان الدكتور جيكل والمستر هايد وأنا الآن في طريقي لأصير جثة في خزانة المستر هايد؟

يوغل التاكسي دخولاً في تلك الأزقة البائسة البشعة المرعبة ولسان د. ماري روز معقود! تريد أن تصرخ ولا تجد صوتاً كما في كابوسها. . وبالضبط كما في كابوسها، ترى ما سبق لها أن شاهدته في حدسها الاستباقي. غابة من الأسلاك الكهربائية الفوضوية الشعثاء كشعر جني، وحبال ممدودة من نافذة محطمة في شبح مبنى إسمنتي بشع إلى أخرى مقابلة نشر عليها غسيل كئيب وتدلت الثياب الخاوية كجثث موتى منشورة في الشوارع. أعلام سوداء تتخللها إعلانات بالفرنسية والعربية عن مبيدات للجرذان والجرذان ترتع فوقها رغم المطر. لاحظت صور رجال ملتحين على طول أهوال أزقة الرعب هذه وضايقها أكثر من ذلك كله أن السائق منذ أن تكلم بالعربية في هاتفه النقال تحول إلى شخص آخر كأنه قام بتلاوة نشيد الشر.

صار لا يبالي بالوقوف أمام الضوء الأحمر كمن أصابه مس أو قرر اختطافها، أو صدرت له الأوامر بذلك، وأوحى لها ذلك بالحس بالخطر البالغ حيث لا يعني له الضوء الأحمر أي ضوء أحمر بكل المعاني شيئاً والكلام باللغة العربية أعاده إلى قانون الغاب.

شعرت د. ماري روز برعدة خوف تستولي على جسدها كله وروحها وكيانها وتأكدت من أنه اختطفها إلى الشارع بالذات الذي شاهدته في حلمها الرؤيوي وكانت تتوقع كل ما يحدث لها ولا تعانده كأنها مرصودة لتحقيق كابوسها الحدسي الاستباقي المرعب المتكرر.

غمرها شعور مذلّ بأنها تتحرك الآن في مدينة أخرى غير وهمية هي مدينة الرهائن المخطوفين الفرنسيين وينتظرها مصير مماثل بين تلك البيوت البشعة الإسمنتية الفوضوية التي تدلت من نوافذها وشرفاتها ثياب منشورة يغلبها السواد، تعلوها لوحات لرجال ملتحين عابسين وتحتهم يهرول رجال بلحى مشابهة وتعابير وجه منقولة على اللوحات ونساء بالتشادور. كادت د. ماري روز تنفجر باكية وتطلب من السائق إعادتها إلى المسبح حين توقف أمام باب تجمعت حول عتبته المياه المبتذلة وقال على عجل: هل تريدين الدخول معي؟

لم تفهم ما يحدث حقاً لها. **مع المخطوفين، لا أحد يسألهم عن رأيهم! فماذا يدور الآن؟** بهلع أجابت بكلمة واحدة لم تجد أنفاساً أخرى لشرحها: لا.

في مكان كهذا أخفوا الرهائن. في مسرح كوابيسي النبوئية. في بيت كهذا كنت أرى المخطوفين. في أماكن كهذه طالما ارتجفت هلعاً وأنا أراها على شاشة التلفزيون، وأختبىء في ركني الباريسي الدافىء كمحارة تنزوي في صدفتها. ها أنا الآن داخل الشاشة، مخطوفة جديدة فيا لرعبي.

حين لم تجب د. ماري روز بغير عبارة «لا» وظلت طويلاً صامتة وهو ينتظر منها اعتراضاً في جملة واضحة، انطلق السائق راكضاً إلى بيته شبه معتذر: آسف يا سيدتي!

الوغد. سيدّعي أنهم أرغموه على ذلك والمحصلة واحدة. ها أنا في مدينة الشر والرعب. الآن سيتدفق عليَّ عشرات المفترسين. سيقومون باغتصابي أو بإرغامي على أداء أعمال السخرة، أو سيكتفون باختطافي وطلب فدية.

ندمت لأنها ثملت بالشمس وبتلاوات قصائد شاعرها وسيم بالفرنسية لقصائد رامبو وبودلير وقصائده، وصدّقت أكذوبة بيروت الحرية والحضارة والانفتاح والآن ستدفع ثمن حماقتها سجينة في غرفة معتمة كما شاهدت الرهائن في فيلم لمارون

بغدادي على شاشة قناة «آرتي» الفرنسية و«الوحوش» المتخلفين المزاجيين الحمقى الذين احتجزوهم وأذلّوهم. وستُسام مر العذاب كما حدث للرهائن وكما طالعت في مذكرات بعضهم.. **إذا لم أهرب سأصير سجينة في غرفة معتمة، رهينة مربوطة من قدمها بسلسلة حديدية كما وصف الرهائن الفرنسيون ما مروا به، وكما رسمهم مارون بغدادي في فيلمه بصدق، كالدواب وعبيد القرون الوسطى التي ما زال الخاطفون يعيشون فيها، وكل ذلك ثمناً لكذبة صدقتها! عليَّ أن أهرب. عليَّ أن أهرب الآن قبل فوات الأوان.**

سمعتْ أصوات عويل ونواح وصراخ.. أصواتاً قادمة من الباب المجاور لذلك الذي دخل منه السائق. استولى عليها ذعر لم تعرف له مثيلاً من قبل من تلك الأصوات الممتزجة بالأعلام السود والصور لملتحين متجهمين والمناخ البائس البشع العدواني المكهرب الدامع تحت المطر والجرذان التي تتقافز فوق أعمدة الكهرباء الجثثية التي ستُشنق أو تُحرق على عمود منها، وأدركت أنها لعبة في يد قوى تجهلها كذاهب إلى قدره المظلم متحالفاً بخطئه مع قدره وجلاده.

وازداد شعورها بأنها في غابة حين شاهدت صبياً صغيراً يسرق من أمام باب بيت العويل المجلل بالأعلام السود حذاء متروكاً عند الباب مع عدد من الأحذية يحمله بيدين هشتين وسحبٌ من البعوض والحشرات تحوم حول وجهه رغم المطر وجرذٌ كبير يتسلق جداراً.. دون أن تفكر حقاً بما تفعله غادرت السيارة وبدأت الركض على غير هدى، وأوهامها كلها تتكسر فوق رأسها. **الرقص المجنون في المقاصف البيروتية الليلية. الشمبانيا في ظل لوحات «السونا» على يخت الرفاهية وضوء القمر والفساتين الحريرية والتنهدات والشموس الليلية والأعمال الفنية الخالدة وموسيقى موزار ورخمانينوف وشوبان.. السهرات والطرب ونجمات المجتمع ينافسن الراقصات بهز البطن على الطاولات، الصبحيات النسائية المضمّخة بروائح العطور وأحدث الأزياء والخدم والمطاعم البحرية الفخمة ومجوهرات ألف ليلة وليلة على أجساد نساء عصريات المظهر والمرافقون والسائقون الشبان وجيوش من العاملات الآسيويات المنزليات والهمسات على «البورتابل» المسروقة.. ذلك كله هراء كالسيليكون المزروع في الشفاه، والمجوهرات المتدلية من أعناق مدينة «ماري أنطوانيتية» معدة لمقصلة بيروتية آتية.. الرهافات وأطباق «الليموج» وفضيات «كريستوفل» على الموائد.. ذلك كله هراء.. ها أنا الآن في زقاق الحقيقة.. في بيروت ٢٠٠٠ المرعبة البائسة.**

كأي غزال مذعور في الغابة انطلقت راكضة. ركضت ركضت دون أن تعي

إلى أين وكيف. انزلقت قدمها على حافة حجرية لجدول متدفق وعت ببؤس أنه مصرف للمياه الآسنة يتوسط الزقاق الذي يزداد ضيقاً والمطر المتوحش ينهمر عدوانياً. مر بها أطفال يحملون حقائبهم المدرسية وبينهم بنات محجبات لعلهن في العاشرة من أعمارهن وشاهدت في مرايا عيونهم المدهوشة وهي تتأملها تشعثها وشعرها الأشقر المتوحش وساقيها اللتين لوحتهما شمس الشتاء وتتسللان من خلف التنورة المشقوقة لتشيا بجسد من قارة أخرى. . ودنيا مختلفة.

آه شبكة عنكبوتية من الأسلاك المكهربة في العيون والجدران. . أركض بهلع وسط ذلك المناخ اللامألوف تطاردني الكلاب المرعبة الشاردة التي تعوي عليّ بالذات في مناخ كبرت وأنا أراه عدوانياً. . صرت أتوقع السقوط في فخ في كل لحظة.

تلحظ دكان بائع «اللحم العاري»، بائع الجثث المعلقة بخطافات، مكشوفاً للذباب والسكاكين وتتخيل نفسها معلقة على ذلك الخطاف متدلية منه، وترتاع لمشهد ذلك المراهق الصغير الذي حمل رشاشاً وهو يتمخطر في الزقاق تحت المطر، ويطلق النار عليها بصوته مداعباً وترعبها الدعابة أم أن رشاشه لعبة؟ تظل تركض وقد بدأت تردد لنفسها: لقد تحقق كابوسي الحدسي. لن أعيش لأروي لأمي ذلك. . تركض. . ومياه المطر تختلط بمياه المجارير المبتذلة ورائحتها الكريهة تفوح بين بيت وآخر وطفلة تحمل فوق التشادور الذي يغطي رأسها «غالوناً» من البلاستيك البرتقالي الفاقع، وأشرطة متدلية مثل الأفاعي كان عليها أن تتحاشاها لكي لا تتكهرب وهي تركض مذعورة. وفجأة أحاط بها بعض الذكور المراهقين المهتاجين ولم تدر ما خطبهم وهل يريدون اغتصابها أم قتلها أم طردها من مجالهم الحيوي، ولكن أحدهم سألها بالإنكليزية عما إذا كانت ضائعة بلهجة خُيِّل إليها أنها لطيفة وودودة، ثم شعرت بيد تمسكها من الخلف من كتفها وصرخت هلعاً والتفتت وشاهدت وجه السائق علي وهو يقول لها بإنكليزيته المرتبكة الغائمة: لماذا هربت يا سيدتي؟ اعذريني على ما حدث ولكن القابلة اتصلت بي لإخباري بأن ولادة زوجتي متعسرة على غير عادتها مع أولادنا الثلاثة السابقين وتريد مني المسارعة لإيصالها إلى المستشفى. سألتك إن كنت تريدين الهبوط من السيارة وكررتُ السؤال ولم تجيبي. سامحيني إذا كنت قد أخفتك ولم أوضّح الأمر جيداً. لقد فقدت صوابي قلقاً.

لم تجب بل تابعت هربها راكضة وهو يلحق بها قائلاً بإنكليزيته المفككة: من حقك التفتيش عن تاكسي آخر، لكنك نسيت حقيبة نقودك في سيارتي.

تعالي. . لا تخافي.

توقفت واستدارت نحوه. تابع بلهجة مريرة: هل تظنيننا وحوشاً يا سيدتي؟ بدلاً من التفتيش عن طبيب أو نقلها إلى المستشفى قلقنا عليك وركضنا خلفك خوفاً من أن تصابي بمكروه! تركتُ زوجتي في حال يرثى لها للتفتيش عنك، لماذا هربت؟

لم تصدق ما تسمعه. **هل يعقل أن يكون هذا «الوحش البشري» الذي طالما شاهدتُ أمثاله من خاطفي الرهائن في السينما وعلى شاشة التلفزيون وفي كوابيسي على هذه الدرجة من الحس بالمسؤولية؟** لا. لا. لن تصدق هذه الخديعة. لكن صبية تغطي شعرها بمنديل أبيض مدت يدها إليها وهو يقول: هذه ليلى أختي. ستساعدك. تعالي. **هذا لم يكن في الكابوس/ الحلم المقيم داخلي منذ وصولي، فإلى أين ستقودني؟**

شعرت بما يشبه الخجل المشوب بالندم، لكنها ظلت خائفة بعض الشيء. لقد تحقق كابوس الزقاق والهلع والرعب وبيروت الأخرى ولعلها بيروت الحقيقية أو أن الحقيقة هنا توأم سيامي معقد، لا حياة لأحدهما بدون الآخر، فماذا الآن؟

قالت د. ماري روز بصوت مرتجف قبل أن تستعيد رباطة جأشها: أنا طبيبة نسائية. خذني إليها، إلى زوجتك. سأساعدكم وأقول لك على الأقل إن كانت بحاجة إلى نقلها للمستشفى. . وإن كان ذلك ما يزال ممكناً.

أعادها وأخته إلى «بيت الرعب»، والأعلام السود متدلية فوق مدخل «بيت الصراخ» المجاور وفي منتصف الشارع ممتزجة بلوحات الوجوه المتجهمة الملتحية.

علي قال لها شبه معتذر عن العويل الآتي من خلف الأعلام السود: سامحينا. إنهم يبكون إبنهم الممرض المتطوع طالب الطب حسين الذي استشهد البارحة بالرصاص الإسرائيلي في أرضنا اللبنانية المحتلة في الجنوب وكان يحاول نقل بعض الجرحى إلى المستشفى حين أطلقوا رشاشاتهم وقذائفهم على سيارة الإسعاف. لعلك سمعت عن الحادثة؟

لم تجرؤ على أن تقول له إنها لم تسمع غير موسيقى بيتهوفن وشوبان وموزار على يخت صديقها يحيى الثري رجل الأعمال الشاب اللبناني، ولم تكن أصلاً تدري أن ثمة أرضاً لبنانية احتلتها إسرائيل «المسالمة المسكينة» وكانت تظن ما يدعوه البعض بالمقاومة مجرد إرهابيين مرضى يتحرشون بالعائلات البريئة الإسرائيلية لاستعمالها عتبة للذهاب إلى الجنة عبر موت بضجيج كما قرأت مرات ومرات.

حين خطت عبر عتبة بيت علي وأخته ليلى شعرت أنها تمضي إلى ما وراء كابوسها كمن يخطو إلى داخل لوحة ولا يدري ما ينتظره خلف القماشة السطحية الملونة بالأصباغ.

أول ما لفت نظرها نظافة المكان قياساً إلى الخارج، وازدحامه بالأطفال.

أطفال يتقافزون على وبين وتحت وفوق مئات الأدوات اليومية والأشياء الفوضوية فوق التلفزيون وسجادة الصلاة و«الفرشات» المطوية لتصير مقاعد نهارية والكتب المدرسية وفناجين القهوة وزهور بلاستيكية ومرآة مغبرة ومصباح «هالوجين» مشقق الدهان وآنية الطعام وأكياس النايلون المنتفخة كالجثث المتورمة.. وسط مكان من الفوضى الحياتية تألقت عيون أطفال وأطفال ودموع نساء مذعورات حائرات وتم اقتيادها إلى «الولّادة» الشابة لكنها طلبت غسل يديها أولاً وقد تمالكت نفسها واستعادت «مهنيتها» الراقية كواحدة من أفضل الطبيبات الباريسيات النسائيات الطالعات.

مضين بها إلى مطبخ. ظنت أنهم فهموا خطأ أنها جائعة، فطلبت من ليلى أخت علي الذهاب للحمام وقالت ليلى وهي تشير إلى حوض غسيل الأطباق: هذا هو الحمام. هنا نستحم أيضاً، على أرض المطبخ بعد غلي الماء على موقد الغاز.

شعرت د. ماري روز بشيء من الخجل وهي تتقدم بطلباتها من منظارها الباريسي على بشر لا ينتقص من إنسانيتهم أنهم مضطرون «للاستمرارية» والحياة على نحو مغاير عن مألوفها: لا مطبخ مستقلاً. لا رفاهية حمام مستقل. قبل غسل يديها طلبت من ليلى باستحياء الذهاب إلى دورة المياه وصعقها أن تجد نفسها في «علبة» متفرعة عن المطبخ بحفرة بدائية. شعرت بالخزي من رفاهيتها وشكوى والدها المستمرة من فقره. فقد فتشت عن صنبور الماء الساخن واكتشفت أن لا ماء ساخناً ولا بارداً وصبت لها ليلى الماء من دورق!

بعدما فحصت الشابة الجميلة آمال زوجة علي المتفجرة ألماً وتماسكاً وعافية، قالت لزوجها علي: أظن أن زوجتك تكاد تنجب توأماً. لا أستطيع الجزم بالأمر. الولادة تبدو لي نسبياً طبيعية ولكن هل تستطيعون إخراج هؤلاء الأطفال كلهم من الغرفة؟ لتبقَ القابلة لتساعدني. لاحظت أن البيت بأكمله هو هذه الغرفة والمطبخ لا أكثر وأن طلبها يعني قذفهم إلى شارع المطر ولكن.. ولكن.. ثمة المدخل الصغير.

سألت علي: هل تستطيع الذهاب عند الجيران لإحضار الأدوات الطبية للمرحوم حسين بدون حرج؟ إني بحاجة إلى أدوات ملائمة وشاش معقم وكفوف

طبية و. . و. . أجاب: بالتأكيد. . العواطف مهمة، ومحفوظة، لكنني لن أشعر بالحرج. فالأهم الاستمرارية! ولن يجرح شعور أرملته ذلك.

لم تدع د. ماري روز غرورها يقرر عنها. من الأفضل طبعاً أن تكون آمال في غرفة العمليات في المستشفى، لكن نقلها الآن إلى المستشفى قد يتسبب في خسارة المزيد من الدماء النازفة. مساعدتها بهدوء على الولادة بصورة طبيعية هي الحل الأمثل الآن، والأصعب ربما ولكن الأكثر حكمة.

نسيت د. ماري روز كل شيء عن كابوسها ومخاوفها وركضها المسعور في زقاق الهلع وعادت إلى حقيقتها الداخلية طبيبة تسيل إنسانية لا تريد غير احترام الآخر وإنقاذ روح أخرى مختلفة أو غير مختلفة لا فرق. . **وليذهب جان بابتيست إلى الجحيم باحتقاره لكل من ليس أزرق العينين بدم شمالي جداً مثله.**

ثلاث ساعات من هلع قلب د. ماري روز وعلي وليلى وبقية نساء القبيلة وهمهمات الأطفال كطنين النحل وارتجاف القابلة وصراخ آمال التي كانت تفهم الفرنسية فوالدها مغترب غير ثري في أفريقيا وكبرت هناك، ثلاث ساعات تواطأت خلالها مع ليلى أخت علي فعقَّمت لها أدوات المرحوم الطبية المعدنية، ثلاث ساعات سهّل مهمة د. ماري روز خلالها قدرة آمال على محاورتها بالفرنسية، ثلاث قارات من المخاوف خاضتها د. ماري روز ثم برز رأس وانطلق كقنبلة فصاحت الدكتورة ماري روز: مبروك!

جاءت المولودة الأولى، مبروك جاء المولود الثاني! يا علي أنت أب لتوأم وهذا سبب تعسر الولادة ولكن آمال بنت رائعة وبأحلى صحة.

سألها علي بصوت يرقص فرحاً وامتناناً ما اسمك يا سيدتي الدكتورة؟

قالت مداعبة: كيف صدقت أنني دكتورة؟

أجاب: نحن نصدق طيبة الناس. نحن هكذا يا سيدتي.

قالت: لم تخطىء. ما كل الناس بأوغاد. وهذا ما علي أنا أن أتعلمه لا أنت. بدت على وجهه الحيرة فقد سألها عن اسمها لا أكثر! قالت وقد لاحظت ارتباكه ونقاءه أمام تعقيداتها الذهنية: اسمي ماري روز.

قال بصفاء: الدكتورة ماري روز. ما أجمل هذا الاسم. ما رأيكم أيها الأطفال بأن نسمي البنت على اسمها؟ مريم زهرة أي ماري روز؟

هتف الأطفال الذين تسللوا إلى الغرفة واحداً بعد آخر ولم تلاَحظهم: نعم. نعم. مريم زهرة. ماري روز. مريم زهرة. ماري روز. . صاروا يرددون الاسم

بلغتين كأغنية.

قال علي: والصبي؟ ما رأيكم بأن ندعوه على اسم جارنا المرحوم حسين؟ صار الصغار يهتفون: حسين.. حسين..

قالت ماري روز بلهجة آمرة: ليخرج الجميع من هنا إلى المطبخ أو الشارع أو ليلعبوا داخل دورة المياه، المهم إخلاء هذه الغرفة لتنام آمال.

شرحت ليلى للدكتورة ماري روز ما دار بالعربية من حيث تسمية التوأم وتأثرت لأن طفلة لبنانية ستحمل اسمها، وطلبت ماري روز أن تكون عرّابتها ولم تفهم ليلى أو علي معنى «عرّابة» لكنهما فهما أن ذلك يعني بقاء الصلة بطريقة ما، والأهم دفع أقساط الطفلة في المدرسة كما أملا!

في مدخل البيت الذي لا يتسع لحمامة اجتمعت عشرات من نساء الأسرة وأطفالها، وباحت د. ماري روز بأنها جائعة تريد قطعة خبز محمص! وما كادت تبوح بذلك وتنتشر الأمنية حتى تلاحقت الطناجر على الأرض بروائح شهية ومآكل لم يسبق لها أن ذاقت «طعمات» حريفة غريبة وشهية مثلها، وقيلت لها أسماء لم تسمع بها في المطاعم.. والتهمت ما لم تلتهمه من قبل دونما مخاوف السمنة.

أحاطت بها قريبات الزوج والزوجة يقبلنها. تأثرت ماري روز بمهرجان الحب العفوي هذا.

هذه تخلع قرطين من ذهب لعلهما كل ما تملك وتريد وهبهما لها بيدين أدماهما الكدح، وثانية تحاول عبثاً إخراج خاتمها الوحيد من أصبع لم تلحظ أنه انتفخ مع الزمن لتهبه لماري روز على فقرها البادي في ثيابها وملامحها المتعبة، وجدة التوأم تمنحها من يدها إسوارة هي بالتأكيد كل ما تبقى لها.. أحاطوها بأيد متورمة بالشقاء والعمل والكدح والفقر وهم يعطونها ما لديهم. كادت د. ماري روز تدمع دهشة أمام كرم الذين يهبون القليل ولكنه الكثير الكثير في نظرها لأنه كل ما لديهم ببساطة وبراءة وعفوية أسَرَتها. وعت متعتها الأولى: العطاء لمن هو بحاجة إليها في الكوكب الشاسع، للخالق العظيم.

مع وسيم ويحيى انتشت لكنها ظلت تشعر بوحشتها، بل لعل وحشتها تعمقت بقدر نشوتها الجسدية. هنا تشعر بمتعة استثنائية تتصاعد بلا هبوط لعلها متعة العطاء والامتزاج بالآخرين كما يدعوها الأدباء الذين تضجر أحياناً من القراءة لهم! بل لعلها للمرة الأولى تشعر بانتفاء وحشتها، على هذا النحو وتعي ما تريد أن تفعله بحياتها لا بجسدها وحده: أن «تعطي» لأشخاص كهؤلاء لم يكن لهم مثل حظها وهم بحاجة إليها. للمرة الأولى قفز إلى رأسها اسم «أطباء بلا حدود» وفكرت بأنها

بالتأكيد ستنضم إليهم لا محالة.. وستسافر معهم إلى أنحاء الأرض حيث الملايين من الذين تستطيع المساهمة في جعل حياتهم أقل بؤساً، فلمَ تخافهم؟ هذا بينما جلست الأخت الصغيرة لعلي تزين لها قدمها بالحنة وترسم عليها رسوماً محلية جميلة.. وهي تلتهم أطايب الحلوى اللبنانية التقليدية والكل يضحك لشراهتها.

هبطت الظلمة سريعاً. تفرق زحام الحضور، وماري روز تعتني بآمال وتقيس ضغطها ونبضها وتنصت إلى قلبها.. وحين نامت بسلام اتصلت هاتفياً بدانا وردت سليمى وهي تقول: متنا قلقاً عليك؟ أين أنت يا ماري روز؟

ـ لن تصدِّقي إذا عرفتِ...

* * *

كأسك يا لبنان. لا شيء كما كان..

حين حلقت الطائرة بالدكتورة ماري روز فوق بيروت اعتصر الغم قلبها وهي تتساءل: ترى هل انتهت الحرب حقاً أم أنها بدأت الآن كما تردد سليمى نقلاً عن ماريا التي تشم مسبقاً رائحة الزلزال كما تصفها. هل انتهت الحرب؟ لقد انقضت إجازتها، وهي في درب العودة إلى باريس.. بهرها من جديد الضوء الساطع المتوسطي الاستثنائي الذي سبق له أن بهر ماتيس في المغرب العربي. حدقت من نافذتها مودعة بحنين وصُدمت حين شاهدت غابة من الحجارة، والإسمنت المرصوص بلا مساحة خضراء واحدة. حاولت أن تعرف في أية غابة إسمنتية بشعة كان بيت علي وهل هذه النقطة البراقة في البحر قرب الشاطىء هي يخت يحيى.. **كلكوتا وموناكو في رقعة صغيرة واحدة.. نار وماء.. فقر وثراء.. تعرّ وتزمت. لن يكف اللبنانيون عن إدهاشي حتى وأنا أطير بعيداً عنهم، وعن موزاييكهم. حرب تنتهي أم تبدأ لكنهم يضحكون ويرقصون ويتصالحون وينسون ولا ينسون. لكنهم يعشقون بهجة العيش. فلماذا يغتالون الحدائق ويقتلون الأشجار وعاصمتهم رقعة من الإسمنت المسلح البشع على وجه كوكبنا؟**

وهل لقتل الأشجار صلة بقتل التعايش بين الأديان والطوائف كما أكد لي شاعري وسيم عاشق «أوراق العشب» وصاحبها والت ويتمان؟ لم أودعه، ولم أودع يحيى.. لا وداع مع الذين يحملون مرايا الحقيقة لنا أمام وجوهنا، ومعهما اكتشفت قدرتي على التحليق فوق بساط الريح وفي أصبعي خاتم علاء الدين أفركه حين أشاء ولم يعد بوسع خطيبي المليونير جان بابتيست أن يعيدني إلى حظيرة «ايجلو» الغرام الثلجي الخاص به، وفوق ذلك كله كنت أنا المُتَهَمَة! جان بابتيست هو الذي سأودعه.

أما وسيم شاعري الخمسيني العذب و«يايا» الخائن لزوجته المخلص لجنونه وشهواته فسيستقران في ذاكرتي دائماً، فمعهما سبحت في خضرة الغابة وتنزهت بين أغصان الموج وعرفت جنون الحواس. مع اللبنانيين اكتشفت أيضاً متعة الحوار مع أشخاص يفكرون على نحو آخر، فذلك يعلمني الكثير وعبره اكتشفت سر قوتهم التي يستمدونها من حقائق أجهلها.. ولكنني تعارفت للأسف متأخرة مع علي وليلى وآمال ولا مفر لي من العودة. تحدّق د. ماري روز من نافذة الطائرة بحثاً عن البيوت الفوضوية المشعثة في ضاحية بيروت.

هناك بالذات عرفت نفسي، وأدركت أن حلمي الحدسي النبوئي ـ على عادة أمي وجدتي وجدتها ـ هو أيضاً دربي إلى التعارف بعمق مع الآخرين، ولم يكن في كابوسي نهايتي كرهينة فرنسية في عرين أحفاد الكونت «دي ساد»، بل بداية تعارفي مع بشر يسيلون إنسانية ظلمهم الإعلام وظلمتهم سياسات. واكتشفتُ أن حقيقة أخرى تختبىء خلف ما كنت أظنه «الحقيقة». ثمة بيروت سرية نابضة متربصة مثل لغم أو قنبلة موقوتة لا يمكن تفكيكها إلا بالحب والتفهم الإنساني. ثمة موزاييك بيروتي معقد لم يتح لي الوقت لمعرفته لكنني صرت أعي وجوده المعقد الديناميكي. ولن أنسى يوماً وجه آمال الشابة الجميلة القوية وهي تنجب ولا تعرف الشكوى من الألم، ولا وجوه نساء يسلن محبة وإنسانية وعطاء رغم فقرهن ويغمرنني بهداياهن.

حين غادرتُ فيلا دانا هذا الصباح إلى المطار فوجئت بهم جميعاً ـ علي وقبيلته ـ في انتظاري أمام بابه.. حضروا لوداعي حاملين المزيد من هداياهم وقبلاتهم ودفء قلوبهم وقالوا إنهم لم يذهبوا لوداعي في فيلا دانا كي لا يزدحم المكان بهم ويزعجوا أصحابه وأرتبك. يا للرقة والعذوبة ولإسوارة والدة علي محمد مصطفى التي تحيط بمعصمي الآن بذهبها الثمين الغريب الصياغة ويا لنقاء قلوبهم.. ويا لها من إجازة تعارفت فيها مع بيروت السرية وذاتي السرية، وبدَّلت مجرى عمري!

وما أجمل سليمى التي كنت أراها عجوزاً كوالدة لصديقتي، وبدَّلها ضوء الحب فلاحظت جمالها الذي صارت تتقن إبرازه، وخسارتها للزائد من وزنها ناهيك عن امتناعها عن التدخين بقوة الحب.. بعدما حاولت عبثاً الإقلاع عن التدخين في باريس وتابعتُ البرامج الخاصة بذلك التي تبرعتُ كطبيبة في تنظيمها مع أطباء آخرين لمساعدة الراغبين في الامتناع عن ذلك السم النيكوتيني.. ما الذي لا تفعله قوة الحب؟

صديقتي دانا بنت سرية تتكتم دائماً على دخيلتها، لكنني أعرف أنها تخوض معركتها بشراسة لاستعادة أمها مهملةً حباً كبيراً كان من الممكن أن تعيشه مع الدكتور نبيل. أما صديقها الشهير الثري رامز المندال الذي تحاول إقناعه بالدخول في شركة «كومبيوترها» كشريك محلي فيبدو لي من مديحها له أنه تاجر «مرّ» مشابه لوالدها ومشروع متاعب لها ولن يحالفها مالياً إذا لم يكن المشروع مربحاً بشكل فاحش، فهو لا يتقن شيئاً غير فن الربح كما قالت والدتها.

المرعب في هذه الرحلة اصطدامي كابنة للعلم بجدار المجهول اللامعلوم الغرائبي، فقد تحقق حلمي الحدسي النبوئي ولكن على نحو آخر. فيا لعجز الطب أمام غموض ما يحدث لي من ظواهر! وها أنا أتعلم أنني كلما ازددت علماً كلما وعيت جهلي بأسرار هذا الكون الرحب. ويا لعجز الطب والعلم أمام ظواهر شاسعة كالتي ذقت غيمة منها. نظرت الدكتورة ماري روز من جديد عبر نافذة الطائرة. كانت بيروت قد اختفت وجزيرة قبرص أيضاً والمضيفة تقدم لها كأساً من الشراب. الشاب الوسيم الجالس في المقعد المجاور تناول الكأس من المضيفة وقدمه لها بعينين ترقصان غزلاً وقال لها بفرنسية ذات لكنة لبنانية محببة صارت تميزها: تفضلي يا سيدتي. اسمي وسام، وأنتِ؟. شقة وسيم تركض داخل رأسها ويخت «يايا»، والبيت البائس المهترىء لعلي المتأنق والوجوه النضرة فيه.. دوامة من الأصوات والروائح والوجوه والضوء الساطع لبيروت كادت تقتلعها من مقعدها في الطائرة بالرغم من أنها ربطت حزام النجاة جيداً وترمي بها إلى الفضاء في عراء حيرتها واكتشافها لجهلها بهذا الكون الرحب الشاسع.. «وهكذا بعد وسيم جاء دور وسام»؟ كادت تضحك لهذا الخاطر.. آه، لم أعرف من قبل اللذة القصوى والحزن الشاسع ومغاور ألف ليلة وليلة (التي نراها على شاشاتنا مزورة في راقصة هز بطن) والآن صرت أعرف أن الشرق دنيا غير هوليوودية «مفبركة»، دنيا من الأسرار والمشاعر والعطاءات..

متحرشاً قال لها الشاب الأنيق اللبناني جارها في مقعد الطائرة: لم أسمع اسمك جيداً يا سيدتي الجميلة.

وثانية، كادت د. ماري روز تنفجر ضاحكة.. هل ستبدأ حكاية جديدة مع لبناني جديد؟ كأسك يا لبنان! وابتلعت شرابها مرة واحدة!

* * *

جلس سعيد على شرفته لحظة الغروب يرسم غيوماً اصطبغت بلون أحمر دام كنبوءة وصار يرسمها ويرسم الناس متحسراً لأنه فقد قدرته على الرسم «الحقيقي»

منذ قتله لـ «أبو الغوانم». **أنا مثل متوحد «باربوس» مؤلف كتاب «الجحيم» أتأمل العالم الخارجي من ثقب شرفتي كما كان بطله يتأمل الدنيا من ثقب باب ولا يرى مدى اتساع الكون إلا عبر ضيق زاوية الرؤية.**

حين انسكبت عباءة الليل نهض متعباً وتمدد في سريره وهو يعترف لنفسه: منذ اليوم الذي قتلت فيه أبو الغوانم ماتت يدي ولم أعد أرسم جيداً حقاً كأنني أعاقب نفسي بتدميري لذاتي.

لا يدري سعيد هل نام وحلم أم «انخطف». شاهد نفسه داخل بيت مظلم لا يعرفه يحمل خنجراً ويتسلل محموماً بالغضب ليطعن كهلاً نائماً وهو يكتم أنفاسه باليد الأخرى كي لا يصرخ ويلهث. وسمع صوتاً قادماً من حنجرته ليس صوته نصف منتحب وخافت وهو يقول للرجل: أنت المسؤول عن خراب بيتي. نهبت مالي ولم تكتف بذلك بل سلبتني زوجتي.. وصار يطعنه مراراً ويتعذب بفعلته بعذاب القاتل والقتيل الهزيل المطعون الذي يرتعش محتضراً تحت يديه. شاهد نفسه في ومضات ضوئية كالبرق يطعن الرجل مرات بفعل قوة جارفة ويضع له جرذاً ميتاً على عنقه بعدما جزه فهمدت حركة الرجل...

استيقظ سعيد والعرق يتصبب منه. داهمه انزعاج مروع.

شعر أنه يريد أن يغادر سريره ويرمي بنفسه عن الشرفة ويرتاح إلى الأبد من تلك الكوابيس التي تنتهي دائماً به قاتلاً، وبصورة مروعة صباح اليوم التالي في جريدة يرى فيها القتيل الذي قتله ميتاً ـ دون أن يغادر بيته أو مكانه ـ والقاتل المنفذ شخص آخر.. **أنا قاتل الجرذان الوحيد الحقيقي ولم أعد راغباً في ذلك الصيد.. أريد أن أستريح.. تعبت وأريد إنزال الكرة الأرضية عن كتفي.. تعبت تعبت منذ اليوم الذي احتل فيه أبو الغوانم منزل المستأجر في مبناي الذي ورثته عن والدي، وورثت معه المتاعب التي قاساها أبي خلال الحرب وأنا مهاجر.**

اضطرني أبو الغوانم في نهاية الأمر إلى قتله دون أن أقصد ذلك، لكنني علّقت له جرذاً في عنقه ومن يومها بدأ كابوسي.

لم يأت أبو الغوانم في البداية كمحتل كما روى لي والدي قبل رحيله بل كسائق للسيد شكري الذي انتقل إلى الشطر الآخر من بيروت لأسباب طائفية وطلب من سائقه ومرافقه «القبضاي» أبو الغوانم الإقامة في بيته لحراسته من السرقة.

في البداية سرق أبو الغوانم البيت. وحين أبدى السيد شكري رغبته في العودة إلى بيته بعدما طمأنه أبي إلى أنه ما من أذى أصاب بقية أصحاب ملته المقيمين في الحي هنا، هدده أبو الغوانم قائلاً إن الناس سيجدونه ميتاً في سريره في الليلة الأولى

لعودته، فـ«المنطقة» ليست منطقة «فتته». . بعدها نهب أبو الغوانم بقية الشقق في المبنى، أو بالأحرى الشقق التي هرب أصحابها إلى قبرص وغيرها من جحيم الحرب. . وعين نفسه مسؤولاً عن المبنى «بشققه الخمسين»، عن إحضار المازوت مقابل «خوات» للتدفئة ولمولد الكهرباء، والمسؤول عن حجبه عن هذا أو ذاك إذا اقتضى أمر التركيع والمسؤول عن إحضار الماء أو قطعه أو تعطيش أهل المبنى، وفوق ذلك كله احتل القبو وحوله في الحرب إلى إذاعة لإحدى الميليشيات و«قبض» الإيجار ثم حوله إلى ملهى بميكروفونات فاجرة الزعيق في السلم كما صار يقوم بتخويف المستأجرين وتهريبهم إلى قبرص مقابل بدل مادي و«وهب» شققهم لأزلامه. وتحول المبنى الذي كان «تحويشة عمر» أبي إلى وكر لأبو الغوانم: للسرقات. لبيع المخدرات. للخوات. وحتى للقوادة!

ولم يجرؤ أحد على الاحتجاج، ولم أجرؤ أنا أيضاً حين عدت من كندا. . . حتى كان ذات يوم، أبدى فيه جاري «الآدمي» استياءه علناً من بشاعة ما يدور ومن «الخوات» تحت أكثر من ستار راجياً منه إبعاد المسلحين الوقحين من مدخل المبنى وسلالمه التي صارت أوكاراً لهم، فأزلامه يخيفون الأطفال برشاشاتهم، ويغتصبون العاملات المنزليات حتى أن إحداهن حملت وانتحرت. . بدأ الأمر بالنفور العلني وتطور إلى كراهية من قبل الجميع وصار أبو الغوانم يبذل ما بوسعه لمضايقة الجميع ولم يكن ذلك صعباً بدءاً بزحام مسلحيه ـ الذين ارتدوا ثياباً مدنية كأقنعة! ـ واعتدائهم على بقية المستأجرين بالبذاءة ومروراً بالقذارة ورمي النفايات في المدخل.

حين انتهت الحرب وعودتي بكى الناس «الميليشيات» بدموع التماسيح وتوهمنا أننا تخلصنا من قرفها وقمعها وظلمها وتسترها خلف أقنعة الشعارات والخطابات المنبرية إلى الأبد، وأنها لن تعربد بعد اليوم على أشلاء سيادة كل واحد على بيته بحجة المساعدة على تحرير أرض سليبة. . ولكن لا. . فزعيم الحرب الميليشياوي الذي كان يحمي أبو الغوانم تحول إلى لاعب في السلم وبَدَّل بزته العسكرية إلى السموكن الأنيق. وعلمتُ حين عدت أن أبي مات قهراً وكان لا مفر من المواجهة مع أبو الغوانم منذ لحظة وصولي حين سخر من مهنتي كرسام وعاملني باحتقار وازدراد وقاحة فصار يقوم بتأجير بعض شقق المبنى التي احتلها وأزلامه كمكاتب لأسباب «وطنية» حربية أهمها تحرير الأراضي «السليبة» في تكرار مقزز لما فات وما من يبالي بعمرنا «السليب». . بل إن أبو الغوانم تشاجر مع أحد سكان المبنى وهو ابن ملته وتضاربا ولكن ميليشياوياً كان ينطق بلغة الرشاش أيام الحرب وصار لاعباً كبيراً رسمياً انحاز له أو بالأحرى انحاز لأصوات عشيرته الكبيرة في

الانتخابات ونطق بلغة «العدل!» في السلم وهرب الساكن الشرعي وبقي أبو الغوانم ولم يتبدل شيء حقاً رغم الخطاب الإذاعي اليومي الكاذب..

يوم قتلته لم يحدث شيء استثنائي لكنها القطرة التي جعلت الكأس تطفح. حمّلته ضمناً جزءاً من المسؤولية عن هرب زوجتي وابني وعودتهما إلى المهجر، وحين حاولت «تحرير» المبنى من إشارة السلطات البلدية عليه وعجزي بالتالي عن بيعه والتخلص من كابوسي تعذر عليّ ذلك لأنني «عمّرت» في سطحه بيتاً دونما استئذان من الدولة! قلت لهم إن البيت شيده المحتل أبو الغوانم لا أنا، ولا خلاص لي منه ما دامت دولة القانون لم تمد حقاً سلطتها. المهم أنهم زعموا «العفة» وعدم الرغبة في التدخل بيني وبين «المستأجرين»! وطلبوا مني هدم البيت بعد التفاهم مع «مستأجري!». يومها رفض أبو الغوانم أن يكلمني حين التقيته أمام المدخل بحجة «مشاغله!» وهي مشاغل تتلخص من وجهة نظري بتجاوزات ووقاحات وممارسات من زمن الحرب لم يبدّلها السلم حين بدّل بعض الميليشاويين أقنعة الحرب بأخرى سلمية وتابعوا ممارساتهم وظلت «التجاوزات» على حالها، ولكن على أنغام التانغو والفالس بدلاً من «روك» الحروب! وصار العنف داخلياً وصار صدري على وشك الانفجار كقاطرة بخارية مغلقة المنافذ.. بعدما حاولت أن أكلمه بساعات، تفضل وقرع بابي بيده والكهرباء مقطوعة رغم الاحتفاء الرسمي بعودتها مع السلم المزعوم. فتحت الباب وبيدي شمعة هزيلة مثلي كادت تنطفىء وهو ينفخ في وجهي أحقاده مثل أفعى تنفخ سمها في وجه ضحيتها وفاحت من فمه رائحة الخمرة كعادته وأدركت أنه ثمل. وكنت أكلمه كما يفعل المتحضرون، بل ودعوته إلى الدخول على مضض لكنه ركب حصاناً من الغرور ودفعني من صدري بيديه احتقاراً وهو يقول: منذ عودتك من المهجر وأنت تزعجني. قبلك كنت وسكان المبنى على وئام والآن صاروا «يتنمردون» عليّ! اقتديت به. دفعته من صدره بيدي وأنا أقول: إنهم يمقتونك، وهذا المبنى ملك لي لا لك.. أنت محتل وتزعم أنك تقاتل الاحتلال؟

هاجمني وصفعني. دفعته إلى الوراء بكل ما في جسدي من قوة وقهر.. وكما في الكوابيس شاهدته ذاهلاً وهو يتأرجح نحو الخلف ويفقد توازنه بفعل سكره الشديد ودفعتي الرافضة ويصرخ صرخة عدوانية، ويهوي بعدها إلى الخلف بصمت دونما صرخة ويغيب عن ناظري.. فقط حين سمعت صوت ارتطام جسده بمدخل المبنى على الأرض وعيت ما حدث: لقد دفعته وهوى في «بيت السلم» حتى القاع وارتطم.. هرولت كالمجنون صوبه في الظلمة النسبية، وصوبت مصباحي اليدوي

نحو وجهه وكان بشعاً في مماته كما في حياته والدم يسيح من رأسه وجانب فمه. حاولت أن أصرخ ليتصل شخص ما بالإسعاف والشرطة (إن وجدا!) فقد يكون ما يزال حياً ولكن صوتي تحجر مثل صباغ ملون طال تعريضه للعاصفة فتصلب.. على الأرض شاهدت جرذاً ميتاً، ولا أدري أي جنون عصف بي، إذ شعرت أن الجرذ هو الوسام الوحيد الذي يليق بحياة أبو الغوانم وموته (إذا كان قد مات!) وتركت له الجرذ كوسام على صدره تكريماً له على «نضاله» من أجل هدم لبنان! وتوقعت أن تقام له حفلات تأبينية يتبارى فيها الخطباء وقد يطلبون مني إلقاء كلمة فيها!

توقعت أن يفتح أحد بابه. أن يعترض. أن يسأل. أن ينجده فلعله ليس بميت. من طرفي، غمرني إحساس بأنني لا أريد مشاهدة وجهه بعد تلك اللحظة ولا الكلام عنه ولا حوله ولا الاتصال بأحد لقتله أو نجدته.. ثمة ومضة برق ألغت من دماغي كل ما له صلة بالتعامل معه، فعدت إلى بيتي وانتحبت طويلاً على الشرفة والبحر شاهدي. وتساءلت: هل انتهى الزمان الذي كنت أعجز فيه عن النوم خوفاً منه؟ لقد بلغ من خوفي منه أنني قتلته ذعراً ولن أنسى نظرة الدهشة في عينيه. فقط الدهشة وليس الذعر إذ لم يخطر بباله في أكثر كوابيسه جنوناً أن مسكيناً مثلي يمكن أن يقتل. في العتمة شاهدت ببصيرة الروح تلك النظرة وابتهجت بها. ولم يدهشني كم فرح أهل المبنى بموته. وكم كان فرحهم سرياً. لم يعد أحد يجرؤ على البوح بمشاعره بل صار التلميح بديلاً عن الصدق، والغريب أن الجرذان انقرضت من المبنى منذ موته!

أجل شرارة من الفرحة الهائلة دبت في المبنى بعدما تأكدوا من موته! نظفوا المدخل من آثار «أزلامه» وقذارتهم وانتقل «حراسه» إلى مبنى آخر قريب!..

نظفت بسعادة شقته المحتلة وأدهشني أنني لست راغباً بتأجيرها كأنها تحولت إلى نصب تذكاري لقتل البشاعة. والأنصاب لا تؤجر. صارت مرسمي! وذلك القتل الخطأ، تلك النشوة الجماعية جعلتني فجأة أعي أن الفن عقيم والفعل وحده يبدل الحياة.. فقدت يقيني باللوحة والرسم والتشكيل والتكوين ولذا أنظر إلى فواز بحنان وشهوة الرسم تراود خطواته الأولى في درب الرسم كعجوز يرقب طفلاً ما زالت أمامه اكتشافات ومعارف.

وهكذا تخليت عن الرسم لصالح الفعل والقتل ولو في كوابيسي!

أما الليلة، فلا أشعر بالرغبة في الانتحاب على الرجل الذي قتلته دون أن أقتله، بل بالرغبة في رسم ذلك الوجه المؤثر المثقل بالآثام الذي قتلته بالخنجر في كابوسي وأنا أعرف أنه مات في مكان ما.. وجه يواجه موته بهلع واستسلام كمن

يتقبل عقاباً كان ينتظره. . .

حاول سعيد أن يرسمه ولكن أصابعه ظلت مشلولة.

* * *

جلست دانا تسترق النظرات إلى الدكتور نبيل الذي يقود سيارته بها بهدوء إلى قريته حيث يقضي يومي الثلاثاء والسبت من كل أسبوع ليعالج مجاناً أهلها والمرضى الوافدين عليه من القرى المجاورة.

يهطل حضوره عليّ عذباً هادئاً كرذاذ المطر الناعم. ينقلني إلى كوكب آخر غير عالمي المزروع بالتحدي والثراء وسباق الجرذان في حقول الجَزَر الذهبي.

في لقائي الأول به لفتتني عاديته حتى التثاؤب. قلت لنفسي: هذا هو الرجل العادي بامتياز. يرتدي ثياباً نظيفة عادية، لا أنيقة ولا مهلهلة. لا يحاول جذب انتباه أحد ولا يستجدي إعجاباً وهو يتظاهر باللامبالاة. ساعة يده بلاستيكية يابانية لكنها دقيقة التوقيت. لا خواتم لديه. لا يحيط عنقه بسلسال ذهبي ثخين يتدلى منه رمزه الديني كما يفعل رامز المندال. أظافره نظيفة لكن أصابع «المانيكوريست» لم تمر بها. حذاؤه عادي أقرب إلى التقشف لكنه نظيف. لا تفوح منه رائحة العطر الثمين بل رائحة الاستحمام اليومي وبعض عرق التعب. منذ مصادفة اللقاء الأول تعلقت نظراته بعينيّ وتأملني باهتمام بدلاً من اللوحات ونحن ندور في أرجاء المعرض الفني لصديقة طفولة صارت فنانة، كما لو كانت عيناي «مغناطيساً»!..

قدمتني الصديقة إليه فجذورهما مغروسة في القرية ذاتها وقد جاء إكراماً لها لا للفن كما اعترف لي بصدق نادر أسرني مضيفاً: في بلد الفقر والتخمة والالتواءات والتبدلات الناس بحاجة إلى اللقمة والدواء والعلم وليس إلى استعراضات طاووسية ملتبسة يتستر معظمها بأقنعة كلمة مظلومة اسمها الإبداع!... إنني نقيضه في كل شيء أو هكذا خيل إليّ في البداية. أنا أتكلم غالباً بالفرنسية أو أطعّم جملي العربية بالكثير من التعابير الفرنسية كالمغتربين جميعاً. هو يتكلم العربية باسترخاء من يتجوّل في بيته. أنا عشت في الثراء. هو يعيش في شقة بيروتية متواضعة كما أخبرني دونما عقد، ويقضي ما تبقى من وقته في بيت قروي جبلي عريق لا يحتوي قطعة أثاث واحدة استعراضية وبلا إعلانات عن القوة الشرائية لأصحابه حتى أنني لا أستطيع أن أقرر أهو غني أم فقير كما عرفت فيما بعد. وكل ما في «الفيلا» عندنا لافتات إعلانية عن ثرائنا، حتى أنه سألني مداعباً يوم زارني: لماذا هذه الفيترينات المتحفية الديكورية لآنية «الغاليه والسيفر» النادرة بدلاً من مساحة بيضاء و«شيك» بثمنها في إطار معلق على الجدار النظيف المريح؟ لو سمعته أمي لطردته! ولو سمعه

مهندس الديكور الخاص بها لقتله!..

قال نبيل لدانا بصوته الخافت دائماً بعدما استمع إلى نشرة الأخبار: لا تظني أن جولاتنا يوم الأحد لإعادة التعارف بينك ولبنان انتهت باصطحابي لك إلى الشمال والجنوب وبعلبك والهرمل والجرود والجبل والوادي.. لقد شاهدتِ القشرة، وتعارفتِ مع الطبقة الأولى للوطن. لا بد من إعادة الكرة وبالتالي لا بد لك من تأجيل سفرك.. قال ذلك ومد يده وأمسك بيدها للمرة الأولى. أدهشها أنها ارتعشت. تذكرت صلتها برامز المندال وخيّل إليها أن لذعة من الشعور بالذنب شابت الذكرى وأنها مثل أحمق على وشك أن يركب حصانين في آن..

هل يعقل أن أكون مغرمة برجلين في آن، أنا دانا البنت الهادئة العقلانية؟ أم أن جرثومة الجنون البيروتي تسربت إلى دورتي الدموية بعدما أصابتني العدوى من أمي وماري روز؟ إذا كان رامز المندال قد اصطحبني في جبيل إلى مطعم «بيبي عبد» ولم يقل لي كلمة عن الآثار، فإن نبيل قد اصطحبني لمشاهدة الآثار العريقة البديعة هناك ونحن نلتهم الشطائر بلا طقوس.. ولعل ذلك يلخص الفارق بينهما..

قال نبيل لدانا معتذراً: يقول لي أبي إن هذا الشاطىء كان جميلاً ولم يكن مغطى هكذا بالمباني الإسمنتية البشعة. الإسمنت هو السيد اليوم. القلوب الإسمنتية والأزمنة الإسمنتية لأسماك القرش والمافيات..

هذا ما كنت أجهله قبل أن ألتقي بنبيل وعدد من أصدقائه وصديقاته، وكان لقائي بهم نافذة على الناس «الأوادم». لم أكن قبلها أصدق أنّ ثمة من يقدم للآخرين شيئاً مجاناً ودونما استعراضية وبصورة عادية كمن يتنفس.. صديقته الطبيبة منى تعمل مرتين في الأسبوع على توليد الفقيرات مجاناً في مستشفى لإحدى الجمعيات الخيرية كما زوجها على الرغم من شهوات أولادهما لشراء ثياب موقعة من دور الأزياء الشهيرة (سينيه) وهما لمّا يتجاوزا الرابعة عشرة من العمر أسوة ببقية رفاقهما والمناخ السائد.. وقدرتها على جمع المال لو أرادت في الوطن وفي الغربة أيضاً. هنالك صديقته عادلة التي ترافع مجاناً للدفاع عن الزوجات المضروبات.. حنا الذي يقوم بالتدريس مجاناً في مدرسة ليلية لمحو الأمية ثلاث مرات في الأسبوع.. وهنالك محمد الذي بدأ عملاً إضافياً لينفق على الأقساط المدرسية لثلاثة من أولاد زميله الذي توفي شاباً وخلّف أرملة لم تألف العمل وأربعة أولاد.

دنيا من «أولاد الحلال» الذين أحبتهم دانا وأنست بهم وببساطة ملبسهم ومأكلهم وحتى طقوس متعتهم وموتهم وحياتهم وتعاملهم مع الناس ومع أنفسهم.

نبيل نافذتي على هذا العالم المختلف الذي لم أكن أدري أنه موجود حقاً في

لبنان، عالم الطيبين والبسطاء وغير «المستَكلبين» على جمع المال. عالم يأسرني رغم «انشدادي» إلى سحر رامز المندال الشبيه بسحر أبي المشع بالجاذبية الفتاكة (الكاريزما) والضوء الأسود. .

مع نبيل أشعر بالسلام يغمر قلبي. أنسى أنفي الكبير بعدما قهقه طويلاً حين قلت له يوم دعاني إلى الغداء في كافيتيريا المستشفى أنني أريد إجراء عملية تجميلية له وسألته رأيه في ذلك كطبيب فقال: أنتِ هكذا، جميلة هكذا. . الوجه وحدة لا تتجزأ. . لا تخربي جمالك الخاص بعملية تجميلية. .

مع أم نبيل أشعر بالطمأنينة. في بيتهم أشعر أنني عدت إلى بيتي الأصلي الذي أقمت فيه قبل أن أولد. . مع شقيقاته وأشقائه وأطفالهم أدرك معنى دفء القبيلة وثقل ظلها في آن. . .

مر النهار وهي تثرثر مع أفراد أسرته باسترخاء مشابه لاسترخائهم اللطيف غير المصطنع ولم تلتق دانا بنبيل إلا على مائدة الطعام. . جاءته مريضات ومرضى، وارتفع صراخ الأطفال، وهزها مشهد سيدة أمام الباب تصر على أن تدفع له أتعابه سلة من البيض، ورجل حمل له بفخر برتقالاً مقسماً أنه قطفه وهو في دربه إليه للعلاج، وامرأة أقسمت أن تهديه دجاجتها. وأحبت دانا دعوات الناس لأمه بأن يبارك الرب بأصل أولادها وهم يغادرون العيادة المؤقتة لنبيل في صالون البيت القروي ويحملون معهم أدوية مجانية أحضرها لهم من النماذج الطبية التي توزع مجاناً. . لكن دانا لم تشعر بلحظة ضجر واحدة. . كانت كمن يرى مسرحية عجيبة غريبة تارة، وكمن يكتشف سلام روحه تارة أخرى. . قبلها كان نبيل قد كرس لها «اليوم السابع»، يوم الإجازة الأسبوعية، وطاف بها من جديد في أرجاء وطنها الأم وهي التي لم يكن لبنان يعني لها غير المكان المرعب الذي تقضي بعض إجازاتها فيه مرغمة!

لم تكن تدري أن وطنها جميل إلى هذا المدى، وصالح للفرح ومتعة الحياة. . وهكذا حينما أوقف سيارته في درب العودة فجأة وضمها إليه شعرت أنها لا تستسلم له بقدر ما تستسلم لتلك الأمواج والبحيرات الصغيرة التي تطلع على المرء كمفاجأة مفرحة، تلك الجبال والثلوج والشمس الدافئة والحقول والبراري والأرض المعطاءة التي يأكلها الإسمنت وحينما هبطا من السيارة على حقل نصف مبتل بالمطر في منطقة مقفرة نادرة وقد جُنّت الشرايين لم تكن تتحد به بل بلبنان، وكم كان ذلك التواصل رقيقاً وحنوناً تفوح منه رائحة موسيقى العتابا والميجانا والتراب المضمَّخ بالمطر. وعلى العكس من رامز المندال، لم يكن نبيل لينظر إليها

كما لو أنه يطعنها بجسده على أنغام كارل أورف. مع نبيل اكتشفت دانا جانبها البسيط البريء وحتى الرومانسي والمنتمي ولو جزئياً إلى بلد اسمه لبنان. . .

كان جسد نبيل في اتحادهما الأول العفوي موجاً في ليلة مد وجزر هادئة تحت ضوء القمر وذراعاه مجذافان هادئان في ليلة توقفت أفلاكها في مداراتها وحبس القمر أنفاسه خلف الغيوم الشفافة الشتوية. . كان حنوناً ورقيقاً لا عاتياً صاخباً هائجاً كما لو كان امتداداً من لحم ودم لمعالم الصور البديعة والمشاهد اللبنانية الأليفة التي شاهدتها مع نبيل للمرة الأولى ودمغتها بحضوره الهادىء وتذوقتها كطفل يتذوق حلواه ويلعقها خوفاً من انتهائها بسرعة. لم يكن نبيل ناراً تريد أن تأتي على كل شيء في أسرع وقت، بل كان كمن يعيد اكتشاف أرض لبنانية مفقودة يريد أن ترتادها معه بهدوء منتش كهفاً كهفاً ونشوة نشوة. .

استيقظت فجراً على صوت قادم من داخلي. صوت أجش سلطوي تهديدي وهائج يناديني: ناجي.. استيقظ يا كسول.. شعرت بالرعب. لم تكن المرة الأولى التي أستيقظ فيها على الصوت ذاته صارخاً باسمي لكنه هذه المرة تمادى: ناجي.. تحرك يا غبي وإلا فلا نجاة لك.. ناجي... إني قادم.. إنها المرة الأولى التي يضيف الصوت فيها شيئاً إلى النداء باسمي. نصف صاح سمعت إجابةً بصوت آخر والصوت الآخر مذعور يهمس مرتجفاً بهلع: لا يا فهيم... لا يا فهيم الحصرمي. دعني وشأني.

كان الصوتان قادمين من داخلي. ذلك ما لا شك فيه، كأنما من قاع بئر، أو من دهاليز سرّية في أعماقي، كأن باباً ـ موصداً نهاراً ـ ينفتح ليلاً في دخيلتي ويدخل منه المجهول والظلام وكائنات العتمة والأصوات السرية ومصاصو الدماء.

حين صحوت جيداً وعيت كم أن الأمر مرعب ولا سلطة لي عليه، واسم فهيم الحصرمي ليس غريباً عليّ لأنه الاسم الذي اختارته لي وفاء أو سليم ـ لا فرق ـ وتم تسجيله في جواز سفري المزور، ومن المفترض أن أعود به إلى باريس بعد أن أحصل على ما بوسعي تحصيله من مال [illegible] قبل أن ينكشف أمري بصفتي قنصل يوتوليا ووكيل أعمال رامي بك! بل بوسعي مغادرة بيروت والنجاة بفضله هارباً كقنصل ليوتوليا، حتى بعد انكشاف أمري بأيام إذ من سيخطر بباله عقد الصلة بين المحتال أحمر الشعر الملتحي ناجي وأسود الشعر فهيم حليق اللحية البريء؟

نهضت ومضيت نحو الشرفة.. لم أكن أحلم بشقة مفروشة أكثر جمالاً على الكورنيش.. أكاد أرى قبرص من شرفتها.

ثمة لحظات أكاد لا أصدق فيها أن الكثيرين يريدون الهرب من هذا المكان البديع المشمس الدافىء قياساً على شتاء باريس على الرغم من الجرذان المرعبة الضخمة التي تكاثرت في الشوارع وحتى داخل مبنى الشقق المفروشة الفخمة كهذا «الريزدانس». تحزنني فقط الأسماك النافقة التي أراها أحياناً تغطي الشاطىء نصف الصخري مقابل شرفتي كأنها ماتت متسممة أو مختنقة أو منتحرة... بل كأنها ماتت غرقاً. حتى الأسماك تغرق في بيروت!

عاد ناجي إلى سريره الوثير بعدما رفع الستائر عن النافذة إذ كان بوسعه

مشاهدة البحر منه.

أعدّ قهوته وتجرعها بلذة.

ضحك من أفكاره وأصواته الداخلية المزعجة وقرر أنه ببساطة خائف قليلاً من يوم العمل الطويل الذي ينتظره. **لم أكن أدري أن خداع الناس سهل إلى هذا المدى وكل ما على المرء أن يفعله هو أن يُقدم على ذلك! لم يخطر ببالي أن شقة مفروشة على كورنيش المنارة جميلة شاهقة في مبنى فخم، وسيارة فخمة «سبور» مكشوفة (مستأجرة)، وسلفة مالية من سليم بعشرة آلاف دولار يمكن أن تجعل من ناجي الطيب النادل المزمن في المطعم الباريسي قنصلاً مهماً و«رجل أعمال مقيماً في باريس» كما لقبتني المحررة الاجتماعية، ونشرت خبر حضوري سهرة حافلة لعلية القوم تحت اسم ناجي نجيب، ونجيب اسم والدي وليس اسم أسرتي وقد قدمتُ نفسي بهذا الاسم حين توقفتُ بسيارتي لمساعدة صاحبة الدعوة «نجمة المجتمع» التي نسيت ملء خزان سيارتها المرسيدس بالوقود يوم إجازة السائق، ورداً للجميل دعتني إلى سهرة التقيت فيها بـ «علية القوم» واتفقنا على عشرات المشاريع وأنا أصمت وأهز برأسي موافقاً! تلك السيارة الفخمة التي استأجرتها لتحقيق حلم طفولتي، لم يخطر ببالي يوماً أنها ستفتح أمامي أبواب «المجتمع» لو شئت. لم أفهم يوماً معنى مقولة «معك قرش بتسوى قرش» كما أفهمها اليوم، وأنا أقود تلك السيارة الحمراء المكشوفة.**

قبل السيارة كانت البائعات في الحوانيت المرفهة ينظرن إليَّ باحتقار فأرتجف قليلاً كمحارة حية عصروا عليها الحامض حين أتجرأ على الدخول بخوف إلى حرم الأثرياء، اليوم يكفي أن أوقف السيارة الفخمة فوق الرصيف أمام مدخل الدكان ولا أبالي بشرطي السير كي تعاملني البائعات كلهن باحترام! وإحداهن أحضرت لي المنفضة بنفسها وكنت واقفاً تحت لافتة ممنوع التدخين في الدكان الوجيه أدخن لفافتي!

صار بوسعي التأريخ لحياتي بعبارة «ما قبل السيارة» و«ما بعد السيارة» واستعدت هوسي بالسيارات كما أيام طفولتي حين كان أبي يجمع نماذج مصغرة عنها وأنا أحلم بها بالحجم الطبيعي حين أكبر، وأصرخ أمام الصخور افتح يا سمسم وأحلم بمغارة علي بابا حتى انفتحت أخيراً لي. ثروة صغيرة أنفقها يومياً لقاء استئجار تلك السيارة البديعة «السبور» الحمراء. ولكن من يبالي إذا كان سيسافر دون أن يسدد فواتيره وكفيله سليم «بل ولم يُبالِ إذا كان مثلي قنصلاً لدولة «يوتوليا» ووكيلاً لأعمال صديقه الحميم رامي بك؟ في البداية كنت أعرف أنني أكذب أما الآن

فلم أعد واثقاً من ذكرياتي. ألم يكن رامي بك صديقي الحميم وأنا حقاً وكيل أعماله في لبنان؟ بدأت أنسى ما الحقيقة وما الوهم، وأصدق ما يلذ لي تصديقه، وأكاد أنسى حلمي العتيق بافتتاح مطعمي الخاص بي في باريس راضياً بما أنا فيه من بذخ عارفاً بدخيلة سليم ذي النابين الطويلين أو دراكولا لبنان كما أحب أن أسميه أمام وفاء حين تثمل وتسر بتلك التسمية ولا تفصح. فقد نام كل شيء تقريباً في قلبي إلا الفرحة بالمال الذي يتدفق عليّ كدَين من سليم ووفاء هذا ريثما أطبع التأشيرات لطالبيها من زبائنهما داخل جوازات سفرهم وأحصل على ألفي دولار نقداً من كل زبون ما دام بوسعه السفر من يوتوليا إلى الولايات المتحدة وكندا فيما بعد بدون تأشيرة وترتيب أموره هناك! هذا ناهيك عن المئتي ألف دولار التي يفترض أن أحصل اليوم عليها من شاري شقة رامي بك.

نعم أنا قنصل يوتوليا وأعيش منذ انتقالي إلى هذه الشقة في يوتوليا، مواطناً سعيداً فيها يستقل السيارة الحمراء المكشوفة ولا يبالي بأحد ووفاء تكذب علي وأتظاهر بتصديقها إذ ما جدوى العتاب في السفن الغارقة؟ ولعلها تدللني وتخطط للزواج من أحمق مثلي لحفظ المظاهر وإنجاب طفل.

نعم. ما جدوى العتاب في السفن الغارقة!

نعم. نام كل شيء في قلبي حتى حزني على وفاة أمي، صار يأتيني كبرق مفاجىء يمضي ولم يعد وجعاً رتيباً مستمراً في الضرس وذلك منذ اليوم الذي طلبت فيه من الطبيب استئصال ضرسي الذي استيقظ عصبه الأليم إثر صدمتي بوفاة أمي وكان يريد «تمويت عَصَبِهِ» والاحتفاظ بالضرس. لا بد من قتل الألم والأهم التخلص من أنصابه التذكارية. لا أريد أن أتذكر أحداً. لا أريد استرجاع وجه أمي الحبيبة التي كانت تراني طفلاً حتى بعدما كبرت. . نام الألم ومعه الندم. نام الحنين والحنان والرغبة في الإدهاش، إدهاش أسرتي: والدي وإخوتي. كأنهم ماتوا كلهم بموت أمي ونسيتهم.

شيئاً فشيئاً بدأت السماء تظلم وتتلبد بالغيوم وتذكَّر ناجي أن يوماً حافلاً ينتظره فمضى إلى الحمام يغسل وجهه وينظف أسنانه ويستحم. .

بصعوبة شذب لحيته إذ صارت صورته تغيب في المرآة وتحضر.

قال الصوت الذي أيقظه صباحاً حاملاً اسم فهيم الحصرمي، كما في جواز سفره صارخاً باسمه الحقيقي ناجي: من الطبيعي أن تغيب صورتك في المرآة فظنونك في محلها وأنت تتحول حقاً إلى مصاص دماء ويتلاشى ناجي. كان الصوت قادماً من أعماقه ومرتفعاً حتى خيل إليه أن بوسع أي شخص آخر سماعه لو

كان معه في الحمام.

وسمع ناجي صوته خافتاً يقول: من أنت؟ إنك تخيفني.

أجابه الصوت وبدا له هذه المرة منفصلاً عنه: قلت لك إنني فهيم الحصرمي. هل تريد أن تراني؟ حدّق جيداً في المرآة وستراني!

قال ناجي: لم أعد أرى صورتي في المرآة.. لم أعد أرى أحداً.

قال فهيم: أمرتك بأن تحدّق جيداً.

شاهد ناجي صورته في المرآة بنابين مرعبين.

لم يعد لديه شك في أن نابيه يطولان حتى ليجد صعوبة في إخفائهما داخل فمه. وقرر أن لا يبتسم ولا يُقبّل ولا يتكلم إلا قليلاً.. **ترى هل أتحول حقاً إلى مصاص دماء كالذين شاهدتهم في الأفلام الرديئة ودون أن أدري؟ هل يحدث ذلك حقاً في كوكبنا؟ هل يهرف الشعراء بما يعرفون حين يصفون البعض بمصاصي الدماء ويظن الناس ذلك من قبيل التورية؟ هل يخطر ببال الصبايا كم من مصّاصي الدماء مثلي عشقن وقبّلن وحملن بأولادهم؟**

قال لنفسه إنه مرهق ويهذي واختفى النابان من صورته في المرآة واختفت معهما صورة وجهه. غادر الحمام إلى الشرفة وتنفس بعمق وشعر بشيء من الراحة وظل واقفاً حتى بدأت السماء تمطر.

وقتئذ جاءه الصوت المتسلط من داخله يقول له: لا تستطيع يا ناجي أن تظل واقفاً على هذه الشرفة الجميلة إلى الأبد، قنصلاً لبلد فخري وهمي، وكيل أعمال رجل لا يعرفك ولعله لم يُلاحظ وجهك وأنت تخدمه في المطعم. استيقظ يا رجل ودعني أساعدك. أنا صديقك الوحيد..

تلفت ناجي حوله ولم ير أحداً. بشيء من الذعر، وبصوت خافت قال ناجي يكلم نفسه: من أنت؟

أجابه الصوت: أنا فهيم الحصرمي. سبق أن قلت لك ذلك مرات. أنا صديقك الوحيد..

قال ناجي: لكنني لا أراك..

قال فهيم الحصرمي: ستراني عما قريب بيسر فأنا صديقك الوحيد. أنت تتوهم في بعض اللحظات أن سليم هو ابن قريتك الذي عرفته من زمان. استيقظ يا رجل، فهو سيعطيك «من الجَمَل أذنه».. أي أنه سيستولي على ما تربحه بالاحتيال ولا يعطيك حصتك. ولِمَ يعطيك إياها؟ ستكون «كبش الفداء» حين ينفضح أمر

حقيقة المال الذي ستقوم اليوم بتحصيله. بصوت مرتجف همس ناجي: ووفاء؟

قال فهيم: وفاء يا أحمق قشة في مهب الريح مثلك. سليم أحد الأقوياء الذين أغنتهم الحرب. إنه «ميليشياوي» مالي، وسيدوسكما حين يحين الوقت ويتابع دربه. أنت لا تعرف أكثر مما ينبغي عنه، ولم يرك أحد برفقته وهو ما لم تلاحظه وبوسعه الادعاء أنه لم يعرفك من قبل وتقديمك ككبش فداء. أما وفاء فستموت في حادث ما، إذ إنها تعرف أكثر مما ينبغي. . وهو لذلك يتغاضى عن بعض سرقاتها الصغيرة من هنا وهناك. من أين تظنها حصلت على كدسة الدولارات التي لمحتها في «الجارور» الأيمن الأعلى في طاولتها المقفل عادة بإحكام بقفل استثنائي؟ إنها لا تجرؤ حتى على إيداعها في حسابها المصرفي فهو كالشيطان سيعرفه، وليس بوسعها شراء خزنة حديدية لإخفائها فهو يزورها دورياً في بيتها متفقداً كل شيء كجاسوس لا كعاشق.

قال ناجي بحزن: لا. لن يستعملني سليم كبش فداء فقد أنقذت حياته! ثم إنه ابن قريتي. .

أجابه فهيم بسطوة: اسمع يا ناجي. قد تكون الحياة قد جرحتني لكنها لم تجردني من عقلي. هذا الرجل يريد إيذاءنا بعد أن نقوم بتحصيل المال له اليوم وغداً، وعلينا الفرار بالمال قبل أن نقع في شركه المنصوب. ما من وغد إلاّ وثمة أمكر منه. تخيل وجه سليم وهو يأتي إلى الشقة ويجدك قد رحلت بالمال كله إلى باريس بدلاً من إيداعه في الخزنة الحديدية الصغيرة التي زوّد بها كل شقة وهو بالتأكيد يملك مفاتيح إضافية لها. . . تخيل بنشوة هياجه حين يكتشف أنه ليس وحده القادر على اغتصاب مباهج الدنيا وأموالها ونسائها! والآن، سارع إلى ارتداء ثيابك، فموعدك مع شاري شقة رامي بك في العاشرة. لا تنسَ ارتداء ربطة عنقك الوحيدة الأنيقة التي أهدتك إياها وفاء مع البزة ماركة «ديور». تذكر أن الرداء يصنع الإنسان في بيروت.

* * *

تمطر تمطر حتى الثمالة. منذ الفجر وسماء بيروت تنتحب.

كانت ما تزال تمطر حين غادر ناجي شقته. . حين عرض الزبون مبلغ ثمانين ألف دولار فقط نقداً عند كاتب العدل المزوَّر الذي زودني به سليم أو الذي اشترى ذمته لا فرق. كانت ما تزال تمطر. كنا قد اتفقنا على ٢٠٠ ألف دولار كرعبون. لكن «الزبون» الذي زودتني به وفاء تراجع في اللحظة الأخيرة، واكتفى بثمانين ألف دولار «بائسة» عرضها أمامي على الطاولة. شعرت بالانزعاج. تذكرت كلام فهيم

عن وفاء وقدّرت أن الزبون أيضاً مزوّر ووكيل لأعمال رجل آخر مغترب وسيتقاسم مع وفاء بقية المبلغ الناقص: ٦٠ ألف دولار لكل منهما إذا كانا لم يفعلا بعد. فهمتُ سر كدسة الدولارات التي لمحتها في قعر «جارورها» وهي تدس فيه جواز سفري المزوّر وتعيد إقفاله، وتذكرت كلام فهيم صباحاً على الشرفة. إنه على حق ذلك الرجل.

قال الزبون: هذا ما أعرضه كرعبون فهل يناسبك؟

كدت أصرخ به: أيها الوغد.. هل ستتقاسم بقية المال مع وفاء؟

ولكن فهيم صرخ بي من قاعي: يا أحمق بأي حق تحاسبه وأنت سارق مثله؟ ألم أقل لك إن العتاب هزلي في السفن الغارقة، والشجار على أحقية مص الدماء من عنق ما قضية سخيفة؟ اقبل فوراً بالمبلغ واسكت ما دمنا لن نقاسم أحداً في النهاية بل سنهرب بالمبالغ التي نجمعها. سننتهز أول فرصة ونهرب بها.. حين عاد ناجي بالمال إلى شقته وأودعه في الخزنة الحديدية الصغيرة كما شرحت له وفاء نقلاً عن سليم كانت ما تزال تمطر.

قال ناجي لفهيم وهو يخاطبه مباشرة للمرة الأولى: كانت أمي تحب المطر على الرغم من أنه يطفىء تنورها ويعيق إنجازها لخبزها «المرقوق»، وتفرح لأن الحلزون يغادر أوكاره بعد المطر ليستقبل الشمس وينتشر في الحقل وكنت الوحيد في أسرتنا الذي يلتهم الحلزون وتعدّه لي أمي بالكزبراء والثوم ويشمئز بقية أفراد الأسرة تقززاً ويسعدنا ذلك! هل كنتُ أحب الحلزون (البزاق) حقاً؟ وهل كانت أمي تحب إعداده حقاً؟ أم أن ذلك كان طقساً سرياً من طقوس التواطؤ بيننا ومحبتنا كمسحوقَيْن تحت حذاء أبي؟ هل كنا بذلك الطبق الصغير نتحدى السطوة الكبيرة له وللقرية؟ لقد كنت دوماً مذعوراً من والدي.

قال فهيم الحصرمي: أما أنا فلم أعد أخاف أحداً ولا أحن إلى أحد. صمت قليلاً وتابع: وبالرغم من أنها ما تزال تمطر وتذكرني بأمّنا وأنت ضعيف أمام ذكراها إلا أن علينا متابعة يومنا هذا، يوم الجمعة المشحون بالعمل كما كانت وفاء قد خططت له ورتبت لنا مواعيدنا: استقبال المساكين الحمقى بعد بيع شقة رامي بك، وختم صفحة في جواز سفرهم بالتأشيرة مقابل ٢٠٠٠ دولار للتأشيرة الواحدة، مع التأكيد أن موقع يوتوليا بين كندا وأميركا يتيح لهم حرية التنقل بين البلدان الثلاثة كما علينا أن نشرح لهم.. وهنا تابع ناجي بنبرة مَنْ حفظ الدرس جيداً: نشرح لهم أن بوسعهم فيما بعد الاستقرار في كندا أو الولايات المتحدة، والشرط الأول هو الكتمان حتى موعد حجز بطاقة السفر إلى يوتوليا ترانزيت عن طريق نيويورك أو

مونتريال، والكتمان هو الشرط الأول، لكي لا يفتضح سرهم ويخسروا مالهم.

كنت ألتهم طعام الغداء والقلق يلتهمني كنمل في الشرايين وهي ما تزال تمطر، حين هتفت وفاء لتقول لناجي إنها اتصلت لتطمئن إلى أن كل شيء سار على ما يرام مع «شاري» شقة رامي بك. خيل إليّ أنها ارتاحت لأنني قبلت ٨٠ ألف دولار ولكنها لن تراني في عطلة نهاية الأسبوع إذ ستقضي «الويك إند» مع سليم بك في طرابلس لعمل طارىء! تظاهرت بالانزعاج الشديد وسعدت لخلاصي منها في عطلة نهاية الأسبوع لأرتاح قليلاً من «بوزاتها» و«حركاتها» وكذبها «الغرامي» الذي صار جزءاً منها تصدقه وهنا اللعنة، إذ تعبتُ من نوبات غيرتها وحب التملك لديها أما أنا فعبدها المتبتل ولم يكن ذلك صعباً علي فأنا لا أميل على أية حال للنساء لكنني أكره قردها الكبير سليم الذي يقرر متى يريدها ومتى «يبصقها» في صحني! ذكّرتني أنني على موعد يوم الاثنين مع ثلاثين ألف دولار وعليّ الرحيل صباح الثلاثاء قبل انكشاف أمري حيث نتقاسم المبالغ وتفرج عن جواز سفري الجاهز باسم فهيم الحصرمي! لكنني قلت لها: أمرك. سأكون طوال الويك أند في الشقة بانتظار عودتك..

وحين أغلقتُ سماعة الهاتف، وكانت تمطر فوق البحر حتى قبرص، أعلن فهيم الحصرمي هياجه وغضبه، سأل ناجي فجأة: لماذا يا ناجي لا نستقبل زبائن التأشيرة، ثم نرحل بسرعة وأمان؟ لماذا لا نرحل الليلة، ونهرب بالمال الذي غنمناه؟ سليم ووفاء لن يخطر ببالهما ذلك إذ يتوهمان أن لا سبيل لنا إلى جواز السفر ولن يخطر ببالهما أننا أكثر ذكاء مما يتوهمان. سنهرب بما غنمناه ونتخلى عن ٣٠ ألف دولار إضافية من تأشيرات الاثنين القادم حصتنا منها بزعمهما الثلث، ولكننا لن نحظى بغير السجن حين يستوليان على كل شيء أو ينكشف أمرنا.

قال ناجي مقتنعاً: العقدة الأساسية في جواز السفر. إنه ليس معي فهو عند وفاء.

ـ لماذا لا نسرقه يا ناجي؟

أجاب ناجي: لا أدري. إنني خائف. معذب. مقهور. سعيد بالمال ولكن.

بحزم قال فهيم: لا توجد كلمات مثل «لكن» في قاموس فهيم الحصرمي. بعد أن ننجز «لقاءاتنا» اليوم ونحصّل المزيد من المال، سنذهب أنت وأنا ليلاً إلى بيتها ونسرق جواز السفر ونستقل طائرة منتصف الليل إلى باريس. لقد استعلمت عن مواعيد الطائرات منذ أيام لعل وعسى... هل تذكر؟ لا تنسَ أننا سنحمل معنا حقيبة تحوي الكثير من المال.. ثمانون ألف دولار من شاري شقة «صديقك

الحميم» رامي بك بالإضافة إلى ما سنربحه في بقية يومنا من التأشيرات وأتوقع عشرين ألف دولار على الأقل من عشرة زبائن طالبي هجرة «محظوظين» أقنعتهم وفاء بحظهم (أو بواسطة مساعديها) وزودوهم بالعنوان ووسيلة اللقاء مع «القنصل».

كانت ما تزال تمطر حين أنجز ناجي بيع التأشيرات ولم يتخلف أحد، بل جاء من يتوسط لسواه من أجل تأشيرة هجرة، وتعذب ناجي مرات، حين باع بعضهم الوهم، كتلك السيدة المسكينة التي جاءت تشتري تأشيرة لابنها وخيل إلى ناجي أنها تشبه أمه في شبابها حين أعطته الإسوارة ليقدر على السفر إلى فرنسا ويعود مغترباً وجيهاً.

كنت أريد أن أبوح لها بسر الاحتيال وأطلب منها الاحتفاظ بابنها إلى جانبها إذ لم أسقط بعد إلى قاع القاع، بحيث أسرق مال امرأة تشبه أمي، ولكن فهيم الحصرمي منعني. ملأ حنجرتي بـ «الشاش» المعقم الطبي كي لا أقول شيئاً غير ما كان على قنصل يوتوليا قوله. لكنني رفضت ختم جواز السفر متذرعاً بصغر سن ابنها، بل إنني أعطيتها ولم آخذ منها إذ غافلت فهيم ودسست في يدها بالإسوارة التي كنت اشتريتها لأمي وماتت قبل أن أعطيها إياها وقلت لها ذلك ولم تصدق عينيها فرحاً ما لبث أن شابه شك حائر لكنني أكدت لها أنني لا أريد منها شيئاً. خفت من فهيم الحصرمي لكنه لم يقل شيئاً. ولم يلاحظ شيئاً.

كانت ما تزال تمطر حين أمرني فهيم بالدخول إلى الحمام وإزالة لحيتي وشاربي بعد وضع الصباغ الأسود على شعري، وهكذا يتبدل لونه خلال نصف الساعة التي سأقوم فيها بإزالة لحيتي وشاربي. ووجدت صعوبة في ذلك إذ كانت صورتي في المرآة تغيب وتحضر كأي مصاص دماء محترم! ثم إنني صرت أكره الماء والاستحمام.

لم أتعارف مع نفسي حين شاهدتُ صورتي في المرآة بعد ذلك. ولم يعرفني حارس المبنى وأنا أعتمر القبعة وأغطي عيني بنظارات سوداء كان فهيم الحصرمي قد اشتراها قبل يومين كما اشترى صبغة الشعر السوداء مدعياً أن زوجته أمرته بذلك، وصدّقه البائع وتعاطف معه. فهيم شخص ماهر ويخطط بهدوء بارد لكل شيء ولا يعرف الضعف ولولاه لما اكتفيت بإعطاء تلك السيدة التي تشبه أمي الإسوارة، بل لبكيت على كتفها ولشكوت لها من تحولي إلى مصاص دماء متدرب لا يظهر في الصور وتغيب صورته في المرآة وتحضر ويكره الماء ولكنه مصاص دماء يحب الثوم (على الرغم من الشائعات حول ذلك) ولا يضايقه ضوء الشمس وليس مضطراً للنوم في تابوت كما تدعي الأفلام الرديئة ولا يتحول ليلاً إلى خفاش يطير. كل ما في

الأمر أنه يلذ له امتصاص الدماء النضرة غير المتخثرة ولكنه يكره الدماء المعلبة في أنابيب المستشفيات، فاللذة عنده في نبضة الشريان الحي وليس في التركيبة الكيمياوية للدم. . .

ولولا خوفي من اعتراض فهيم الحصرمي لنصحت السيدة الشبيهة جداً بأمي بعدم مساعدة ابنها على الهجرة. . مع توضيح الأسباب انطلاقاً من حياتي.

* * *

أنا فهيم الحصرمي الطليق كغيمة. حملت في حقيبة يد سوداء قماشية عادية رخيصة المظهر مائة ألف دولار وغادرت المبنى الذي يمتلكه سليم ويتجسس الناطور (الكونسييرج) فيه على الجميع. لم يعرفني حارس المبنى وكيف يفعل وأنا لم أتعرف على نفسي في المرآة بعد الحلاقة وصبغ الشعر؟ في المصعد وجدت جرذاً ميتاً فحملته معي في جيبي لأضعه لوفاء في «جارورها» في موضع جواز السفر لأغيظها ولأخوفها إذ قد تتخيل أن «قاتل الجرذان» بدأ بالاهتمام بها! وجدت صعوبة بالغة في التخلي عن السيارة الحمراء السبور المكشوفة وهجرها أمام مدخل «الريزيدانس» وركوب التاكسي، لكنني خفت أن يتنبه الناطور/الجاسوس للأمر ويتعرف عليّ إذا ركبتها وينبه سليم ووفاء. ولذا لم أحمل معي حتى حقيبة سفري، وتركت ثيابي وأشيائي خلفي آسفاً على إسوارة «أم ناجي» الذهبية الماسية التي لم أنجح في الاحتفاظ بها وإنقاذها من ناجي اللعين ومن لحظته الرومانسية إياها التي تخلى فيها عن تلك التحفة الثمينة لسيدة توهم أنها تشبه أمه في شبابها! وظن أنيّ لم ألاحظ ما فعله، وله حساب عسير معي فيما بعد إذ إنه يحاول أحياناً الانفراد بالقرار دون محاورتي، وبقرارات عاطفية فوق كل شيء!

كانت تمطر ليلاً في الظلمة وأنا في دربي لسرقة جواز سفر باسمي: فهيم الحصرمي. لم أهبط من التاكسي أمام بيت وفاء بل في الشارع المجاور ومشيت صوبه ودخلت بكل هدوء واستقليت المصعد وأنا واثق من أن حارس المبنى (الكونسييرج) لم يتعرف عليّ فهو لم يرني إلا خطفاً من زاوية جانبية بلا لحية وبقبعة وبفودين داكني السواد بلا حمرة، لكن الحذر ضروري في هذه الأمور. حينما يتعامل المرء مع محنكة مثل وفاء وشيطان بلا رحمة في ميليشيا الغش مثل سليم، عليه أن يستنجد بشياطينه، ولست بحاجة إلى ذلك فأنا مصاص دماء مبتدىء ناجح متضايق حقاً من ناجي الذي يرتجف الآن مذعوراً. ولا مفر لي من قتله ذات يوم لأنجح كما أشتهي. لقد بدأ يقف في درب نجاحي!

بهدوء، أدخلت المفتاح (الذي جهَّزته للحظة هذه) في قفل باب بيت وفاء

وكنت قد جربته خلسة محتاطاً للأمر، خوفاً من أن يخطىء صانع المفاتيح (الغالاتي) في نقل «سن» ما ويستعصي عليّ القفل. أجل. لم أترك للصدف شيئاً.

بيسر انفتح باب بيت وفاء وسعدت بأكثر من فرحة ناجي لو انفتحت له مغارة في قريته من تلك التي صرخ أمام صخورها افتح يا سمسم ولم تنفتح طبعاً. يا لحماقته وسذاجته! لم يكن يعرف مثلي أين تقع مغاور علي بابا المحشوة بالذهب وكيف تنفتح! ذهبت مباشرة إلى غرفة مكتبها، إلى طاولتها، إلى «الجارور» الأعلى على يمين الطاولة. كان مقفلاً ومتيناً محصناً أيضاً بخشبه. أحضرت سكيناً من المطبخ ومثقاباً حديدياً (مفكاً) ونجحت في اغتصابه. بعدها لم يخب أملي: كان جواز سفري، جواز سفر فهيم الحصرمي هناك حيث وضَعَتْهُ وفاء أمام ناجي ذات يوم.

لكن مفاجأة أخرى هناك زلزلتني قبل أن ألمس جواز سفري هي صوت خطى تقترب وأنا الذي كنت أظن البيت خاوياً بغيابها عنه في طرابلس. سمعت تلك الخطى وظننته خيالي المرتعد ولكن لا، كانت ثمة امرأة عجوز قدرت أنها أمها المقيمة عادة مع أختها ـ ولعلها الآن في ضيافتها ـ ظنت وفاء قد عادت ونادتها ثم جاءت تتفقدها. تدخل إلى الغرفة وتراني وتكاد تصرخ ربما بحنجرة حادة وبجسد ضئيل واهن نحيل.. هذا، لو لم أقفز كالظل، كأي مصاص دماء واعد جدير بانتمائه وأطبق على فمها بيدي الكبيرة. لم أكن أريد غير إسكاتها، وغمرني ذعر كرهته إذ كاد يخرجني عن برودي، وهو ما لا أرضى به. صارت يدي تزداد ضغطاً على فمها كلما ازداد جسدها اختلاجاً ربما استعداداً لصرخة تشق الليل وتوقظ الناس كما خيل لي وصار ناجي يصرخ بي: لا يا فهيم! أنت تقتلها. ولم أبال به. أفلتُّ حقيبة النقود من يدي الأخرى وأمسكت بعنقها النحيل كعصفور بكلتا يدي وضغطته على الأرض حين سقطت تحت وقع المفاجأة وتحت ثقل جسدي وأنا أنحني فوقها لتثبيت عنقها على الأرض تحت يدي. انتفضتْ. ارتعشتْ. استرختْ. كان من الضروري أن لا تتكلم. ليس قبل صباح اليوم التالي حين تشرق عليّ شمس باريس وأكون قد غادرت بيروت مع ما غنمته بشق الأنفس: نقودي. ولذا، دونما أي شعور نحوها بالعدوانية أو الكراهية ظللت أضغط على عنقها بهدوء لتصمت طويلاً حتى همدت حركتها تماماً لكنني ظللت جاثماً فوقها وأنا أمنع حنجرتها من قول أية كلمة مثل «من أنت» أو «أنا خائفة» أو «لماذا» أو «حرام يا مجرم». لا أدري كم بقيت هكذا ونابای يطولان ويشتعلان ناراً وعطشاً.

ثم سمعت صوت ناجي ينتحب. اللعين، يريد كل شيء لكنه لا يريد أن يدفع

ثمناً لأي شيء. كيف أُفهمه أن لا شيء مجانياً في كوكب العصر باستثناء حب أمه الذي لم يعد موجوداً؟ حتى والده يحبه ليتباهى به أمام أهل القرية، وها أنا أحقق لوالده أمنياته وأصير ثرياً ثرياً. وهكذا سرقت جواز سفري أو بالأحرى استعدته، وفوجئت تحته بمغلف كبير محشو بأكداس الدولارات! بهدوء بارد أحصيتها فوجدتها ١١٣ ألف دولار ولم أتردد في الاستيلاء عليها كتعويض على لحظات النشوة التي منحتها لوفاء مستمتعاً في البداية وعلى مضض فيما بعد.. وفيما أنا أستعد لمغادرة المكان الملعون شاهدت العجوز (هل كانت حقاً أمها أم عاملة منزلية جديدة أحضرتها؟) تحدّق بي بعينين زجاجيتين وناجي ينتحب على جثتها كما لو كانت أمه. جثة؟ أم مشروع شاهدة لم تمت؟

حاولت جس نبضها لكنني كنت أنا أيضاً أرتعد ولم أدر هل ماتت أم لا. ماذا لو لم تكن قد ماتت؟ ستصحو وتتصل بابنتها والشرطة ولن يعود بوسعي مغادرة بيروت وستفسد خططي كلها.

كان ناجي ما يزال يبكي حين أهملته وأنا أضمر له حساباً فيما بعد وأحضرت من المطبخ كيساً من النايلون الشفاف أحكمت ربطه حول عنقها. جلست أتأملها عبره دقائق طويلة. لم تتحرك ولم تتنفس. قدرت أنها لن تتكلم بعد الآن ومضيت. ظل ناجي ينتحب على جثمانها وتركته وشأنه فلحق بي!

بعدها استوقفت سائق "تاكسي" عابراً وطلبت منه الذهاب إلى المطار وناجي يئن ولم يسمعه السائق فيما يبدو فأهملته، وصرت أتخيل بمتعة عملية قتلي لِه حين مر التاكسي بمقبرة. أدخلُ إلى المقبرة التي يمر بها التاكسي الآن في الدرب إلى المطار، ودون أن أحفر في التراب وأتعب، أجد قبراً مُعدّاً لميت ما أرمي فيه بناجي المنتحب. بلذة أتخيل أن ناجي لن يقاوم حين أدفنه حياً والسماء ما تزال تمطر وبعدها سألهث تعباً لأن التراب تحول إلى طين ثقيل حين أهيله عليه! لن يصرخ ناجي كثيراً إذ إنه أقل حيوية حتى من السائق العجوز المستنفد كبطارية «راديو». لقد ذقت قطرات من طعم الثراء والسلطة والقوة وأريد المزيد ولن أسمح لرعديد مثل ناجي بإفساد حياتي بعد اليوم.

كانت تمطر حين وصلت إلى المطار وأجزلت العطاء للسائق.. حقيبتي الرخيصة لا تثير الشبهات وكنت قد اشتريتها يوم اشتريت الصبغة السوداء لشعر ناجي المحمر استعداداً للهرب ذات يوم.. في مدخل المطار حدث ما توقعته: الكل على الرصيف مصاب بنعاس منتصف الليل باستثنائي، فأنا مصاص دماء يستيقظ لحظتها بصورة خاصة وأنا هارب بأكثر من مائتي ألف دولار! قدرت أنني سأنجو وأمر إلى

الطائرة بلا متاعب فإلى باريس..

اطمأن فهيم الحصرمي لفكرة مغادرة بيروت بجواز السفر المزور الذي شقي لسرقته، فقد كان واثقاً من أن سليم يستطيع بنفوذه عرقلة سفر ناجي بوضع اسمه على لائحة ما لدى موظف من أتباعه يمنعه من الرحيل. وهكذا كان قد أخفى جواز سفره الفرنسي في موضع حميم من جسده ـ في التاكسي ـ متمنياً ألاّ يتم تفتيشه بدقة كي لا يضطر لتفسير سبب حمله لجوازي سفر باسمين مختلفين. وحين دخل فهيم الحصرمي بخطى ثابتة وشعر فاحم السواد وذقن حليقة إلى مطار بيروت الدولي شبه الخاوي المتوج بالنعاس عند منتصف الليل، أخذ ناجي يرتجف في أعماقه خوفاً من جواز السفر الفرنسي باسمه المخبأ في مكان حميم من جسده وذعراً من رجال الجمارك الذين قد يصادرون حقيبته القماشية السوداء الرخيصة بريئة المظهر التي تضم حوالى مائتي ألف دولار! بل إن ناجي انتحب بصمت مذعوراً وراح يركض داخل شرايين فهيم الحصرمي ويضايقه. قرر فهيم محاسبة ناجي ومعاقبته فيما بعد وارتدى قناعاً تنكرياً بالغ الابتسام ووقف بهدوء أمام رجل الأمن قائلاً باسترخاء ونصف متثائب: الله معك يا بك. تثاءب الرجل بدوره وأشار له بأن يمر بحقيبته وحين مرت الحقيبة داخل آلة كشف الأسلحة كان فهيم الحصرمي واثقاً من أن الأشعة لن ترسم بداخلها غير «سيلويت» أدوات الحلاقة التي حرص على وضعها فوق طبقة من الثياب الداخلية وثياب النوم القذرة كريهة الرائحة. صح ظنه، فقد فتح موظف جمارك كثير الفضول حقيبته البريئة المظهر لتفتيشها بعدما أثارت شبهته كثرة براءتها، وفاحت منها تلك الرائحة المقرفة وسارع إلى إغلاقها قائلاً: اذهب.. الله معك!

في الطائرة حظي بمقعد مجاور للنافذة، بعيداً عن دورة المياه وعن مقعده المقرف البائس في رحلة الذهاب إلى بيروت. ثم لاحظ أن الطائرة كانت نصف فارغة.. كان يفضل السفر كسليم في مقاعد الدرجة الأولى ولكنه خشي من إثارة الشكوك والتنبيه «لشخصيته»! شرب فهيم الحصرمي كأسين من ماء النار وناجي ينتحب ذعراً مما ينتظره في مطار باريس إذا اكتشف رجال الجمارك أنه يُهرّب الأموال القذرة «لغسلها» في فرنسا. ازداد فهيم نقمة عليه وأضمر التخلص منه فيما بعد، ذلك «الولد» الجبان الباكي المتمسّك بـ «تنورة» أمه متسولاً حنانها. لم يتمكن فهيم الحصرمي من النوم متمدداً فوق عدة مقاعد خاوية كما فعل معظم الركاب لذا تفرغ لمغازلة المضيفة كأن المال في حقيبته مدّه بجرأة تلامس حدود الصفاقة وأدهشه أن المضيفة الفرنسية المسنّة نسبياً ـ الأربعينية ـ استجابت لمداعباته وكان

ناجي يصرخ: تذكَّر أننا نكره النساء. لكن فهيم قال له بلا صوت: أنت وأنا صرنا نكره البشر جميعاً. نكره النساء والرجال معاً. نكره الموسيقى والأوبرا والباليه والعود والناي والرسم والمتاحف والشعر والرواية والغناء والرقص والمسرح والقراءة والسينما والعروض الفنية ولا نحب غير صورتنا في المرآة. لكن مداعبة تلك المضيفة الحمقاء خير من التفكير برجل الجمارك في مطار باريس، أليس كذلك؟

قبل هبوط الطائرة بقليل حمل فهيم حقيبة نقوده وذهب إلى دورة المياه حيث استخرج منها عدة مئات من الدولارات وضعها في جيبه وأخفى جواز السفر الذي يحمله باسم فهيم الحصرمي واستخرج من المكان الحميم في جسده أوراقه الثبوتية كفرنسي وقد قرر الدخول كعادته بجواز سفره الفرنسي. مر عبر النفق المخصص للفرنسيين والأوروبيين لم يستوقفه أحد، وابتهج إذ لم يضطر للتفسير للبوليس سبب التبدل الجذري في شكله الخارجي نسبة إلى صورته، كحلاقته للحيته وشاربه وتبديله للون شعره وهي من الأمور المألوفة في باريس. وحين وصل إلى قاعة استلام الحقائب والمرور بالجمارك للخروج إلى صالة الوصول وقف بين بقية الركاب متظاهراً بانتظار حقيبة ما وهو يسترق النظرات إلى أبواب الخروج، ريثما أطبق رجال الجمارك على سيدة نصف مسنّة تدفع على العربة حقيبتين كبيرتين وانكبوا على تفتيشها وهكذا انزلق ماراً بسلام متنهزاً فرصة انشغالهم بها. وحين انطبق باب الخروج الميكانيكي خلفه وصار حراً بحقيبة فيها ثروة صغيرة، كاد فهيم الحصرمي يطير سعادة: ها أنا أعود من الإجازة بثروة!

همس ناجي: وبنابين!..

قرر فهيم قتل ناجي. **لا. لم تعد الحياة معه تُطاق داخل جسد واحد وعليّ التخلص منه ولن أدعه ينغص عليّ فرصتي بالمال والحرية والانتقام. أتخيل بنشوة وجه وفاء حين تعود إلى البيت وتجد أمها جثة هامدة. لعلها ستبكي للمرة الأولى بدموع حقيقية وسينفصل قناعها التنكري المألوف عن وجهها المثقل بالمساحيق «الماكياجية» وستصعق حين ترى الجرذ فوق صورتها الكبيرة متدلياً من عنقها وقد مددته بإتقان بالضبط فوق قلادتها الماسية على الصدر العاري في الصورة. لعلها ستحزن أكثر حين تكتشف أن المال قد سُرق من «جارور» طاولتها.**

تخيل بنشوة مماثلة وجه «القرد الكبير» سليم حين تخبره وفاء بفرار ناجي وسرقته لثروة من «جارورها» إلى جانب جواز السفر المزور وقد يظنها انتهزت الفرصة للاستئثار بالمال وقد لا تجرؤ على إخباره وقد لا يصدّق حكاية السرقة

ويؤذيها! لا . . لن يستقل الباص كما فعل في ماضي أيامه كلما عاد إلى باريس حتى ولا التاكسي الذي كان يحلم بركوبه في طريق العودة من المطار وذلك لكلفته الباهظة يومئذ بالنسبة لراتبه كنادل شريف في مطعم «أفراح بيروت». سيستأجر من المطار سيارة حمراء مكشوفة ويطلق صوت مذياعها على مداه وهو يقودها كما كان يفعل الذين طالما حسدهم وهو محشور في «الباص» من المطار إلى وكره الباريسي البائس.

قال ناجي: إني متعب. دعنا نركب التاكسي أو الباص. . لم يجبه فهيم وأضمر له الشر فهو يعكّر عليه صفوه في كل مناسبة. وهكذا مضى فهيم صوب منصة استئجار السيارات ولم يشعر بالقلق من أن تلاحظ الموظفة نابيه بل شعر ببعض الزهو! اعتذرت الموظفة لعدم وجود سيارة حمراء مكشوفة أو أية سيارة كهذه في ذلك الوقت المتأخر من الليل أو بالأحرى المبكر جداً من فجر السبت ورضي بالمرسيدس بعدما لفتته إلى مضايقات السيارات المكشوفة في الشتاء ونبهته إلى المطر المنهمر المثلج وصقيع الخارج. وبسعادة استأجر السيارة باسم فهيم الحضرمي، وأعطى الموظفة نقداً ما يلزم. . وقبل أن تطلب منه بطاقة ائتمان دعاها للعشاء مساء السبت وأخيراً انطلق بالسيارة وقد ترك نابيه يتدليان من فمه ويسترخيان وهو يزعق حبوراً ويطير بسيارته منشداً مع المذياع بصوت أعلى من صوت المطرب.

تضايق فهيم لأن ناجي صار ينتحب ويلومه على غنائه وسعادته ويقرّعه قائلاً: هل نسيت أنك قتلت أم وفاء لتصل إلى هنا وبثروة؟ هل نسيت أنك لم تزر قبر أمنا؟ هل بوسعك أن تنسى أنك. . .

قاطعه فهيم: لقد تعبت منك ومن تذمرك الدائم وشكواك، وأنا الذي جاء لإنقاذك من عملك كنادل في مطعم وبدلاً من الامتنان تلومني. تعبت من مغاور «علي بابا» قريتك ومن دنياك التي تتكسر فوق رأسك ورأسي، وسأريحك من أحزانك وأستريح منك. . سأريحك من آلاف الأطباق التي طالما حملتها إلى الزبائن وهي تتحطم باستمرار داخل دماغك. . ووجه أمك. . والشيكات التي طالما حلمت بتحريرها لأهل قريتك بصفتك المغترب الثري والمحسن الكريم. . . فلتتناثر الساعات الذهبية التي حلمت بحملها إليهم في القرية لتشتري حبهم. . سأريحك من عضات «البق» في الفنادق البيروتية الوضيعة الصغيرة، ومن وجباتك الانفرادية المثلجة أمام شاشة التلفزيون. . ستنهار فوق رأسك مغاور علي بابا المليئة بالكنوز مرة واحدة وستموت مخنوقاً مطموراً بذهبها وصخورها الماسية. . سأريحك وأرتاح. .

كان فهيم ما يزال يقود سيارته بسرعة جنونية حين التفت إلى يمينه وأذهله أن يرى ناجي جالساً إلى جانبه وهو ينتحب بما يشبه العويل. ظل فهيم يقود سيارته بيد وهو يخنق ناجي باليد الأخرى. أدهشه أن ناجي لم يُبدِ أية مقاومة، كأن وقت موته قد حان وهذا كل ما في الأمر.

ولكن ناجي كان يتظاهر بالمسالمة، وانقض فجأة على فهيم ليخنقه بدوره وتعاركا واختل توازن السيارة حين اصطدمت بشاحنة وقود هائلة الضخامةِ وانفجرت واشتعلت النيران فيها وفي الشاحنة معاً في حريق هائل.. لم يشعر فهيم بشيء لكن ناجي صرخ بهلع: يا أمي!..

ولم يتم التعرف على الجثة التي احترقت وصارت رماداً تماماً كما يحدث لمصّاص الدماء حين يدق أحدهم وتداً في قلبه.

* * *

ـ رحم الله أمك يا ابني.. لقد كنت أحبها حباً عذرياً حين كنت في السادسة عشرة من عمري وكنت ألتقيها في دربنا إلى المدرسة وأظنها كانت في الثالثة عشرة. قال فواز للشاعر الشهير الذي نهض بشعره الأشيب وعكازه لتحيته: ولكن أمي لم تمت يا سيدي؟ تابع الشاعر كأنه لم يسمع رد فواز: كنا نذهل رفاقي وأنا أمام جمالها وكبريائها، رحمها الله.. إنها صورة بيروتية أخرى بديعة رحلت.

كرر فواز وقد نهض احتراماً للرجل المسنّ الذي جاء من طاولة أخرى خصيصاً لتحيته وبدت سميرة شديدة الاهتمام به وقد عرفته: قلت لك يا سيدي إن أمي لم تمت.

ـ لقد مات والدك وأمك والترامواي وبيروت والرفاق والأمل الوحيد في أمثالك، وقيل لي إنك جئت لتبيع أملاكك في السفينة الغارقة بيروت وتعود إلى مهجرك.. وتكرّس برحيلك موتنا.. أجل ماتت أمك بمعنى ما وأنا جثة هامدة.. ألا تراني أبتسم لك بجمجمتي؟ لا تصدق بقايا اللحم والجلد والشعر على وجهي.. إنها قناعي التنكري وقريباً يخلعه عني الدود في قبري.

مضى الشاعر الشهير بعكازه وغرق فواز في بئر من أحزان غامضة مشوشة.

* * *

تتسكع ماريا في شارع الحمراء حيث كان يحلو لها الجلوس في المقاهي مع فادي والمشي يداً بيد. المباني القديمة اهترأت وتبدو آثار الرصاص الذي نخر بعضها والقذائف جلية، ومن الشرفات المغبرة تدلت ثياب منشورة على حبال

الغسيل والريح تعبث بها فتبدو أكمامها مثل أيدٍ معلقة في الفضاء تستغيث.. خيل إليها أن سهى صديقتها المتوفية واقفة على شرفة بيتها تناديها وتدعوها للصعود إليها كما من زمان. أطرقتْ وتابعتْ المشي وسط أكوام من القمامة المروعة بجرذان ضخمة وقوافل من الصراصير والروائح المقرفة، والأكثر بشاعة وإيلاماً من ذلك كله هو مشهد الذين ينبشون في القمامة بحثاً عما يؤكل واثنان منهما يتشاجران على كيس قمامة أسود ثمين بمقاييسهما يبدو واعداً بفضلات أكثر «وجاهة» مما تضمه الأكياس الزرق المألوفة. فالفقراء لا يرمون في فضلاتهم إلا الفضلات حقاً..

مهما كابرت لا مفر لي من الاعتراف بأن كل شيء تبدل.. لم يكن بوسعي أن أرى شيئاً إلا على ضوء زمن العز البيروتي الغابر... وكان كل ما حولي يدعو إلى البكاء، وبصورة خاصة تلك المحاولات البائسة في بعض «المخازن» لتزيينها ولإقناع أنفسهم قبل الزبائن بأن شيئاً لم يتغير. محاولات كادت تدفع بي إلى حافة البكاء والرثاء أمام زينات بلا ذوق وقد تراكم عليها الغبار الهبابي الذي تطلقه سيارات تفوح من عوادمها رائحة المازوت.

وقفتْ ماريا طويلاً أمام واجهات الباعة الذين كانت تشتري ثيابها منهم. **من هنا اشتريت الثوب الأبيض الذي تدفق عليه دمي يوم حفروا لي شعاري الديني على لحمي وفوقه تطايرت أجزاء من دماغ فادي حين أطلقوا النار على رأسه. هذه المرة شاهدت في منتصف الشارع لافتات دينية وصوراً لرجال دين وشعارات كنمط من أنماط الزينات! أي جنون يجتاح هذه المدينة؟**

وصلتْ إلى حيث كان «الهورس شو»، المقهى الذي طالما التقت فيه مع فادي والأصحاب وصفقوا فيه لمسرحية منعتها السلطة يومئذ فتم تمثيلها في المقهى وعلى الرصيف دون أن ينام ليلتها أحد في السجن. وجدت المقهى الثقافي وقد تحول إلى مطعم للوجبات السريعة الجاهزة. مشت نصف دامعة. بحثتْ عن مقهى «الإكسبرس» فوجدت نفسها أمام اللامكان وقد لحق بها سرب من المتسولات العدوانيات، فعادت صوب «الهورس شو» ومرت بمقهى «الكافيه دي باري» أحد مقاهيها المفضلة في الزمن الغابر ولاحظت أنه لم يعد اسماً على مسمى فمدخل المبنى صار يشبه مباني العالم الثالث: صرّاف وباعة رصيف وزحام عاطلين عن العمل يطنون كنحل سجين في زجاجة محكمة الإغلاق ودار سينما «ألدورادو» مغلقة وهي التي شهدت فيها أيام الصبا والحب فيلم «رجل وامرأة» للمخرج كلود لولوش مرات عديدة.

جلستْ في أحد مقاهي الرصيف الجديدة إذ ذكّرها بديكوراته ببيروت الزمن

الغابر وطلبت كوباً من الجعة فحدجها النادل بنظرة سامة لم تكن لتراها في عين أحد من قبل حين كان كلٌ مسؤولاً عن نفسه ومعدته ويوم حسابه ولم يكن أحد يعتبر الآخر «قاصراً» ولا بد من فرض الوصاية على عقله وسلوكه وطول لحيته! وأرسل لها نادلاً آخر ولم تفهم بعد إقامة طالت في باريس ما الذي حدث لكنها تذكرت نظرة الاستنكار التي شعت من عين البائع قبل أيام حين حاولت شراء نبيذها الباريسي المفضَّل وأفهمها أن «ذلك الشيء» يباع عند دكان الأجانب في شارع السادات. وقالت لنفسها: على الأقل ما زال بوسع امرأة وحيدة مثلي أن تجلس في مقهى وتشرب جعتها أو تدخن نارجيلتها في هذه المدينة العربية دون أن تُقتل!

لا تدري كم لفافة دخنت وكم كوب جعة تجرعت، لكنها نهضت وقد ازدادت غماً ومشت على غير هدى وأنست بمشهد بسطة بائع الصحف حيث كان منذ أكثر من ربع قرن وهو صامد بمطبوعاته وطلبت منه جريدة «الهيرالد تريبيون» وقال لها إن الرقيب اللبناني منع العدد ذلك اليوم ودهشت، فعهدها ببيروت لا تخيفها جريدة أو كتاب، وطلبت مجلة «الباري ماتش» فقال لها إن عدد هذا الأسبوع مصادر أيضاً.

مشت داخل شبكة عنكبوتية من الغبار. الشبكة تغطي الشارع والوجوه وتنتصب حتى داخل الأفواه وتراها بوضوح حين يفتح أحد فمه ليرد على سؤال لها حتى عن ثمن حذاء، ومر بها صديق قديم بينهما خبز وحبر وكادت تركض لتحيته لكنه كان يمشي ذاهلاً داخل كابوسه الشخصي وتذكرت أنه كان قد مات منذ فترة، ثم شاهدت الجرذ الأول بحجم رجل وكان يسرح ويمرح في واجهة المكتبة المنخفضة عن الرصيف بثلاث درجات ولها ذكريات مع كتبها. كان الجرذ كبيراً ولامعاً كأنه مدهون بزيت تصفيف الشعر وخيل إليها أنه يراقب الكتب ويقلبها ويركل بعضها بحذائه، وقالت لنفسها إنها ثملة بالحزن والجعة لكن الجرذ كان يقرض بشهية كتاباً لها في الواجهة وربما كانت مهمته قرض الصفحات التي لا تعجبه أو لعله اصطفاه من بين الكتب احتفالاً بإجازتها في بيروت. ومشت طويلاً وصاح صوت «ميكروفون» بكلام ديني بطبقة صوتية تصمّ الآذان.

ولاحظت للمرة الأولى بيت عبادة جديداً شيدوه في غيبتها واحتل مكان مكتبة.. (لا.. لم تكن المكتبة هنا. نعم. لا) لم تعد تدري أين هي، ولكن مكان العبادة الآخر المختلف كان ما يزال على حاله كما كان من زمان وقد أضافوا إليه ميكروفوناً مضاداً.

وهربت من شارع «حرب الميكروفونات» ولكثرة ارتفاع الأصوات لم تفهم ما

يقال. لكن رجالاً مروا بها ورمقوها بنظرات عدوانية كما لو أن كونها امرأة أمر يستدعي ذهابها إلى الرصيف الآخر أو تغطية عار كونها امرأة وحية (على هذا الكوكب) تحت خيمة سوداء تحجبها عن الأنظار. مشت بعيداً حتى وصلت أمام مبنى كان مخصصاً للشقق المفروشة في بدايات الحرب واضطرت مرة للبقاء فيه لفترة لأنها لم تستطع الوصول إلى بيتها لمعركة حربية اندلعت في الدرب إليه. وهكذا بقيت وبدأت فيه عملها الروائي الأول وصار فادي يزورها ليلاً هناك وكان مكاناً نظيفاً براق النوافذ أين منه هذا المبنى الرث، بعنكبوت الغبار والاهتراء والصدأ الذي استولى على الطلاء والمدخل والجدران. حتى المرآة التي كانت تغطي الجدار الأيمن للمدخل بدت وقد نخرها العفن والثقوب كأن حشرات معدنية تقضم الزجاج استولت عليه وثمة شرخ يشطرها إلى نصفين شاهدت فيه وجهها منشطراً وبدا لها ناطور المبنى عدوانياً ينتظر أن تفتح فمها بسؤال أو طلب لينتهز ذلك مناسبة لطردها أو لطلب خوة أو للتسول أو لشيء بين الابتزاز والسرقة والتذلل!

كانت فقط تريد أن ترى الغرفة القديمة التي كتبت فيها أولى رواياتها. باحت لناطور المبنى برغبتها في مشاهدة شقة معينة لها فيها ذكريات. لم يكلف نفسه عناء طردها. تأملها كما يتأملون مجنوناً وقد أثقلته الهموم. لم يكن الناس هكذا. كان ثمة مكان للطرافة. إنه الفقر الذي لا يترك مكاناً لشيء.

امتلأ صدرها بالغم القاتل وقد امتدت خيوط العنكبوت عبر شرايينها حتى قلبها، والجرذ الكبير الذي كان في واجهة المكتبة صار الآن يقرض قلبها قضمة بعد أخرى. ولاحظت للمرة الأولى قافلة من الجرذان تعربد فوق أسلاك الكهرباء العارية في جدائل مرعبة متلاحمة مع خيوط الشبكة العنكبوتية الهائلة المتغلغلة في كل شيء والتي بدت لها مثل خيمة كبيرة تغطي المدينة وتحجب عنها ضياء الشمس والهواء النقي..

وفجأة كادت تصطدم برجل وهي تركض للهرب وقد قررت العودة إلى باريس وليذهب بيتها البيروتي إلى الجحيم، لن تعود إلى كابوسها «المحبب» هذا، فلينهبه من شاء ويسرقه، لن تهدر ما تبقى من عمرها في تأجيره أو بيعه من أجل حفنة من الدولارات ليست حقاً بحاجة إليها.. وحين نظرت إلى وجه الرجل الذي كادت تصطدم به شهقت إذ فوجئت بأنه فادي.. فادي بكل وسامته وتورد خديه وابتسامته الهشة وقامته المديدة وجسده المفتول كفلاح معافى.. فادي بنظرته الشفافة الرومانسية كشوبان في خيالها أو ألفريد دي موسيه، أو قيس بن الملوح.. ذلك التناقض الآسر منه استولى على قلبها ذات يوم، بجسد صخري ووجه رقيق ومرهف

كلهبة شمعة.. ونفس تعشق بصدق لبنان كوطن للتعايش بين الطوائف وطن للحرية والديمقراطية واحترام المرأة والعدالة الاجتماعية أي النقيض لما تمثله إسرائيل كما كان لا يشبع من الكتابة والترداد. كان ما يزال يرتدي قميصه البحري الأزرق وسرواله «الجينز» تماماً كما كان ليلة أطلقوا الرصاصة على رأسه أمامها، وتناثر دمه وربما قطع من دماغه على خديها حيث كان يُقبِّلها قبلها بدقائق وبين أصابعه لفافة نصف محترقة لعلها اللفافة ذاتها التي ظلت في يده حين ترنح ثم سقط على الأرض.

قال لها فادي بصوته الدافىء: ماريا!.. ماريا! عانقته ولم تأبه لأي من الوجوه المرعبة التي طالعتها طوال تسكعها الأول وهمست: «ما زلت أحبك» في اللحظة ذاتها التي همس فيها بالعبارة ذاتها. تابعت الهمس: «يا إلهي كم افتقدتك» في اللحظة ذاتها التي كان يرددها..

قال لها: لقد كتبت لك مرة أنني سأنتظرك وسأظل أنتظرك وها أنا أفعل حتى بعد موتي!

بدا لها حضوره في الشارع عادياً وسط موزاييك الجنون الكابوسي الذي يحيط بها، بل ومألوفاً.. قالت له ببساطة: زرت قبرك ولم أجدك!

أجاب: قالت لي الجارة الثرثارة ذلك.. قالت إنكِ مررتِ بي.

ـ هل أنا ميتة مثلك؟

ـ لا يا ماريا. ليس بعد. لكن عدداً كبيراً من الذين ترينهم حولنا في الشارع أموات مثلي.. وصلا إلى المقهى حيث شربت جعتها، فجلسا فيه، وطلبت كوبين من الجعة. نظر إليها النادل شذراً وقال بلؤم: سأحضر لك الكوب الثاني حين تنجزين شرب الأول.

بحرارة قالت: الجعة الثانية له. نظر النادل إلى المقعد الذي أشارت إليه فوجده خاوياً.

قال لها فادي: إنه لا يراني. ليس بوسع الناس جميعاً مشاهدة الأموات.. مثلك! على المرء أن يكون محباً للآخرين، من أي دين أو ملة كانوا، منفتحاً على أصواته الداخلية وخياله حتى يستطيع مشاهدتنا. أنت الآن ترين بعين الروح والقلب..

قالت له: لا أحب ما يمثله هذا النادل..

قال لها: تعالي نستبدله. ونستبدل المقهى. هيا بنا إلى «الهورس شو» كما من زمان..

أجابت بحسرة: لم يعد ثمة «هورس شو». ألم تتسكع هناك؟

قال لها: كل ما هو حي داخل رأسك موجود. العالم الخارجي انعكاس لمشاعرك على شاشة كالسينما. أنتِ تخلقينه وأنتِ تلغينه.. وأضاف ببطء: شيئاً فشيئاً ستكتشفين متعة اختراق العالم اللامرئي والحياة فيه ومع كائناته... وليسوا كلهم من الأموات.. ثمة كثيرون مثلك، وعليكم أن تتعارفوا وتنمّوا قدراتكم لتتعلموا قطع الجسر الوهمي بين عالمي الأموات والأحياء..

قال النادل لزميله: لقد جن الناس في هذه المدينة. تأتي وحدها وتتكلم وحدها وتطلب كوبي جعة كوباً لها وآخر لشخص وهمي!

أمسك فادي بيدها ومشيا، ولحظتها فقط انزلقت نظراتها عن وجهه فوجئت بأن شارع الحمراء عاد كما كان تماماً حين كانا يتسكعان معاً قبل الحرب. المباني عادت جديدة. الوجوه عادت نظيفة ومشعة بفرح الحياة والأمل. حتى محطة الوقود المقابلة للهورس شو كانت هناك وقد اختفى المبنى الذي شيدوه مكانها. دخلا، كان أحباب الماضي كلهم هناك من أموات وأحياء وقد عادوا شباناً وشابات وعاد «غرسونات» المكان كما كانوا أيام زمان.. وعاد الزمان بموسيقاه وورائحة عطوره وأزيائه.. وجاء النادل سليمان وسألهما: ستشربان كالعادة؟ ضحكا وقالا: كالعادة! فأحضر لكل منهما فنجاناً من القهوة الإكسبريسو (نصف كبسة)، وهي ما تزال تمسك بيد فادي وتشعر بأن تلك اليد تتلاشى داخل يدها..

... لم تذكر ماريا بالضبط كيف عادت إلى بيتها وكيف نهضت من سريرها بعد نوم قلق ظنته نوم الليل واكتشفت حين نهضت أنه كان قيلولة طالت حتى غروب الشمس قطعها رنين جرس الباب الخارجي. باقة الأزهار الميتة إياها على الأرض أمام المدخل. الباقة ذاتها، وكالعادة تفوح منها رائحة السمك الزنخة.. والبطاقة العدوانية ذاتها وهي تتضمن ما يشبه التهديد بالقتل! هل ستتصل برجال الشرطة هذه المرة وتتقدم بشكوى ضد بطل إحدى رواياتها؟

لم تعد ماريا تعرف حقاً أين يبدأ الكابوس وأين تنتهي الحقيقة. هل لقاؤها بفادي كابوس؟ وإذا كانت صارت تلتقي الموتى وتحاورهم وتتنقل في الزمان فلم لا تلتقي أيضاً بأبطال قصصها الأكثر حياة في روحها من الموتى والأحياء حولها كلهم؟

من جديد سمعت قرعاً على الباب ولم تشعر بأي خوف. تلك النزهة إلى عالم الموتى جردتها من الخوف وصارت تشعر أن الفرق بين الموت والحياة جسر قصير والحياة لا تتوقف بتوقف التنفس أو بانفجار الدماغ برصاصة. الحياة هي روحها وعشقها الضاري للحرية، وذلك سيتابع حياته بوسائل أخرى ربما في الدورة

الدموية لقرائها في أي عصر، كما ستتابع هي حياتها في موتها مع فادي ومع الذين يقدرون على مشاهدة الموتى والتواصل معهم. .

فتحت الباب الخشبي فالحديدي، ووجدت جارتها تحمل لها طبقاً من الطعام قائلة: لن أزعجك ولكنني تذكرت أن هذا طبقك المفضل!

شكرتها ماريا بحرارة، وأطبقت الباب خلفها وعادت تستعرض أحداث يومها، ولقاءها بفادي. كانت امرأة عقلانية حتى الثمالة تسيطر بطريقة استثنائية على جموح خيالها وعواطفها وهواجسها وأشباحها وقتلاها، فماذا حدث الآن؟ وما هذه الرسائل وباقات الأزهار واللقاءات الشبحية؟ وأي عصيان في داخلها جعل ذلك يرتسم في رسائل غاضبة لعلها تبعث بها إلى نفسها، إذ ما من سواها يعرف أنها بدأت بكتابة رواية جديدة اعتزمت قتل منير فيها. .

وكيف لا تقتل منير طفلها الثوري الحبيب، صياد السمك الشاعري البريء الذي تحول من ثائر إلى زعيم ميليشياوي، وحين طار عز الميليشيات صار رجل أعمال وصفقات وثراء وعمّر قصراً لا يجرؤ الصحافيون على السخرية منه لكنهم يلقبونه سراً بالقصر البروليتاري؟ أجل، لقد ميزت في ذاك الثوري الفقير الذي صار جلاداً ثرياً وباع القضايا وتاجر بها، لقد ميزت فيه منير ولو بدل اسمه إلى أسماء أخرى ووجهه إلى وجوه بأقنعة أخرى. . هل كل ما يحدث لها الآن مع بطل قصتها هو من صنع خيالها، أم أن أبطال قصصها أحياء في مكان ما حقاً وينجح بعضهم في التواصل معها كما نجحت هي في التواصل مع الأموات، مع فادي بالذات؟. .

شعرت أن موزاييك الجنون البيروتي بدأ يغمرها. . وأنها واحدة من تلك الأسماك النافقة على الشاطىء التي قذف بها البحر لتحتضر على الصخور البيروتية وتلفظ أنفاسها الأخيرة. . إنها واحدة من ضحايا ذلك الجرذ/ الرقيب في المكتبة بشعره المدهون بزيت الشاحنات والمدرعات والأحذية، وأنيابه التي تقرض من كتبها الصفحات التي لا تعجبه. . واحدة من ضحايا الموج الغادر المسموم بالنفايات النووية والقاذورات العصرية المتكاثرة كالدمامل على البشرة المتقرحة لمدينة عابري سبيل الموانىء والمطارات. .

في الظلام شعرت أنها كالبوم ترى بوضوح: ثمة جرثومة جنون بيروتية تتملكها قادمة من ذلك الموزاييك مما تحبه وتكرهه ولا تستطيع ملامسة أحدهما دون الآخر، وها هي حواسها تغدر بها وخيالاتها تعبث بصحوها منذ بدأت العمل على رواية جديدة عن بيروت. شعرت بأنفاسها تضيق. دوماً تتخيل أنها تموت بنوبة قلبية كما مات والدها. تموت كأنها تختنق لعجز قلبها عن ضخ الدم. . . يا لذلك

الظلام كله.. محاضرات مطولة عن الإشعاع وعتمة حتى العظام المذعورة برداً وخوفاً من المصير الغامض... حارت بين الهرب للسهر في بيت عاطفة وفايز، وبين الانكباب على كتابة روايتها وتحريك الأحداث صوب سقوط منير في فخ غروره وشروره، حتى يأتي مشهد موته مقنعاً إذ إنها إذا جرحته ولم تقتله فها هو ينقلب عليها كوحش جريح ويكاد يقتلها خنقاً وسيتوهمها الجيران ماتت بسكتة قلبية ولن يخطر للطبيب أو الشرطة فكرة تشريح جثتها لمعرفة الحقيقة، وهي أنها ماتت مخنوقة بأصابع أحد أبطال قصصها.

* * *

بعد كابوس من تلك التي يقتل فيها سعيد أشخاصاً لا يعرفهم، لا يدري لماذا اتصل هاتفياً بصديقته القديمة ماريا التي كانت قد زارته مرات في مرسمه وحدثته عن عذابها مع عمل جديد وحرضته على أن يقدم معرضاً جديداً بالمعنى الحقيقي للكلمة يتجاوز فيه ما سبق له من عطاءات...

ردت ماريا على الهاتف بصوت هادىء رغم أنه أيقظها من نومها. لم يعتذر بل سألها دونما مقدمات: ما الذي تفعلينه يا ماريا لتظلي متماسكة هكذا، صلبة وقوية هكذا؟

ـ إنني أتمسك بالشيء الوحيد الذي لم يخذلني يوماً يا سعيد: الأبجدية.. إنني أكتب كي لا أصاب بالجنون.. أكتب كي لا أقتل.

ـ أفهم بالضبط ما تعنينه حين نقتل لا نرسم ولا نكتب.. أفهم ما تقولينه.

ـ أعرف ذلك جيداً وإلا لما أجبتك بهذه الحميمية..

ـ أنا أكاد أنشطر يا ماريا، لم أعد أميز الحقيقة من الوهم ولا ذاتي من ظلي..

ـ هذا رائع.. معناه أنك صرت مستعداً لقفزة جديدة في فنك..

ـ ليتني أستطيع..

ـ أنت لا تملك إلا ذلك.. موهبتك الحقيقية ستفرض عليك ذلك..

منذ اللحظة التي عدتُ فيها إلى موزاييك الجنون هذا المجدول بعروقنا الملقب ببيروت حيث يتعايش الأحياء والأموات وأبطال القصص أدركت أن عليَّ أن أكتب كي أتوازن وأنجو... بالكتابة أحارب شياطيني بكل أقنعتها..

ـ أجد صعوبة في الانفجار فقد ألفتُ ترويضَ الأشياء لي. أَلفت كابوسي المفضل بيروت..

ـ انفجرْ إكراماً لشيء تحبه.. كالحرية مثلاً..

ـ بل سأنفجر إكراماً لك فأنتِ الحرية والجنون. سأهديك معرضي القادم. . .

ـ لا تتورط بالوعود. . حين تشعر أنك بلغت القاع، قاع البئر، قاع الزجاجة، قاع البكاء، قاع الجنون. . ارسم. . ارسم. .

* * *

ـ ألو ماريا. . أنا دانا. . .

ـ أعرف صوتك يا دانا. . لقد سمعتُ صرختك الأولى يوم ولدتِ ولم أنس نبرتك بعد!

أرغمت دانا نفسها على ضحكة مغتصبة وسألت ماريا: ماذا عندك؟ هل سألت عن وليد الموالدجي؟

ـ بالتأكيد فعلت قلقاً على أمك ثانياً ولأنك طلبت مني ذلك أولاً.

قاطعتها دانا بلهجة الواثق: لقد سرق الخاتم الماسي الثمين الذي أهداه لأمي من مجوهرات معوض، أليس كذلك؟

ـ لا يا دانا. إنها هدية حب ثمينة ونظيفة، ووليد الموالدجي لم يسرق شيئاً. صدقي أو لا تصدقي، إنه ثري وليس مفلساً. لقد حصد ثروة طائلة من البورصة وقيل لي إنه موهوب في هذا الحقل وهو عائد إلى باريس كشريك مع شخصية اقتصادية متينة لتأسيس مكتب اقتصادي استشاري. إنه شاب موهوب يشم رائحة المال كما تشم الخيول رائحة الزلزال. إنهم يلقبونه بعرّاف البورصة، بوسعه إذا شاء امتلاك حسان العالم. ولكنه فيما يبدو مغرم حقاً بأمك. . .

ـ غير معقول. .

ـ بلى. إنه ببساطة يحب أمك! ما الغريب في الأمر؟

ـ غير معقول. .

ـ ولم لا؟ ألأنه أصغر سناً منها بكثير؟ ألم يحدث لملايين النساء أن عشقن رجالاً يكبروهن سناً، فلماذا لا يحدث اليوم العكس؟ بل إنه يحدث حولنا باستمرار. . .

ـ غير معقول. .

ـ لاحظي أمك بعين محايدة. إنها أولاً ربة عمل ناجحة فرضت وجودها في حقل المال، وسيدة ذكية ومتعلمة وقد ازدهرت شركات والدك منذ تسلّمت إدارتها. ثم إنها جميلة بوجه طفولي وبعينين تسيلان ظرفاً وطرافة. . وهي تزداد حسناً. . ثم إنها طيبة القلب بالمعنى الحقيقي للكلمة وبريئة حتى القتل ولا أحد يستطيع أن

يحدس سنها وتبدو لي أحياناً حين تضحك أصغر سناً من وليد ومنكِ. . ومني ناهيك عن صديقتنا فرحة أم فواز!

ـ غير معقول. .

ـ ما هو اللامعقول؟ ألم تعشقي يوماً رجلاً يكبرك سناً بربع قرن مثلاً أو بعقدين؟

ـ بلى. . هذا ما أظن أنني أعيشه الآن. . لعلي مغرمة برامز المندال.

سقط الاسم كلسعة أفعى في عنق ماريا لكنها قالت بهدوء: اسمعي يا دانا. هذا اسم يستحسن أن لا نتحاور حوله على الهاتف. يجب أن أراك ونتحدث حول الأمر. وريثما نلتقي، انتبهي إلى نفسك وتحفّظي. . يبدو أن أحوالك العاطفية أنت هي التي تثير القلق لا أحوال أمك!!

* * *

في قرية «دير القمر» شاهدت ماريا جامعاً صغيراً في قلب القرية قريباً من الكنيسة. قالت لسليمى: كم ذلك رائع! هذا هو لبنان الذي أحببته مرة وسأظل أحبه. . .

تابعتا رحلة الذكريات إلى نبع الصفا، وهمست سليمى: هنا سمعت ونعيم للمرة الأولى موسيقى «زوربا الإغريقي» للفنان اليوناني ثيودوراكيس. هنا نهضت ونعيم في قلب هذا المقهى وكنا شابين صغيرين ورقصنا بعفوية على ألحانها كما رقص مرة أنتوني كوين في الفيلم الذي يحمل ذلك الاسم، وكنتُ أظن أن رقصتنا ستدوم إلى الأبد وأنت تعرفين. لكنه بدّل اللحن ورفيقة الرقص مرات ومزق قلبي كقط شرس يعبث بكرة من الصوف. . لم أصدق يوماً أنني سأحب سواه وأحيا بدونه. . لقد أحببته كما لم أحب مخلوقاً وغدر بي ولن أغفر له يوماً ذلك. . .

في «بيت الدين» ذهبتا لتناول طعام الغداء وسط هضاب آسرة الخضرة والهدوء والنقاء، وعلى المائدة المجاورة في المطعم لمحت سليمى جيراناً قدامى عرفتهم من زمان، فنهضت عن مائدتها لتحيتهم. . . ورافقتها ماريا لشغفها في تأمل البشر! . .

عرفتها الصديقة وقبّلتها بلهفة وقالت لها وهي تشير إلى شاب وسيم بلحية: هذا ابني حسين الذي كنت تدللينه طفلاً في حضنك في الملجأ. هجمت سليمى بعفوية وبكل الأمومة والأشواق ومدت يدها لتصافح حسين لكنه نفر منها ولم يصافحها قائلاً: آسف. أنا متوضىء!

ذلك اليوم، لم تأكل ماريا شيئاً على الغداء وهي ترتجف حزناً!

* * *

قالت رانية همساً دون أن تُلاحظ أن الضوء الأحمر في «الأنترفون» يشع ولعل مخدومها يتنصت: اسمعي يا آنسة دانا، واعذريني ولكن صدقيني قد يكون كلامي لك بدافع الغيرة والألم وحب الانتقام، لكنها الحقيقة وهنا المأساة.. مأساتي وربما مأساتك.

ذهلت دانا. لم تكن تتوقع من سكرتيرة رامز المندال الجميلة الهادئة رانية استقبالاً كهذا حين غاب مدير مكتبه وانفردت بها وكان رامز مشغولاً باجتماع مهم كما ذكرت لها السكرتيرة ولم تصدقها.. صحيح أن رانية كانت عدوانية منذ اللقاء الأول لكنها أضافت بما يبدو صدقاً: أنت طريدته الجديدة لا أكثر. جاءت من هن أكثر أو أقل جمالاً منك وستذهبين مثلهن وتأتي من هي أقل أو أكثر جمالاً مني ومنك... وسيستمر وننتهي.. قتلاً أو قهراً..

ـ.....

ـ هذا رجل خطر.. لا يراعي حرمة لامرأةِ صديق أو عدو.. إنه ابن هذه الحرب بامتياز كما يقول أبي.. تفاعل معها وكبر في ظلها وكبرت بأشخاص مثله واحتدمت نيرانها بأمثاله، وله في السلم تقمصات كما في الحرب، ووجوهه أقنعة طبيعية تتشكل وفقاً للظروف الملائمة لشهوة السلطة عنده تماماً كتحولات الميكروبات.. ارتدى قناع المحارب فالمفاوض فالحليف للأقوى وكان دائماً حليفاً لجنونه الشهواني بالمال والنساء والسطوة والقوة..

ـ.....

ـ إنه لا يعني لك شيئاً حقاً. لقد استعلمتُ عنكِ. أنت بنت ثرية فرنسية الجنسية، فعودي إلى بلدك، وهذه المغامرة الإضافية لك هي قطرة الماء الأخيرة التي ستطفح كأسي بها... وسأنتقم.. فاهربي بنفسك من هذه اللعبة مع حوت كبير من الحيتان المافياوية اللبنانية.. هذا رجل لا يميز بين قتل إنسان وقتل ذبابة.. إنه ميليشياوي مالي كبير فاهربي منه ومن انتقامي منكما...

ـ.....

ـ لدي وثائق تدينه حرصت على جمعها منذ اليوم الذي اكتشفت فيه أنني لست حبيبته بل حذاء يرتديه حين يريحه ذلك لا أكثر.. لدي وثائق تدينه بألف فضيحة وفضيحة أقلها يفرح قلب أعدائه الكثر ويكشف عوراته التي لا يجهلها أحد ولا يجرؤ أحد على الكلام عنها علناً، بل لدي وثائق تدينه بصفقات بيع السلاح بعد إشعال الحروب الصغيرة والتجارة بالمواد الغذائية وقت الحصار الذي يتسبب فيه وبمحركات الكهرباء بعد أن يتسبب بقطعها وبالتعامل مع العدو صباحاً وهو يلقي

الخطب مساء في ضرورة دحره ومقاومته.. إذا أحببت سماع التفاصيل ومشاهدة الوثائق اتصلي بي وتعالي لزيارتي وسأطلعك على كل شيء.. على استيراده لمبيدات الحشرات المسببة للسرطان التي ترفض الدول المتحضرة شراءها، وسيدهشك عبثه بمتعهدي البناء والطرقات، وإلغاء المناقصات لصالح اتفاق رضائي يرضى هو عنه مقابل ثروة. لدي أيضاً وثائق بضلوعه في دفن النفايات النووية تحت وسائد الأطفال، بل لدي وثائق تدينه بخيانة أصدقائه والاستيلاء بسحره على نسائهم ثم تهديدهم بأشرطة مسجلة جنسية للقاءاته بهن.. إنه يصطحبهن إلى بيت قروي المظهر كله «تكنولوجيا» لتسجيل اللقاءات المحمومة من ثقب في لوحة عارية مقابل السرير. لدي ملف كامل عن ذلك كله في بيتي فتعالي واطلعي عليه بنفسك!

قالت دانا بهدوء عاقل: إذا كان كذلك فلمَ تحرصين عليه؟

ـ لأن الحب مرض لاعقلاني ووباء.. وأنا أحبه بكل ضوئه الأسود وسمّه و«وغدنته». أحبه حباً ملعوناً أعرف أنه سيقتلني... وإذا عرف أنني حذرتك منه ففي ذلك نهايتي.. فاهربي منه قبل أن تصيبك لعنته كما أصابتني. ليس بوسع أحد قتله فهو «زومبي» ميت/حي ككل «نجوم» حربنا اللعينة الذين انتقلوا بنجاح من الخندق إلى حفلات الكوكتيل في ثياب تنكرية لائقة!

سألتها دانا: هل تريدين إقناعي بأنك صرتِ الأكثر حرصاً على حياتي والمدافعة عن مستقبلي؟

ـ حسناً. إنني مجنونة بالغيرة، لكن كل ما ذكرته لك حقيقي وأستطيع إثباته والوثائق في بيتي كما ذكرت لك مراراً وأقسم لك على ذلك، وإذا عرف ما أقوله لك سيقتلني. بل إنه سيقتلني بالتأكيد إذا لمّحتِ لما دار بيننا ولو تلميحاً وكما قلتُ لكِ ليس بوسع أحد قتله بسهولة.. إنه الميت/الحي، «الزومبي» اللبناني وله ملكوت لبنان الحالي. فما لك ولنا.. ألم تلحظي أنه ميت/حي؟ ألم يدهشك فشل محاولات اغتياله كلها بإطلاق الرصاص عليه؟ هذا رجل لا يموت إلا بالاحتراق أو التفجير والتمزيق إرباً إرباً فهو جثة لا ينفع معها الرصاص. هل تظنينه يرتدي حقاً قميصاً عازلاً يحميه من الطلقات؟ إنها ببساطة تخترقه. حاولي جرحه ولن تسيل قطرة دم..

ـ.....

ـ اهربي يا دانا.. اتركيه لي، ليقتلني وأقتله. أعتقد أنه سيقتلني قبل أن أقتله فأمثاله لا يموتون..

لم تصدق دانا كلمة من هراء تلك السكرتيرة العاشقة المسعورة المخذولة،

وازدادت ولعاً برامز، وحين نجت من «هستيريا» رانية ودخلت إلى ملكوت رامز المندال كانت أكثر التهاباً بحمى الأشواق أكثر من أي وقت مضى. سعدت حين احتواها أخيراً مكتب رامز الحصين الذي يحتل طابقاً كاملاً من مبناه كما لو كان غرفة واحدة شاسعة بطاولة كبيرة للاجتماعات كما في مكتب والدها ونوافذ تطل بالتأكيد على البحر ولكن تغطيها الستائر - كأن رامز يكره الشمس أو يخشى بندقية قناص - وحين توقعت أن يصطحبها أخيراً إلى النهار الموعود في البيت القروي إياه اعتذر منها مضطرباً وقال إن أمه في المستشفى وعليه أن يسارع ليراها، وضرب لها موعداً بعد أيام، فازدادت دانا اشتعالاً. وذعته متعاطفة بعدما عرضت مرافقته وتأثرت بلهفته العائلية نحو أمه ولكن لحقت بها رانية التي كانت فيما يبدو تتنصت على الأنترفون وقالت لها: أمه ميتة منذ عشرة أعوام! ولم تصدقها دانا. . ولكنها تذكرت أن المصباح الأحمر الصغير في الأنترفون كان مضاء أيضاً حين كانت رانية تُشَهِّر برامز. تراه كان يتنصت عليها كما تتنصت هي عليه؟

أيقظت الشمس الساطعة فواز وحين نظر من النافذة شاهد غيمة واحدة وقد نبتت فوقها وردة عملاقة حمراء بطول شجرة. . منذ اليوم الذي أحب فيه سميرة صار يرى الكون بوضوح. . غابات الغيوم والسلاحف الطائرة والنجوم الراقصة على ألحان سيمفونية بيتهوفن (باستورال). قضى فواز يومه في البحث عن سميرة في مقاهي البحر. هاتفها النقال يرن وما من مجيب. اتصل ببيتها وصوت محايد قال إنها في الجامعة. ذهب إلى حرم الجامعة الأميركية. بحث عنها في «الكامبس» خميلة بعد أخرى، ثم تسكع أمام باب الصف حيث يفترض أن تكون. انتظر خروجها وحين ظهرت رولا لم تكن سميرة معها. سأل عنها فقالت بلا مبالاة وهي ترفرف بأهداب ملونة بالأزرق تحف بعينين بعدستَيْن لاصقتين بنفسجيتين وتكور شفتيها المزروعتين: سميرة في المقبرة مع الكاتبة الشهيرة ماريا الحراني.

ـ في المقبرة؟

ـ أجل. هذا ما قالته لي صباحاً حين اتصلتُ بها لأستعير منها معطفها الليلكي لسهرة الليلة في مربع «جينز» وأنت وسميرة مدعوان على نفقتكما مثلنا جميعاً. . ها. ها. ها. .

ـ هل قلت إن سميرة في المقبرة؟ أية مقبرة؟ ولماذا؟

ـ لا أدري في أية مقبرة!

سأل فواز بلهفة وإلحاح: هل مات أحد؟

ـ لا أدري. .

عاد يسألها بدهشة: ولكن ما الذي تفعله سميرة في المقبرة مع ماريا؟

ـ لا أدري. . لم يخطر ببالي أن أسألها لكنها كانت تضحك. . لعلها ذهبت إلى مكان لا تريد البوح به. سميرة غريبة الأطوار أعني من الداخل على العكس مني. ولم يخطر ببالي استجوابها لحسابك!

لم تكن رولا تحبه. أحسّ ذلك، وهو لا يحبها ولن يتملقها! وأخيراً رن هاتفه. . وجاء صوتها. .

ـ فواز، أنا سميرة. .

قال بغيظ بعدما انتظرها طوال النهار، والشمس توشك على الغروب: سميرة من؟ أية سميرة منهن؟

ببراءة أجابت: سميرة الدرع. هل نسيتني!!

يبدو أن ماريا تناولت آلة الهاتف من يد سميرة وقالت له: فواز. . سيارة سميرة ترفض أن «تدور». . ونحن «مقطوعتان» أمام مقبرة (. . . .) هل تستطيع المجيء لنجدتنا، وتؤجل العتاب والأسئلة والدهشة؟

ـ إني قادم.

استقل التاكسي الأول الذي توقف أمامه وترك السائق يندب اليوم الذي ترك فيه ابنه يذهب للعمل إلى السويد إذ إن الابن تزوج وأنجب هناك ولم يعد. كان هاجسه سميرة. . ما الذي تفعله مع ماريا في المقبرة؟ حين مسح السائق دمعة لوعة شعر فواز بالخجل والنقمة على نفسه. **كم يصفِّحنا الحب ضد الآخرين وأذاهم وحتى أحزانهم. كم يعزلنا عن العالم الخارجي لنتفرغ لهواجسنا الداخلية الصغيرة الأوسع من المجرة! ويزلزلنا غياب الحبيبة لساعات أكثر من زلزال يقتل الآلاف في الصين مثلاً. .**

التقاهما أمام باب المقبرة وهرول نحوهما وقد طلب من سائق التاكسي الانتظار.

أحاط ماريا وسميرة بذراعيه وسألهما: ما الذي تفعله «مجنونتاي» في المقبرة؟

قالت سميرة مستثارة وسعيدة: كنا نقوم بتزيين المقبرة فاليوم عيد ميلاد فادي. . وأضافت هامسة في أذنه: فادي هو الرجل الوحيد الذي أحبته ماريا حقاً. قالت إنها لم تعش في باريس كرابعة العدوية وتنذر العفة لكنها لم تنسَ فادي يوماً فهو حبها الكبير. آه ماريا! . . **لم يخطر ببالي من قبل أن النساء من صديقات والدتي عشقن وتألمن وما زلن يتابعن حياتهن، ربما لأني أكره أن أتخيل أن والدتي ما زالت قادرة على أن تحب غير والدي أو تتذكر رجلاً آخر أحبته قبله وأنا الذي أحب أن أتوهم منذ صغري أن أمي لم تعرف سوى والدي!**

جرته سميرة من يده إلى المقبرة وهي تقول: انظر. . انظر ما أجمل المكان. . كنا نقوم بتمجيد الحياة حتى في المقبرة. . ولحقت ماريا بهما. .

وقع بصره على مشهد لم ير مثله حتى في الكوابيس ولا في أفلام المجانين

المبدعين مثل فلليني وبازوليني. شاهد مقبرة تشبه قاعة مفتوحة الجدران سقفها السماء وقد زينتها البالونات والأشرطة الملونة والفضية والكرات المذهبة والدمى الصغيرة اللطيفة والأوراق الاحتفالية، وأغصان الصنوبر والآس والأزهار الملونة.. كأنه في عيد ميلاد طفل في ساحة القرية لا في مقبرة! لم تترك ماريا وسميرة قبراً لم تزيناه.. وثمة قبر تم تزيينه بصورة استثنائية وألصقت عليه ماريا وسميرة قصائد قامتا بكتابتها «بنت لحظتها». تملصت سميرة من احتوائه مثل قطة وركضت لتعانق ماريا وتلتصق بها التصاق طفلة بأمها. كاد يغضب ويشعر بالنقمة على ماريا وبالغيرة. **كأن سميرة، وجدت الأم التي لم تعرفها، وماريا وجدت الابنة التي لم تنجبها. لا «تَغَرْ» يا فواز فمكانك لن يملأه أحد!**

قرأ على قبر فادي عبارة خطّتها ماريا بالأقلام الملونة للأطفال: أنت الميت الوحيد في حياتي الذي لا أرغب في قتله! دمت للحب والحرية ولي ولمحبرتي!

تمددت سميرة على أحد القبور وطالعت عبارة كتبتها ماريا بالأحمر على ورقة صفراء بخط طفولي وألصقتها على شاهدة القبر وانفجرت بالضحك وهي تقول لفواز: انظر ما كتبته ماريا على القبر: «عين الحسود تبلى بالعمى»!! وقالت لماريا: أسمعُ الميت يقهقه داخل قبره إذ لم يعد لديه ما يُحسد عليه!

همست ماريا: سنقوم بتزيين بقية مقابر المدينة إكراماً لعيد ميلاد فادي، المقابر المسلمة والمسيحية و.. و.. لن نستثني ملّة. سنزيّن المقابر لأن أمواتنا ما زالوا أحياء ولأننا «ندين بدين الحب أنّى توجهت ركائبه».

لم تشاركها سميرة الهمس بل رددت قولها بأعلى صوتها بزخم الشباب مضيفة: للحب والحرية والغفران..

قال فواز لنفسه: يا للمجنونة الحبيبة. سيدة التناقضات.

* * *

ذهبت ماريا تزور خديجة صديقتها القديمة منذ أيام الجامعة، وكانت السيدة قد أصدرت بعد التخرج مجلة نسائية بالمعنى الحقيقي للكلمة أي «نسوية» أيضاً تنشد «تحرير المرأة» لا تكريس عبوديتها في ظل عشق المساحيق والأزياء وقشور التحرر الأخرى وهراء فتاوى أصحاب العقول الرثة واللحى الكثة.

فتحت الباب شابة جميلة محجبة ميزت فيها ماريا فطومة الطفلة الحلوة التي طالما دللتها قبل أن تغادر لبنان.. **إذن هي محجبة ووالدتها رائدة تحرير؟ وماذا في ذلك؟ فطومة امرأة أخرى وهي حرة باختيار الحجاب، ولا أستطيع أن أدافع عن**

حرية امرأة في ارتداء زي السباحة تحت الشمس (المايوه) دون أن أدافع عن حريتها في ارتداء الحجاب أو ما يروق لها... لكن فطومة دعت ماريا للدخول ببعض التأفف واختارت مجالستها وأمها خديجة كما لو كانت تخشى أن تُفسد ماريا أمها أو تتحدثان بشيء «محظور» كتحرير المرأة!... بدت الابنة متزمتة كأم من العصور الوسطى وخديجة كأبنة مقموعة تتحدث بلغة الغمز واللمز.

رن الهاتف. تحدثت خديجة همساً ثم عادت وقالت لماريا: لقد مات أنطوان زميلنا في الجامعة هل تذكرينه رحمه الله؟

قاطعتها فطومة بحدة: كيف تترحمين عليه؟ لا تجوز الرحمة على المسيحي!

«احتدت» خديجة وصرخت بابنتها: هذا الشيخ الأحمق الذي تؤمين حلقاته عند صاحبتك سعاد جاهل ويؤستذ عليكن باسم الدين. وهذا رسول الله (ﷺ) ذو الخلق العظيم، كان جالساً فمرت جنازة فقام واقفاً فقالوا له: إنها جنازة يهودي، فقال ﷺ: أوليست نفساً؟

لم تشأ ماريا التدخل بين أم وابنتها، فنهضت واعتذرت بموعد سريع وعادت إلى وكرها لا تلوي على شيء وقد غمرها شعور بالتعب من كل شيء.. من موزاييك الجنون هذا و«الكوكتيل» من القديم (المتحجر) والحديث (الصبرعة) والوضع الاقتصادي الضاغط وتعدد المهن لكل شخص ليطعم أسرته بحيث لم يعد أحد يتقن شيئاً أو يحب ما يفعله، وإذا وجد الوقت للنوم فإنه يحلم بالهجرة هارباً من الفساد والرشوة والطائفية السياسية ومحاصرة تعددية الرأي وتناقص الحرية الفكرية وقمع الناس بعضهم لبعض.. و... و.. وشعرت ماريا أنها تختنق!

* * *

استيقظ سعيد مذعوراً إثر كابوس آخر من تلك التي يقتل فيها «وغداً» افتراضياً ويعلق في عنقه جرذاً دون أن يبرح مكانه. هذه المرة حلم أنه يقوم بطعن رجل ثم ينطلق هارباً.. **بوسعي أن أبكي طويلاً طويلاً لأسباب أجهلها، بكاء ممزوجاً بحنين غامض ولوعات ومخاوف وحسرات لأنني توقفت عن الرسم منذ اليوم الذي قتلت فيه أبو الغوانم دونما قصد ودفاعاً عن نفسي، وصرت بعدها أعيش معظم ما يحدث من قتل مشابه في هذه المدينة بل وأمارسه بنفسي. في البداية ظننت أنني أمشي في نومي وأقتل أشخاصاً لا أعرفهم... صرت أقفل على نفسي باب غرفتي من الداخل وأطلب من الخادمة حين تحضر صباحاً أن تفتحه بمفتاحها من الخارج وتُدخل لي قهوتي، وأخفي مفتاحي داخل خزنة حديدية بأرقام معقدة لا أحفظها غيباً.. ووَعيت أنني لا أبارح غرفتي وأنني بمعنى ما بفعل قوة غامضة أحل في جسد القَتَلة المعذبين**

والذين يمارسون القتل كنمط من أنماط الدفاع اليائس عن النفس، وأنا أمارس القتل عبرهم أو يمارسونه عبر روحي أو أنخطف لأرى ما يدور أو أتنبأ به. . لا أدري. .

قرعت الخادمة الحبشية الباب ثم فتحته بالمفتاح ودخلت حاملة القهوة. لم يعد ثمة ما يدهشها في هذه المدينة. والرغبة غير المؤذية لسيدها الجديد سعيد بفتح الباب بالمفتاح من الخارج لا تقاس بما مر عليها في هذه المدينة من رغبات عجيبة غريبة فرضها عليها بعض الذين اضطرت للعمل لديهم لإعالة طفليها في الحبشة. حسناً. إنهم ثلاثة أطفال لكنها لا تعترف إلا باثنين كي لا تظن مخدوماتها أن الحمل والإنجاب استهلكاها.

استوى سعيد في فراشه وكشَّر حين رفعت العاملة المنزلية ريتا الستائر. .

لساني في فمي قطعة لحم مزعجة لا تخصني ولا أعرف كيف ألفظها. . كل ما حولي وكل ما بداخلي منفصل عني وليس أمامي إلا الرسم. أخاف النوم. أخاف الصحو. أخاف الظلمة. أخاف الضوء. وحده حضور ماريا المتألم المعذب الصامت شقيق روحي، وأريد أن أهديها شيئاً أعبِّر به عن حبي المستتر لها ولحرفها طوال السنين الماضية، ولا أجد ما يمكن أن يفرح تلك الساخرة غير الفن. . المجوهرات لا تهمها. المال لا يعني لها شيئاً فهي ثرية. الغزل والجسد ومباهجه والمجاملات كلها عابرة في دنياها، لكنها جادة في علاقتها بالإبداع. وإذا أحببت أن أهديها شيئاً له قيمة عندها، فعليَّ أن أهديها معرضاً. وكيف، وأنا العاجز عن الرسم منذ اليوم الذي قتلت فيه ذلك الوغد وأرحت كوكبنا وسكان المبنى منه ولم أسترح بل صرت قاتلاً محترفاً على نحو خاص ومن نمط استثنائي؟

لم يسبق لسعيد أن رسم إلا ليلاً. لكن أصابعه كانت قد استيقظت ذلك الصباح حتى الانتعاظ وعادت ترتعش بالشهوة إلى اختراق جسد الألوان. . نسي قهوته. مضى إلى مرسمه. دخل فيما يشبه الغيبوبة في الألوان لا في القتل هذه المرة. رسم مشهد قتله للشر مجسداً في قتيله الأخير. رسم دون أن يعرف بالضبط ما يفعله وهو يعي في الوقت ذاته كل ميليمتر مربع من فضاء اللوحة. رسم كالمجنون في مواجهة أفق يخلق على صفحته عالماً، وحين أنجز عمله شاهد أمامه لوحة قتل، أو محاولة قتل الشر. القاتل عنده مذعور والقتيل مرعب النظرات والاثنان مثقلان بالإثم. العنف المجنون المزرق يسيل من المشهد كزرقة بياض جدران المستشفيات وعيون المحتضرين. أحمر وأزرق على غير هدى كان يتحاشى الرسم بهما.

وصلت ماريا فجأة بلا موعد. قالت إنها جاءت لدعوته لشرب فنجان قهوة

على شاطىء البحر. حين شاهدت لوحته وقفت مبهورة وقالت: هذه لوحة يجب عليك أن تحفر ليلاً في المقبرة وتدفنها فهي أجمل من أن يستحقها ناس هذا العصر الملوث على مشارف القرن الواحد والعشرين اللعين!!.. وقد يأتي من يستحقها بعد قرون.

كان يعرف أن ماريا لا تجامل في هذا الحقل وفرح بشهادتها وانتعش ونسي همومه وقال: في عروقي جنون وسموم وترياقات تكفي لرسم معرضين شرط أن تحضري الافتتاح، فهلا قبلت؟

ترددت ماريا طويلاً قبل أن تقول له بصدق: لا أدري متى أرحل أو لا أرحل، لكن شبحي سيكون معك ليلة افتتاح معرضك وأعني ما أقول. ولا تحاول إيهامي أو إيهام نفسك أن لوجودي في بيروت صلة بهذا الجنون الخشن المتألم.

أدرك في قاعه رغم نوبة ولعه المفاجىء بماريا أنها على حق وأنها صادقة وأنه سينكرها ثلاثاً قبل صياح الديك قبل أن تنكره لو مضت معه حتى نهاية الشوط.. وازداد حباً لحضورها ففيه متسع للهنات غير الهينات للطبيعة البشرية.. هناته وهناتها!

* * *

ـ لماذا عدت يا فواز؟ كلنا نحلم بالسفر.

ـ لم أعد بعد يا عفيف.. إنني أقضي إجازتي في لبنان. وهذا كل شيء وقد مدَّدتُ إجازتي. وخجلت من البقاء أكثر من أسبوعين عند عمتي فانتقلت إلى بيتي.

ـ الحمد لله. ذلك طمأنني على عقلك. ما من أحد هنا إلا ويحلم بالهجرة. بالمناسبة، هل وجدت مشترياً للبيت؟

ذهل فواز. كيف عرف عفيف وسواه أنه جاء لبيع البيت. حقاً، لا شيء يخفى في بيروت! ظل فواز صامتاً. أضاف عفيف: هل عرفت بالفضيحة الجديدة؟ لقد ظهرت سميرة الدرع البارحة ليلاً على شاشة التلفزيون مع زاهي وهبي وحين سألها لماذا تريد الإقامة بمفردها أجابت: لأنني أحب أن أكون عارية تماماً حين أكتب!

كاد فواز ينزلق إلى فخ الدفاع عنها، فهو لا يحلم إلا بالرسم عارياً لا في بيت مغلق النوافذ بل في جزيرة استوائية مثل غوغان ثم صمت إذ أحب أن يعرف بالضبط ما الذي يريده عفيف منه **(لقد غلبني عقلي البارد المحايد!)**.

وشعر بشيء من الامتنان المشوب بالخجل إذ إن عفيف يريد فقط دعوته

للعشاء عنده في حفل يقيمه على شرفه ويدعو إليه الأصدقاء القدامى مع زوجاتهم الذين التقاهم في مقهى سيتي كافيه والذين لم يلتق بهم بعد! ستكون السهرة جنازة، فأي مكان لا يشع فيه ضوء سميرة هو «مجلس عزاء» في نظره!

كاد فواز يفرض حضور سميرة على عفيف، كأن يقول: سأحضر برفقة سميرة الدرع! لكنه خاف أن ترفض هي الحضور، لذا اكتفى بالقول: قد أحضر رفيقة معي.

امتعض عفيف لكنه قال: «أهلاً وسهلاً بكل من يحضر معك!» كأنه حدس أن فواز قد يصطحب سميرة، تلك التي استعصت على سيارته الفخمة وخاتمه الماسي وسلسلة عنقه الذهبية ووجاهته وصوره الوسيمة كل أسبوع على صفحات المجتمع في المنابر كلها. من هي حتى ترفضه وتُشاهد مرات مع فواز؟ ولماذا مع فواز وليس معه؟

* * *

لم تكن المرة الأولى التي ترافق فيها ماريا صديقتها سليمى وابنتها دانا (بعدما كبرت) إلى العرافات من بيروت إلى باريس، فسليمى مدمنة عرّافات منذ أيام الجامعة، وماريا مدمنة فضول.

ثم إن العرّافات من الأشياء القليلة المشتركة بين سليمى وابنتها دانا ولم تتركا عرّافة في باريس إلا وزارتاها ناهيك عن الصالون السنوي للنبوءات. وهكذا ذهبن إلى العرّافة الشهيرة خاتون. .

كانت ماريا قد التقت خاتون قبل الحرب اللبنانية حين رافقت إليها صديقة حاملاً تريد أن تعرف جنس مولودها (صبي أم بنت) بعدما سمعت الكثير عن طاقاتها ولم يكن العلم قادراً يومئذ على معرفة جنس المولود. واقتنعت ماريا بالقدرة التنبؤية الاستثنائية التي أسبغها الخالق عليها بمشيئته على العكس من مئات الدجالين المندسين في «المهنة» ويومها قالت خاتون العرّافة لنائب يؤمن بقدراتها وجاء يستشيرها أنها ترى دماً. كثيراً من الدم. . وصحّت نبوءتها التي سمعتها ماريا وهي تفتح الباب لتسأل خاتون متى سيحين دور صديقتها بعدما طال انتظارهما ولم تستطع مقاومة نزوة استراق السمع!

أدركت ماريا أن سليمى التي تتهامس والعرّافة تستفسر عن مصيرها ووليد. . وأن دانا تسألها همساً حين حان دورها عن رامز المندال الذي سقط اسمه في بركة أعماق ماريا سقوط الأفاعي السامة العملاقة في واحة سلام. وندمت ماريا لأنها أهملت الالتقاء بدانا وتحذيرها منه، فعلاقة دانا برجل خطر جداً من أمثاله (وما

أندرهم!!) ليست بحاجة إلى عرّافة بل إلى مطّلع على أحوال لبنان وصحفه كماريا.. وأخيراً جاء دور ماريا واقتربت من العرّافة. حدقت خاتون في كرتها، بعدما تفرست طويلاً بوجه ماريا وقاع عينيها بالذات كأنها تتلصص على أعماقها عبر نافذتين. ارتبكت ماريا وقالت ان لا سؤال لديها ولا تريد أن تعرف شيئاً لكنها فضولية رافقت سليمى ودانا إليها وهذا سبب حضورها. لكن خاتون تذكّرتها (أم تُراها قرأت ذلك في كرتها السحرية؟). قالت خاتون: أعرف سبب حضورك وما تودين معرفته. وبعد طول صمت وتأمل في كرتها الكريستالية همست وهي ترتجف: أرى من جديد دماً. كثيراً من الدم. زلازل وحرائق وبيوتاً تنشطر إلى نصفين وأكثر.

تنصت ماريا إلى العرّافة وهي تحدق بدورها في الكرة الكريستالية الشفافة ذاتها.. يدهشها أنها تشاهد بوضوح مقبرة جماعية شاسعة بوسعها أن ترى عبر ترابها كما لو كان التراب شفافاً وقد دُفِن فيه مئات الموتى في دائرة كما لو كانوا في حلقة رقصة الدبكة، وبوضوح شاهدت هياكلهم العظمية كما لو كان بالأشعة السينية (أشعة إكس).. تأملتهم بذهول وشاهدتهم داخل الكرة الكريستالية التي صارت شاسعة بحجم لبنان وهم ينهضون من تحت ترابهم، ويحملون رشاشاتهم ويتابعون الاقتتال مع حلقة أخرى من المدفونين في حلقات أخرى لدبكة الموت والهذيان.. وثمة نبع يصاب بالجنون كل من يشرب منه يتوسط حلقة دبكة الموت، وقد عادوا للشرب منه، وكل من يشرب يتحول من هيكل عظمي إلى قرد هائج. ارتجفت ماريا هلعاً وقالت لها خاتون العرّافة بصوت نصف ناءٍ: إذاً فأنت ترين ما أراه؟

قالت ماريا بلهجة جهدت أن تبدو فكاهية لكنها كانت تعني كل حرف: أنا مثلك أيتها العرّافة.. نحن الكتّاب كلنا مثلك، مهنتنا الرؤيا المستقبلية وتحضير الأرواح، أرواح أبطال قصصنا.

لم تفهم خاتون ما تعنيه ماريا، لكنها أحسّت بالسيالات الروحية المشتركة حين شاهدتا معاً المقبرة الجماعية الدائرية والموتى ينهضون من ترابهم ويعاودون رقصة دبكة الفناء والموت والعداء والشرب من نبع الجنون والقردة على إيقاع المتفجرات والرشاشات، والموتى يطلقون النار على بعضهم بعضاً وعلى الأحياء وهم يتسابقون على الشرب من النبع المعلون.

أضافت خاتون بعينين مغمضتين كأن حاسة البصر تعيق البصيرة: كل ما مضى لم يكن شيئاً قياساً إلى ما هو آت. زمن الحزن آت. الحفاة يتساقطون في الشوارع المشتعلة. الزلزال. صراخ أطفال.. بحر يأكل شاطئاً. همست ماريا.. زمن بين النار والماء.

سألتهما سُليمى: بماذا تتهامسان؟ لم تجيبا، كمن شاهد كابوساً مهولاً وما زال يرتعد تحت وطأته.

* * *

أسفت دانا حين قرأت في جريدة «الأوريان لوجور» الصادرة بالفرنسية في بيروت نبأ مصرع رانية سكرتيرة رامز المندال في حادث سيارة. أسفت من أجل تلك المجنونة حباً التي قد تكون انتحرت.. ولم يخطر ببالها ولو لومضة أن تلك المرأة قد تكون قُتلت.. تذكرت دانا الضوء الأحمر الذي ومض في «الأنترفون» وتوهمت لحظتها أن رامز يسمع تهديدات رانية وزمجرة غضبها كأية عاشقة خائبة، ثم قررت دانا أنها قرأت روايات بوليسية بأكثر مما ينبغي.. لا. **لا يمكن أن يكون قد قتلها. هذه الأمور لا تحدث إلا في روايات أغاثا كريستي**. وأبدت محررة الصحيفة أسفها لصدفة أليمة إذ شب حريق في المبنى الذي تقيم فيه رانية أتى على بيتها أيضاً في الليلة ذاتها التي قتلت فيها بحادث السيارة المؤسف..

قالت دانا لنفسها: يا لغرائب المصادفات!... وانشغلت بأمر آخر عن تلك الحكاية المؤسفة.

* * *

بجنون صار سعيد يرسم وجه الرجل الذي طعنه بالخنجر مرات دون أن يقترب منه أو حتى يغادر بيته أو يعرف اسمه.. رسمه داخل الغروب الدامي الذي شاهده قبل أن ينخطف ويقتل أو يحل في جسد القاتل ويتحد به أو يرى أفعاله من خلال عينيه..

حين أنجز رسمه كانت خيوط الفجر قد بدأت بالتوهج وعلى ضوئها شاهد ثيابه ملطخة بالدم الدم... لا.. هذا ليس دماً.. إنه من بعض الأصباغ الملونة التي رسمت بها.. لا أحد يحيا.. لا أحد يموت.. إنني فقط أرسم.. لا أرسم جديداً، بل أستخرج الصورة من أنابيب الأصباغ. لا أنحت أحداً بل أستخرج الوجه من داخل الصخرة..

* * *

حين تناولت دانا طعام العشاء مع رامز المندال للمرة الأولى بعد وفاة رانية في حادث السيارة، لا تدري لماذا بدأت تراه بعين جديدة كما لو تقمصتها روح السكرتيرة الراحلة. بل إن دانا حينما صافحت رامز المندال وهي تتذكر ما قالته سكرتيرته، لاحظت أن يده باردة حقاً دائماً وزنخة مثل سمكة ماتت من زمان..

وأن رائحة عفنة فاحت في إحدى اللحظات من حضوره، أم تراها فاحت من الطريق؟ وتذكرت أيضاً أنهما يوم الغداء عند «بيبي عبد» في جبيل وقع عن السلم ولم يتألم كما لو كان كيساً محشواً بالقش. في طريقها إلى بيتها استعادت لحظة أخافتها ثم نسيتها: اقترب منها بوجهه في جبيل في المطعم وأرادت الغرق في عينيه ولكن خيل إليها أنها قفزت إلى بركة سطحها من زجاج.. تذكرت بوضوح أنها في لحظة خاطفة تأملتهما: عينان زجاجيتان كعيون الحيوانات المحنطة والدمى المرعبة في الليل و... جثث الموتى! ونفرت منه ذلك العشاء دونما مبرر منطقي، ولامت نفسها على ذلك فيما بعد. صحيح أن السكرتيرة تبدو صادقة وهي تتحدث. لكن المجانين كلهم على هذه الشاكلة. لا. لا يعقل وجود «الزومبي» أو الأموات/ الأحياء إلا في الروايات. لا.. لا تستطيع دانا ابتلاع كذبة كبيرة كهذه.. إنها تترك لماريا كتابة أكاذيب كهذه!

* * *

حين عادت ماريا إلى البيت أدهشها أن تجد بابه الخارجي مفتوحاً. **تُراني نسيت إغلاقه قبل ذهابي؟ دوماً يحدث الأمر على هذا النحو. حين أبدأ بكتابة رواية جديدة أنسى إغلاق بابي أو إطفاء الأنوار والمدفأة الكهربائية قبل الذهاب إلى النوم وأنسى طعامي فوق النار فيحترق وأنسى اسم اليوم وأدخل في فلكي الخاص. وإذا هتف لي شخص يحمل الاسم الأول لبطل روايتي أنسى الشخص الأصلي وأظنه بطلي الذي يتصل بي!** لكنها ما كادت تطأ المدخل وتغلق الباب خلفها حتى أدركت أن في البيت سارقاً ما، فقد شمت رائحة مغايرة لمألوف بيتها، ولم تقل بصوت عال كعادتها متحدثة مع أشباح البيت وأشباح أبطال قصصها: لقد عدتُ يا أولاد.. هل قلقتم عليَّ؟ حين تنهض صباحاً تكلم أشباح المكان وأبطال قصصها قائلة: صباح الخير أيها الجميع! هذه المرة لم تقل شيئاً بل صارت تحاول تحديد هوية «الطارىء» من رائحته. حين تبدأ بكتابة رواية، تزداد حواسها رهافة، تستيقظ لديها حاسة السمع والشم كبدائي ذاهب إلى الصيد في الغابة يفتش عن طائر نادر لم يسبقه أحد إلى اكتشافه. شمّت ماريا رائحة تعرّق إنسان متوتر ممتزجة برائحة عطر رجالي ثمين نفّاذ، ممتزج برائحة زنخة، لعلها رائحة السمك حين تفوح من شواطىء بيروت في بعض ليالي الصيف «المخنوقة» وقلما تفوح من أشباحها رائحة كهذه. ثم إنها لم تتوقع أن يزور بيتها سارق معطّر لم يستحم قبل ذلك! هرعت إلى غرفة النوم حيث أودعت جواز سفرها ونقودها وحليها. وجدت كل شيء في مكانه. ازدادت قلقاً. **ترى هل استهدف السارق أوراقاً لي؟ الفصل الأول من روايتي التي بدأت بكتابتها؟**

ركضَتْ إلى غرفة المكتبة وفوجئت هناك بمشهد مسرحي بامتياز لم تكن تتوقعه. كان ثمة رجل وسيم بدين أنيق وقد جلس فوق طاولتها، يتأمل دهشتها بابتسامة على شفتيه.. بهدوء.

قال: انتظرت لقاءنا طويلاً..

تأملته وقد عقدت المفاجأة لسانها: أنيقٌ، في الخمسينات من عمره مثلها، كان وسيماً بالتأكيد بسمرته واتساع عينيه وتناسق أنفه مع شفتين شهيتين، ولكن قبل أن يتورم سمنة ورفاهية هكذا.

كان ثراؤه واضحاً في حذائه «البرلوتشي» الذي ميزته ماريا من نظرة واحدة، فهو الحذاء الواشي بـ«رولان دوما»، وربطة عنقه الـ«ليونار» وبزته الـ«ديور»، وساعة يده «الرولكس» الذهبية الماسية. وقد لاحظت ذلك كله في نظرة واحدة رغم خوفها. لطالما عذبتها قوة ملاحظتها. ظلت صامتة هادئة وفكرت بمناداة حارس المبنى لطرده لكنها ظلت متحجرة بالدهشة. ماذا يريد هذا الرجل الذي لا يبدو بحاجة إلى السرقة مني؟ بل ربما كان العكس هو الصحيح؟

تخيلته أصغر سناً، فلعلها عرفته قبل الحرب، وازدادت دهشة إذ خيِّل إليها أنها تعرفه!

قال لها بكثير من النقمة: نعم. لقد عرفتني. أنا الرجل الذي تنوين قتله!

ظلت صامتة، ولم تدافع عن نفسها بالرغم من انها في حياتها كلها لم تخطط يوماً لقتل أحد حتى في الحلم أو على سبيل التمني والانتقام بالوهم ولديها قناعة مطلقة بأن موت البشر وحياتهم يقرره الخالق وحده، ومجرد اشتهاء موتهم خطيئة عقابها الأرضي الذاتي الكوابيس وهي لا تخاف شيئاً ككوابيسها. ثم إنها ليست بحاجة الى قتل أحد ما دامت تمارس قتلاً رمزياً لكل ما تكرهه ولكن على الورق وضد بعض بطلات وأبطال قصصها. ظلا يتبادلان النظرات بصمت كقطين شرسين. وجد صوتها أخيراً دربه الى حنجرتها وسمعته خافتاً مرتجفاً وهو يقول: لا أعرفك فلماذا أخطط لقتلك؟ يبدو أنك أخطأت البيت..

ـ لا. لم أُخطىء البيت ولا غرفة المكتبة ولا الطاولة، ومنذ اللحظة التي عرفت فيها أنك قادمة لزيارة طويلة إلى بيروت أدركت أن لا مفر من المواجهة.

ـ أية مواجهة.. عن أي شيء تتحدث؟

ـ أنت لا تتبدلين. تشعلين النار ثم تنسلّين بعيداً وتنامين ملء جفونك عن شواردها.

قدَّرت ماريا أنه رجل مختل، أو أنه أخطأ البيت. وقالت: لا أفهم أية نار أشعلت. .

ظنَّته قاتلاً مأجوراً أخطأ الباب، أو واحداً من الذين واللواتي حُرموا من نعمة الموهبة ويتوهمونها سُرقت من قلوبهم حروفها!

قال كأنه يقرأ أفكارها: أنا أعرفك جيداً بل وأعرف خططك ولست مخبولاً ولا كاتباً فاشلاً ولا قاتلاً مأجوراً، وإذا قتلتك فسيكون ذلك لحسابي الخاص دفاعاً عن حياتي. الغريب أنك لم تتعرفي عليّ. .

- هل تعارفنا قبلاً؟ دعنا من الألغاز وقل من أنت وماذا تريد؟

- أنا منير الذي عرفته مرة صياد سمك وشاباً صغيراً على حافة الحرب اللبنانية. أنا منير الذي تنوين قتله! بيني وبينك اليوم علاقة حب/ كراهية وزمن من الفراق كنت أظنك نسيتني خلاله وارتحت منك. ولكن لا، لا بد من عودتك لدفن موتاك مرات وقتلهم مرات أيضاً. .

لم تصدق عينيها وأذنيها. منير الشاب صياد السمك الكادح الرقيق الشاعر الذي كان يتابع دراسته ويساعد والده. . منير بطل إحدى رواياتها، بالضبط تلك التي هب منها حين أمسكت بطبعتها الأولى صبيحة عودتها - حضور عدواني شرير جعلها ترتجف رعباً. . **لا ان ذلك لا يُصدق. الرجل مختل بالتأكيد ويتوهم أنه أحد أبطال قصصي وهو أمر سبق أن حدث لي وعلي الآن مداراته ريثما أطلب النجدة. .**

كأنه يقرأ أفكارها، منعها من طلب النجدة، وكشبح سريع قفز عن الطاولة، وأمسك بها ليمنعها من الحركة. ولاحظت أنها تحجرت دون أن يلمسها فقد كانت أصابعه بعيدة مقدار شعرة عنها.

انهارت جالسة على المقعد وسألته بصوت خافت: هل تريد ان تزعم أنك بطل روايتي منير؟ ذلك غير مقبول منطقياً وعقلانياً. أبطال الروايات ليسوا أحياء إلا داخل الكتب. داخل القمقم كالجن. ثم علامَ تكرهني إذاً، هذا إذا فرضنا جدلاً أن ذلك صحيح؟ في روايتي الأولى كُنتَ الوحيد الناجي من المحرقة، فقد كنت تُمثّل الثورة والرفض والرغبة في التغيير. . النقاء والفقر والصفاء. . الحرف الذي خرج من كتابي ليصير مقاتلاً. .

- وها انتِ في روايتكِ التي بدأت بكتابتها تعودين إليّ. . تجعلين مني مصّاص دماء تارة، و«زومبي» ميتاً حياً تارة أخرى، ومنتحلاً لإسم سواه للسرقة في أماكن أخرى. . منذ الفصل الأول في روايتك الذي أنجزت كتابته عرفتُ حين جمعت

أبطالك إلى أين تريدين الوصول بي. بل قبل أن تباشري الكتابة عرفت أنك ستَقومين باستهدافي لمجرد أنني لم ألتزم بتعاليمك؟

قالت له ماريا: في روايتي أنا لستُ ضدك بالذات بل ضد الفساد وقمع الحرية.. فما دخلك أنت؟

سمعت صوتها وهي تقول ذلك وقدرت أنها بالتأكيد أصيبت بالجنون كما ادعى البعض أن ذلك حدث لمي زيادة ذات يوم، إذ كيف تحاور شخصاً على أنه أحد أبطال قصصها وقد تَجَسَّد في رجل بدلاً من أن ترى الأمر على الصعيد الواقعي: سيدة رجعت إلى بيتها ووجدت مختلاً أو سارقاً وعليها طلب النجدة؟

أضافت وقد عادت إلى أرض الواقع: أنا لم أرك من قبل، وبالتالي لم أسبب لك أي أذى... جاء من قاعها صوت آخر: إنه بالتأكيد منير بعدما كبر.. ومر به قطار الزمن كما مر بكِ.. كنت تظنين أن أبطال قصصك يظلون كما هم حين تكفين عن الكتابة وتطبقين المطبعة كغطاء تابوت وتكفنينهم بالأوراق وتهربين إلى الاستجمام أو إلى خلق أبطال آخرين. لكنهم يعيشون بمعزل عنك كما عشت بمعزل عنهم.. تعتقدين أن أبطالك وهميون ولكن ماذا لو كنت أنت الوهمية وهم الحقيقيون؟ ماذا لو كان الكون عامراً بأبطال القصص التي كتبها «أدباء أشباح» وهميون مثلك على مر العصور؟ كيف تستطيعين الجزم بأنه هو الوهمي وأنتِ الحقيقية؟

قال لها: لقد تركتك تتأملين وجهي طويلاً قبل أن أجيبك، وأعتقد أنك الآن تعارفتِ معي وأدركتِ أنني لست مختلاً ولا سارقاً.. أنا منير بطلك الشاب الصغير البريء الطيب الذي رميت به مثقلاً بالمبادىء والشعر في خضم حرب مجنونة بقوى خارجة عن إرادته وهربت إلى باريس، واليوم وقد عدت تريدين معاقبته لأنه لم يتحجر كما اخترت له أن يكون. ورفض أن يكون ضحية ولاعباً صغيراً وأتقن قواعد اللعبة المحلية.. لقد اخترعتني وتسليت بي ورفَّهت عن الناس بل وجعلتهم يحلمون ثم نسيتني، بل وزعمت حين دخلت أنك لا تعرفينني والآن جاء دوري لأعاملك بالمثل.. وأتسلى قليلاً بإغاظتك كخطوة أولى.. فهل أحببت باقات أزهاري المهداة لكِ؟

لملمت ماريا نفسها بصلابة وعادت لتسأل بوضوح سؤالاً عملياً: ماذا تريد مني، ومن أنت؟

قال لها دونما مواربة: قلت لك أنا منير وأريد أن أحمي نفسي منك. لن أسمح لك بقتلي في روايتك الجديدة. إنك لا تفهمينني ولا تقدّرين ما أمر به من

معاناة وما مررت به طوال هذه السنوات ريثما شيدت قصراً وأسست أسرة وربيت أولاداً. أنت لم تتركي لي الخيار في أية لحظة، كان عليَّ الاختيار بين أن أموت على طريقة الذين تدعونهم أنتم الأدباء «شهداء» الحق والصدق، ملح الأر،ض أو أتابع حياتي العادية كالناس بنجاح لا بأس فيه في اقتناص الفرص وأصير في نظرك وغداً عقابه القتل في الرواية التالية.

قالت ماريا: أنت تحاول أن تزعزع قناعاتي الداخلية. أنت الذي يحاول قتلي، فزعزعة روحي من الداخل هي موتي. أنا مستمرة وقوية وناجحة لأنني ما زلت أعتقد أنه ثمة فارق بين الرمادي والأبيض ولا أقول الأسود والأبيض.. وما زلت أرى فرقاً بين الفساد والأخلاق والعطاء والغش.. بوسعك قتلي أياً كان اسمك، لكنني لن أبرىء ساحتك. ثمة فارق بين النظافة والقذارة وأنا مصرّة على الانحياز لهذا الفارق.

صرخ بها منير: أنت تحاكمينني من الخارج لكنك لا تفهمينني على الرغم من أنك أنتِ التي خلقتني ثم نسيتني، لكني خرجت من يدك ولعلي تجاوزتك. ولأنكِ لم تعودي موجودة إلا لعقابي فكل شيء مباح لي. وأنتِ لا تفهمينني.

ـ بل أفهمكَ أكثر مما ينبغي وربما لذلك تريد أنت قتلي...

ـ تذكري أنني كنتُ شاباً أحببتِه وطفلاً كبر في ظروف اخترتها أنتِ صعبة له..

ـ وأنا أيضاً كنت مرة طفلة معذبة، وكبرت في ظروف لا أعرف من اختارها لي..

كيف تجرؤ على أن تطلب مني تبرئة ساحتك إذا كنت قد اخترت أن تتلوث؟ هل تظن أنني أكره المال؟ هل تظن أنه لم يكن بوسعي أن أربح ثروة لو رضخت للإغراءات حولي؟ لا.. لا أستطيع في روايتي ولا في قلبي تبرئة ملوث.. إذا كنت قد لوثت نفسك فلست حليفتك، إني بالتأكيد عدوتك الأولى حتى ولو كنت ربيبي، وسأدينك وأعاقبك بالقتل الأبجدي دونما رحمة. وإذا كنت تريد التمرد وعصيان إرادتي وقانوني للخير والشر وتطلب الحرب فلتكن الحرب. ثمة دائماً فارق بين النور والظلمة عندي.

ـ أنا الظلال.. أنا الرمادي.. قالها بصوت حزين وهو راكع ثم نهض عن الأرض متمرداً هائجاً ليحطم لوحة ماريا المفضلة.

وصرخ منير: إنها الحرب بيننا، وستموتين وأنتصر. نحن أبطال القصص ننتصر دائماً. ألم يمت ليو تولستوي وتبقى آنا كارنينا في محطات قطارات العالم

كله؟ هل مررت مرة بمحطة قطارات دون أن تلمحيها على رصيفه؟ ألم يمت أنطوان دي سانت أكزوبري ويبقى الأمير الصغير؟ ألم يَفنَ ميغيل سرفانتيس ويبقى دون كيشوت؟ ألم يتلاش دانييل ديفو ويستمر روبنسن كروزو؟ ألم يتحول غوستاف فلوبير إلى تراب وبقيت مدام بوفاري؟ ألم يطر فلاديمير نابوكوف مع فراشاته وتبقى لوليتا؟ ستموتين وأستمر لكنني سأستمر خارج كتابك وأتابع حياتي كما يحلو لي. أنت وليمة مؤجلة للديدان لا أكثر، وأنا حر مستمر، ومخلوقك أكثر بقاء منك أنتِ خالقته، وذلك يرعبك.

فجأة وعت ماريا ضعفها. لم يخطر ببالها من قبل أن أبطال رواياتها أكثر حياة وقوة منها، وبوسعهم قتلها أيضاً. كانت تراهم في أحلامها كأبنائها المسالمين وبناتها. يحيطون بها حين تصاب بالحمّى وتهذي وحيدة، وتتخيلهم حين تموت يأتون ويزدحم البيت بهم ويبكونها في جنازتها ويؤنسون وحدة قبرها بعد موتها ويصيرون أيتاماً.. لم يخطر ببالها من قبل أن بوسعهم هم أيضاً محاسبتها وقتلها! **ترى هل مات الأدباء جميعاً حين تمرد أبطال قصصهم عليهم؟ ترى هل قُتل الأدباء جميعاً حين قتلهم أبطالهم؟ هل قتل «الكابتن أحاب» والحوت «موبي ديك» المؤلف هرمان ميلفيل؟ وهل قتل «أحدب نوتردام» فيكتور هوغو دون أن يدري أحد؟ وهل قتل «هاكلبري فين» مبدعه مارك توين؟ أم أن الذي قتله هو بطله الآخر «توم سوير»؟ وهل مات ليو تولستوي بضربة من فأس المقهورة آنا كارنينا التي رفضت القفز باستمرار تحت القطار وتابعت حياتها كما يحلو لها ثم اغتالت عشيقها الخائن بدلاً من الانتحار كما شاء لها تولستوي؟ ومن الذي قتل بوريس باسترناك، أهو «الدكتور جيفاكو» أم حبيبته «لارا» وقد تمردا على فراق شاءه لهما المؤلف ورفضاه؟**

غمر القلق قلب ماريا وأغمضت عينيها حزناً وقد ازدادت وعياً بهشاشتها، وحين فتحتهما كان منير قد غادر غرفة المكتبة. فتشت عنه في البيت والخزائن وكل مكان في وكرها يصلح لاختباء شخص ما، ولم تجده. فكرت بالاتصال برجال الشرطة وطلب حمايتهم. ولكن ما الذي ستقوله لهم؟ أحد أبطال قصصي يريد قتلي ويهديني باقات أزهار ميتة؟ ثم إنها لا تعرف أصلاً كيف تتصل بفرقة «النجدة» وكان الرقم قبل سفرها «١٦» لـ «الفرقة ١٦». أما زال ذلك الماضي ساري المفعول أم أنه تبدل؟ وإذا حضروا وسمعوا شكواها هل سيزجّون بها في مصح عقلي وهم يضحكون؟ أم سيتعاطفون مع قولها لهم: لا شيء حقيقياً في بيروت ولا شيء وهمياً أيضاً، لا الأشباح ولا أبطال القصص؟

حين ذهبت إلى النوم، ابتلعت قرصاً منوماً وكانت تتوقع أن تجد منير أو قاتلاً آخر من أبطالها بانتظارها داخل كوابيسها، لذا رشت بعض عطر الياسمين على عنقها فهي تعتقد جازمة أن التعطر قبل النوم يدفع عنها الكوابيس!

تلفّت فواز حوله في المقهى ليتسلى بتأمل الجميلات، وما أكثر ما شاهد منهن في بيروت، بانتظار وصول حبيبته سميرة لتنقله إلى الزيارة الموعودة للقاء والدها. تأملهن واحدة بعد أخرى وقد قرر ممارسة هوايته الباريسية: تعريتهن من ثيابهن في خياله ورسمهن بورقة توت لا أكثر.

فوجىء بأن للنساء كلهن في المقهى وجهها..

أحصاهن. سبع وعشرون امرأة لهن وجه سميرة. العيون كلها تقود إليها. الكون صار مأهولاً بها وحدها. وحين تقف على شاطىء البحر معه تتقافز الأسماك عالياً حتى الغيوم ثم تطير وتحلق. وحين يمران معاً في صالة أحد الفنادق قرب باقة أزهار مجففة ميتة تعود الأزهار إلى الحياة.

يا إلهي. لم أعد أرى سواها. لا مفر لي من الاعتراف بأنني مغرم بها حتى الجنون حباً عذرياً لم يدر بخلدي أنه يمكن أن يقع لإقتصادي هادىء هاوي نساء (على رواق!)، يستخدم آلته الحاسبة ليعرف كيف يمكنه بذل أقل جهد ريثما يجر خمسين كيلوغراما نسائياً شاباً أو أكثر بلا رافعة إلى غرفته، أي جسد المحبوبة المؤقتة، سواء كان اسمها بياتريس أو دافني أو أوجيني أو..

أما اليوم فلا أريد سوى أن أكون قريباً من سميرة دون أن ألتحم بها. أريدها كما هي مستحيلة لأزداد اشتعالاً وانتشاءً بذلك الشعور الجديد عليَّ، كأنني أحب للمرة الأولى..

ما دام لا سواها وللنساء كلهن وجهها فلأرسمها ريثما تصل.

لم يكن يحمل قلماً ولا ورقة، لكن رغبة الرسم غلبته وأنسته تحفظه فطلب من النادل قلماً لم يبخل به عليه وباللطف اللبناني إذ قال: ولَوْ.. قلم فقط؟ غالي والطلب رخيص.

تناول منديلاً ورقياً من تلك التي زودوا المائدة بها، وتحمل اسم المقهى وحين لمسه وهو يفكر بسميرة مشتاقاً لحضورها، تحول المنديل الورقي إلى قماشة لوحة، وما كاد يبدأ الرسم حتى صار المنديل فضاء.. وغرق في الرسم هانئاً باستحضارها.

ـ آسفة. . تأخرت. .

كأنها أيقظته من غيبوبته بل كاد يتضايق لأنها جاءت وقطعت عليه نشوة رسمه لها!

ألقت بنظرة على الورقة وقالت بدهشة حقيقية: أنت رسام بمعاني الكلمة كلها. لم أعرف يوماً رجلاً سرياً «حبّوباً» مثلك، لطيفاً ومهذباً مثلك، وموهوباً بلا ادعاء.

سألها مداعباً: أهذا غزل أم اعتذار مبطن عن التأخر؟

لم ينس إعادة القلم إلى النادل مع ورقة نقدية «محترمة» بمقاييس بيروت لا باريس، وقال له النادل: ممنونك يا باشا.

ضحك فواز وقال لنفسه: ما أرخص لقب الباشا في هذه المدينة!. . ادفع فقط. . .

* * *

عينان ترقبانه وهو يدخل بيت سميرة. . عينان شبحيتان. .

فوجىء فواز كثيراً بلقاء خليل الدرع صديق والده الذي طالما سمع عنه. فقد تخيله طويل القامة متين البنية شبيهاً بصورة جمال عبد الناصر كما وصفته أمه مرة، لكنه التقاه جالساً في كرسيه الحديدي المتحرك، مُقعداً، ذابلاً، مثل «حصان بحر» أخرجوه من مياهه. . أو انحسرت مياه بحره عنه وخلفته لعراء إعصاري وافد من شطآن أخرى. . ولأعاصير ثلاثة عقود استثنائية من الزمن.

ويبدو أن خليل الدرع فوجىء بلقاء فواز أكثر بكثير من المفاجأة التي أحسها فواز، إذ نظر إليه في عتمة ظلال الغروب دونما إضاءة: يا إلهي كم تشبه والدك فايز. . أم أنك فايز الشاب وقد عاد لتعذيبي، ولتذكيري بكل الألم الذي كان، والجنون الذي كان والصدق الذي كان؟ دونما تحفظ طرد خليل ابنته من الغرفة وطلب منها أن لا يفسد أحد خلوته مع صديقه فايز!!

عرضت عليه سميرة قبل أن تغادر الغرفة إضاءة النور فزجرها والدها مكتفياً بوهج الغروب.

عقلانياً، قرر فواز أن خليل الدرع والد الحبيبة سميرة مختل بعض الشيء، إذ إنه يشبه والده فايز ولكن ليس إلى المدى الذي يجعل شخصاً ما يخلط بينهما ناهيك عن فارق الطول بينهما لصالحه! تساءل وهو يسخر من نفسه لأنه يكاد يختل بدوره: ترى هل كان والد ليلى مختلاً قليلاً حين سأل قيس: جئت تطلب ناراً أم جئت

تشعل البيت ناراً، على ذمة أحمد شوقي وعبد الوهاب والأغنية التي تصر أمه على الاستماع إلى شريطها وشرح مدلولها له منذ صغره؟

قال خليل: اجلس يا فايز.. اجلس..

قال فواز! أنا فواز ابن فايز.. لست فايز.

ـ ما الفرق؟ هيا اجلس.. دعني أراك جيداً.. ها قد استعدتَ بالموت وجهك في ذلك الزمان الجميل.. زمان العنفوان والاشتعال والصدق.. انظر يا فايز ما فعلوه بنا.. وما فعلناه بأنفسنا.. انظر إلى تحالف أخطائنا مع جشعهم وأنانيتهم وقذاراتهم.. انظر إلى ذلك القرف كله..

كرر فواز بإلحاح نصف متضايق حرصاً على فرديته وتميزه عن القبيلة: أنا فواز ابن فايز لكنني شخص آخر..

ـ فواز؟ فايز؟ ما الفرق يا رفيقي؟ آه يا فايز.. كيف استطاعوا أن يجعلونا نعشق الوطن ونكره الحياة فيه؟ كيف استطاعوا إبعادك.. وكيف استطاعوا تدميري؟ أنت الأرستقراطي الجميل الرومانسي عاشق الفقراء والمثل العليا وبيتهوفن، وأنا ابن الطبقة الوسطى عاشق القضايا.

ـ أنا فواز ابن فايز لكنني شخص آخر غير فايز.. عبارة همس بها فواز هذه المرة بصوت يكاد لا يكون مسموعاً وكأن خليل الدرع بدأ بالاستيلاء عليه. وكأن خليل لم يسمع فواز بل كان يرى فايز ويسمع عبر فمه كلمات «شبحيّة» آتية من حنجرة شبح محبب إذ أضاف بنشوة حزينة: هل تذكر يا فايز أنك كنت قائدي في فرقة «الكشافة»؟ صحيح أنك كنت تكبرني بثلاثة أعوام، لكن ذلك كان كثيراً، فقد كنتَ في الخامسة عشرة من عمرك.. وكنتُ صبياً أصغر سناً بكثير في الثانية عشرة من عمره. هل تذكر حين ذهبنا إلى مرفأ بيروت عام ١٩٤٨ نحن الكشافة لاستقبال اللاجئين الفلسطينيين وحمل أمتعتهم ومساعدتهم على الهبوط من مراكب الهرب؟ لم يتوقع أساتذتنا أن يدوم بقاؤهم أكثر من أسابيع ريثما تقوم الجيوش العربية بتحرير فلسطين.. والآن انظر يا فايز إلى قاع القاع الذي وصلنا إليه.. انظر.. صرنا نستجدي رقعة من أرضنا نعيد إليها أولاد أولئك الناس الذين ورّطناهم وطلبنا منهم الحضور وإخلاء الجو لنا لنقاتل ونحرر، ومن يومها وهم تحت الخيام الإسمنتية ينتظرون. فيا لعارنا يا فايز.. «وآه الواه علينا»!

أراد فواز أن يكرر: أنا فواز ابن فايز لكنني شخص آخر. لكنه لم يجد في حنجرته صوتاً. فصمت وقد غمره التأثر والتعاطف والفضول نحو والده وأحداث عاشها ذلك الوالد وهو الذي لا يعرف شيئاً كثيراً عنها وعنه.

تابع خليل الدرع وكأنه سمع جواباً من صديقه فايز الذي جاءه شاباً صغيراً في عمر زمن الأحلام الكبيرة الخاسرة والرهانات المفلسة اليوتوبية القومية، وكان لصوته طعم الانتحاب: أعرف أنك يا فايز أرمل الوحدة العربية، مثلي، وأنك مت قبل أن تموت بزمن طويل.. كأنك عاقبت نفسك بالموت استسلاماً. حكمت على نفسك بالإعدام وأنت حي ويا له من تعذيب..

قال فواز متلبساً والده كي يسمع الإجابة التي طالما حيّره لغزها: ذنبي أنني غادرت بيروت إلى باريس هارباً، وكنت تعيساً هناك.

قال خليل الدرع وقد تهلل وجهه والتقى أخيراً برفيق عمره فايز: لا يا فايز. لا تلم نفسك. لو لم ترحل لقتلوك.. أنا لا أنسى شيئاً وما زلت أذكر الماضي بوضوح. الماضي وحده.. لا تنس أنه كان ثمة العشرات الذين يريدون موتك.. وما أكثر الأسباب يومها لقتل مشاغب مثلك يعشق الحرية والحرية والعدالة..

أرهف فواز السمع فقد كان يتوق لمعرفة والده، وفهم أسباب تشردهم وأسفارهم وهجراتهم حين كان صغيراً. تابع خليل: يا فايز ثمة من كان يريد قتلك كرسالة شفهية من زعيم إلى آخر مكتوبة بالدم يتصالحان بعدها في مأتمك و«يفهم» كل منهما أن الآخر ليس مازحاً.. هذا على جثتك ودموع أرملتك وتحت عيون كاميرات التلفزيون!

وثمة من كان يريد قتلك انتقاماً من حلم أنت جزء من رموزه و«محسوب عليه»، وقد لا تكون لك صلة في الحقيقة بممارساته بل بجوهر شعاراته المعلنة لا أكثر.. شعارات مناقضة للسلوك اليومي لبعض جماعته...

وثمة من كان يرغب في قتلك ببساطة لسبب ذاتي من قِبَل من له مصالح مالية في التخلص منك.. وثمة من كان يمكن أن ينفِّذ عملية قتلك مأجوراً من قبل عاشق غيور وأنت فايز زين الشباب ملك الجولات والنشوات. وثمة أكثر من ميليشياوي مال وسلاح غيور منك يريد أن «يحسب أن الله ما خلقك» وبالتالي يقتلك. في ذلك الزمان لم يكن أحد يعرف بالضبط من هو القاتل، فالقتلة يتبادلون المنافع ولا يفضحون أسرار بعضهم بعضاً. كان بوسعك يا فايز بعلمك وثراء أسرتك وعراقتها أن تكون أحد الحكّام الثلاثة (الترويكا) في بلدنا، لكنك رفضت مقايضة صدقك، أياً كان المقابل بل لعلهم جماعتنا بالذات هم الذين كان يمكن لهم أن يقتلوك، أولاً لاستعمالك شهيداً وثانياً للتخلص من استقلاليتك في التفكير الليبرالي وعشقك للحرية.

منذ البداية عرفنا يا فايز أنت وأنا أننا لا نصلح لجماعة «نفذ ثم ناقش»، وكنا

نريد أن نناقش أولاً ثم نختار هل ننفذ أم لا.. ذلك لا يطيقه ديكة التجمعات والأحزاب الذين يؤلّهون مع الزمن أنفسهم ـ استغفر الخالق ـ.

نهض فواز وأضاء النور دونما استئذان فقد عمّ الظلام ثم قال دون أن يكذب وكأنه حلّ في جسد والده: وأنت؟ كيف بقيت في الوطن؟

ـ بقيت؟ أهذا بقاء؟ انظر إليّ.. بقيت كسيحاً وعاجزاً، وكنتُ طليعة جيل الأحلام الخاسرة والرهانات الشاسعة المكسورة.. حتى أنني غادرت مهجري في سويسرا وعدت لأكون في الوطن ضد الاجتياح الإسرائيلي. ألا تذكر قصتي؟ في البداية قاومت بكل ما في شبابي من عزم وقوة. ظللت يا فايز أقول الحق ناسياً أن بوسعي أن أصمت أحياناً! كنت لا أصمت. لا أختار التوقيت. أقول الشيء ذاته للجميع، وهكذا كسبت أصدقاء لا أحبهم وأعداء لا أكرههم ووجدتني مثلك يا فايز محسوباً على فئات لا أحترمها، مرفوضاً من جهات تربطني بها قناعات فكرية وتفرقنا أساليب الممارسة.. وهكذا تنقلت بين سجن وآخر وأنا في أغلب الأحيان لا أعرف سجاني وأحاول أن أستشف ماهية ورطتي من لهجة جلادي.. لكن الجلادين جميعاً ينطقون لغة مرتزقة واحدة. وصعب أن تميز بين جلاد «جماعتك» وجلاد الجماعة الأخرى وبين سجن العدو وسجن الصديق.

وذات ليلة ساقنا جلاد إلى المقبرة لإعدامنا هناك تنفيذاً لفكرة عبقري تعب من نقل الجثث ورميها في الشوارع وفوق التلال وتحت الجسور وأطلقوا النار علينا وسقطت جثة فوقي حمتني إذ أغمي عليّ فيما يبدو قبل لحظة الإعدام وانهرت قبل انهمار الرصاص ونجوت.. وهاجرت إلى سويسرا.. وعدت.. وأعدت سيرتي الأولى.. وأُعدت إلى الأقبية، وغادرتها كما ترى مشلولاً مكسوراً.

خسرت زوجتي كفى البيتموني التي ظلت في جنيف ورفضت العودة، وحين ماتت منتحرة بعدها بأشهر ادعيت أمام الأولاد أنها توفيت بنوبة قلبية وهي تستعد للحاق بنا وترك عملها هناك.

آه يا فايز.. كان عزائي العودة بأولادي إلى الوطن، ولكنني أراهم أمام عيني وهم يكادون يعيدون دورة الجنون ويكررون ما كان. ولم يعد ثمة من يذكر ما الذي أودى بي إلى هذا السجن المؤبد داخل مقعد حديدي.. الكل نسي مأساة الوطن ويكاد يكررها، والمقدمات نفسها ستقود إلى النتائج نفسها.. الكل نسيني ونسي أمثالي نحن الذين ضحينا حقاً إكراماً للوطن لا للمال ولم نتآمر عليه..

بحنان قال فواز: لا تقلق يا خليل الدرع.. ذلك ما لا يمكن لأحد نسيانه. قالها فواز كأنه اتحد بروح والده أو كأن والده صار ينطق من حنجرته..

تابع خليل الدرع بوجه كمن انتظر عمراً قبل أن «يفرش» قلبه كعباءة: تعذبني لامبالاة الكثيرين من الجيل الجديد بالذاكرة وبالمصير.. ثم إنني أشعر بالمسؤولية عما حدث في لبنان ولا أستطيع تبرئة نفسي، ولا أحد من جيلنا يا فايز بريء.. كلنا سبّبنا للحبيب لبنان الأذى بدرجات متفاوتة، فكيف نستطيع لوم الجيل الآتي؟ ربما كان من الأفضل أن لا ننقل إليه دم ذكرياتنا إلا إذا استطعنا تطهير جينات ذلك الدم من أمراضنا وآثامنا.. انظر إلى بعض رفاق الأمس.. لقد أضحوا عبيد المال وسادة الاستغلال.. انظر إلى ذلك «البطر» المحيط بنا.. المرعب أن بعض أبطاله هم الذين صاروا ينطقون اليوم باسم الفقراء.. بينما هم يقومون بنهبهم والفقراء يحملونهم على أكتافهم وأعناقهم ويهتفون بأسمائهم.

قال فواز بتأثر: للأسف هذا صحيح..

قال خليل الدرع: يا فايز.. هل تذكر أننا لم نكن يومها نقبل بديلاً عن الجمهورية العربية المتحدة من المحيط إلى الخليج؟ هل تستطيع أن تلفظ اليوم هذه التسمية دون أن يضحك من يسمعك؟ وحتى عبارة الولايات العربية المتحدة يمكن أن تثير السخرية.. راهنّا على القومية والوحدة العربية وخسرنا وعلى الثورة والاشتراكية وتحوّل لبنان إلى معتقل نموذجي من العالم الثالث: أثرياء مفرطي الثراء وفقراء حتى التسول وانقرضت الطبقة الوسطى بفضل أطروحاتنا النظرية «الثورية» التي أفلحت ميليشيا اللامبالاة بمصير لبنان في توظيفها لصالحها. واليوم أراهن بكل صفاقة على الديمقراطية كسبيل أخير للنهوض العربي، ولكن ماذا لو صوّتت الأكثرية لصالح القمع اللاعقلاني الخرافي؟...

كاد فواز ينتهز فرصة صحو خليل الدرع ليسأله عن والده أسئلة محددة، ولكن خليل أمعن غياباً في الماضي قائلاً: هل تذكر يوم خرجنا أنت وأنا في تظاهرة ضد الانتداب الفرنسي، عمادها الأطفال والأمهات وكنا أطفالاً فاضطرت أمهاتنا لمرافقتنا ونجحنا في تجييش العمّات والخالات؟ ما زلت أذكر أن أمك خرجت يومها برفقة سارة غندور وحنينه طرشا ونجلاء صعب وكلودا ثابت وحياة بيهم وفاطمة وأسماء داعوق ومئات غيرهن. بعدها اكتشفنا أن الانتداب في داخلنا واسمه التخلف!

دمعت عينا خليل، وحاول أن يتحرك في كرسيه الحديدي ذي العجلات وفشل وقال لفواز: أعرف كم الحياة في المنفى مهينة. لن أنسى يوماً أيامي البائسة في جنيف وذلي. لقد استطعتَ يا فايز المحافظة على الأقل على نزاهتك وخيبت أمل المراهنين على سقوطك فريسة للحاجة إلى المال في الغربة والمنفى وثلج

العزلة وأنت المدلل المرفه العاجز عن بيع شيء من أملاكه الكثيرة بسبب الحرب.. والفضل يعود أيضاً للست فرحة أم فواز، في بعض الفترات على الأقل حين دعمتك براتبها وعملها النظيف الشاق. قل لي، كيف حال ابنك فواز؟ أجاب فواز بهدوء: بخير.. بخير. تابع خليل: في زيارتك الأخيرة لي يا فايز قبل موتك قلت لي إنك توهمت النجاة في هربك بحلمك نقياً ووجدت الحلم في الغربة منفى إضافياً.. وأنا يا فايز وجدت في بقائي في الوطن داخل حلمي منفى إضافياً أيضاً.. والمنفى الحقيقي اليوم يدعى الخوف.. أنا خائف. الكل خائف. المسلم والمسيحي والفلسطيني وكل مقيم على أرض هذا الوطن يشعر بالخوف.. الخوف هو اليوم ملكنا الأول، وهو الذي يدفع بأولادنا إلى الهرب.. إلى أي مكان.. حتى إلى يوتوليا.. هل سمعت بذلك المحتال الذي جمع ثروة من مساكين صدقوا أنه ثمة يوتوبيا تدعى يوتوليا وأعطاهم تأشيرات سفر إليها واختفى؟ الحرب لم تنته يا فايز.. لعلها الآن بدأت حقاً..

دخلت سميرة تحمل صينية القهوة وبعض الشطائر، وكأن حضورها أيقظ والدها من غيبوبته. قالت سميرة نصف معتذرة هامسة: نسيت أن أقول لك إن والدي يحضر ويغيب.. ويغيب غالباً.. وكان الأب قد تحرك بكرسيه للرد على الهاتف.

قال لها فواز بصدق: والدك يحضر بكثافة حين يغيب. إنه حاضر دائماً. ربما عنا، أنت وأنا وجيلنا «الغائب» باستمرار وبامتياز.

- ستأتي بعد غد للعشاء عندنا أليس كذلك؟

قال بحرارة: لا أريد أن أتعبك.

- عمتي ستساعدني فاطمئن. ثم إنني أحب إعداد الطعام. أنا شرهة بطبعي!

نظر إليها رقيقة شفافة كزرافة كريستالية بعينين من زمرد وكان يتخيلها لا تأكل غير ندى الأزهار الفجرية البرية ممتزجاً بقطرات من العسل البكر.. أضافت: والدي قام بدعوة بعض أصدقاء الأمس أيضاً. أعني أصدقاء والدك الذين يتوقون للقائك.. كاد يصرخ لا، لكنها أضافت: فلا تخيب أمله وأملهم. ثم همست: عمتي التي لم تتزوج إكراماً لنا هي التي ربتنا إخوتي وأنا بعد وفاة والدتي.. لقد حدثتها عنك كثيراً، وتريد تحيتك.

ألغاز. ألغاز. هل أخفوا يومها حقيقة إنتحار الأم عن طفلتها؟ أم أن حكاية الانتحار من أوهام الأب؟

فوجىء فواز أيضاً بلقاء العمة، بدت له بحاجة إلى من يخدمها، أكبر سناً من شقيقها خليل، نحيلة وضئيلة ليس بوسعها حمل كأس ماء ناهيك عن مساعدة سميرة في الطبخ! دهش كيف تستطيع سميرة المحافظة على الجانب المتوحش الفردي المتمرد من شخصيتها وهي التي تحمل مسؤولية عاجزَيْن مسنّيْن في البيت ناهيك عن ثلاثة أشقاء ذكور.

كبر حبه لها بالاحترام.

قضت ماريا ليلتها وهي تعمل على إكمال مخطط روايتها الجديدة. كانت كالبوم، لا تستيقظ جيداً إلا في الليل ولا ترى إلا في الظلام ولا تكتب بنشاط إلا بعد أن يغادر مصاصو الدماء توابيتهم عند منتصف الليل. ولم تعد تدري هل نامت فجراً أم عصراً ومتى يبدأ الليل وينتهي النهار وهل تلك العتمة الرمادية فجر أم غروب هارب من الزمن إلى زمن زئبقي رجراج ملتبس؟

استيقظت ماريا، وحين مضت صوب المطبخ لإعداد قهوتها أياً كان الوقت، سمعت ضوضاء في غرفة المكتبة.

مضت صوبها وفوجئت بالرجل الأنيق منير ذاته جالساً فوق طاولتها وهو يعبث بأوراقها، وأذهلها أنه يجد دوماً وسيلة للدخول إلى بيتها حتى دون أن تسمع وقع خطاه رغم حواسها المرهفة. وقبل أن تصرخ به مؤنبة على تسلله، صرخ هو بها: لقد عدتِ من جديد إلى تحضير روحي. ولماذا استدعيتني؟ لا للثناء على نجاحي في الحياة بل لتقومي بقتلي. لا مرة واحدة بل مرات.

ظلت صامتة مسكونة بمزيج من الخوف والذهول.

ـ إنك تنوين قتلي لا لمرة واحدة بل لمرتين على الأقل. ستقتلينني مرة برصاصة واحدة في رأسي في جلد منتحل لشخص آخر تحت ستار تشابه الأسماء. ستجعلين مني وغداً تافهاً. لا جلاداً كبيراً بل مجرد ضحية صغيرة، ضحية أقداره العابثة وضعفه وذاته وقد أسميته عبد الكريم.. وبخلت عليه بطبيب نفساني يعالجه..

ـ لا.. لا..

ـ تنوين قتلي ثانية كمحتال أغواه المال السهل في لعبة ميليشيا الفساد والمال.. هذه المرة ستقومين بإحراقي بعد تحويلي إلى مصاص دماء.. وأطلقت عليَّ اسم ناجي.

قدرت ماريا أن منير هذا شخص مختل عرفتْهُ ذات زمن وربما ارتبطت به لأيام في علاقة عابرة من علاقاتها.. لا تدري كيف يتسلل إلى بيتها لكنه بالتأكيد طالع أوراقها وقرأ مخططها المبدئي لروايتها الجديدة التي تعمل عليها بدليل أنه ما زال يحمل أوراقها في يده. ولكن كيف عرف أن ناجي سيموت وهي لا تعرفه بعد؟ قال

لها بمرارة: تريدين إعادتي من جديد ورقة بيضاء وقطرة حبر فقط لا غير فوق الورقة. كيف يحق لك إعادتي من الحبر إلى الحبر ومن التراب إلى التراب ومن الورق إلى الورق دون استشارتي؟

ظلت ماريا صامتة، عاجزة عن تصديق التفسير اللاعقلاني لما يدور والذي بدأت تقتنع به!

أضاف منير: لقد قمت بخلقي على الورق ولكنني صرت شخصاً مستقلاً عنك له حياته وآلامه وطموحاته وشهواته، وتمردت على إرادتك، واخترت أن لا أعيش كصياد سمك بائس ونقابي نشيط يدافع عن الآخرين وأسرته تموت شهوة إلى امتلاك ما تملكه أسرة صاحب سوبرماركت السمك وغير السمك. لماذا تريدين مني أن أتابع حياتي في خدمة الحق والعدالة والحرية وأنت تعرفين أي مصير ينتظرني؟ ألم تختاري لنفسك مصيراً آخر؟ ألم تشعري أن المعركة أكبر منك ومن أبجديتك واخترت مصيراً آخر بعيداً عن المستنقع وذهبت إلى باريس وتركت لي النضال والفقر والموت قهراً؟

ـ لا.. لا.

ـ لا يحق لك العبث بنا هكذا نحن أبطال قصصك لخدمة ما تريدين قوله. تنسيننا حين تشائين ثم تستدعيننا لساعة الحساب حين يحلو لك، وتنصبين الصراط حين تختارين بعدما قمت بإهمالنا دهوراً.

ـ لا.. لا..

ـ تعبت منك. لقد رميت بي على كوكب مقفر موحش إلا من أصوات الوحوش الأخرى الباحثة عن رزقها مثلي.. وغبت، ونسيتنا. تتأملينا من فوق، من بعيد.. كأننا كفّارة لك عن شعورك السري بالذنب. تمارسين ملذات السلطة علينا وتحرميننا من حق التمتع بمذاقها، ومن جماليات الرفاهية وغواية الخضوع للأمر الواقع وراحة المشي مع التيار وليس ضده ولذة الثراء الأرضي العابر والمتع الحسية ومثل متعة الإقامة في القصور بدلاً من الوكر الذي اخترت لي أن أولد فيه على شاطىء البحر ابناً لصياد سمك يقيم في غرفة واحدة مع العديد من أولاده، يضاجع زوجته أي أمي ولا يدري أنني مراهق معذب يستمع إلى لهاثه ويتمزق بين خجله مما يدور وغليان الدم في عروقه وهياج «هورموناته» النشطة.. هل اكتفيتِ بذلك؟ لا.. بل قررت أنني شاعر ومرهف لكن ضرورات الحياة ستحولني إلى مناضل ثائر ونقابي. حسناً، حدث ما اخترته لي في إحدى الفترات ثم غبت أنت وتطورتُ أنا داخل أحداث بيروت وتبدلتُ مع تبدلاتها كالعشرات سواي الذين كان

لهم نهجي واكتشفت أن أولئك الذين تحاربين حياتهم إكراماً لـ «ملح الأرض» يعرفون كيف يعيشون.. ثم إنك تعيشين مثلهم باستثناء أنك لا تسرقين.. ولو عشت ظروفي التي اخترتها أنتِ لي لفعلتِ مثلي..

ـ لا.. لا..

ـ هل نسيتِ أنني كنت مرة مراهقاً صغيراً يرتجف لشروق القمر مثل سمكة ترتعش بأنفاسها الأخيرة على قارب صياد عشِقَته..

ـ لا.. لا..

ـ والآن تريدين عقابي لأنني تصرفت كإنسان؟ أنت التي خلقتني هكذا وزرعت في أعماقي الضعف واللون الرمادي وكنتِ تباهين بأنك لا تحبين الشخص الأبيض أو الأسوّد، والآن تريدين عقابي لأنني لست ناصع البياض؟

ـ لا.. لا..

ـ حاكمي نفسك أولاً؟ هل أنت ناصعة البياض؟ هل ما تفعلينه بي تحت اسم العدالة عادل؟ هل قوانينك المعلنة عادلة؟ ألا تشعرين بشيء من الحنان على أخطائي؟ وهل تعميك إلى هذا المدى شهوة الانتقام؟

قبل أن تضيف شيئاً تصاعد غضبه وانقضّ على الجسد الهش لماريا وقيّد يديها خلف ظهرها بعدما ثبّت على فمها شريطاً لاصقاً كي لا تصرخ ثم حملها فوق كتفه كمن يحمل طفلة وغادر البيت بها وهي ما تزال بثياب النوم. تمنت أن يراها حارس المبنى أو سائقو سيارات الجيران. كان الشارع خاوياً ولم تتبين في الضوء الرمادي أهو الفجر أم الغروب، ومدخل مبناها المزدحم عادة بالحارس والسائقين تصادف خلوّه منهم. رمى بها منير فوق المقعد الخلفي لسيارة وانطلق بها في درب حاولت أن تحفظها لتعرف إلى أين يختطفها، وكان يقود بسرعة مجنونة أرعبتها. كانت الشوارع خالية من السيارات كأن بيروت خوت من الناس إلا منهما أو أن أهل المدينة نيام. وأخيراً توقف بالسيارة أمام «فيللا» ضخمة على تلة تعرفها قرب البحر. قال لها: تعالي أريك كيف نجحت في تحقيق حياة رغدة لأولادي ولم أضطرهم للنوم ولو مرة واحدة في غرفة واحدة معي ومع أمهم ليسمعوا لهاثنا ويتعذبوا ويتصببوا شهوة وشعوراً بالذنب، ويشتهوا الطعام الذي لا يحظى به الفقير.

مد يده وأمسك بيدها، بعدما حررهما من القيد وأزال الشريط اللاصق عن فمها وأوجعها. وقبل أن تعترض طارت معه عبر سقف السيارة كما لو تخلت عن جسدها وصارت بدورها بطلة قصة. خلف نوافذ قصره شاهدت مراهقاً يعاقر

الإنترنت، وعاملة منزلية تضع الطعام أمام سائق بملابس رسمية أنيقة وقد وضع قبعته إلى جانبه، وصبية جميلة لعلها طالبة جامعية جالسة خلف طاولتها تدرس أو تطالع كتاباً وطفلين يتضاحكان أمام التلفزيون. وفي غرفة رابعة، سيدة جميلة لعلها زوجة منير ترتدي ثوباً أنيقاً وتساعدها على إغلاق أزراره الخلفية عاملة منزلية. أطلت على ماريا مشاهد أليفة من النوافذ حتى كادت تنسى ما الذي فعله ليشيد هذا القصر وما الذي يقترفه لينفق على ذلك الترف. كانت تطير معه وهما يتلصصان عبر النوافذ حين اقتربت ماريا كثيراً من نافذة الصبية. التفتت البنت صوبها كأنها أحست بحضورها لكن منير جرها من يدها وطارا نحو قصر مجاور، وشاهدت شابة بالغة الحسن والأناقة تدور بعصبية في غرفتها المسدلة الستائر، وأدهش ماريا أنه كان بوسعها أن ترى عبر الجدران والنوافذ بوضوح حتى أنها كانت تسمع وقع خطى الشابة بكعبها المرتفع المدبب وتشم رائحة عطرها وقال منير: وهذه عشيقتي وهي تنتظر اتصالاً هاتفياً مني وقد تأخرت لانشغالي بك.. وكما ترين لم أعد بطلاً لقصة بل صرت إنساناً يحمل معه صورة أولاده.. فدعيني لهم ولحديقتي.. تعالي معي.. انظري إلى الحديقة النضرة والأشجار وشتلات الغاردينيا.. إنها تزدهر في الربيع ولولا ذلك لقطفت واحدة ولغرستها في شعرك.. أنا أعرف أنك تحبين ذلك.

لم يكن مخطئاً. مدّت ماريا أصبعها صوب شتلة الغاردينيا مثل العصا السحرية ولم يدهشها أن أصبعها قلم كتابة طويل العظام كعصا ساحرة، وهكذا ازدهرت النبتة فجأة وامتلأت بالغاردينيا «بشحطة» قلم. قطف منير زهرة غاردينيا كبيرة كزهرة عباد الشمس وغرسها في شعرها وهما يطيران بهدوء تحت المطر.. وابتسمت له وشعرت بعاطفة جارفة تتدفق منها نحوه، بمزيج من الحب/ الكراهية، والندم والرغبة في عقابه في آن..

قال لها: ما رأيك بنسياني وتركي أتابع حياتي؟ أرجوك، قومي بتحضير روح بطل آخر واستعمليه وسيلة إيضاح لكتابك ودعيني وشأني. لا أريد منك غير نسياني إلى أبد «الآباد».. إنني سعيد وناجح ومن علية القوم.. ثمة أوغاد سواي فدعيني وشأني!

شعرت ماريا أنه يزعزعها، وأنها لم تعد قادرة على التفكير بوضوح فقد استطاع النفاذ إلى نقطة ضعفها العاطفية التي تعجز عن السيطرة عليها أحياناً لكنها تعرف كيف تحاصرها قبل أن تقوم بما قد تندم عليه عقلانياً فيما بعد..

كعادته قرأ أفكارها وقال وقد مد يده إليها بورقة «فاكس»: خذي.. هذه

نسخة عن صور أولادي.. إنها تفي بغرض تذكيرك بنا. حنّت ماريا عليه وأجابت بهدوء: أريد أن تعيدني إلى غرفة مكتبتي. دعني أفكر بذلك كله لأرى بوضوح!...

حين نهضت ماريا عن طاولة الكتابة منهكة، نظرت إلى ساعتها ووجدتها ٣,٤٩ فجراً، فمشت بعيداً عن الطاولة وهي تتثاءب استعداداً للنوم، وأذهلها أن رائحة الغاردينيا كانت تفوح من شعرها قوية وأخاذة. تعجبت ماريا، من أين جاءت تلك الرائحة الطاغية؟ ثم إن الموسم ليس موسمها! أم أنه عبير عطر ما اشترته ونسيته؟

تعرف جيداً أنها حين تبدأ بكتابة رواية تنسى الكثير من شؤونها الحياتية الصغيرة.. وهكذا لم تنس قبل ذهابها إلى النوم بأن تقوم بدورتها الليلية على البيت: هل أطفأت المدافىء الكهربائية كي لا تموت حريقاً؟ هل الغاز في المطبخ مقفل كي لا تموت اختناقاً؟ هل الكهرباء كلها مطفأة كي لا يشتعل سلك لعين وهي تحلم بكواكب لا تحترق الأوراق فيها، وغير قابلة للتكهرب والأذى والحرائق والعذابات؟ هل أغلقت النوافذ بإحكام كي لا يتسلل منها سارق أحمق يظن أن ثمة ما يسرقه غير ذاكرتها؟ هل أحكمت إغلاق نافذة المكتبة بالذات كي لا تهب الريح وتطير أوراق مطلع روايتها الجديدة مع العاصفة؟ تفقدت أوراقها كمن يتفقد طفله الغالي قبل الذهاب إلى النوم جرياً على عادتها، وأدهشها وجود صورة لبنت وشاب مراهقين ولطفلين: صورة عائلية على ورقة فاكس هي التي أعطاها إياها منير. حاولت أن تتذكر كيف عادت إلى البيت ولم تفلح. ترى هل أغمي عليّ وأعادني؟ ومن أين جاءت الصورة العائلية هذه لأولاد منير. لا. لا يعقل ذلك كله، ولكن من أين هبّت رائحة الغاردينيا ومن أين جاءت هذه الصورة على ورق الفاكس؟ كان الإرهاق قد غلبها فارتمت في فراشها.

وحين استيقظت والشمس تملأ الغرفة تذكرت كل ما كان، زيارة منير لها، وطيرانهما الغريب معاً وقررت أنه كابوس، ثم مضت نحو غرفة مكتبتها وهي تخشى أن تجد منير جالساً فوق طاولتها، وتحيا من جديد كابوساً آخر داخل كابوسها.. لا أحد هناك إلا الشمس الساطعة. صارت من جديد تستعيد أحداث ليلها أو فجرها فهي تضيع في الزمان حين تكتب ووجدت على طاولتها الصورة العائلية لأسرة منير فوق الورقة الهشة، ورقة الفاكس وقد نجحت الشمس في محو حبرها الذي يلتهمه الضوء عادة.. وبقيت آثار بوسعها وحدها أن تتبينها ربما لأنها انتقلت من الورقة إلى داخل رأسها.

هل لأبطال القصص أشباح كالناس جميعاً؟ وما الذي يريده شبح منير مني، أم أن شبح منير هو ضميري الداخلي؟

وإن كان الأمر مجرد أوهام داخل رأسي فمن الذي كان يحمل لي باقات الأزهار الميتة؟

ومن الذي كان يكتب لي البطاقات التهديدية معها؟ ومن الذي كلمني عبر هاتف معطل؟

ولماذا أستغرب طلوعه عليّ من متاهة الأبجدية روحاً هائمة؟ ألم أر أشباح أمواتي وأرواحهم الهائمة في الشوارع مذعورة كأنها تخاف الأحياء فهم كابوسها كما هي كابوسهم؟.. لماذا أقتنع بأنني شاهدت شبح فادي في الشوارع وخاطبته مراراً وهو يهرب مني ولا أصدق أن منير أيضاً «حي» بمعنى ما؟

وهل يهرب فادي مني لأننا كأحياء نرعب الأشباح أكثر مما يرعبوننا لكننا نتعايش في المكان ذاته دائماً؟ ولكن من الشبح ومن «الحقيقي»؟ هل نحن الأحياء أشباح نرعب الموتى في المدن «المسكونة» بنا؟

ومن الوهمي ومن الحقيقي ومن الحي ومن الميت؟

وهل ثمة حقاً جدار بين الحقيقة والوهم كسور الصين الحجري؟

وهل ثمة جدار بين الجنون والعقل والموت والحياة والحقيقة والوهم أم أن خط الحدود وهمي زئبقي رجراج حيك من الظلال يستطيع البعض تجاوزه في لحظات موتهم أو حياتهم المكثفة العابرة للأزمان؟

شعرت ماريا بألم في شفتيها والمنطقة المحيطة بهما، وفوجئت حين نظرت إلى نفسها في المرآة بآثار الشريط اللاصق حول فمها، والذي أوجعها حين انتزعه منير!

وتساءلت: ترى ما الذي يحدث لي حقاً حين أكتب؟ وهل أتحول إلى شبح؟ وهل الكتابة نمط من أنماط الموت يستطيع المرء العودة منه ويكاد ينسى ما يقع له فعلاً خلال غيبوبته تلك؟

* * *

عشاء أول وثالث وخامس مع رامز المندال وغداء ولقاء.. أماكن فخمة وجميلة ومطاعم شهية.. «ألدينتي» و«رابليه» ومرات في جبيل في مطعم «بيبي عبد» وسواها من الأماكن «المتبرنسة» لا الباريسية، ولكنه لم يوقع العقد بعد. كأن حرفته المماطلة بريئة المظهر.. والخبث المبرمج بذكاء.

مرة واحدة كادت دانا تضعف وتشكو لأمها حالها مع ذلك المراوغ الجذاب بكل مغناطيسيته الآسرة الحيوانية الباردة التي تحرض جنون الدم في الآخر. . لكن كبرياءها لم تسمح لها بذلك فقد أعلنت الحرب على أمها إكراماً لذكرى أبيها، **أم تراها ذريعة لغيرتي من أمي التي وجدت مرفأ/ قلباً يحبها فيما يبدو وما زال قاربي الورقي حائراً بين نبيل الطيب أكثر مما ينبغي في نظري ورامز الأكثر خبثاً مما ينبغي؟**

وهكذا لم أرفض دعوة رامز لي لقضاء يوم معه في بيته «الريفي». . . قلت لنفسي: إنها مناسبة للبت في حكاية العقد. ولعلني كنت أكذب وكنت ذاهبة لتعلقي به!

ولم أدر بالضبط أهو مغناطيسه الداخلي السري الذي يجذبني نحوه كرجل، أم أنني حقاً كما أدعي لنفسي ذاهبة لإنجاز صفقة مهنية مهمة يجب البت فيها إيجاباً أو سلباً لإيجاد بدائل له قبل سفري إذا فشلت عملياً معه.

حلم فواز أنه يمشي فجراً على الرصيف البحري لكورنيش المنارة في بيروت وأنه التقى سميرة وتعانقا وقفزا من فوق الحاجز الحديدي إلى الشاطىء، وحين غمرهما الماء حتى عنقيهما تحوّلا إلى سمكتين ملونتين مشعتين تنزلقان في درب الجنون الدافىء وتتدفقان حتى الإغماء. استيقظ مبللاً برغباته وعشقه، مشتاقاً، ولا يدري لماذا ارتدى على عجل ثياباً رياضية وانحدر صوب كورنيش المنارة وصار يعدو كأي رياضي يمارس هواية الركض (الجوكينغ).

حين شاهد سميرة أيضاً تعدو على الكورنيش لم يشعر بالدهشة بل بالتحقق. كأنه بالحب ثقب حجب المجهول واقتادته حاسة سرية إلى حيث هي. حين شاهدته سميرة شعرت بالدهشة، إذ سبق أن قال لها إنه ينتهز عادة فرصة إجازاته لينام حتى الظهر!

تماماً كما في حلمه أمسكت بيده وارتجف كيانه. لم يخطر بباله أن بوسع لمسة أصابع أن تطير به بعيداً هكذا مكهرباً بالأشواق الغامضة والسعادة حتى الاكتفاء.. كما في حلمه هبطا على السور الحديدي صوب الشاطىء وهي تسأله: ما الذي جاء بك إلى هنا هذا الفجر الغائم الماطر؟

قال بصدق: حلمت بأنك هنا، وأنني معك وأحببت تحقيق حلمي.

قالت بصدق مماثل: وأنا أيضاً حلمت هذا الفجر أنك هنا. ولعلنا حلمنا بالحلم ذاته في اللحظة ذاتها. لم أكن أنوي المجيء لولا هذا الحلم الأكثر كثافة من الحقيقة!

مشيا حتى الشاطىء حيث كان قد امتلكها في الحلم ورقصا تحت الأمواج كسمكتين بريئتين. كان المكان خاوياً، واستندا إلى صخرة، حجبتهما عن الشارع الماطر شبه الخاوي من المارة ولم يبق مِنْ شاهد عليها غير الشمس التي لم تشرق على غير عادتها في بيروت حتى أيام الصقيع، ولكن شعّ وهج ضوئها خلف الغيوم المدلهمة بعذوبة شتائية كاوية والبحر المواكب لذلك البهاء كله. اقتربت سميرة بوجهها كأنها تكاد تقبّله أو تنتظر منه ذلك. أغمض عينيه وتراجع قليلاً، فقد كانت سعادته بها أكبر من أي تحقق.

مرت أمام عينيه وجوه باتريسيا وداناوي وأوديت وسواهن، ورقصة القرد

المحموم البدائي معهن.. لا.. شعوره نحو سميرة مختلف ولا يدري كيف يعبّر عنه.. فوجىء بها تنقض عليه وتقبّله برقة على خده وتنزلق حتى شفتيه ثم تتابع تقبيل عينيه المغمضتين حتى الجنون العذب وجبينه وشعره وعنقه.. لم يصدق ما يحدث له. لم يلعب في باريس دور القديس واستغل وسامته التي أنعمت الطبيعة بها عليه ليحيا مباهج الشباب والجسد، ولكن تلك اللحظة شيء مختلف يشبه عذوبة البكاء السري فرحاً. أذهله أنه لم يكن يريد التحامهما هذا، بل كان يريد متابعة اكتشاف الحب العذري للمرة الأولى في حياته المزدحمة بجميلات باريس. الحب العذري الذي طالما سخر منه.. تركها تفعل به ما تشاء...

تمنى أن يقاومها وأن يطيل عمر الحب العذري الذي يعرفه للمرة الأولى. لكنه انهار نشوة والريح البحرية المالحة الباردة تلامس الأجزاء التي تعرّت من جسده المتأجج تحت وقع لمساتها وفتح عينيه قليلاً فامتلأتا بالبحر الهائج الخالي من الصيادين والشاطىء الخاوي وسميرة تقوده في شوارع كونية تهطل الشهب فيها هياجاً نارياً وسلاماً ومتعة.. تركها تغتصبه.

استمتع بإرغامها له على اقتحام جمالها الآسر بين السماء وزرقة الماء واكتشف معها جماليات الصلح بين الروح والجسد دون أن يصرخ العقل «لا» والجسد «نعم»، ودون أن يدور الشجار بين الصحو والإغماء وركض الأحصنة المصابة بالحمى وبعشق الخبب المجنون في كثبان سحرية.

أغمض عينيه ثانية وشعر أنه يتحد ببحر بيروت كله وبسمائها وناسها وطفولته فيها وراح يضمّها بجنون كمن يضم إليه وطنه وعالمه المستعاد.

حين تفجرت مشاعر فواز لم يشعر بالخيبة، ولم يتحول إلى شلال عابر هائج، بل ظل يتدفق وداً ودفئاً وحناناً، ولم يشعر كعادته بالرغبة في الهرب بل في البقاء معها... طويلاً طويلاً بلا تعب.. والمزيد من الالتحام بها...

همست في أذنه: أحبك!

حاول أن يقول لها ذلك أيضاً لكنه تذكر كم قال تلك الكلمة للجميلات في لحظة تبدو من الخارج مشابهة لتلك اللحظة، فصمت ولم يقل شيئاً كي لا يلوث حبه الكبير لها. أدرك أن عليه أن يفتش عن كلمة أخرى غير كلمة «حب» التي سَبق له وأساء استعمالها مع عشرات الحسان قبلها. عليه أن يفتش لها عن كلمة جديدة.. فصمت وهو ما يزال يرتعش كطائر.

غمره إحساس جديد: إنها توأم روحه وليس بحاجة للبحث بعيداً عن أي شيء آخر..

كررت هي: أحبك. أحبك. ظل صامتاً. كان ما ينبض به أكبر من كلمة «أحبك» التي سبق له وأن استعملها كثيراً.

بعد ساعة من الدهر وفي لحظة صحو نسبي لهياج «الطقس»، عادا إلى رصيف الكورنيش كقطّين يلهثان فرحاً بالحياة، قال لها مداعباً: هل لاحظتِ أنك قمت باغتصابي؟

قالت ضاحكة: إذا تقدمت بشكوى لن يصدقك أحد فاستسلم لمصيرك معي، فقد أكرر ذلك! شعر فجأة بالغيرة من نفسه وبالأحرى بالغيرة من أن يكون ما حدث لا يعني لها الكثير كما يعني له.. وكأنها تقرأ أفكاره أضافت: الآن تخلّصنا من جاذبية الجسد التي يتوهمها البعض حباً ويتورطون في تفاصيل طقوسية اجتماعية من أجل الوصول إليها، ويدخلان بعدها في مرحلة الفتور والضجر.. انتهى نداء الهورمونات وعقبة اللحم والدم ولعنة الجسد.

من الآن فصاعداً سأعرف هل أحبك حقاً أم أشتهيك اشتهاء عابراً تحقق وانتهى الأمر!! وذلك ينطبق عليك.. أذهله صدقها وجرأتها مع ذاتها والآخر، وفهم سبب الشائعات عنها!..

وصل فواز إلى بيت خليل الدرع قبل موعد العشاء وحضور بقية المدعوين بساعة كما طلب منه مضيفه.

بدا له خليل صاحياً ومتماسكاً ومتأنقاً في مقعده الحديدي على النقيض من لقائهما الأول حين كان العجوز المهدم هائماً في الزمان واللامكان كأنه موت مليء بالحياة.

طلب من ابنته سميرة أن تعطره، ورشت غلالة من العطر ذكّرته بعطر والده وعلّق خليل: والدك وأنا، بيننا أشياء كثيرة مشتركة، أولها العطر. لاحظ فواز حنو سميرة على والدها وهي ترش العطر وتُبعد بأصابعها الناعمة المنديل الحريري الذي ربطه والدها حول عنقه وتزيحه عن مرمى العطر كي لا يلطخ ألوانه الزاهية المتناقضة مع تجاعيد وجه العجوز.

مرت دراجة نارية همجية الصوت يتعمد راكبها إصدار صوت معدني كريه مدجج بالانفجارات، وسحقت الموجات الصوتية اللوحة العذبة لسميرة وهي تدلل والدها بحنان وفواز يرسمها على غيمة.

قال خليل بفخر: هذا العطر هدية من سميرة. إنها «روح البيت». كاد فواز يقول: بل إنها روح المدينة: قدرة لامتناهية على الحنان والقسوة في آن ثم صمت.

طلب خليل من ابنته برفق أن تدعهما وحدهما. شعر فواز بشيء من الزهو لأن والد سميرة يريد الانفراد به.. والد الشابة الوحيدة التي علّمته الحب العذري وهو العاشق اللاتيني زير النساء ثم علّمته جماليات المتع الجسدية للعاشق كأنه مراهق يلامس كوكب الجسد لأول مرة.

هذه المرة لم يسمه خليل باسم والده فايز بل بفواز، لكنه صار يكرر: الشبه بينك وبين والدك لا يصدق..

قال فواز مستمتعاً بصحبة ذلك الرجل المهدم: الجميع يقولون ذلك. وأضاف ضاحكاً: بل إنه قيل لي أن أمي همست حين شاهدتني للمرة الأولى-وقت الولادة: «فايز عاطسه من مناخيره»، أي أنني أُشبه والدي كنسخة عنه منذ ولادتي.

قال خليل: ولو.. كيف تجرؤ على شرح هذا المثل لبيروتي عتيق مثلي؟ بالمناسبة، أنا سعيد لأنك تتكلم باللهجة البيروتية القديمة فأستاذك فيها بيروتي عريق أباً عن

جد. . لا أكتمك يا فواز أن شبهك بالوالد يفجّر أحزاني ويذكّرني بكل ما لم ننجح في تحقيقه. .

قال فواز بلطف وهو ينتقي كلماته: لقد فعلتم ما بوسعكم! فعلتم الكثير، وحسناً فعلت بصمودك في أرض الوطن بأي ثمن. .

مسَّ فواز «الوتر الحساس» لدى خليل وقد تعمد ذلك ليكسب ود «والد سميرة» وليبهجه، ولكن انفجر خليل حزناً وبوحاً: كان الثمن كسر ظهري بالمعنى الحرفي للكلمة. عدت من اغترابي في سويسرا لأناضل على أرض وطني ضد العدو الإسرائيلي المحتل لبيروت لكن الذي كسر ظهري كان ابن بلدي. لقد حضروا وضربوني كالوحوش وسقطت على الأرض ولم أنهض بعدها لمجرد أنني قلت الصدق ورفضت القمع باسم تحرير فلسطين. فشعب من المقموعين والمتسولين لا يستطيع تحرير فلسطين. أردتُ إيقاف هذه التجارة المتلخصة في سرقة حريات الناس وأموالهم واستغلال طيبتهم تحت ستار «أعطوني حريتكم أعطيكم فلسطين»! باختصار يا فواز، الذين رحلوا ندموا والذين تم ترحيلهم ندموا والذين بقوا ندموا. . والذين عادوا ندموا. .

ـ . . .

ـ آه يا فواز. . كل شيء تم إجهاضه. . إسرائيل نهبت ربع حياتي وممارسات رفاق الأمس المتخلفة الديكتاتورية نهبت الباقي. . لقد عرتنا هزيمة حزيران ١٩٦٧ واستعدنا شيئاً من الرمق في حرب أكتوبر ١٩٧٣ ثم عاودنا انكسارنا. . .

لم يعرف فوّاز حكاية أكتوبر ١٩٧٣، أما هزيمة حزيران ١٩٦٧ فقد سمع بها بشكل غامض. لاحظ كم يجهل تاريخ لبنان و«المنطقة» المحيطة بها ككل. .

أضاف خليل بصفاء: المرعب هو ما يدور في بيتي لأنه صورة عما يدور في لبنان. ستلتقي على العشاء بأخوة سميرة، أولادي، وكل منهم مريض بالتطرف في آرائه. رامي كان يدعو نفسه يسارياً بل وشيوعياً وصار اليوم ابناً لانتمائه الديني حتى القتل إذا أمره رئيس ملّتنا المختلفة عن ملتك، وفي ملتكم نماذج مشابهة حتى التطابق على ما أظن. .

ابني الثاني متطرف أيضاً في حقله. إنه مع مصلحته المادية، مع الواقف، ولديه قدرة مذهلة على التنظير لتقلباته. إنه يقلب معطفه ويرتديه كل يوم على أحد وجوهه، ولديه مجموعة من الوجوه والمعاطف كل منها برائحة مختلفة. إنه «شرق متوسطي» مع رجال الأعمال الأوروبيين ولابس عباءة مع الخليجيين وراكب سيارة «بيجو» مع الفرنسيين وعاشق «السوشي» والسمك النيء مع اليابانيين. . وحافي

القدمين مع «البروليتاريين» ومدخن السيجار مع أصحاب الملايين! إنه رجل الأقنعة التنكرية حتى أنني شخصياً لا أعرفه، ولم يعد هو على ما أظن يعرف وجهه الحقيقي، وأمثاله كثيرون في لبنان. . ولكنه خفيف الظل وأحبه حبي لأولادي كلهم. .

ـ . . . .

ـ وابني الثالث متحمّس لكل ما ليس لبنانياً بحجة التلبنن الأصيل! وهو مليء بالعنف وهوايته قتل الذباب بأداة أميركية مرعبة هي مضرب بشكل مضرب التنس أسلاكه مكهربة!!

ثلاثتهم عاجزون عن الحوار بلا شجار. والمرعب أنهم كلهم يقترفون أخطاءهم في حق لبنان وهم يدّعون أنهم يفعلون ذلك إكراماً للبنان ودود الخل منا وفينا، لكننا نتهم الآخرين بإطعام صراصيرنا وفئراننا. . ونحن نطعمها لحم بعضنا بعضاً. .

قال فواز دون أن ينسى أن خليل الدرع والد سميرة: أنت على حق يا عمي. .

تشجع خليل الدرع وقال: لو كنت أكتب شعراً لكتبت مرثية زمن القضايا الكبيرة، وزمن امتزاج العام بالخاص بلا افتعال. هل تعرف أن والدك كان يستقبل في بيتكم العريق الجميل سائقي التاكسي وصيادي السمك وبائعي الصحف وسواهم في حلقات وطنية لأنهم يحملون الانتماء الفكري العروبي ذاته أو يزعم بعضهم ذلك طمعاً بالمغانم وبتحويل الثورة إلى ثروة مالية سرية ـ قدر الإمكان ـ خاصة بهم. والدك كان يرفض منطق الطبقات ويرى أن الانتماء العقلي هو المهم. .

ـ . . . .

ـ اليوم يتحدثون عن «صراع الطبقات» والحقيقة أنه لم يعد هناك سوى «صراع الكراسي». . لقد قتلوا الطبقة المتوسطة المليئة بالحيوية وبقي أثرياء حرب مقاولون خطابهم الإقطاعي الميليشياوي «البروليتاري» نسخة سيئة عن الإقطاع السياسي الذي رفضناه ووقفنا ضده. . . ورب يوم بكينا منه ثم بكينا عليه! وهكذا انفصم يا ابني الخطاب السياسي عن الحياة اليومية للناس. . . واتفق «الميليشياويون» الجدد جميعاً على سلب الناس حريتهم وأرزاقهم وصوتهم أيضاً. وصارت الثقافة حفلة وجاهة استعراضية عمادها الاحتفاء بالتفاهة المذعنة وتعمق الشرخ الطائفي، وابن الأوزاعي يرى ابن الأشرفية غريباً والعكس صحيح.

ـ ولكنني منذ وصولي سمعت كلاماً كثيراً ضد الطائفية من الأطراف كلها.

ـ الطائفيون هم الأكثر صراخاً ضد الطائفية ولكنهم ضمناً يريدون إلغاء

الطوائف الأخرى. إنهم ضد طائفية «الآخرين» لكنهم يجدون لطائفيتهم أسماء تنكرية وشعارات مُلبسة بالسكر.

ـ....

ـ هل لاحظت الأزمة الاقتصادية الخانقة، والهيمنة الميليشياوية «السلمية» المالية على مقدرات الناس.. البعض يموت جوعاً وحسداً، وبعض المتفلسفين يطعمونهم من قاموس الحماسة!

ـ....

ـ لقد عشت يا ابني حياة مليئة بالموت.. ولذا أقيم داخل ذكريات أيام العنفوان حين كنت ووالدك نغني: نحن الشباب لنا الغد.. وبلاد العُرب أوطاني.. ويا ظلام السجن خيم.. وقد خيم الظلام، والسجن صار بحجم وطن.. وحين أغني «موطني موطني» أكاد أنتحب على حاله.. إنه اليوم زمن «التكنو» الذي لا أستسيغه. وزمن أولادي الشبان الذين يتشاجرون فيما بينهم ولكل حزبه وعشيرته الفكرية وعنفه الخاص، وقد طلبت اليوم منهم هدنة: أن لا يتدخلوا في الحوار بين أصحابي وبينك ويؤجلوا نقاشهم اليومي إلى الغد! آه يا ابني أسرتي منقسمة ووحدها سميرة أرجحهم عقلاً وقد منعتُهُم من التدخل في شؤونها بما تبقى لي من سطوة عليهم!

ـ...

تناول خليل صحيفة إلى جانبه أشار على بعض ما جاء فيها بمربع أحمر وقال لفواز: خذ.. واقرأ.. قالت لي سميرة أنك تقرأ بالعربية.

بعذوبة سأل فواز: ماذا فيها يا عمي؟

قال: إعلان عن رجل فئة دمه O + يريد التبرع بكليته، أي يريد بيعها ربما لتعليم ابن أو علاج زوجة.. انظر إلى أين وصلنا.. ولا تدهش إذا سمعت بوكالة لبيع الأعضاء تقتل الناس وتسرق قلوبهم وأكبادهم وقرنياتهم للبيع، وتنشر الإعلانات وتتبجح بخدمة الناس وتُسَخِّر بعض الأقلام لمديحها في الولائم.

ـ...

ـ لم يكن ذلك ممكناً في أيامي. أما اليوم فالسرقة تجد من يدافع عنها مسلحة بالصفاقة ويأس الأوادم وصمت الناس اللامبالين أو المتعبين أو «القرفانين» أو المنتفعين! فالنهب هو الصنم الجديد يا فواز..

دخلت سميرة ربما لإنقاذ فواز من «براثن» أحزان والدها.. لكنه تابع وهو

يتجاهلها: كنا نريد تبديل العالم بوردة. كنا نتحاور هل نريد ثورة بدم أو بدون دم.. وجرفنا نهر الدم الماضي والآتي.. أنا لست متفائلاً.. وبالرغم من موتي الوشيك لكنني لا أعي أنني سأموت حتى وأنا أحتضر، كالناس جميعاً!!

انتظرت سميرة حتى أنجز والدها جملته وقالت: لقد حضر أنطوان وعبد الحميد.. هل أستطيع إدخالهما إلى هنا أم ستحضران إلى غرفة الاستقبال؟

ازداد فواز إعجاباً برقتها وكياستها نحو والدها..

وحين وصل بقية المدعوين لم يكن بينهم من يقل عمره عن الخامسة والستين. كانوا جميعاً أصدقاء لطفولة والده ولزمن شبابه، وكل يريد الاستئثار به ليرووا له ذكرياتهم. صافحوه باحترام وانحناءة رأس لذكرى والده كما لو كان ابن عرّاب الطيبين والفقراء والأنقياء وأيتام المثل العليا.

سأله أحدهم: هل من الصحيح أنك تريد بيع البيت الجميل العتيق؟ لنا ذكريات فيه من زمن العنفوان ولذاكرتنا حصة فيه فهل ستبيعه و«تبيعنا» معه؟

ازداد فواز دهشة من سرعة انتشار الأخبار في بيروت، وقبل أن يجيب على الطريقة الغربية بعبارة: «هذا ليس من شأنك»، أسرته دموع أنطوان وهو يقول: لا تستطيع أن تفعل ذلك فأشباح شبابنا ما تزال تقيم هناك وتتابع حياتها وهي أكثر حياة منا يا ابني.. نحن متنا مع موت زمن الأحلام الكبيرة الخاسرة. ولا نشبع من تكرار ذلك ربما لنقنع أنفسنا به ونستريح!

التف حوله الرجال وسأله عبد الحميد: لماذا عدت ولم تبق في باريس؟ وقبل أن يجيبه مؤكداً أنه لم يعد لكنه في إجازة، قال أنطوان بحسرة: ألا ترى الانفصام المروع بين المسلمين والمسيحيين والتلوث والتفسخ والعداء المبطن والأسوار اللامرئية وأكياس الرمل الروحية والحصون السرية؟ هل تحلم كوالدك ومثلنا بالعيش المشترك والمساواة والعدالة والاحترام المتبادل؟ فقط في تلك اللحظة وعى فواز قول صديقه المحب فؤاد: أحب أن ألفت نظرك إلى أن سميرة من دين مختلف.

وفقط في تلك اللحظة قفزت الإجابة واضحة في رأسه دونما مواربة: وماذا عن ذلك؟ ما الفرق بين أن نصلي للخالق حيث يحلو لنا أن نصلي أياً كانت أسماء الأماكن؟

بهر فواز احترامهم لذكرى والده وآلمه تقريعهم له لأنه لم يعد بجثمانه لدفنه في بيروت، كما لو كانوا يريدون مزاراً لأحلامهم القومية الضائعة ولقضاياهم الخاسرة ومبكى لرهاناتهم الخائبة. لم يجرؤ على الاعتراف لهم بأنه أحرق جثمان

والده، وأدهشه أنه عاش طويلاً مع رجل لم يعرفه، رجل استثنائي كان والده! تقاطرت صور الماضي إلى عينيه. **كنت صبياً صغيراً حين عادت أمي من السوق في باريس تحمل بعض ثمار «الأفوكادو» الشهية. أقبلنا عليها ولكن أبي رفض أن يأكل منها رغم حبه لها والتهامه للعديد منها في مطعمه البيروتي المفضل يومئذ «ماندارين». وحين استفسرت منه أمي عن السبب، لفتها إلى اسم إسرائيل المدموغ عليها. قالت أمي: إنه الأمر الواقع. قال: لا أستطيع ابتلاعها. ولا أذكر أنه ذاقها يوماً، ولطالما حيّرني سبب ذلك! كما أنه لم يذق يوماً برتقال يافا الذي وقعته إسرائيل... وظل يلوم أمي لأنها تشتريه!!**

نهض فواز، وحين صافح الجميع شاكراً ومنصرفاً لحق به والد سميرة حتى المدخل، وعلى الطريقة البيروتية اختلى به واستأنف الحديث عن والده طويلاً كأن ذلك يعيده حياً وشاباً وكلماته تنغرس في ذاكرة فواز دبابيس ندم لأنه عاش مع والده ولم يعرفه. وحين صافحته سميرة مودعة وهو يغادرهم بعد سهرة تعارف فيها وأخوتها، أدرك وهو يحيط يدها الصغيرة بكفه كيف يمكن أن تصير المصافحة البريئة عناقاً.

بلا موعد، صارا يلتقيان في الصباح المبكر على رصيف كورنيش المنارة حيث تمارس سميرة رياضة الهرولة ويمارس فواز رياضة اللحاق بها والتحليق فوق غابات عينيها ووجهها الجميل النظيف من المساحيق وشعرها الذي تتركه للمطر والريح كجنيات الأساطير.

ولم يعد فواز واثقاً من أنه يريد بيع البيت العتيق ولم يعد واثقاً من أي شيء. لكنه أشفق على أمه التي تعبت من الكدح كطبيبة وأنفقت راتبها وعمرها طوال سنوات الحرب عليه وحتى على والده ذي الراتب الهزيل الذي طالما عبَّرت أمه عن دهشتها لأن رب العمل، المحامي الكبير اللبناني الأصل يمنحه له وهو الذي يذهب إلى المكتب حين يحلو له فقط خارج النوبات الدورية، لكآبته! وهكذا سعى فواز لبيع «بناية» ضخمة عتيقة من خمسين شقة اكتشف أن والده كان يملكها تغلي بالمستأجرين الذين لا يسدد معظمهم الإيجار وبالمحتلين القدامى الذين يؤجرون بيوتاً احتلوها بعدما عادوا إلى بيوتهم بانتهاء الحرب، واكتشف فواز دهاليز التعقيدات الإدارية ورقصة «روك» الرشاوى و«تانغو» الموظفين: خطوتان إلى الأمام وخطوة إلى الوراء.. ونصحه فؤاد بتسليم هذه الأمور إلى من يتابعها شرط أن يكون أميناً، وكاد يضيع أكثر مما هو ضائع في بحر سميرة الشبيهة ببيروت بسحرها، بسخائها، بمراوغتها، بغابة مراياها المقعّرة والمحدّبة، بأمزجتها ونزواتها وهياج بحرها وعذوبة جنونه وهدوئه..

قلق فواز. **لماذا لم تأت اليوم سميرة؟ إني كاذب. لست قلقاً عليها. أعرف أنها بخير أكثر مني على الأقل. متصالحة مع عالمها بل هي جزء منه شديد الفعالية وتتقن تدبير أمورها.. أنا التائه على الجسر بين عالم باريسي أعرف قواعد اللعبة فيه، وعالم من المفترض أنه لي لكنني أتحرك فيه كحجر شطرنج مكهرب مذعور لا يدري من هي الأصابع التي تحركه! ومن يقف خلف اللعبة ككل.. وكل خطوة تقوده إلى فخ أو ورطة أو إلى اكتشاف مكيدة بعضها رسمي وعلني كدهاليز بعض موظفي الدولة.**

أمطرت طويلاً وهو ينتظر وتبلل بدمع خيبته وبالمطر حتى قاع عظامه.. لم تأت. لم تأت. تلفت حوله فلم ير مخلوقاً. مشى صعوداً صوب بيته. كانت

السيارات تتحرك وتتسابق وتزعق أبواقها دون أن يرى مخلوقاً فيها. **المقاهي خاوية. ثمة فناجين قهوة تعلو وتهبط في الفراغ وما من يد تمسك بها، فالمقاهي خاوية من الناس، والشوارع خاوية، والشرفات خاوية. مشى حتى بيته ولم ير إنساناً إلا العديد من الهياكل العظمية التي تمشي. بغيابها خوت المدينة من الناس كلهم.. ومن الحياة.. من المستحسن أن أتجنب المكابرة وأعترف أنني أحبها وأريدها إلى جانبي في كل لحظة.**

حين رن الهاتف النقال هرول كالطفل وكان قد تركه على المائدة واشتراه فقط لسماع صوتها.

وحين سمع صوتها تبلغه بأنها في طريقها إلى «قصر البلور» البحري بانتظاره ـ وهو اسم المقهى الذي لا جدران له إلا الفضاء وبعض ستائر النايلون الزرقاء! ـ سبقها إلى الوصول.. ولم يعاتبها لكنها ذكرت عَرَضاً أنها كادت تصرف النظر عن الحضور لتوعك صحي إضافي أصاب والدها لعله «الجريب».

وسمع صوت قلبه يسبق عقله ويهمس بصدق منذ اللحظة التي أطلت فيها: افتقدتك حتى الموت. أريد أن نكون معاً في كل لحظة.

وبدأ عقله يصرخ ويطالبه بالتروي لكنه أغلق على عقله باب قبو في أعماقه.. كان العقل مجنون ثقيل على قلبه العاشق، وتابع دونما تردد: هل تقبلين بالزواج مني ومرافقتي إلى باريس؟

توقع أن تقفز وتقبله وتقول نعم نعم نعم كما في الروايات العاطفية وقد شعر أنه استحال إلى قيس وسيرانو دي برجراك وروميو واللورد نلسون ونابليون وعطيل والعشاق التاريخيين كلهم، ولكنها أجفلت كغزالة وتراجعت دون أن يتحرك جسدها مثل سلحفاة تدخل إلى صدفتها وقالت دونما مواربة: لا أريد الهجرة إلى باريس حتى للزواج منك.

ذهل. لم يلتق بأحد في هذه المدينة لا يحلم بالرحيل عنها ولم يلتق بعمة أو خالة إلا وقد أعدت عروساً مرشحة له تتمنى الرحيل معه فماذا دهاها؟ ما خطبها؟

أضافت بصدق وهي تمسك بيده كمن يتقن فن أن يجرح ويداوي كبيروت: أعرف أن بيروت الماضي، بيروت ماريا ربما كانت أجمل.. لكن هذه بيروتي التي كبرت فيها. لا أريد مرارة الغربة وغصّاتها.. «من غادر داره قلّ مقداره» و«الحجر بمكانه قنطار» وكل ما ربّاني والدي عليه صحيح. هذه بيروتي وأنا باقية وباريس ليست إغراء بالنسبة لي إلا كإجازة، كأية عاصمة أوروبية أخرى، لكنها تمتاز عليها بروعة حضارتها ومتاحفها وعراقتها وليس كمهجر لي! هذه بلدي وأنا فيها «ملكة»

حتى ولو كنت متسولة، ولا أريد أن أذوق غصّات الغربة التي حدثني والدي عنها منذ عودتنا معه عن هجرته إلى سويسرا. لقد فضّل أن يكون مُقعداً في بيروت على أن يكون مليونيراً في سويسرا.. هل تفهمني؟

ازداد ولعاً بها. إنها لا ترتدي أقنعة تنكرية، ولم تطلب منه ليلة للتفكير قبل الرد حيث تجلس خلف آلتها الحاسبة وتقارن بين المكاسب والخسائر. هذه شابة موهوبة، وكاتبة واعدة حسمت أمر غرام كبير أول في حياتها: وطنها..

في الوقت ذاته شعر بالغضب والمهانة والذل وهو الذي لم يقل لامرأة أنه يحبها ناهيك عن إسباغ شرف طلب الزواج منها، وها هو مرفوض.

لكنه شعر أنه يحترم سميرة أكثر من أي وقت مضى. ويكرهها.. بل يحبها ويكرهها في الآن. للمرة الأولى ذاق طعم ذلك الشعور الكاوي الأليم الصادق.

ارتدى فواز قناع الابتسامة، وتنكّر خلف وجه رجل متفهم هادىء لامبال وكان يغلي غضباً وأسى ونقمة، واشتعالاً وولهاً! **لقد رفضتني! يا لها من شابة استثنائية!**

* * *

ـ هل استمتعتِ؟ سألها والحقول الشتوية الجميلة تحيط ببيته الريفي الشبيه بقلعة أيضاً! كانت دانا تمقت هذا السؤال بعد رحلة لمطاردة عصفور اللذة الذي قلما تظفر به وبالذات مع أمثال رامز المندال، قصيري النفس والباع، كثيري المباهاة وفي حقيقة الأمر كان قد خيب أملها بعد طول حلم وانتظار. فقد هرول إلى لذته دون أن يأبه لشريكة الرحلة كما لو كانت دمية مطاطية منفوخة بالهواء كالبالون، فأجابت بلؤم: لقد انتهيتَ حين ظننتُك بدأت! ثم ندمت دانا لأنها عرّضت بفحولة رامز المندال، ولكنه كان ناراً تريد أن تأتي على كل شيء في أسرع وقت وكانت هي تحاول استكشاف أصقاع نشوة جديدة في جسدها وتريد أن ترتادها بهدوء منتش كهفاً كهفاً ولمسة لمسة.. وحين صرخ بانتشاء كمن أجهز بلذة على عدو كانت ما تزال في أول الدرب. لم تتمالك نفسها وقالت صدقها. وكادت تعتذر منه لكنه أخرج من تحت الوسادة قيداً حديدياً شبيهاً بما تشاهده في الأفلام البوليسية فأخفت يديها لكنه ضغط زراً في الجدار خلف السرير فانفتح الجدار كباب سري يغطيه ديكور من رفوف تزيينية، وخلفه شاهدت ـ حين ضغط على زر آخر في الجدار ـ ضوءاً يشع وينطفىء بألوان مرتعشة هستيرية وظلال كما في حلبات الرقص. ضغط زراً ثالثاً ودانا مذهولة فدار السرير بقضبانه الحديدية كما لو كان سجناً متحركاً وقد تدلى منه كالعلم سوط وانزلق السرير إلى الغرفة الأخرى كقطار إلى الجنون

وشاهدت صورتها والمندال والسرير تتضاعف داخل مرايا مثبتة بالجدران وبالسقف الذي زُرعت فيها أضواء عديدة بهيئة نجوم رمادية الأشعة، وإلى يسار المكان الذي انزلق إليه السرير تمثال لرب يوناني عارٍ بعضو عدواني ضخم مستفز سبق لها أن شاهدت مثله في أحد متاحف أثينا. وأدركت دانا ما ينتظرها وغمرها الذعر ووعت أن يقظة جسده التي طالما سمعت عنها لا تأتي إلا على هذا النحو السادي ولكنها لم تكن مازوخية واللعبة ليست لعبتها وحنَّت إلى نبيل ولمساته الحنون والأفق المفتوح سريراً لمداعباته العذبة. وغمرها هلع لم تعرف له مثيلاً من قبل حين عاد رامز يطعنها بجسده فيما خيل إليها أنه قتل رمزي وهو يحاول في الوقت ذاته إدخال القيد الحديدي في يديها. تذكرت ما قالته السكرتيرة عنه، وللمرة الأولى أيقنت أن المسكينة كانت صادقة، سواء باحت بتلك الأسرار لغيرة في نفس «يعقوبة» ولرغبة في الانتقام بفضح الأسرار أم لا..

أكثر من أي وقت مضى، هبت من جسد رامز رياح باردة، ورائحة جيفةِ ميت/حي، واستولت عليها فكرة مرعبة: إنه ميت/حي حقاً إنه «زومبي»، لا يحيا ولا يموت لكن بوسعه الاستمرار إلى الأبد إذا لم يحترق في جحيم ما. وغمرتها رغبة كالومضة في إحراقه لكنها لم تطل، وعاودها الخوف. تناول ربطة عنق ليعقدها حول عنقها ورفضت فطلب منها أن تعقدها له حول عنقه كأنه يداعب فأراً قبل قتله وكادت تقول له: ربطة العنق التي تليق بك هي حبل المشنقة.. لكن الهلع عقد لسانها لحسن حظها كما قالت لنفسها. في ومضة كالبرق السريع الساطع وعت أن رانية لم تمت حقاً في حادث سيارة بل ماتت مقتولة بطريقة ما، عقاباً لها على ثرثرتها... وخيل إلى دانا أن رامز يقرأ أفكارها وتَكَشَّف لها عن شخص شيطاني ساخر وقال وهي تدفعه عنها من عنقه وقد غمرها المزيد من الذعر: المشنقة لا تقتلني، ولا الماء ولا أصابعك الهزيلة.. ولا حتى الرصاص... ابتعدت عنه دانا قبل أن يتابع تلاوة قاموس ما لا يقتله كأي «زومبي» ميت/حي.. قفزت من السرير كالمجنونة وحاولت الهرب راكضة قبل أن يقيدها إلى قضيب السرير، نادمة على تهورها وخفتها واستخفافها بنصيحة رانية وحتى بتحذير أمها والجميع، ولكنها فوجئت به واقفاً أمامها كما تتحرك الأشباح بلا صوت.. وهو يقهقه منتعشاً حياً كما لم يكن أبداً وقد جدد ذعرها فحولته على نحو استثنائي. قال لها: لم يعجبك نعيمي فجربي الآن جحيمي.. ستتلذذين حتى الموت! وقهقه وهو يهز القيد الحديدي بيد والسوط باليد الأخرى.. لا تدري دانا كيف رتبت الأشياء نفسها.. كيف وجدت يدها فوق شيء صلب بارد ناتىء من جيب بنطاله الذي كان قد خلعه بإهمال على

طرف السرير هو مسدسه وكيف شهرته، وكيف أطلقت رصاصة وهو يحاول انتزاعه منها وكيف أصابت الرصاصة منه مقتلاً في صدره وترنح ومشى خطوات إلى الوراء، وسقط ثم نهض، كما لو لم تصبه الرصاصة، وتابعت الضغط على الزناد وقد خيل إليها أن الرصاصات كانت تصطدم بصدره، لكنها كانت في حالة هستيرية لا ترى حقاً ولا تعي بالرغم من أن يقيناً احتواها: لقد أصبتُهُ مرات في صدره.. لقد قتلته.. لا يمكن أن يكون مرتدياً لقميص مضاد للرصاص فهو عار أم تراني لم أعد أرى ما يحدث بوضوح وقد تشوشت حواسي. حين سقط على الأرض منتفضاً، هرولت دانا كالمجنونة هاربة وقد صممت على الذهاب إلى مركز الشرطة والاعتراف بكل شيء وكم شعرت بالمزيد من الذهول حين شاهدته ينهض ويلحق بها دون أن يسيل منه الدم كما لو أنه لم يصب برصاصة.. ولكن ماذا عن تلك الرصاصات التي شاهدتها ـ أو توهمت ذلك ـ تخترق صدره ورأسه وقد مزقت خده؟ لكنه ما زال يتابع المشي صوبها.. ركضت.. ركضت هاربة. سبقته وصعدت إلى سيارته للهرب بها ولكن مفاتيح السيارة لم تكن في موضعها وكانت كالمجنونة تريد الهرب دون أن تدري على وجه اليقين هل قتلت رجلاً أم لا، وهل هو الذي يلاحقها أم أن أوهامها تخدعها وتقنعها بأنه حي.

كانت ترتجف كغصن في عاصفة، وتشهق بصوت عال وتئن وسمعت صوتها للمرة الأولى وهو يئن هكذا، عالياً مذعوراً، وقررت الهرب من ذلك الهول كله وغادرت السيارة ولم تجرؤ على العودة لإحضار مفاتيحها.. وخيل إليها أن رامز غادر البيت إلى السيارة ليلحق بها قبل وصولها إلى الطريق العام. وركضت ركضت وأذهلها أنها لم تكن واهمة ورامز حي يركب سيارته ليلحق بها وسمعت صوت دوران المحرك وصرخت وظلت تركض وحمدت للمطر هطوله ليمسح آثار أقدامها ودموعها، ثم سمعت صوت انفجار هائل وطارت في الجو ووعت أن السيارة انفجرت برامز حين بدأ محركها بالدوران أو حين حركها، وتطايرت في الجو بقايا جثته. إذن كانت السيارة مفخخة. ثمة من فخخها لقتل رامز وقد نجت من الموت لأنها لم تجد مفاتيحها. انهارت على الأرض تحت المطر تنتحب.. وعت أن عليها أن تبتعد عن المكان في أسرع وقت خوفاً من تهمة ما تلصق بها ناهيك عن الفضيحة.. تذكرت أن رانية كانت قد حذرتها من الأشرطة المسجلة للعلاقات النسائية لرامز. أدركت أنها لم تكن كاذبة. لا تدري كيف سيطرت على أعصابها وعادت إلى البيت راكضة، إلى اللوحة التمويهية، التي وصفتها رانية لها.

ولم يدهشها أن اللوحة باب لخزانة في داخلها آلة تصوير «فيديو». انتزعت

الشريط وهي تعرف أنه سجَّل لقاءها برامز وارتدت ثيابها بسرعة حين شاهدت في المرايا أنها كانت تركض عارية وحملت أشياءها ثم أضرمت النار في الستائر وهربت مشعثة مبللة بسواد الليل ودمع المطر وركضت حتى الطريق العام وأصوات صافرات سيارات الشرطة تقترب من المكان. استوقفت التاكسي الأول وارتمت فيه منهكة مستسلمة لهول ما حدث فالسائق عجوز ومتعب ويقود سيارته بصعوبة. حزنت كثيراً لأنه ليس ثمة من يسألها ما خطبها وتقول له لا شيء ولا يصدقها ويلح في السؤال كأم حدوب، ولا أحد غير خادمتين ستستقبلانها بالصمت والدهشة والتغاضي، ورذاذ الماء الحار في الحمام... لا أحد بانتظارها غير صمت الرخام ودهشة المرايا!

أمام باب الفيلا التقت دانا بأمها وهي تغادر التاكسي وكانت أمها لحظتها تستقل السيارة إلى جانب وليد. تقاطعت نظراتهما وبالرغم من أن دانا حاولت أن تبدو متماسكة و«طبيعية»، طلبت سليمى من وليد انتظارها ولحقت بدانا. سألتها بلهفة ما خطبها، فنفت دانا كل شيء وقالت إنها فقط متعبة وقد ابتلت بالمطر لكن أمها لم تصدقها واتصلت بهاتفها النقال بوليد وطلبت منه أن يسبقها إلى «الديسكو» وستلحق به. وألحت في سؤال دانا عما بها، ودانا تتملص منها وتكاد تطردها من غرفتها. ولكن سليمى غمرت دانا بحب جارف كادت دانا تنساه منذ ابتعدت روحياً عن أمها في فترة المراهقة. وبعينين نصف دامعتين كررت سليمى السؤال بلهفة عن خطبها فانهارت دانا على كتفها وهي تبكي وسليمى تهدهدها وتدفقت دانا تروي لأمها هول ما حدث...

اتصلت سليمى بوليد ثانية معتذرة عن لقائه تلك الليلة لأن دانا مصابة بـ «الجريب»، وراحت دانا تروي لأمها أحداث تلك الأمسية اللعينة ثانية كأنما لتصدق أن ذلك حدث لها، وكانت واثقة من أن رامز ميت/حي و«زومبي» لم يكن قتله ممكناً بغير تفخيخ سيارته بينما كان مشغولاً بالعبث معها وبها.

قررت دانا: سأرحل غداً إلى باريس. انتهت إجازتي وصرت عاجزة عن رؤية الأشياء بوضوح.

قالت سليمى بلهفة: سأرافقك! لن أدعك وحدك.

سألتها دانا بغيرة طفولية: ووليد؟

قالت سليمى دون أن تكذب: أنتِ أولاً ثم وليد.

بهلع أضافت سُليمى: يا إلهي. لو ترك مفاتيح السيارة داخلها لقُتلتِ بدلاً منه! لعل ذلك الوغد احتفظ بها ليمنعك من الهرب دون أن يدري أنه بذلك أنقذ

حياتك.

ـ إني خائفة. . . ماذا سيظنون بي؟

ـ لا تقلقي. لن يعرف أحد أنكِ كنتِ هناك. لا تخبري أحداً بما حدث. دعينا ننسى الحكاية.

حين قبّلت سُليمى ابنته على جبينها وخدّيها بحرارة تساءلت دانا بصدق: لماذا تشاجرتُ مع أمي طوال الأسابيع الأخيرة؟

صباح اليوم التالي حين اتصل بها الدكتور نبيل بلهفة حدثته دانا بعذوبة أكثر من عادتها. . كأنها بدأت ترى الأمور بوضوح.

ودعته برقة لأن إجازتها انتهت فقال لها: أما أنا فقد اقترب موعد إجازتي وسأقضي ليلة رأس السنة في باريس إذا رضيت بالسهر معي!. .

* * *

بعدما هرولا معاً على شاطىء البحر، واستمتعا بجمال الشاطىء وسحر البحر في أمزجته كلها وكاد فواز يثمل بحضور سميرة وجاذبية كورنيش المنارة وهمس وهو يعانق بعينيه النخيل الذي يتوسط الشارع: كأنني في مصايف فرنسا، في «كان» أو «نيس» في «لاكوت دازورو» الشاطىء اللازوردي للريفييرا الفرنسية! قالت له سميرة: لا يا فواز ـ هذه بيروت المختلفة كثيراً رغم تمنيات جيل ماريا بأن يعود لبنان «سويسرا الشرق» وهو لم يكن يوماً كذلك على أية حال!. . والآن يا فواز تعال معي لأطلعك على أحشاء المدينة وأحزانها. سأريك جانباً من الوجه الآخر. ركبا معاً في سيارتها «الحربية» الصالحة لحرب الشوارع البيروتية اليومية. مرّت به أمام مبنى في شارع قريب وقالت: انظر!

شاهد صفاً طويلاً من الشبان والقليل من العجائز والصبايا. . صفاً طويلاً على الرصيف، طويلاً حتى ليكاد يمتزج بخط الأفق. . والكل متوتر يحمل بيده أوراقاً وقالت: هذه قنصلية إحدى الدول المرغوبة للهجرة. . وأولئك الشبان يتسولون تأشيرة هجرة. . والعجائز يحاولون الالتحاق بالأبناء بعدما فقدوا كل إيراد أو معيل. . الأزمة الاقتصادية هنا حقيقية. الفقر حقيقة. القلق حقيقة. والخوف الغامض من الغد أكبر الحقائق. . لا تدع ولائم أسرتك تخدعك ولا ولائم أصدقائك. ثمة فقر حقيقي هنا.

بسيارتها تابعت جولتها به على الجحيم على أبواب القنصليات في بيروت الشرقية والغربية، وبين محطة وأخرى جاءه صوتها: انظر. . هؤلاء يريدون الهجرة

إلى بريطانيا. هؤلاء إلى ألمانيا. أولئك إلى فرنسا. أولئك إلى U.S.A . أولئك إلى كندا.. وهؤلاء إلى هذا القطر الخليجي أو ذاك. انظر إلى هذا النزف. انظر.. معظمهم سيُطرد من القنصليات بعد ساعات من الانتظار المذل في الصفوف الطويلة على الأرصفة الماطرة أو التي تسوطها الشمس أمام الأبواب..

تابعت جولتها به على الجحيم في أحياء لا يعرفها. شاهد فقراً وبؤساً ودروباً بشعة ومباني عشوائية، ولكل شارعٍ أو زقاق صوره ولوحاته المتدلية مع أعلامها الدالة على هويتها. يشهق مستنكراً لكنها لم تنحز لعينه الناقدة بل قالت: انظر إلى أولئك المقيمين في خيام إسمنتية في أوطانهم.. هذه هي بيروت وتلك «خزعة» عن بنية لبنان.

ما يدور محزن والبعض يقول إنه مرعب. التسميات لا تهمّ، والجوهر وطن بين السماء والأرض كطائرة مخطوفة في مهب العاصفة!

قال فواز: أياً كان ما كان وما سيكون، الصورة الوحيدة التي يحق للناس تعليقها في أي شارع هي لرمز الوطن أي لرئيس الجمهورية، والعلم الوحيد الذي لا يستفزني تعليقه هو العلم اللبناني! ضحكت سميرة وقالت: ها قد بدأت تتأقلم وتغضب وتتحدث مثلنا وتستعيد هياجك ولبنانيتك!!

منذ اليوم الذي أصر فيه فواز على النوم في «البيت الكبير» للأسرة الذي ورثه، بعدما استضافته عمته طوال أسبوعين وخجل من البقاء عندها حينما مدد إقامته، منذ ذلك اليوم وهو يعاني من التفاصيل المعيشية اليومية التي تشتت الطاقات ولم يألفها في باريس. يومها لم تخطر بباله التفاصيل الصغيرة التي تترتب على ذلك كشراء شمعة في مدينة بلا كهرباء منتظمة. وهكذا، ليلة انقطع التيار الكهربائي عنه للمرة الأولى قرر الذهاب للنوم عند عمته.

وحين كان يتحسس دربه لمغادرة المكان، رن جرس الهاتف. قفز فواز مذعوراً في الظلمة فالهاتف «مقطوع» منذ ذهاب السيدة التي كانت تقيم فيه خلال غيبتهم وعمته المقيمة على مقربة منه اهتمت بتنظيف البيت حين قرر الانتقال إليه لكنها تركت الهاتف ميتاً. **لعلي واهم**. لكن رنين الهاتف لم يتوقف ملحاحاً. **لعل عمتي قامت بما يلزم لإعادة الحياة إلى الهاتف إكراماً لي**. سارع إلى رفع السماعة وإلصاقها على أذنه وقد استيقظ فضوله. تعثر بالمقعد في دربه إلى الهاتف في الظلمة الدامسة وأوجعته ركبته. وجد الهاتف على حاله «مقطوعاً» فكيف يرن؟

داخله بعض الخوف. منذ دخوله إلى هذا البيت تمهيداً لبيعه وهو يشعر بعينين محمرتين حزناً أو غضباً تراقبانه وبحضور لامرئي يحاصره بين آن وآخر ويحسه وديّاً حيناً وعدوانياً أحياناً. صحيح أنه لا يؤمن بالأشباح ـ وإن كان قد بدأ يخافها قليلاً ـ بالمقابل أحب الاعتقاد بوجود تفسير علمي ما لرنين الهاتف المقطوع.. تذكر سلسلة من الأحداث الصغيرة التي لم يجد لها تفسيراً علمياً ذلك لا يعني أن لا تفسير علمياً لها، **لكنني لم أجده وهذا كل ما في الأمر**. تذكر صوت العزف على البيانو، يوم زيارته الأولى للبيت، لقد سمع بوضوح مقطوعة من «ليليات» شوبان التي كان يعزفها والده باستمرار. ذلك تفسيره سهل. **لقد سمعتُ بالتأكيد مذياع الجيران ولكن لماذا أخدع نفسي؟ وأي جيران، والبيت محاط بحديقة واسعة هي التي تجذب المشترين لاتساع الأرض القابلة للبناء في قلب بيروت حيث كانت حقول الصبير من زمان كما روت لي عمتي ثم نبتت في موضعها طحالب إسمنتية كثة شاهقة الارتفاع حاصرت البيت من كل جانب كما أضافت بحسرة. بلى ثمة تفسير علمي لصوت موسيقى شوبان. منها أن متسولاً جالساً على الرصيف أمام**

البيت كان **يستمع إلى المذياع**. كاد ينفجر ضاحكاً لتبريره الركيك هذا. متسول يستمع إلى شوبان! هذا مدهش. **كم أخالف المنطق أحياناً في سعيي المستميت لأظل منطقياً! حسناً لعلي سمعت موسيقى شوبان قادمة من داخل رأسي لأن والدي كان يعزفها لي حين كنت طفلاً**.

تذكر باب الخزانة الذي انفتح من تلقاء نفسه حين كان جالساً بهدوء في «الدار» وهو يتأمل السقف المزين برسوم أندلسية ملونة، والجدران المنقوشة والأبواب المرصعة بالحِكَم المحفورة في الخشب متحسراً على جماله فالمشتري ـ أي مشتر لبيت كهذا ـ ينوي بالتأكيد هدمه عن بكرة أبيه لتشييد فندق أو مبنى كبير فخم وليس معنياً بهذه الزخرفات التراثية ولا بالقرميد الأحمر. يذكر أنه ساعتها شاهد باب الخزانة العتيقة لجده ينفتح من تلقاء نفسه. أحس لحظتها ببعض الذعر، أقنع نفسه بأن الأبواب العتيقة للخزائن تنفتح أحياناً فجأة حين يلتهم السوس جسدها تحت بشرة الخشب وتصير أخف وزناً وتتحرك. لكل شيء تفسير علمي موضوعي!

ولكنه لا يدري لماذا يشعر أن للأشياء في هذا البيت روحها الخاصة بها، كأن البيت بأكمله حي، بل هو مجموعة حيوات متعايشة كأية منظومة شمسية، والروح دبّت فيها منذ وصوله ولكن ما أدراه بالحياة السرية للبيت في غيابه؟ حسناً. ليصارح نفسه بالحقيقة بلا مواربة، الحقيقة التي لا يجرؤ على قولها لأحد، حتى ولا لسميرة، كي لا يرموه بالجنون، الحقيقة أنه بات يعتقد بوجود شبح أو أكثر في هذا البيت. إنها فكرة غير منطقية ولكن لا يستقيم منطق لما يدور حوله إلا بها. ما المنطقي في ساعة خشبية برقاص صدىء متوقفة عن العمل منذ ربع قرن أو أكثر ـ منذ الحرب ـ تعود إلى العمل فجأة؟ باب الخزانة الذي انفتح انكشف لعينيه على «ألبومات» صور عتيقة، نهض صوبها وأزال عنها الغبار وجلس يقلبها، وأذهله أن جده كان يكتب تحت كل صورة اسم صاحبها، ونبذة عن ميلاده وحياته. ترك يومها الألبوم الأول على الطاولة وذهب إلى المطبخ لإحضار زجاجة ماء «صحة» وحين عاد وجد الألبوم مفتوحاً على صورة والده طفلاً، وهو الطفل الذي خيل إليه أنه شاهده في عتمة الغروب يعزف على البيانو ثم يختفي. قدَّر أن الريح هي التي قلبت أوراق الألبوم وفتحته مصادفة على تلك الصفحة، فالنافذة مفتوحة لدفء الطقس الشتائي.

لو افترضت جدلاً وجود شبح لكان شبح والدي، ولذا انفتحت صفحة الألبوم عليه. ما كاد ذلك الخاطر يمر برأسه حتى توقف ذلك القرع على النافذة وكان يظنه صوت الريح. خرج إلى الشرفة التي ترتفع عن الحديقة مثل منصة بعدة درجات.

وجد الريح ساكنة. ذلك لا يعني أنها لم تتوقف في تلك اللحظة.

ترى هل يحاول والدي إيصال رسالة ما إليّ من العالم الآخر؟ ترى هل يموت موتانا حقاً؟ أم أن البيت عاتب عليّ لأنني سأقوم ببيعه ليُهدم وليتحول إلى فندق سياحي فخم آخر؟

غادر فواز البيت هارباً من أفكاره وأشباحه لينام في بيت عمته وليندس في دفء حنانها كما فعل دائماً في طفولته. تذكر ليلة وصوله إلى بيروت وهلعه من الألعاب النارية متوهماً أنها أصوات انفجارات وأن الحرب عادت.. **ولكن ترى هل انتهت الحرب حقاً؟**

نفت عمة فواز حين التقاها فيما بعد أن تكون قد أصلحت الهاتف أو الساعة العتيقة.

* * *

جلس فواز وسميرة في مقهاهما المفضل على شاطىء البحر.. وعلى الرغم من رفض سميرة للهجرة مع فواز والزواج منه، ظلا يلتقيان كأن حواراً كهذا لم يدر بينهما، بل وتجاهلا الموضوع وتجاوزاه وظل حبهما مشتعلاً وظلت تتدفق نحوه وجداً وظل بالتوق وبالأشواق مشتعلاً بها..

كأنه لم يلمسها من قبل إذ ما كاد يمس يدها حتى بدأت الفراشات الملونة البديعة تتطاير في فضاء المقهى البحري، وبالونات الفقاعات الصابونية الملونة التي يطلقها الأطفال حتى الغيوم تعود لتهطل على الأرض، بالضبط فوق المقهى حيث يجلسان.. شاهد أسماكاً تحلق في الجو بهدوء وغيمة نبتت فيها الأشجار كغابة وبدت له المباني مخملاً من زرقة كالستائر التي تراقص الرياح.. حين تركَتْ يدها في يده طارا معاً عن أرض المقهى وارتفعا بهدوء فوق الطاولة فالبحر واقفين كحصاني بحر مشعين، وكاد يتمنى أن يُسجن معها داخل علبة سردين تنغلق عليهما أو داخل قمقم مسحور في قاع البحر مدى الدهور. وكان واثقاً من أن «البيغ بانغ» بينهما مرة بعد أخرى ستعيد خلق فضاء كوني جديد بشموسه ونجومه.

إنه الليل.. طافت به في بيروت التي ما تزال تعرف كيف ترقص وتمرح وتفرح.. التقيا برولا وكانت قد بدلت من جديد لون عينيها بعدسات لاصقة من الأسود إلى الأزرق وبدلت لون شعرها وزرعت من جديد المزيد من السيليكون في شفتيها وهي ترقص كمحكوم بالإعدام يعيش أمنيته الأخيرة.. وداعبها قائلاً إنها تشبه بيروت الحالية كثيراً ولم تدر هل يمدحها أم يشتمها.. ثم شعر بالحاجة إلى لحظة صفاء. إلى أن «يفتح قلبه» لسميرة وحدها عن بيته أو «قصره» الصغير

المسكون، وسألها: هل تؤمنين بوجود الأشباح؟ أجابته: الأشباح؟ لا أؤمن بها لكنني أخاف منها! أدهشه جوابها، فهو مثلها يعتقد ذلك. **إننا نفكر على نحو واحد بمعنى ما.. عن الأشباح على الأقل!**

قالت له إنها سمعت كثيراً عن تلك «الفيللا» وتريد مشاهدتها. اصطحبها إلى البيت وتمنى أن لا ينقضّ عليها الحمام العدواني وأن لا ينهار القرميد على رأسها ولا تتعالى الهمهمات السرية من الدهاليز والأصوات الشبحية الغامضة ولا تنكسر أغصان الصنوبر ولا تهاجمها الأسماك المفترسة في «بركة» الحديقة ولا تركض فوقها أسراب النمل ولا تقيم الرتيلاء في حذائها ولا تغادر وجوه لوحات أجداده إطاراتها لتعوم في فضاء «الدار» ولا يجن جنون رقاص الساعة الخشبية العتيقة.. و.. و...

ما كادا يصيران داخل البيت ويضيء الثريا الشرقية في المدخل وقد تدلت منها خيطان من الخرز الملون البديع المشع بالنور.. وما كادت تلمح السقف المرتفع البديع المنقول عن أحد سقوف قصر الحمراء في الأندلس حتى انقطعت الكهرباء فجأة وعم الظلام.. وصمتا..

فقط في الظلام الدامس وجد نفسه يهمس لها على مرأى من أشباح البيت كله:

أحبك! أينما كنتُ سأظل أحبك.

همست بدورها: أحبك وسأكتبك دوماً في كل سطر أخطه.

وطارا معاً إلى قمم سحرية تشع عتمتها بشموس سرية، وتركهما البيت بسلام!!

حين عاد التيار الكهربائي. عاد معه الصحو.

سألت سميرة فواز: هل ستسهر معي ليلة رأس السنة وتبقى في بيروت؟

أجابها بصدق: لا أدري.

بدوره سأل فواز سميرة: وهل سترافقينني ذات يوم للحياة في باريس؟

أجابت بصدق: لن أقول لك لا أدري! الإجابة هي بوضوح «لا» كبيرة مكتوبة فوق بحر بيروت وأفقها. لن أغادر بيروت إلا للسياحة.. لن أكون مغتربة في أي يوم!.. أحبك.. ولكن..

* * *

لم يجرؤ فواز على الاعتراف لنفسه بأنه يحيا حياة سرية مع شبح في بيت

جده، على الحافة بين الذعر والدعابة، ولكن بانجذاب دائم خفي إلى تجليات ذلك الحضور اللامرئي الغاضب الذي يؤذيه قليلاً بضربة على ركبته من مقعد في الظلمة لكنه يحميه أيضاً من أي خطر على حياته. ففي ليلته الأولى التي باتها في هذا البيت، استيقظ من نومه على يد تهزه، وحين أضاء النور وقفز مذعوراً شاهد رتيلاء سوداء سامة تركض فوق ملاءة سريره. فمن أيقظه لينقذه وليس في الغرفة سواه؟

أهي مصادفة؟ أهو عقله الباطن وحسّه الداخلي بالخطر؟ ألم تثبت التجارب أن لدى الإنسان مخزوناً مجهولاً من القدرات والطاقات وصفارات الإنذار المنبهة، وحتى التخاطر ثابت علمياً إثر تجارب في المختبرات، أشهرها تلك التي دارت بين أم في غواصة وابن على الشاطىء تحاورا بالتخاطر، فهل ثمة أيضاً تخاطر بين الأحياء والأموات؟ بين أب غاضب مثلاً لأن وصيته لم تنفذ وابن مقصّر؟ لقد أوصاه وأمه بدفنه في بيروت ولم يلبيا رغبته الأخيرة بل وأحرقا جثته وها هو آت لبيع البيت الذي قضى والده عمره في باريس وهو يحلم بالعودة إليه.

لا. لم نحرق جثته إهمالاً ولكن الأمر حدث على هذا النحو. إثر وفاته أصيبت أمي بالتهاب حاد في القصبات الرئوية وكانت تشفى يوماً وتداهمها الحمى من جديد لحزنها على أبي، وربما لكثرة ما كبتت حبها لبيروت ولما عانته في الغربة رغم تظاهرها بالسعادة هناك ورفضها زيارة بيروت وإعلانها بلا مواربة: من أحب أن يراني فأهلاً به عندي. ومن يومها تدفق الضيوف علينا وسمّى والدي البيت «فندق فرحة الباريسي الكبير» على اسم أمي!

يوم وفاة أبي خطرت ببالي فكرة الاستعانة بالسيد «دكاش» الذي كان يمتدحه أبي ويعمل في القنصلية اللبنانية ويجده اللبنانيون إلى جانبهم بصورة خاصة في مصائبهم إذ يساعدهم على إنجاز التفاصيل الإدارية حين يغرقون في مصابهم. قررت الاتصال به لنقل جثمان أبي إلى بيروت، إذ تذكرت أنه اتصل بنا مرة وأبلغنا نبأ وفاة بنت جيراننا اللبنانيين وهي في شرخ الصبا وكان والداي يلتقيان بوالديها في المصعد ويتبادلون التحية ثم يدخل كلٌ إلى قوقعته.. وهكذا صعدا للتعزية على الطريقة اللبنانية ورافقتهما... لقد ذهبت للعزاء بابنة جيران لا أعرفهم ولعلي لمحت وجهها في المصعد، لكنني وأمي لم نلبِّ بعدها رغبة محتضر بالدفن في بيروت. ولو لم تخبرني عمتي أنه اشترى قبراً في زيارته الأخيرة واليتيمة إلى بيروت منذ هجرتنا، ربما لنسيت الحكاية. أكلني الندم لحظتها، وهو ندم يعاودني كلما انفتح باب من تلقاء نفسه أو قرعت يد لامرئية نافذة.. لا.. لا يوجد شبح. إنه فقط حسي بالذنب. ولماذا أشعر بالذنب؟ لم يكن بوسعي أن أفعل شيئاً آخر أنا وأمي. كانت

مريضة، لم يكن بوسعي تركها وهي الحية التي تحتاج إليّ بجوارها لأسافر مع جثمان أبي إلى بيروت. لقد اتصلت بالسيد دكاش أملاً في معونته وكان في إجازة ستدوم شهراً، فما الذي أفعله بجثمان لا يستطيع انتظار شهر في ثلاجات مزدحمة بالموتى في باريس. وهكذا ذهبنا إلى مقبرة «بير لاشيز» التي كان يحلو لأبي التمشي فيها وقررت دفنه بالقرب من شوبان الذي كان يحبه وتبين لي أن المقبرة مزدحمة وتعاني من «أزمة سكن» وما من قبور للبيع أو حتى للإيجار، ليس قبل ربع قرن آخر!! وعرض عليّ الموظف إحراق جثمان أبي والاحتفاظ برماده. وافقت وأمي على مضض، فقد عاودت أمي الحمى ولم يخطر ببالي الاستعانة بعمتي وأبناء أعمامي وبقية تلك القبيلة التي جاءت لاستقبالي في المطار، فقد كنت قبل هذه الزيارة أشعر ككل فرنسي أن الإنسان يولد وحيداً ويموت وحيداً وعليه أن يتدبر أمره بنفسه وكل متاعبه.

وحتى حين قبلنا بإحراق جثمان والدي قال الموظف إن عليه الانتظار في «الطابور» ريثما يحين دوره بعدها بأيام. حزنت أمي وبكت فقد كان أبي يكره كثيراً الوقوف في الطابور على الطريقة الغربية حين يشتري خبزاً ويركب قطاراً ويدخل مسرحاً ويشتري دواء، ويعلن أنه بيروتي عتيق مسن يفضل الموت على الوقوف في الطابور.. وكم شتم أقداره ونحن نقف في الخامسة فجراً في شارع «موريللون» أمام مركز البوليس تحت الثلج لنستطيع الوصول إلى ملكوت الموظفة والحصول على بطاقة إقامة في أيامنا الأولى في باريس وها هو يقف بعد موته في الطابور ليُحرق! انتحبت أمي من فكرة وقوفه في «الصف» المثلج داخل البراد وانشغلتُ عن أحزاني بزحمة العمل.

أهذه روح أبي الغاضب لأنه لم يدفن في مسقط رأسه كما طلب مني، أم أن الشبح ببساطة هو شعوري بالذنب لأنني تقاعست عن تلبية رغبته بعدما أقعد المرض أمي؟ تراها مرضت لكي لا تذهب لبيروت وترى ما حل بها؟ ألهذا أعلنت أنها ستموت بالسكتة حين ترى بيروت على غير ما كانت عليه؟

حاولت سليمى عبثاً جرها للعودة معها في هذه الزيارة. صرخت بها وبماريا: أنت يا سليمى لست ابنة بيروت. ردت سليمى محتدة: لكنني ابنة لبنان فما الفرق؟ وحين فتحت ماريا فمها لتقول شيئاً صرخت بها أمي: وأنت لست لبنانية إلا بالتجنس والهوى. فاسكتي. كانت المرة الأولى التي أرى فيها أمي منفعلة وتقوم بإسكات صوت آخر، أم تراها كانت تريد إسكات صوت قلبها الذي يطالبها بتلبية الوصية الأخيرة لأبي؟

لا. لم أكن بحاجة إلى شبح لأشعر بالذنب فقد تألمت بين اجتماع عمل وآخر وزحام وآخر كلما تذكرت أن أبي سيظل إلى الأبد واقفاً في «الطابور» وبالأحرى ممدداً في «الطابور» المثلج في براد الجثث إذا لم أعد رماده إلى أرض الوطن كلنا أمي وأبي وأنا من طابور مثلج إلى آخر في الغربة، والناس في بيروت تحسدنا لأننا فزنا بغير الجنسية اللبنانية.

لم يكن بوسع سميرة مقاومة نزوات «أمها الأبجدية» الروحية ماريا. وماريا قررت أن تلعب دور الدليلة السياحية لشابين يجهلان بيروت ما قبل الحرب هما سميرة وفواز فمضت بهما في سياحة خيالية في بيروت اللامرئية التي تحولت إلى مساحات فارغة ترى فيها ماريا «بيروتها»، بيروت ركام الذاكرة والحيوات الطيفية التي تتحرك بين ذاكرة مثخنة بالحنين وعقل يرى المستقبل شبحياً بمعالم غير محددة. اختارت ماريا أن تبدأ «السياحة» في المدينة «اللامرئية» كما دعتها من أمام مبنى نصف حقيقي ونصف وهمي كأنه على خط الحدود بين اللامرئي والمرئي في أحد «خطوط التماس» الحربية الغابرة، في منطقة السوديكو بين تقاطع طريق الشام وجادة الاستقلال، بالضبط من أمام مبنى «بركات» الشهير بين «الشرقية» و«الغربية». كانت سميرة قد مرت بالمبنى نصف المهدم بأطلاله الشاهدة على عراقة معمارية وحرب هوجاء نخرت كل شيء بالرصاص والقصف. حتى الأعمدة العالية تحت القناطر بدت في بعض المواضع نحيلة كسيقان هيكل عظمي..

قالت سميرة بهدوء: كتبت عن هذا المبنى تحقيقاً.. وتسكعت فيه والتقطت رسائل غرامية بين أكياس الرمل ومتاريس القناصة وتحت ركام علب الدخان وزجاجات البيرة والغبار والصرخات اللامسموعة..

قال فواز: شاهدت في برلين في شارع كورفورشتوندام كنيسة قديمة شيدوها عام ١٨٩١ تدعى كايزر ويلهلم جداشتنيسكيرش نخرتها الحرب كهذا المبنى ولم يبقَ منها غير برجها الشاهق المتفحم وعمروا إلى جانبها كنيسة جديدة لتظل الأولى شاهداً على بشاعة العنف وفظاعات الحرب.

قالت سميرة مداعبة: ليس بوسعك مصادرة المبنى هكذا من ورثة أصحابه دون أن تعوض عليهم مادياً! وتابعت مسيرتها بسرعة كأنها تنجز مهمة بغيضة.

قالت ماريا لسميرة: تمهلي هنا قليلاً..

كانوا قبلها قد قطعوا ساحة البرج، وماريا صامتة.

التفتت صوب سميرة وفواز وهي تقول: انظرا.. مشيرة إلى مساحة فارغة من الأرض المعبّدة: انظرا.. هل تريانه؟ هنا مقهى الأوتوماتيك.. هل تريان الطابق

الأسفل، الكاف/ القبو؟ هنا تعارفت للمرة الأولى مع فادي وشربت لأول مرة عصير الأناناس وثملت كما لو كان أفخر شمبانيا باريسية وكنتُ قد وصلت لتوي من بلدي.

تابعت سميرة سيرها بسرعة وقالت ماريا: هنا كان دكان «ألفا» حيث اشتريت أول «جينز» وكان ارتداء النساء للسروال محرّماً في شوارع مسقط رأسي وحتى في حرم الجامعة الأميركية في بيروت ذلك الزمان باستثناء فترة الإجازات. أشارت ماريا إلى اليمين وقالت: هنا كان سوق الطويلة.. من هنا اشتريت قميص نومي الدانتيلي الأول.. هنا كان سوق الجميل.. وهنا المبنى الذي كان فيه «مقهى طانيوس»..

طلبت من سميرة التوقف وأشارت إلى البعيد قائلة: وهذا مطعم باخوس في قبو فندق لبيبي عبد حيث راقصني فادي للمرة الأولى.. ووراءه «وادي أبو جميل».

كانت تتحدث وهي تشير إلى مساحات خاوية من أي مبنى.. إلى الفراغ.. ودهش فواز لأنه صار يرى حقاً ما تتحدث عنه كمن يستعيد طفولة منسية أو يرى الأشياء بعينيها بمعنى ما، يرى بارتجاف صوتها، واختناقه بدمع سرّي في حنجرتها، بارتعاش يدها وهي تشير إلى مكان تراه ولا تراه. كانت مكتنزة بالماضي مزدحمة بأصواته وصوره.. تشع به وترسمه على شاشة وجدان الآخرين.

ماريا تابعت: هنا باب إدريس. هنا كان حلاقي مقابل «الباتيسيري سويس». هنا صبغت شعري للمرة الأولى بلون كستنائي وزجرني أبي على ذلك في زيارته الأخيرة لي وأنا طالبة في الجامعة الأميركية ولم أكن أدري أنه اللقاء الأخير.

قبل أن تلتقي سميرة بماريا كان يحلو لها التأكيد للمسنّين أنها تكره السياحة الوهمية على خرائب الذكريات قائلة: أنا بنت الآن. بنت المدينة التي فتحت عيني عليها، وأحب بيروت كما هي. لكنها عبر ماريا بدأت تدرك السحر الخفي لبيروت ما قبل الحرب. وللمرة الأولى شعر فواز أنه قريب من ماريا كإنسانة وصديقة لا كمجرد صديقة لأمه وأنه ـ يا لدهشته ـ يستمتع بتلك السياحة الوهمية اللامرئية. وشعر برغبة جارفة في رسم اللامرئي.

طلبت ماريا من سميرة أن تنحدر صوب البحر ثم همست بصوت خافت: هل تريان ذلك الرجل الماشي بالقرب من مطعم «البحري»؟

حدقت سميرة فلم تشاهد سوى خواء شاسع، لم ترَ مطعماً ولا رجلاً، أما فواز فتبيَّن قبلها مكاناً كالرؤيا، ورجلاً يمشي على رصيف ضيق في زقاق مرصوف وهتف: أجل. إني أراه..

شيئاً فشيئاً بدأت سميرة ترى ذلك مثل رؤيا طالعة من الضباب وملتحفة به.

أضافت ماريا: هذا هو فادي. الرجل الذي أحببت ذات يوم وقتلوه أمام عيني..

قال فواز بذهول: الآن أراه بوضوح.. إنه يرتدي قميصاً بحري اللون.

قالت ماريا كمن ينتحب: كان يرتديه ليلة أطلقوا رصاصة واحدة على رأسه وهمدت أصابعه التي طالما نادت في كل ما كتبَته بالحرية والعدالة وأنشدت حب لبنان. لو عاش لكان له شأن كبير..

مروا في خواء آخر بعدما قادت سميرة السيارة بماريا وفواز بعيداً عن فادي وهمست ماريا بالصوت ذاته: انظرا إلى هذا الرجل المتورم سمنة ورفاهية والذي يهبط من السيارة المرسيدس الفخمة والسائق يفتح له الباب على رصيف الكبوشية! من جديد لم تر سميرة شيئاً، لكن جنون كاتبتها المفضلة أبهجها. لم تكن تتخيلها شيئاً آخر ولا تريدها إلا هكذا، أما فواز فهمس بصوت مشابه لصوت ماريا: أجل أكاد أراه. يبدو متعجرفاً وكريهاً.. من هو؟

أجابت ماريا بحسرة: كان ابن صياد سمك وصار مليونيراً. كان شاعراً وصار جلاداً.. إنه منير أحد أبطال قصصي.. كان منحازاً للفقراء مثل فادي وللمبادىء النقية والحرية والفرح والبراءة وصار جامع ثروات.

سميرة التي كبرت في الملجأ والاختناق وفي القهر والتعب واكتشاف قيمة الشمعة والملموس والمشموم ولا تعرف عن بيروت إلا ما ألفته وروضت نفسها على حبه لكي لا تموت غماً - معللة النفس بإصلاحه - سميرة هذه شعرت بشيء من الخوف من أفق ينفتح أمامها.. ومن وطن كجبل الجليد، الجزء الحقيقي منه مطمور تحت أمواج النسيان والتعتيم.. أما فواز الذي ألف معايشة الأشباح في بيته، فلم يدهشه أن تهيم في الشوارع اللامرئية أرواح معذبة وأبطال قصص ماريا!

بدأ فواز يألف ألاعيب البيت معه كأنه صار يتعايش مع الأشباح باستثناء بعض اللحظات المرعبة.

فقد ملأ المغطس ببعض الماء ليستحم وشاهد أخطبوطاً أسود يسبح فيه، ما كاد يحدّق فيه جيداً حتى اختفى.

في غرفة مكتبة والده وجد بعض كتبه من أيام المدرسة الابتدائية، وحين مد يده ليتناول كتاباً خرجت منه أفعى وقفزت على السجادة وخيل إلى فواز أنها اختفت قبل أن تمس الأرض.

وحين امتدت يده لتقشير برتقالة خيل إليه أن للبرتقالة عيناً تحدّق فيه فرماها منتفضاً واختفت العين لكنه لم يأكل البرتقالة. وحين مد يده لفتح الباب امتدت من خشب الباب يد شبحية لتصافحه!

وتساءل: تراه يخيف أشباح البيت فبذل ما بوسعها للدفاع عن نفسها والتخلص منه؟ هل يرى الأمواتُ الأحياءَ أشباحاً مرعبين في عالمهم؟ ولماذا يلمح في الغرف المعتمة وجوه موتى سبق له أن شاهد صورهم في الألبوم العائلي؟ بل من هي تلك السيدة العجوز التي جاءت تسأله عن والده في ظلمة الليل وسمع طرقاً على الباب بلا صوت وبعد ذهابها شاهد صورتها في الألبوم العائلي وخيل إليه أنه عرفها وأنها جدته جاءت تسأل عن ابنها. ألم يلتق شبحاهما أم أنها جاءت تعذبه هو؟ ما زال يسمع أبواب خزائن تنفتح من تلقاء نفسها ويتصاعد منها أنين ينسبه لطقطقة الخشب العتيق والسوس يقرضه. يرى أرواحاً شفافة كالضباب داخل الدهاليز والأركان المظلمة وحتى في الحديقة، جثث يحسها تحدّق في وجهه وهو نائم وتتهامس عليه متواطئة ويستيقظ مذعوراً على وقع نظراتها. يستيقظ على همهمة فيجد الصالون السابح في العتمة مليئاً بالناس بعضهم بثياب مطلع القرن الغابر ويشبهون رجال الصور ويشم رائحة نراجيلهم كأنهم في لقاء عائلي، ثم يختفون فجأة.

قال للأشباح: كفى، مثل ولد يناكده صبي آخر وهدأ كل شيء.

تأمل فواز طويلاً وجه والده شاباً في صورة عرسه مع أمه.. تفرّس في ملامحه وهو الذي يسمع عنه الكثير، في محاولة للتعارف معه. طوال أعوام طويلة

في باريس، أعوام من البرد والثلج والليالي المكفهرة، كان والدي هناك، في الغرفة المجاورة، في المقعد المجاور، لا يحلم بغير أن أنصت إليه أنا وحيده فواز أو أحاوره أو أهتم به أو أطرح عليه أي سؤال. يا لندمي، تعاملت معه مثل غريب في غرفة فندق أرغمت على مشاركته إياها، وكنت مشغولاً بنفسي ومستقبلي ولم يخطر ببالي مرة أن أتعارف حقاً مع أبي كإنسان أو أستمع إليه! وها أنا الآن أطارده في حفريات ذكريات الآخرين وأبحث عن حقيقته كعالم آثار ينقب في خرائب مدينة تحترف قتل ذاكرتها.. كان خليل كالرؤيا. إنه رجل مهدم لا يستطيع أحد أن يحدس سنه، وهل هو في الستين أم الثمانين. صوته ما زال يركض داخل رأسي.. وهو يقول لي: يا ابني، رحم الله والدك. كان زين الشباب والأخلاق ومعلمنا وصاحب الفضل علينا. حين هرب مؤسس حزب انضممنا إليه لفترة قصيرة في مطلع الشباب.. حين هرب من بلده استضافه والدك في بيته، وكان بقية أفراد الأسرة يصطافون في الجبل، وحين نجح انقلاب في بلد عربي واستعاد رئيس الحزب نفوذه نسي والدك وعاداه كأن فضله عليه عذّبه.. لكن والدك بقي مخلصاً لمبادىء لم يخلص لها حتى بعض أبناء الحزب ذاته. كان ولاؤه للوطن.. للبنان أولاً وللوطن العربي الكبير.. لم يكن يلتقي كلية مع أحد ولا يختلف إلا مع الخونة.. والدك كان صاحب نهج واستثنائياً يا ابني.

يومها دهش فواز وصارت حكايا خليل عن والده تطارده.. فهو لا يعرف عن والده إلا ذلك الرجل اللطيف شبه المتقاعد الذي يساعد أمه الطبيبة في الأعمال المنزلية ويتحرك في البيت كشبح حزين بصوت خفيض بلا أصدقاء ولا أعداء ولا أحلام ولا مطامح.. ويحمل «أكياس العلف» الثقيلة إلى البيت تحت الثلج كأنما لينسى أحمال الروح والفكر والقلب.. ويرافقه إلى مدرسة تعلم العربية ويعيده منها في شتاء باريس القارس.. وينتظره أمام بابها أو في مقهى مجاور يطالع الصحف.. هذا الشبح القاطن في البيت تراه شبح أبي وهو يحاول التواصل معي؟ ما الذي يريد أن يقوله لي؟ ولماذا لم يقله خلال حياته؟ أم أنه عاتب على شيء اقترفته بعد موته؟

* * *

في الصباح الباكر، أعد فواز قهوته، وما كاد يجلس على الشرفة نصف الباردة التي تعلو عن الحديقة عدة درجات متأملاً بأسف «أدغالها» المهملة حتى شاهد شخصاً يمشي في الحديقة متجهاً صوبه ميز فيه صديقه عفيف، وقد فارق وجهه تعبير الظفر والرضا الذاتي الذي لا يغادره لا في صوره الضاحكة دائماً كإعلان عن معجون جديد للأسنان والتي لا تخلو منها صفحات سهرات المجتمع وحفلاته في

المجلات والصحف ولا في المقهى ولا حين يقود سيارته أو بالأحرى إحدى سياراته الثمينة ولا في السهرة منذ يومين في بيته الفخم على شرف فواز التي كانت آية في البذخ وزحام نجوم الثراء والمجتمع البيروتي المخملي الجديد. هذه المرة ترك عفيف إمارات الهمّ والمسكنة تغزو ملامحه ولاحظها فواز وسأل: ما الحكاية؟ قال عفيف بلا مواربة بعد «صباح الخير» مقتضبة: أنا بحاجة إلى مساعدتك..

لم يخطر ببال فواز أن عفيف الثري الباذخ يريد مساعدة منه وأجاب بأريحية: تكرم عينك.. لك ما تشاء..

- هل بعت البيت؟

- ليس بعد..

- حين تبيع البيت، أنا مضطر للاستدانة منك وسأعيد لك المبلغ بسرعة فاطمئن!

على الرغم من أنه لم يعد ثمة ما يُدهش فواز في بيروت، لكنه لم يرد على عفيف إذ عقدت الدهشة لسانه. ذلك البذخ كله ويريد الاستدانة منه؟ ألهذا كانت الحفلة التكريمية له؟ ولِمَ يستدين وهو الذي يقيم في بيت ثمنه يفوق ثلاثة ملايين دولار في المبنى الأشهر في بيروت. لقد اصطحبه إلى الحفل التكريمي في سيارة مرسيدس مزودة بتلفزيون وفاكس وبار بكل فخامتها الجلدية البيضاء من الداخل وثمنها قد يكون ربع مليون دولار. وملابسه من أفخم دور الأزياء الباريسية. وحافظة أوراقه من جلد الأفعى الثمين. وساعته مثقلة بالماس ويريد الاستدانة منه؟ ركض أمام عيني فواز المدخل المرمري للمرآب، والمصعد الآلي الذي يرفع السيارة ليصلا بها إلى داخل المنزل، والنفق المضاء كمتحف والذي يقود من جهته الأخرى إلى موقف خاص بيخوت سكان المبنى. المربيتان الفرنسية والإنكليزية لطفلته وطفله. الخادمات في الثياب الرسمية الأنيقة والذكور بثياب «السموكن» ويريد فوق ذلك كله أن يستدين منه، وأمه لا تحلم بأكثر من عاملة منزلية تقدم لها القهوة في سريرها مرة في الأسبوع يوم العطلة!..

فيما بعد في المقهى، حين استجوب فواز فؤاد، علم أن رفاهية عفيف بالدين والاحتيال فهو يستدين من أحدهم ويعطي الآخر وهكذا، وللناس في ذمته مبالغ كثيرة يقال إنه أضاعها على البذخ وفي مشاريع وهمية أو خاسرة واحتال على الكثيرين واغتصب نقودهم بحجة ربح ينتظرهم ويضاعف رأسمالهم. وتوقع فؤاد هرب عفيف قريباً إلى بلد آخر مجهول يقال إنه أودع فيه ثروة ليوم كهذا، كما يقال إنه سيُلقى القبض عليه قريباً وتنفجر فضيحةٌ، بعض شركائه فيها من أركان البلد النافذين!

* * *

صار فواز كمعظم الناس لا يؤمن بالأشباح لكنه يخافها!

كان يسمع صرير الأبواب ويقنع نفسه أن ذلك يحدث في البيوت كلها مع هبوب الريح. .

كان يسمع أصواتاً تشبه التنهدات قادمة من غرفة والده، ويقول لنفسه إنها بالتأكيد أصوات عابري السبيل قادمة عبر أشجار الحديقة الواسعة. .

لا يريد فواز أن يعتقد أن يداً لامرئية هي التي فتحت باب الخزانة الصغيرة الراقدة تحت التلفزيون بل يفضل تفسيراً علمياً لذلك كالقول إن الدفء والمغناطيس السكوني المعروف علمياً هو الذي فتح بابها فجأة على حين غرة وهو جالس وحده. . وحين نهض ليغلقه غلبه الفضول وقام بتقليب دفاتر مغبرة فيها فوجىء بأنها ألبومات طفولته في هذا البيت. **كم كان البيت يبدو يومئذ سعيداً. . لم تكن الجثث قد تكومت بعد في حديقته أيام الحرب. كان ما يزال لبنان كما تقول ماريا أملاً في بلد نجحت فيه تجربة يجب أن تعم العالم اسمها التعايش بين الطوائف والأديان والأفكار كما كان يبشر والدي على ذمة خليل الدرع. وكم كان والدي شاباً وسيماً بابتسامة عذبة وعينين مليئتين بالنضارة والأمل وهو يحملني طفلاً. . كم تختلف صوره في ذلك الزمان عما آل إليه، بالعينين المكسورتين اللتين عرفتهما في باريس وبدمعة معلقة لا تجف ولا تهطل.**

أهذا ما جعل شجرة الصنوبر التي زرعها والدي يوم ميلادي تناصبني العداء هي أيضاً، ويسقط قرب رأسي غصن منها كأنما بفعل المصادفة وعاصفة الليلة السابقة ويكاد يشجّني؟

وتلك الحرباء التي تتحرك على الجدار مقابلي حين أذهب لأنام، لماذا تبدل لونها من الأخضر إلى الرمادي القاتم المظلم كسماء غاضبة ملبدة بعاصفة سرية، كلما نظرت إليها؟ وماذا في حضوري يثير استنفار رفضها وحسها بالخطر هكذا؟ ألأنني سأبيع البيت؟ ومن هي الروح الغاضبة؟ ذلك كله هراء، لكن كل ما يدور في هذه المدينة يدفع بالمرء إلى حافة اللاعقلانية واللامنطق. لا، لن يحدّث سميرة ثانية عن هواجسه هذه كما ساورته نفسه. لن يحدِّث أحداً. سينسى ذلك كله. . وبيبع البيت بأقرب فرصة ويرحل ويعيش في باريس حياة مترفة ناجحة وينسى إلى الأبد هذا المكان الغرائبي العدواني اللامعقول.

لقد تصرّفا أمه وهو بتعقل حين قررا بيع البيت وأحرقا جثة الوالد. لا. نعم. لا. نعم. . لم يعد يدري شيئاً سوى أنه منهك ويشعر بالذنب دونما مبرر منطقي لذلك ولا مفر له من ابتلاع قرص منوم إذا أحب أن ينام.

* * *

توقفت سيارة قرب ماريا بصرير مزعج. لا تدري لماذا توجست شراً في الشارع المظلم وأجفلت وتساءلت: لماذا ما زلت أشم رائحة العنف؟ ترى هل انتهت الحرب حقاً؟

ندمت لأنها أصرت على العودة مشياً من سهرتها الأليفة في بيت صديقيها الحميمين عاطفة وفايز.

تلاحقت الأمور بأسرع مما توقعت إذ أطبقت يد قوية على فمها وخنقت صرختها ورمت بها فوق المعدن البارد لصندوق السيارة. وقبل أن تصرخ انطبق الغطاء المعدني وغمرتها الظلمة الكاوية. اشتعلت ذعراً وقلقاً ووعت أن ثمة من اختطفها. أدركت أن السيارة انطلقت بها بسرعة مجنونة، إذ كان رأسها يصطدم بعلبة «السردين» التي انغلقت عليها مع كل سقطة لدواليب السيارة في حفرة ما وما أكثرها في شوارع بيروت، ناهيك عن ضواحيها. فقط بعدما انطلقت السيارة بعدة دقائق انفجرت ضاحكة كالبكاء بصوت هستيري مرتفع وسمعتْ صوتها وشجعها أن تسمع صوتها. **إذن ما زلت حية!..**

أي أحمق يريد اختطافها؟ تعرف أنها لا تصلح لغير الكتابة، والكتابة في الأسر مستحيلة، فماذا تريد أو يريد منها الخاطف؟ فدية؟ ليس ثمة من يهمه أمر حياتها حقاً أو موتها ليدفع فدية لتحريرها، والقراء قد يكتبون رسائل الاحتجاج للخاطفين لا الشيكات، بل إنها تعرف قائمة بأسماء الذين يدفعون الكثير لموتها! أرعبها ذلك الخاطر، فهي مطلوبة ميتة أو ميتة ككل مجانين الكلمة الحقيقيين مثلها الذين لا تعني لهم الملذات الاستعراضية الأبجدية شيئاً ولا يرضون بغير خبز الحرية والصدق والحقيقة.. الذين يقضون أوقات راحتهم في محاكمة أنفسهم: إلى أي مدى يقتربون من تلك القيم ويقيمون على خدمتها؟ ازداد ارتجاج علبة السردين المنطبقة عليها الملقبة بصندوق سيارة، فحاولت حماية رأسها بيديها. قالت لنفسها: **جسدي لم يعن لي شيئاً حقاً في أي يوم. المهم عندي دائماً ومنذ البداية أن أحافظ على رأسي.**

شعرت بأن عظامها المصطدمة بالجدران الحديدية لصندوق السيارة تؤلمها. ما من ألم حاد ينسيها بقية الأوجاع الروحية. تحسست نفسها واطمأنت إلى أنها لم تصب بغير بعض الرضوض، **ولم تنكسر بعد أية «عظمة» من هيكلي العظمي الذي يبدو أنه سيمضي إلى قبره دونما أثر لكسر! ستحتفي الديدان بذلك!**

توقفت السيارة حين بدا لماريا أن كل ما يحدث لها في بيروت بالغ الشبه بفيلم أو مسلسل بوليسي مثير بدءاً بباقات الأزهار الميتة ومروراً ببطاقات التهديد

وزيارات منير، لكنه لا يشبه حياتها التي تريدها هادئة وتهرب بها بعيداً عن «الرجات» الحلوة والمرة كما لو كانت تلك الحياة كيساً من البيض النيء!

انفتح الصندوق، وقبل أن تنظر في الظلمة إلى خاطفها ربط عينيها بعصابة لا بد وأن تكون سوداء لأنها لم تعد ترى شيئاً. لكنها شمّت في الظلمة الحالكة وجه خاطفها وعرفته: إنه منير.

هبّت من عطره رائحة السمك وأيقنت أنه هو.

همست: منير؟ منير نجيب؟ ما هذه اللعبة الجديدة الآن؟

جاءها صوت: «إني آسف. لم أكن أريد أن نصل إلى هنا. هيا.. تحركي أمامي.. أسرعي»..

لم تألف المشي هكذا بعينين معصوبتين بالرغم من أنها طالما دربت نفسها على ذلك في البيت كلما شاهدت ضريراً في المترو الباريسي يتجرأ على المشي وحده وأكبرت شجاعته وكلما التقت بذلك الضرير العربي الجميل في الحي الذي تقيم فيه بباريس وهو يمارس رياضة المشي على الرصيف دونما عصا..

تعثرت وكادت تسقط فحملها منير بيسر كما حدست من عضلاته نصف المسترخية. سألته. بهدوء: لماذا تعصب عيني ما دمت قد عرفتك؟

ضمها إليه وهو يكاد يهرول بها سائلاً: اللعنة عليك، لماذا تكرهينني وأنا أحبك هكذا؟

لم تقل شيئاً. كان ما يحدث لها شبيهاً بما يحدث لأبطالها في قصصها. **إن ذلك لا يصدق لكنه يحدث تماماً كما في قصصي! دونما منطق أو ضابط أو قانون أو عدالة.. كأن الكلمات أقنعة تنكرية لفوضى كونية عبثية لامعقولة جارفة تبدأ دوماً بكتاب.. بكلمة.. بقراءة سطر.. هل كان عليّ أن أكون كاتبة بالمعنى الحقيقي الملعون للكلمة؟ لماذا لم ألعب دور «الدلوعة» سيدة الصالون الأدبي وأترك الكتابة للحمقى الملدوغين بعقارب الصدق وسمومه؟**

وها أنا غارقة في ظلمتين، يحملني مجنون أكثر جنوناً مني وهو حائر بين قتلي وتقبيلي والاثنين معاً في آن على الأرجح.. وأنا أيضاً!

برفق وضعها على أرض ترابية، وقيد يديها خلف ظهرها، وأشعل شمعة. عرفت ذلك من صرير «ولاعته» الذهبية وانطباقتها ذات الصوت المميز، ورائحة فتيل الشمعة. رفع العصابة السوداء عن عينيها وأحاط بها عنقها وهو يشدها برفق كمن يريد خنق الآخر ثم قبّلها بحرارة وقال لها: أرجو المعذرة، على عصب عينيك

وليس على تقبيلك وخنقك! قد أقتلك لكنني لا أريد مضايقتك. من المهم أن لا تعرفي أين أنت، فقد تكتب لك النجاة وتشهدين ضدي. أنت تخرجين من رمادك دائماً.. حينما يظن المرء أنه قتلك تنبتين فجأة في ضلوعه وتعذبينه بالندم والخزي وتتابعين تعليقه على وتد عذابه.

قالت له ماريا: انظر إليّ. لا يزيد طولي عن ١٦٠ سم ووزني ٤٨ كلغ أما أنت فطولك ١٨٧ سم ووزنك أكثر من ١٠٠ كغ فلماذا تقيد يدي؟

أجابها: لأنني أخاف من يديك. أخاف أن تكتبي مشهد موتي!

همست ماريا: أنا وحيدة ومفلسة قياساً لثرائك وهامشية قياساً لنفوذك وسطوتك، فما الذي يخيفك مني وأنت عملاق وثري وقوي ولديه ميليشيا «مالية» تخويفية ومافيا مؤذية؟ ولماذا تتولى أمري شخصياً بدلاً من أن توكل أحد زبانيتك بخطفي الليلة مثلاً؟

ـ لأنني لا أريد أن يحظى سواي بمتعة قتلك. هل سمعت بقاتل أرسل زميلاً مأجوراً لقتل أمه أو حبيبته؟ إنه يفضل القيام بذلك بنفسه! ألم يقتل عطيل ديدمونة بيديه؟ ألم يتسبب هاملت في موت أوفيليا؟

صارت ماريا ترتجف ذعراً وشعرت بضآلتها وهشاشتها وغربتها في عالم عدواني من الأقوياء الطغاة الانتهازيين.. وبدأ الشلل يسري في كيانها وأدركت أنها النهاية. كأنه انتهز الفرصة إذ قال لها: والآن، أظنك فهمت أن أبطالك أقوى منك إذا تمردوا عليك وبدونهم أنت لا أحد. ما قيمتك لولاي؟ ترسموننا على الورق وحين نحيا ونصير بشراً مثلكم بكل ضعفكم وعنفكم تتحولون إلى طغاة يريدون التخطيط لمصائرنا ومعاقبتنا إذا تمردنا عليها! لقد وضعتني أنتِ داخل ظروف قاسية وقلت لي كن بطلاً محرراً أو شهيداً ورحلتِ لكنني كنت بشراً يريد أن يعيش بهناء فتمردت، ولا أطلب منك الغفران بل النسيان.

بلا تردد سبق قلب ماريا عقلها: تريدني أن أنسى ما صرت تمثله وأبرر لك ما تقترفه وهجرك للرفاق القدامى وغدرك بمبادئهم ومحالفتك لعدو الأمس وانضمامك إلى المنتفعين من إذلال الناس وخيانتك لقيم الحرية والتعايش، وفوق ذلك تريد إقناعي أنك تقترف ما تقترفه إكراماً لزوجك وأولادك وعشيقاتك؟ لا.. لا أستطيع تسخير حرفي لإعادتك ناصعاً. لا.. ليس في العالم كله من الصابون الأبجدي ورغوات الكلام ما يكفي لغسل أدرانك ولا بحر شاسعاً بما يكفي لإعادتك نقياً.. لا.. بوسعك قتلي لكنني لن أسطر شهادة زور وليكن ما يكون. أنا ما زلت أسمّي الأشياء بأسمائها. السارق هو السارق. والمحتال هو المحتال. والمرتشي هو

المرتشي. وأياً كان الثمن، يجب أن يظل الفارق واضحاً بين النظيف والملوث والانتهازي والإنساني، وحتى إذ اخترع الناس صيغاً كثيرة لتمييع الأشياء، فلا يحق للكاتب المشاركة في الوليمة فهو خادم الحقيقة والحرية.

بإتقان صياد عتيق يعرف كيف يعقد الحبال، فك العقدة الأولى البدائية عن يديها ثم كبلهما خلف ظهرها بحرص، قبّلها على شفتيها قبلة حارة مجنونة وهمس وداعاً. ثم صار صوته بارداً حاداً كمقصلة وهو يقول لها: لم أنس تقييد قدميك ولكن لا مجال لك للفرار من هذا القبو. ولم أنس تكميم فمك لكن أحداً لن يسمع من قاع القبر صراخك في الطبقة السابعة تحت التراب الذي إليه تعودين. أما أنا فسأبقى حياً ما دام ثمة من يقرأ، وحتى إذا أحرقوا الكتاب لن أصير رماداً فالكتب تحترق والكلمات تطير كما يحلو لكِ أن تكرري.. ولم يعد بوسعك بعد اليوم العودة إلى الكتابة لاغتيالي. ستموتين ببطء قهراً لعجزك عن الكتابة. أنتم الأدباء لا تموتون إلا إذا عجزتم عن الكتابة ولذا تتسترون على فترات الصمت و«العفة» الأبجدية.. وداعاً يا ماريا إلا إذا بدلت رأيك ووقتها بوسعك مناداتي بالتخاطر.

بعناد قالت ماريا: أفضل الموت على تنظيف ثيابك الموسخة بالدم.

قال لها: حسناً. فليكن الموت لك بدلاً من أن يكون لي. لو فعلت آنا كارنينا مثلي لما ماتت تحت عجلات القطار بل لمات ليو تولستوي مدهوساً بقطار. والآن بيديك المقيدتين ليس بوسعك الكتابة على الجدران وقتلي. المهم عندي أن لا أدعك تكتبين سطراً إضافياً في روايتك الجديدة ففيها ورقة نعوتي! لن أدعك تحررين شهادة الوفاة وتلعبين دور القاتل والطبيب الشرعي وحفّار القبور وأهل الفقيد في آن!

أطفأ منير الشمعة ومضى. كان الظلام دامساً لكن منير يجهل أنها ككل الكتّاب الصادقين مع فنهم لا ترى إلا في الظلام، كالبوم. شاهدت الديدان والجرذان.. هاجمت الديدان جسد ماريا في القبو المظلم. لم تستسلم. هاجمتها أسراب الجرذان، حامت حولها طيور الجيف تنتظر وليمتها. صرخت بصوت عال: اللعنة. ما زلت حية فلا تقتربي مني. خوفي وحده يمكن أن يُحوِّلك إلى حقيقة. لن أخاف. سبق لي أن مررت بهذا الكهف بل وسجنت نفسي فيه وحيدة لأكتب وما من كاتب إلا وذاق هوله. لن أخاف. ليست المرة الأولى التي أجد نفسي فيها في هذا الوكر! ما كادت تنطق بذلك حتى اختفت كلها: الديدان والجرذان. من جديد انتابتها نوبة خوف حين هاجمتها حشرات غامضة وصراصير ورتيلاءات وعقارب أوجعتها عضاتها. تماسكت وصرخت بها: إني أكثر حياة منك. دعيني وشأني.

بشطحة من قلمي أزيلك عن السطر.. ولكن أين القلم والورقة؟

انفضّت كلها عنها في اللحظة التي استولت عليها من جديد إرادة الحياة والكتابة رافضة المهادنة. قهقهت ماريا ساخرة في القبو من جلادها وذراعيها المقيدتين. منير، أيها الأحمق. أعرف أين أنت وماذا تفعله. وحين تنام سأقتلك، وأنجو. لست أول حبيب أقتله لأستمر ثم أغسله بدموعي! بطلات رواياتي وأبطالها هم كلهم أحبائي «الحقيقيون» وكل ما عداهم يشبه الوهم، ولكنني عاشقة ترفض المساومة على قيمة الكلمة. رتبت كل شيء يا منير نجيب وأحسنت تقييدي في قبو قصرك الذي سبقني إلى الموت فيه مخطوفون وسجناء، لكنك نسيت أن أحداً لا يستطيع الوقوف في وجه قافلة الأدباء الذين كتبوا على جدران سجونهم حين عزّ الورق. كتبوا من منافيهم. كتبوا من قاع احتضارهم. من أوجاع روحهم. من حيرتهم. من أوكار فقرهم. من جنون ألمهم. كتبوا بمجاذيفهم على وجه الماء رغم القيود الحديدية التي تربط أقدامهم كالعبيد على ظهر سفينة أُقسروا على ركوبها. كتبوا بأحلامهم على وجه القمر رغم ضربات السياط وبصدقهم على وجه الشمس رغم أنف الجلاد.. وتخلوا حتى عن الحبيب إكراماً لصدقهم. وصارعوا الوحوش الحقيقية والأسطورية والتنينات والديناصورات. كتبوا بأسنان أسماك القرش والتماسيح وبأظافرهم المقتلعة.. فهل تظن يا منير أنك بتقييد يديّ في قعر كهف ستحرمني من كتابة مشهد موتك أنت وأمثالك من المحتالين المخادعين الذين صاروا يملأون الأرض في الحقول كلها ويسممون ينابيع البسطاء لكي يقتتلوا فيما بينهم وينشغلوا عنكم؟... لقد قلبت معطفك وارتديته على الوجه الآخر ثم استمرأت لعبة قلب المعاطف، ولم يعد «النقد الذاتي» عندك مطهراً بل أسلوب عيش وصرختَ الثورة وأضمرت الثروة وطعنت لبنان وطعنتني ولن أغفر لك كي أظل أحترم نفسي. أجل لقد أحسنت تقييدي وربط يديّ وإبعاد القلم والورق، ولكنك نسيت أنني أستطيع الكتابة داخل رأسي، بل إنني لا أحسن شيئاً آخر، وككل مجانين الكلمة كتبت آلاف الكتب الجيدة داخل رأسي وبعض الكتب الرديئة على الورق.. نحن مجانين الكلمة نكتب في أي مكان وحتى ونحن نحتضر.

سأجد وسيلة لأكتب وسأتقن قتلك في روايتي الجديدة. سأقتلك تحت أكثر من اسم وفي أكثر من مشهد ولكن بعد أن تنام.. بعد أن تنام.. سأغني لك الآن داخل دهاليز روحك لتنام..

سأهدهدك حتى تنام.. ومن داخل نومك سأقتلك بلا دم ولا اختناق.. ستتحجر بين سطوري وتبقى، كما الجثث التي غطاها بركان فيزوف بسائله الناري

وبغباره الحي الملتهب.. يجب أن تنام أولاً لكي لا يوقظك التخاطر لحظة هياج روحي وقرع طبولها حين أبدأ الكتابة.. ها أنا أسمع صوت شخيرك. وداعاً يا منير.
وصارت ماريا تكتب داخل رأسها ما يحلو لها أن تكتبه بلا رقابة ولا قمع من منير، وشيئاً فشيئاً تسلل الضوء وتلاشى القبو ووجدت نفسها جالسة خلف طاولة الكتابة، منهكة حتى الإعياء كمن عاد من غيبوبة وهي تكاد تختنق. فهرولت نحو الشرفة وتركت مطر بيروت الدامع العنيف يغسل وجهها وشعرها، وشعرت بشيء يخنق أنفاسها حول عنقها وأدهشها أن وجدت منديلاً أسود صغيراً هو الذي كان منير قد عصب به عينيها ثم كاد يخنقها به!

من أين جاء هذا المنديل الصغير الأسود حول عنقها وهي تكتب؟ قالت لنفسها: لا. لم يعد ثمة ما يدهشني فأنا كثيرة النسيان. لقد ربطته على الأرجح حول عنقي كي لا أصاب بالزكام! ولكنها أيضاً كانت واثقة من أنها لم تر هذا المنديل الأسود قبل تلك الليلة!!

* * *

حاول فواز مداعبة قطة الحديقة فانطلقت هاربة منه وهي تموء بهياج. **لم يعد ثمة شك في الأمر: البيت يناصبني العداء كأنه بيت حي، برأس من قرميد وأحشاء من حجر ورئة من نوافذ مفتوحة للريح.. وحنجرة من صرير الأبواب وطقطقة الخشب العتيق في الليل تحت قضمات أنياب السوس أو الأرواح المعذبة.. ثمة أرواح تقطن هذا البيت أو روح غاضبة معذّبة. لم يعد بوسعي أن أعزو كل ما يحدث لي هنا للصدفة.**

الطائر الذي هاجمني لحظة وصولي إلى البيت وجرحني في جبيني، ألم يكن طائراً قادماً من العالم الآخر لتأنيبي؟ النمل الذي خرج من شقوق البيت وتسلل إلى سريري وعقص أصابع قدمي وأنا نائم كان حقيقة ولكن من دفعه للقيام بذلك؟ ولماذا قدماي بالذات؟ لربما كانت رائحة معينة بقيت عالقة بجلدي من جوربي الجديد جذبت النمل. هذا ما يقوله المنطق. أما قلبي فيقول: ربما كان البيت يعبِّر عن غضبه لأنني سأبيعه. وماذا عن قطة الحديقة؟ ولماذا تعاديني تلك القطة كلما حاولت مداعبتها وتنفث أنفاساً غاضبة في وجهي كأفعى وتخمشني بشراسة كأن روحاً ناقمة تقمصتها وتسيل وداعة حين تداعبها عمتي؟

لو نقلت جثمان والدك إلى بيروت ودفنته في القبر الذي أعده لنفسه لخرجت بيروت كلها لوداعه. كان أعداؤه يحترمونه كأصدقائه. هكذا قالت لفواز عمته، وأضافت:

كان والدك رجلاً نظيفاً عفيف الكف في زمن السرقات، أنفق من ماله على أفكاره ومبادئه ولم يفعل العكس كبعض مناضلي آخر زمان! أحبه ليس لمجرد أنه كان أخي بل لأنه كان أيضاً إنساناً نظيفاً.

حين أزوركم في باريس سأزور قبره هناك رحمه الله!

فواز لم يجرؤ على أن يقول لعمته أن والده بلا قبر! وأنه سيبيع بيت طفولتها وطفولة أخيها.. وطفولته أيضاً.

في الصباح الباكر أرسلت ماريا للصحف إعلاناً مدفوعاً للنشر في صفحة الوفيات هو نعوة لرحيل «منير نجيب» عن كوكبنا.

بعدها، استقلت سيارة تاكسي وأرشدته إلى الدرب إياها حيث كان قصر منير نجيب الذي اصطحبها إليه ذات مرة، واختطفها إلى قبوه في المرة الثانية..

أدهشها أن القصر اختفى تماماً من موضعه، أم تراها ضاعت عنه؟

وهي تحجز بطاقة العودة إلى باريس بعد انتهاء إجازتها أدركت أنها لن تدري أبداً هل ضلّت عن فيللا منير أم أن ممحاة ما مسحتها عن ورقة التراب حين أعدمت ماريا صاحبها في سطورها، ونوت قتله مرات تحت أسماء أخرى في روايتها الجديدة!

* * *

ـ ألو ماريا... أين اختفيتِ؟

ـ كنت يا مايا مشغولة مع أشباحي وموتاي..

ـ لماذا رفضت الظهور على شاشة التلفزيون في عدة برامج كما قالت لي «العصفورة»؟

ـ لأنني كما قلت لك غارقة في كتابة رواية جديدة... أعايش أشباحي وموتاي وأبطال قصصي.

ـ سعدت بلقائك يا ماريا أول وصولك بجلستنا على شاطىء البحر في شرفة فندق «بيه ڤيو»، والآن ما رأيك بأن نلتقي غداً في مقهى «سيتي كافيه»؟ كثيرون من جلساء المكان يحبون لقاءك..

ـ وأنا أيضاً يا مايا لكنني غداً سأكون معلقة بين السماء والأرض في الطائرة.. سأعود إلى باريس فقد انتهت إجازتي..

ـ ظننت أنك عدت نهائياً..

ـ وأنا أيضاً ظننتُ ذلك!

ـ سيفوتك المهرجان الخطابي الكبير الحماسي...

قاطعتها ماريا: شعب من المتسولين لا يستطيع مساعدة الآخرين.. عنـ

ترتيب شؤون بيتنا قبل بيوت الجيران..

سألتها مايا متحدية: هل لديك الجرأة لحضور المهرجان وقول ذلك؟

ـ لا ولذا سأسافر. صار إبداء الرأي المخالفُ معادلاً للخيانة. لقد بدأ الناس ينسون شهوة الحوار والمعنى الحقيقي للحرية.. كل واحد يريد حريته وحده للوصول إلى الحكم، ليتم نحر حرية الآخرين فيما بعد..

قالت: تتحدثين كامرأة غربية بكل حرية..

أجابت ماريا: لم أصبح بعد غربية لكنني أيضاً لم أعد شرقية!

قالت مايا ضاحكة: كفى ثرثرة على الهاتف فللأسلاك آذان.. ربما كان من الأفضل أن ترحلي. من الأفضل لي على الأقل!

وضحكتا بحزن...

* * *

مرت ماريا بمرسم سعيد لوداعه والتاكسي في انتظارها في دربها إلى المطار.

شاهدت عشرات اللوحات التي لما يجف الطلاء عن بعضها وكلها يمثل مشهد قتل، وللقتيل دائماً وجه قاتل، أما القاتل فيبدو في اللوحات مغلوباً على أمره معذباً، كأنه القتيل المحتضر.

قالت ماريا بإعجاب وهي تقبِّل سعيد على خده بحرارة أكبر مما تسمح به «القبلة الفرنسية الأخوية» المألوفة: ثمة ضوء أسود ينبعث من أعمالك الأخيرة.. الوجوه عندك مرسومة «بالإكس راي»، والحزن عبر أشعتك السينية الإبداعية هيكل عظمي لكائن ثالث في اللوحة استطعت إلقاء القبض عليه. ثمة شيء ثمين في أعمالك الأخيرة، شيء غامض كلؤلؤة داكنة استطعت إلقاء القبض عليها في لحظة ولادتها واحتضارها المستحيل: لحظة شبيهة بما يمر به الوطن. أنت فنان كبير يا سعيد طحنتكِ الحرب وصقلك الزمن والألم وصار لكوابيسك ثقل عضوي وحضور مادي... لقد اكتشفتَ الموت المطلق ونجحت أخيراً في الاختفاء الكامل خلف عملك الفني كما لو أنك تحررت من تاريخك الشخصي وخطوت في أرض الفن التي تعزل الألم الذاتي لتصب في بحر الأحزان الإنساني..

ثمل بمديحها، وتوقع أن يكون ذلك كله تمهيداً لقرار البقاء في بيروت كما كان قد توسل إليها أن تفعل، لكنها قبّلته ثانية على خده قبلة خاطفة وقالت: وداعاً.. واختفت كرؤيا...

* * *

في نوبة جنون أنجز سعيد رسم دزينة من اللوحات مثل مكبوت مراهق ينزف تدفقه بلا حساب. صار يرسم ليل نهار كمريض في مصح يعالج نفسه بالرسم.

ليلة افتتاح معرضه الخاص في بيته والذي لم يرسل له بطاقات دعوة بل قام بتوجيه دعوة هاتفية إلى نخبة صغيرة من الذواقة والنقاد قبل أن ينتقل به إلى ردهة فندق ما وبعد صمت دام ربع قرن (بمفهومه هو ومفهوم ماريا). . لم يدهشه أن ماريا رحلت حقاً ولم تأت، كما لم يدهشه أن ترسل له في تلك الليلة بالذات بطاقة مع باقة ورد أبيض تقول فيها: ستنجح نجاحاً باهراً في معرضك ولن تكون بحاجة إليَّ بل إلى نوم عميق طويل بعد ربع قرن من الأرق.

وصح ما توقعته ماريا! . . وتدفق عليه ثناء حلقة النقاد الذواقة وأصدقاء الفن من النخبة اللامتملقة. ونام سعيد ليلة واحدة كاملة بلا كوابيس! وحين استيقظ صباح اليوم التالي وطالع الصحف أفرحته مقالة نقدية عن معرضه تمتدحه بعمق واع. شاهد أيضاً صورة مقتول لعله يستحق عقابه وجرذ يتدلى من صدره معلقاً بخيط في عنقه وقال لنفسه: ها قد عدت إلى الرسم. . وها هم جميعاً يعملون الآن بالنيابة عني في القتل. .

ومنذ عودته إلى الرسم توقفت كوابيسه عن فعل القتل، وفي الليلة التالية لافتتاح معرضه حلم سعيد بأنه القتيل وليس القاتل. . وثمة رجل له وجهه آت لقتله. . يُلاحظ أن الوجه مجرد قناع. حين ينتزع القناع عن وجه خانقه، يذهله أن له وجهه هو أيضاً. . كالقناع. . . فنهض من سريره ليرسم وقد أدرك أنه محكوم بعدم التوقف!

لا نجاة حتى بالرسم والمعرض الناجح والجميلات الصغيرات وبرقية ماريا. .

لا نجاة لي من جحيمي الداخلي وشياطيني وربما لذلك صرت أرسم بصورة أفضل. .

كانت ماريا تعرف ذلك وإلا لما رحلت إلى أبجديتها وجنونها وتركتني لحبي الوحيد: الفن. .

ويبدو أن تلك المجنونة السرية مثلي جربت الآلام كلها. . . وتعرف أنه ليس بوسع أحد أن يلعب دور طوق النجاة لآخر، لفنان مجنون، وكل ما سيحدث هو أنه سيغرق معه في نهر الجنون والكوابيس. . ولكل غرقه ونهره وكوابيسه وأطواق نجاته وملاجئه التي يخترعها. . .

يدور فواز في البيت كمن يتفقد أشباحه ويعتذر من الأرواح المقيمة فيه ويستأنس بها ريثما يصل عفيف وزبونه!

منذ اليوم الذي استفسر فيه عفيف من فواز هل باع البيت أم لا ليستدين منه، صار هاجس عفيف إيجاد الشاري ليحظى بالعمولة (السمسرة) إلى جانب مبلغ كبير كدَيْن وعد به نفسه إثر الوليمة الفخمة التي أقامها في بيته على شرف فواز وضجت بأخبار بذخها الصحف. فواز لم يعد يدري هل يقول نعم أم لا. على غير عادته، يقول نعم ولا مرتين في اليوم، ويدهشه أنه فقد صفاءه الذهني. ثمة أمه من جانب تتصل للسؤال بلهفة عن «الشيك» أي ثمن البيت لترتاح قليلاً بعد عمر قضته في الكدح لكي يتفرغ زوجها لنضاله ثم ليأسه وأحزانه. وهنالك من جهة أخرى البيت «الحي» الرافض محاولات بيعه لهدمه. وهنالك جيش من المافيات والسماسرة الذين يلهثون وراءه. وهناك شبح والده الذي يقطن جدار صور بيروت العتيقة أو النخلة أو الدهليز المعتم أو على الأرجح في أشجار الصنوبر الباسقة التي سبق أن زرعها بيديه. وفواز لم يعد يدري شيئاً إلا أنه في لحظة ضعف وافق على استقبال عفيف والشاري، وضرب لهما موعداً عند المساء.. وأنه نادم، أو بالأحرى حائر..

كان عفيف مستثاراً حين أبلغ فواز أن الشاري مستعد لدفع مبلغ كبير جداً ثمناً للبيت وحدائقه لأنه يريد تشييد فندق فاخر في موضعه يغطي الحديقة أيضاً وملعب التنس الغابر الذي صار مكبـاً للقمامة (أي أن عمولته ستكون مرتفعة جداً هو أيضاً!).

بانتظارهما، علق على الجدار (إلى جانب صور بيروت القديمة التي أضافها والده) لوحة رسمها لسميرة. بينما هو يغرس المسمار في الجدار قال لنفسه: لا تعلق لوحة على جدار الغربة ولا على جدار سينهار. وتذكر أن والده قال ذلك لأمه يوم علقت أول لوحة على جدار البيت الباريسي.

لم يكن واثقاً حتى تلك اللحظة من رغبته الداخلية في بيع البيت. لم يعد واثقاً من أي شيء منذ لحظة وصوله إلى بيروت. لكنه بتعليق لوحة سميرة شعر أنه دمغ البيت وصار بمعنى ما مكاناً أكثر حميمية وخصوصية له. خيل إليه أنه يسمع جرس

الباب يرن. قبل أن يفتحه دخل عبره عدة رجال يبدون حاشية أمنية لرجل خطير. أذهله كيف اخترقوا الباب كما لو كانوا أشباحاً. ثم دخل عفيف عبر الباب يرافقه شخص يبدو مهماً يرتدي ثياب ساحر في مقهى ليلي وخلفه حارسه الشخصي في ثياب «السوبرمان» وآخر في ثياب «الباتمان». لفواز قال الرجل بلهجة لا تنم عن هوية بل تنطق بعربية مهجنة: أنا سعيد بامتلاك روحك.. أعني بيتك. أرجو المعذرة.

أراد فواز أن يصرخ: لقد تراجعت عن بيع البيت. أريد أن أعيد النظر في الأمر. لكن ساحر ملاهي «لاس فيغاس» حرك عصاه السحرية فاختفى البيت، وحركها ثانية فاحترق نخيل الحديقة وصنوبرها وانطمرت «البركة» والبئر، وحركها ثالثة فتم تشييد مبنى هائل الضخامة في ومضة عين ووجد فواز نفسه في ردهة الفندق الفاره بجدرانه وأرضه المرمرية وقاعة استقباله (اللوبي) الشاسعة التي تغطي مكان البيت والحديقة.. بديكورات بديعة ولم يبق من بيته العتيق شيء غير السجادة، التي كان فواز واقفاً فوقها. انتصبت ديكورات أنيقة لا تشي بأصلها، ديكورات بلا وطن ولا شخصية وبركة ماء ذهبية القاع والأطراف تتوسط المكان فوقها مصطبة يرقى المرء إليها بعدة درجات وتحت كل درجة ضوء (سبوت لايت) ذهبي وفوق المصطبة بيانو والده الذي وُضع هذه المرة فوق منصة حجرية تشبه المذبح العصري لوثني.

شاهد فواز بدهشة طفلاً يرتدي ثياباً لبنانية تقليدية ويسيل الدمع من عينيه يرتقي درجات السلم ليعزف لشوبان ولا أحد يسمعه أو ينصت إليه وميز فواز فيه بذهول والده طفلاً كما كان في الصورة، وصوت البيانو حشرجة محتضر. والناس يتقاطرون من الأبواب كلها وتفوح روائح العطور والسيجار والشمبانيا وتصدح القهقهات وتتمايل جميلات كثات الشعر. لاحظ فواز بهلع أنهن يرتدين الأقنعة فوق جماجمهن المُصْفَرّة كما يرتدين الثياب عارية الأكتاف فوق هياكلهن العظمية وينفخن دخان سجائرهن في وجهه، وقد تحوّل إلى رجل شبه لامرئي «شرّابة خِرَج» وهو صاحب البيت الأصلي والأرض والبئر والصنوبر والنخل وأشباح أبي وأجدادي الموتى. وحاول أن يصرخ ولا صوت له.. ودخل المزيد من المدعوين ووعى فواز أن الجميع هياكل عظمية لموتى وجوههم أقنعة، على الجماجم. تدفق الموتى على السهرة التنكرية.. هجموا من النوافذ عبر الزجاج محكم الإغلاق والأبواب العاجية والفضية المقابض. في الدقائق الأولى لم يدر أهم أحياء أم أنهم يرتدون أقنعةً أطرافُ الجماجم جزء منها وثيابهم رسمت عليها هياكل عظمية. ثم تبين أنهم

أموات جاؤوا إلى السهرة التنكرية وعلى وجوههم أقنعة. ولا يدري كيف أيقن أن أقنعتهم نسخة عن وجوههم الحقيقية التي كانت لهم حين كانوا أحياء. تساءل هل هو ميت أيضاً مثلهم ويتوهم نفسه حياً؟ صاروا يدبكون على سجادة جده ولاحظ للمرة الأولى أنه حيك في نسيجها صور الأزمنة وهياكل عظمية لأجداده وجماجمهم. . وتحلّق الموتى في ثيابهم التنكرية «يدبكون» فوقها وهي تتحول شيئاً فشيئاً إلى غبار وتتلاشى.

حزن فواز وهو يراها غباراً ومعها تلاشى آخر خيط يربط البيت العتيق بالمكان الجديد، وفوق ذلك كله لاحظ أن عفيف كان يرتدي قناع خنزير لا يشبع وهكذا تأكد فواز من أن الأقنعة على وجوه الموتى ليست أقنعة بل هي وجوههم الحقيقية التي تخلّوا عنها خلال حياتهم، كما لاحظ أن العديد من الأحياء الموتى اندسوا في الحفل التنكري وعلى رأسهم عفيف بالذات. . أذهله ذلك الحفل التنكري لموتى يتوهمهم الجميع أحياء ولكنهم يتابعون حياتهم الميتة ويشيدون القصور والفنادق. ودخل وفد الجرذان الضخمة الأكثر ضخامة من الرجال وكان الأكثر أناقة، ولحق به وفد الببغاوات وهم يرددون ما قالوه في الإذاعات من زمان ويتثاءبون بين جملة وأخرى. ثم دخل وفد المجانين في ثياب الشعراء والحكماء وقد تم تطويبهم عباقرة وثمة من يوزع عليهم الجوائز في الركن الجنوبي من القاعة الشاسعة. وجاءت راقصات من البلاد السلافيّة وبهلوانات من الصين ورجال أعمال من اليابان. ووسط هذيان موزاييك الجنون هذا ونسيجه الحي من الموتى، تتابعت الوفود والمواكب. وفد المرضى وقد تدلى شريط المصل من هياكلهم العظمية وهم يجرّون كيس المصل وحاملته المعدنية. وفد آخر من المجانين يحمل لافتات: العقل زينة لا أكثر! وفد العاملات المنزليات المغتربات من فيليبينيات وسيريلانكيات وحبشيات وسواهن وهن يمسكن بأيدي أولاد لبنانيين يتكلمون بلغات المربيات. وفد من الملتحين يتبعه وفد نساء مغطيات بالسواد يهتفن للذكور: شبيك لبيك عبدتك بين يديك. موكب من رجال مهمين كل واحد يحمل كرسيه الفخم معه خوفاً من استيلاء آخر عليه. وفد من رجال الميليشيات وقد خلعوا السموكن و«الفراك» وعادوا بأزياء حربية مرقطة على هياكلهم العظمية، ووجوههم الحقيقية جماجم! وهكذا غطوا جماجمهم بأقنعة جماجم. وفد النسويات وهن يهتفن: حب الرجال ماء في غربال ونحن نحب الماء أينما كان. وفد من تجار الأسلحة والمخدرات ومتعهدي دفن النفايات في الأراضي اللبنانية. وفد بيع الأعضاء البشرية. وفد البهلوانات وحواة الأفاعي الذين اندسوا بين القضاة والمحامين كما اندس نافخو النار من أفواههم في

وفد الإعلاميين. جاء وفد الضحايا وعلى رأسهم فادي الذي ميزه فواز بذهول وهو يهتف بالبومة شعاراً للبنان بدلاً من الأرزة على سبيل الدعابة والشعر. لكن أحداً لم يكن في مزاج دعابة فقد هاجمه وفد حفاري القبور مطالباً بالجمجمة شعاراً للعلم، وهاجم الاثنين وفد مطالباً بالنجمة السداسية شعاراً، وصرخ وفد آخر مطالباً بالجمل شعاراً، ونادى آخرون بالهلال.. وصرخ فواز مطالباً بأن يظل الشعار كما ألفه وكبر عليه والده الأرزة وفوجىء بأن لا صوت له، على النقيض من وفد طالب بالدولار شعاراً ثم وقف الجميع احتراماً لوفد بيع الأطفال اللبنانيين خارج لبنان للتبني وبيع النساء الجميلات بالمزاد، وجاء وفد سيدات المجتمع مع كلابهن «الكانيش» المرفهة.

وسط موزاييك الجنون هذا مُدّت الموائد وفي الطبق الرئيسي الذي يتوسطها شاهد فواز بهلع صحناً له شكل خارطة لبنان لكنه من الذهب المزخرف بالفضة، مدّدوا سميرة فوقه بكل جمالها عارية بكثير من النعناع في أنفها والبقدونس في فمها والفجل على سرتها وموضع أنوثتها والخس المفروم تحتها وكانت بعينين مغمضتين ذبيحة السهرة التنكرية للموتى.. أحزن فواز أن يرى فؤاد لامرئياً مثله وعاجزاً عن مساعدته على رأس وفد من الأحياء/الأموات اللامرئيين كأصدقاء آخرين وأقارب وثق بنزاهتهم وكانوا مثله لامرئيين في الحفل، إذ حاول أن يحمل سميرة بعيداً عن الطبق الذهبي يساعده فؤاد وسعيد وسواهما لكنه اكتشف أنه صار مثلهم لامرئياً وبلا كثافة جسدية وله اسم ولكنه «لا يقدم ولا يؤخر». حملة الكراسي جلسوا حول المائدة فوق كراسيهم وانضم إليهم وفد الهياكل العظمية لزعماء الميليشيات السابقة والحاضرة والعديد من الوجهاء كعفيف وسماسرة آخرين، وتصدر المائدة الساحر الذي يرتدي ملابس مسرحية كأنه وصل لتوه من ملاهي «لاس فيغاس». ولم تجلس سيدة على المائدة الرئيسية باعتبار أن الرجال يمثلوهن وهن يمثلن تحرر المرأة، ودب الشجار فجأة مَنْ الذي يمدّ سكينه أولاً لقص الحصة الأكبر من سميرة والطبق الذهبي بشكل خارطة لبنان. وبدأت محاولات لتهدئة الخواطر وسمع فواز ثرثرة بالميكروفونات حول «التعايش» وكل واحد منهم شهر رشاشه على الآخر ولا يدري فواز من الذي أطلق النار أولاً، ولكن شبت حرب الهياكل العظمية وصار الأموات والأحياء/الأموات يطلقون الرصاص على بعضهم بعضاً وعلى حلفاء الأمس قبل أعداء اليوم.

وكاد فواز ينتحب حين لاحظ أن الصبي الجميل والده كان ما يزال يعزف لشوبان على البيانو كأنه يحتمي بالموسيقى من هذا الجنون ويلف نفسه بشرنقة من

العذوبة هرباً من ذلك المزاد العلني للقرف.

حين شبت حرب الهياكل العظمية انشقت الأرض وزلزلت وأخرجت من جوفها آلاف الموتى يطلقون النار على غير هدى وخلفهم مواكب نساء ينتحبن... شاهد فواز الأزهار آكلة اللحم تنمو في الشوارع متوحشة همجية تلتهم الناس عن الشرفات والنوافذ وتمتد إلى البيوت وتأكل الآمنين في أسرّتهم، وانطلقت القردة في الشوارع تنهب البيوت وتلعب بحلي النساء وعيونهن وصارت السماء تُمطر أسماكاً ميتة متعفنة وجرذاناً، ونبتت في الدروب أشجار شيطانية وغابات همجية برائحة كريهة وخرجت من باطن الأرض حيوانات أسطورية وركضت التنينات وهي تنفث النيران صوب المكتبات لإحراق ما لم تأكله الجرذان العملاقة من كتب وصار الدمار يلاحق كل حرف مطبوع وصارت الديناصورات تقضم المطابع وآلاتها و«كومبيوتراتها» والجالسين خلفها... ودوى صوت: مجدداً نحن معكم، طريق الشياح عين الرمانة غير سالكة ولا آمنة.. مجدداً نحن معكم.. مجدداً نحن معكم...

شعر فواز أنه يختنق وسيُصاب بذبحة قلبية إذا لم ينفجر رأسه قبل ذلك. وصرخ من أعماق روحه: كفى. لن أبيع البيت! وهذا كل شيء.

وفجأة اختفى الجميع. اختفى الموتى بأقنعتهم الحقيقية والسرية. اختفى الشاري والسمسار. اختفت القردة والفئران والصراصير والديدان. اختفت الصبايا الجميلات الشابات المضيفات اللواتي خرجن من شرنقة في عتمة ملجأ. اختفى الشبان الوسيمون الذين يتكلمون الإنكليزية بلكنة «ميكي ماوس» و«باربي» ويبيعونه كل شيء وهم يلتهمون الأطعمة السريعة الجاهزة بدءاً بالقصور العتيقة ومروراً بتأشيرات الهجرة ونساء المرافىء نصف العاريات نصف الجائعات للرفاهية وانتهاء بالأكياس الواقية من الإيدز وبعض حسناوات صالونات التدليك..

* * *

امتلأ فواز بالهلع وأخذ يسأل بلا صوت: أيها الموتى، لماذا لا تموتون؟

ـ لأن الأحياء ما زالوا يتقمصوننا..

ـ لماذا تتنكرون أيها الموتى؟

ـ لأننا خجلون مما فعلناه.

ـ لماذا تتنكرون أيها الموتى؟

ـ لأننا نخجل مما تركناهم يفعلونه بنا.

ـ لماذا تتنكرون أيها الموتى؟

ـ لأننا لم نتمكن من إنجاز خطايانا على أكمل وجه.

ـ لماذا تتنكرون أيها الموتى؟

ـ لأننا كنا حمقى ومتنا هدراً. لأننا كنا أبرياء وفشلنا في فن الاستشهاد..

ـ أيها الموتى، أيها الموتى، كيف حدث ذلك كله؟

ـ كنا نقاتل دفاعاً عن الأسماك فالتهمتنا الأسماك نفسها ثم جاءت أسماك القرش والتهمت الجميع..

ـ أيها الموتى، أيها الموتى، لماذا لا تموتون؟

ـ لأن أحداً لم يدفننا بعد. إنهم يرفعوننا كبيارق وينطقون بجماجمنا ليتابعوا حروبهم..

ـ أيها الموتى، أيها الموتى، ألم تنته الحرب؟

قهقه الموتى طويلاً وعربدوا فوق الهياكل العظمية لبعضهم بعضاً..

* * *

ليلة رحيله لم يجرؤ فواز على وداع سميرة. خاف أن يضعف أمام عينيها وحتى صوتها. لم يجرؤ على وداع عمته. خاف أن تأتي والقبيلة كلها لوداعه كما حضروا لاستقباله ليلة وصوله وينفجر باكياً. لم يجرؤ على وداع سعيد. خاف أن يقبل عرضه بالإقامة معه والتفرغ للرسم. لم يجرؤ على وداع صديقه النقي فؤاد. خاف أن ينهار انتحاباً على كتفه. لم يجرؤ على وداع دانا وسليمى ووليد. خاف من مرافقتهم له إلى باريس في الطائرة وهو يريد الانفراد بنفسه. لم يجرؤ على الاتصال بسامية اللطيفة مديرة مدرسته حين كان طفلاً التي طالما تعاطفت مع مشاكل والديه وهجراتهم العديدة التي كانت حياة والده السياسية الوطنية سبباً لها. خاف أن تسأله كيف مات والده وأين دفنوه. لم يودع عفيف الذي سمع أنه ألقي القبض عليه بتهمة إساءة الأمانة واغتصاب أموال الناس والإفلاس الاحتيالي. لم يودع البيت العتيق فله معه موعد قريب في الربيع يعيد فيه رماد والده ليرشه حول جذوع أشجار الصنوبر التي سبق أن زرعها ويسقيها بدمع العين والماء الملوث من الصنابير المحلية! ليلة رحيله هرب إلى المطار باكراً.

جلس في قاعة الانتظار في المطار وأغمض عينيه وبدا لجاره في المقعد عازفاً عن الكلام مزمعاً على النوم حتى في المطار وربما طوال الطريق إلى باريس، ولم يُلاحظ أن فواز كان في تلك اللحظة قنفذاً عارياً انتصبت أشواكه في ليل الحزن وقد

أغمض عينيه متظاهراً بالنوم دفعاً لأي حوار ومجاملات ثرثارة. كان عليَّ أن أكون الآن معها. تغمرني برائحة الصنوبر والأرز وزهر الليمون تهب من شعرها. وفي لهاثها أنصت إلى صوت البحر الغامض وهو يلثم شواطىء طرابلس وجبيل وجونيه وصيدا وصور وبيروت كلما قبّلت عنقها وكل مكان اصطحبتني إليه لأتعارف مع وطني، وأسمع في تنفسها حكايات معتقة تهب من الجنوب وزغرتا وكسروان والهرمل وبعلبك ومن كل مكان في لبنان. كان عليَّ أن أكون ماثلاً الآن في حضرة عينيها لنبدأ معاً عاماً جديداً وعمراً جديداً. ربما كان ذلك ما سيفعله روميو مع جولييت التي لا أظن أنه تعلق بها تعلقي بسميرة. وكان ذلك ما فعله أبي وأمي منذ عقود حين تزوجا رغم فارق الدين بينهما ورغم كل شيء واستمر زواجهما تعيساً تارة وسعيداً أخرى لكنه استمر. . لم يكن بوسعي توريط سميرة برجل مثلي كان إلى ما قبل أسابيع يعرف بالضبط ما يريده في الحياة وهو ببساطة بيع أملاك والده والعودة بثمنها إلى وطنه الجديد فرنسا ليعيش هناك حياة كريمة كأي فرنسي مستعد للعمل الشاق برأس مال جيد في بيت واسع يريح أمه ويتيح لها التقاعد، وللاستمتاع بمباهج الحياة الباريسية. ولكن تلك الزيارة «العابرة» إلى بيروت زلزلت حياتي وقناعاتي وزرعت إشارات الأسئلة داخل دورتي الدموية وعلى مفارق أعصابي، وصرت بحاجة ماسة إلى أن أكون وحيداً وبعيداً أعيد ترتيب غابات روحي بعدما اقتلعت أشجارها عواصف وزرعت فيها الأقمار أشجاراً جديدة.

أنا عقلاني و«كارتيزيان» لا أستطيع اتخاذ قرارات مصيرية بصورة عشوائية. لو رضيت سميرة بالهجرة والمجيء معي إلى باريس لظل هيكل حياتي الأليفة قائماً ولأضاءته هي من الداخل مثل نجمة داخل مصباح شفاف يصير ثميناً بحضورها. لكنها رفضت كأنها بيروت متنكرة في هيئة امرأة مصرّة على أن حياتها في لبنان ولن تغادره، ولن تفعل مثل الذين غادروا أوطانهم وخسروها، ولن تفعل مثل جدّ صديقتها الفلسطيني الذي روت لي أنه «يثمل» كل ليلة مستنداً إلى جدار علّق عليه مفتاحاً صدئاً كان مرة براقاً هو مفتاح بيته في حيفا الذي طرده منه الإسرائيليون وصار يقع في «إسرائيل المزعومة» كما كان أبي يدعوها تارة، وفلسطين المحتلة تارة أخرى. شابة من نمط جديد لا تلحق برجلها حتى آخر الدنيا والزلزال كما فعلت أمي ذات يوم بمرارة وربما على مضض. سميرة تلحق بقناعاتها حتى حين تحب. إنها صبية من غير النمط الذي كانت ترسمه لي أمي كلما أغرتني بالزواج من لبنانية. لو رافقتني أمي إلى بيروت لتعرّفت على نمط جديد من الصبايا يختلف عنها وعن اللواتي تحلم بزواجي منهن، نموذج لعله لن يروق لها لكنه يروق لي حين يكون مثل

سميرة لا مثل رولا التي سلبتها «العولمة» حتى لون عينيها!!

حاول فواز أن يسترخي في مقعده في قاعة الانتظار وأفكاره عاصفة تكاد تقتلعه منه.

كان بوسعه أن يكذب على سميرة ويجزل لها الوعود ويقنعها بالزواج وبمرافقته موقتاً إلى باريس ثم يصير الموقت دائماً وتنشغل على الأرجح عن وطنياتها بتربية أطفالها وبمباهج باريس، وبشرب الشاي بفناجين الفضة بعد الظهر في صالون فندق «بلازا أتينيه» مع سيدات الطبقة اللبنانية الراقية «المتبرنسة» كما كان يدعوهن والده نسبة إلى باريس وبتناول «درينك» في بار فندق «الريتز» والغداء في مطعم «تور دارجان» وأمثاله وطعام الفطور في مقاهي «ليب» أو «فلور» أو «ليه دو ماغو» في «سان جرمان دوبريه» الحي اللاتيني. وبين الحلاق والمدلك واختصاصية الماكياج ودور الأزياء الراقية والسهرات الباريسية ستغرق وتنسى.. ولكنه يعرف أن سميرة ترفض أن تكون كذلك كما ترفض أن تعمل إلا في بلدها.

ولعله لذلك يحبها ويكرهها في آن، فهي تزيد أموره مع بيروت تعقيداً. إلى ما قبل هذه الزيارة كان يظن أنه كأمه طوى تلك الصفحة البيروتية منذ زمان وصارت ماضياً غابراً لا يعني إلا لحظات حنين إلى الكبّة والتبولة وأماكن لا يعرف عنها شيئاً تحدثه أمه عنها كلما عادت باكية من سهرة باريسية تنشد فيها فيروز أو تدبك فيها فرقة كراكلا. كانت أمه تشتاق إلى بيروت للانتشاء بالنوستالجيا، وتحبها حباً كبيراً مع وقف التنفيذ. لكن ذلك البيت المسكون بالأرواح يكاد يقلب حياته.

بعد دقائق تقلع به الطائرة وقد يأتيه من يوقظه من خواطره كصوت الكابتن وهو يتمنى للركاب سنة جديدة سعيدة والمضيفة تدور بأكواب الشمبانيا على من يرغب.

ليلة سنة جديدة، للمرة الأولى سيقضيها معلقاً بين السماء والأرض على ارتفاع خمسة وثلاثين ألف قدم بل وعلى ارتفاع ثمانية وعشرين عاماً هي عمره والظلمة تحيط به من كل جانب والرياح تعبث به. بل ها هو جالس فوق جناح الطائرة من الخارج فوق غيمة وعلى عينيه تركض وجوه ووجوه، تعارف معها في بيروت أو جدد تعارفه معها: عمته الصلبة المغروسة في تربة لم تزعزعها منها القنابل والمتاريس والسرقات والقرصنات، صامدة في وجه البشاعات كلها. فؤاد النظيف الكادح. عفيف سيد النهب والاحتيال يحاول جره معه ليسقط في فضاء الخواء، ولعل خوفه من أمثال عفيف يزيده تمسكاً بباريس الصلبة الواضحة حيث القانون فوق الجميع حقاً. يرى خليل الدرع صديق والده مقعداً في كرسيه الحديدي بوجهه

المهدم وهو يردد له: كان على والدك المسكين أن يختار بين القبر وحقيبة السفر، ولذا هاجر إلى باريس ولم يجرؤ على العودة إلا حينما عرف أنه مات وانتهى. ولكنه بقي حياً في أشجار غابة الأرز المصغرة التي زرعها حول البيت الصيفي في الجبل وأشجار الصنوبر التي أحاط بها بيته في بيروت.

وجه والده الذي عاش معه طوال عمره ولم يتعارف وإياه، واليوم يأكله الندم والحس بالذنب نحوه.

وجه مصلِّح الكهرباء الذي أحضر له هدية من حقله في قريته «تنكة زيت» لأنه كان وهو بعد مراهقٌ عضواً في الحلقة الوطنية لوالده فايز وما زال يذكر بإلحاح أن والده هو أحد القلائل الذين أنفقوا على معتقدهم من مالهم ناهيك عن عمرهم ولم يكن من عصبة المنتفعين أمثال ذلك «المليونير الأحمر» الذي مات في ظروف غامضة قبل أيام.

وجه الجارة العجوز التي أحضرت له وردة شتائية بيضاء يتيمة أدهشتها أنها أزهرت وقالت له إنها نبتت فرحاً بحضوره وحملت معها صحناً من الحلوى أعدته بيديها وادعت أنه كان يعشقها حين كان طفلاً وذكّره طعمهابأيام غابرة نصف منسية.

وجه السنكري الذي أعاد إليه عشرة آلاف ليرة لأنه أخطأ في تحويل الدولارات التي تقاضاها منه إلى العملة المحلية الليرة.. وقبل تلك الوجوه كلها، وجوه الشبان التي هرمت قبل الأوان وهي مصطفة بحزن في الطابور الطويل تحت المطر أمام أبواب القنصليات لتتسول تأشيرة الهرب إلى الفرج ولا تدري أن كوابيس الغربة تتربص بها قبل كوابيس الوطن. طوابير أمام القنصليات حرصت سميرة على أن تدور به أمامها بسيارتها مرات وحرصت على إطلاعه على مناطق الكرنتينا والضاحية والمخيمات وغيرها من إمبراطوريات الفقر قبل اصطحابه للسهر في الروشة أو الحمرا أو في شارع مونو أو جونيه.

وجه محمد علي العائد من الهجرة بعدما خاب أمله في المهجر وباع كل شيء ورجع إلى الوطن، ووجهه ثانية وهو يودع رفاق المقهى بعدما باع كل شيء ثانية ولكن في الوطن وقرر العودة إلى المنفى إلى الأبد بعدما شعر أنه منفي في وطنه.

وجه شفيق الذي رفض ابنه قضاء إجازة ثانية معه في لبنان وقال لوالده تعال أنت وزرني في بحيرة بوينافيستا في فلوريدا.

وجه وديع المقعد رفيق طفولته وأسير كرسيه المتحرك الحديدي الذي حملوه فيه إلى سهرة عفيف حملاً وكان قد أصيب في عموده الفقري برصاصة في تظاهرة من أجل الحرية في لبنان، تعمد صاحبها خلق الفتنة وكانت فيها نهاية عمر وديع

رغم تماسكه وتجلده الدامع وبحثه عن فرصة للعمل في وطن يدوس ضعفاءه ومعاقيه وينسى بسرعة من مات لأجله ويحتفي بسارقيه وزبانيته.

تطلب المضيفة الأرضية من فواز الصعود إلى الطائرة إثر النداء الثالث على الركاب ويهز برأسه وهو لا يراها. لم يعد يرى النساء الجميلات منذ عشقه الضاري لسميرة.. ولم يعد يعريهن بنظراته ويرسمهن.. ولم.. ولم.. ولم يعد يتذكر إلا يوم اتحد بسميرة للمرة الأولى حيث شعر بأنه يضاجع غمامة معلقة بين السماء والبحر، ويوم دافعت عنه وعن ماريا حين هاجمهما سارق بسكينه في قلب بيروت القديمة ليلاً وفوجىء بضربة من ساق سميرة جندلت السارق. وأخرى من يدها على عنقه اكتشف بعدها أنها واحدة من الصبايا اللبنانيات المقبلات على ارتياد نوادي الكاراتيه منذ صغرهن.. أحبها. ولكن ما قيمة حب في الزلزال أو بالمراسلة؟ **لست قانعاً بأنني أستطيع الحياة في بيروت الحالية الجميلة البشعة ولا في أية مدينة أخرى تراقب بريدي وهاتفي وتحصي عليّ أنفاسي وتحاصر عملي بالرشوة واللاقانون والخوات المباشرة وغير المباشرة والممارسات الميليشياوية بأقنعة مدنية، ولا أريد أن أخوض حرباً للتبديل كي لا أكرر مأساة أبي، ولا أريد ثورة بدم ولا بدون دم فقد تبين لأبي أن لا ثورة بلا دم، ولا أريد أن يعتقلني أحد بلا تهمة. أما سميرة، ففراقنا محال ولقاؤنا صعب لكن حبنا يستعصي على النسيان. لا أريد الحياة ولا الموت في أية مدينة تصادر حريتي بوسيلة أو بأخرى خلافاً للقانون بذرائع غير مقبولة، وحين يتم اعتقالي فيها ينفي الذي اعتقلني أنني «عنده» كما حدث لوالد فؤاد، ثم يجدون جثتي ويبكونني وينسون ثم يحالف ابن القتيل ابن القاتل. لا أريد الحياة في مدينة القانون فيها يطبّق فقط على الضعفاء بسوء نية ولأغراض كيدية كوسيلة للتهديد والابتزاز.. وثمة يقين واحد ورغبة واحدة تستولي كلية عليّ في هذه اللحظة وهي العودة برماد أبي من باريس لذرّه في جذوع الصنوبرات التي زرعها في بيروت والأرزات في البيت الصيفي الجبلي.. أما سميرة فهي حبيبتي هنا أو هناك كيفما كانت وأينما كانت..**

وأخيراً حلقت الطائرة بفواز في الدرب إلى باريس قبل منتصف ليلة سنة ٢٠٠٠ بقليل. قرب منتصف الليل دارت المضيفات بالكؤوس ولكل كأسه وخياره.

عاشقان أمامه اختارا أن يرحلا إلى شهر العسل تلك الليلة يسترقان قبلة ويعذبانه. يتذكر سميرة. لو كانت معه لبدأ حقاً ألفية جديدة. . وها هو الآن معلق بين السماء والأرض بين الماضي والحاضر، بين وطن ووطن، بين عصر وعصر.

تجرع كأسه مرة واحدة وكانت المضيفة بالمرصاد فملأته ثانية وتجرعه ثانية وثالثة وأغمض عينيه.

شاهد بوضوح في ضوء رمادي صفوفاً من الشبان على أبواب القنصليات التي حرصت سميرة على اقتياده إليها مرات ليرى الشبان بانتظار تأشيرة هجرة.

شاهدهم كالمتسولين حفاة في صف طويل يزنّر حدود الوطن من جهاته كلها، بل ويرسمون تلك الحدود. . وعى أنه هو أيضاً شاب مهاجر، بين السماء والأرض، بعيد عن حبيبته وبيته وجذوره، حائر كهاملت ومثقل الضمير مثله. حين غادر الطائرة ليجلس قليلاً على جناحها ويتنفس، شاهد أن للطائرة المحلقة في العتمة الدامسة شكل خارطة لبنان لا شكل طائرة. وأن الصفوف الطويلة للمهاجرين بحثاً عن سراب اللقمة مع الحرية لا تتدفق من لبنان وحده بل من ثقوب في الكرة الأرضية البرتقالية اللون السابحة في خواء رمادي وأن أسرابهم تزنر الكرة الأرضية كلها وتتدفق من أماكن كثيرة كالثقوب في جدران السجون.

لم ير تضاريس البلدان والمحيطات والقارات والحدود بين الدول، شاهد فقط صفوف الغرباء المهاجرين تزنّر تلك البرتقالة الراكضة في مدارات تمعن ظلمةً. .

أيقظته من هواجسه المضيفة وهي تسكب له في كأسه جرعات.

حين أغمض عينيه خيل إليه أن الطائرة التي تحلق به في العتمة الدامسة في مطلع الألفية الثالثة مخطوفة. . والربان قضى نحبه من زمان. . وصوت خليل الدرع يهمس: الحرب لم تنته، بل لعلها بدأت الآن.

حين فتح عينيه تمنّى أن يكون ما شاهده مجرد كابوس، لكنه شعر بالذعر الحقيقي لأنه لم يعد يدري كيف يميز بين الحقيقة والكابوس، بعدما صارت الحقيقة كابوساً!

«تمت؟»

- بدأتُ بكتابتها داخل رأسي في ١٥/ ١١/ ١٩٩٩.

- بدأت بتسطيرها على الورق في ١٩/ ٣/ ٢٠٠٠.

- تمت كتابتها كمسوّدة في ١/ ٩/ ٢٠٠٠.

- بدأت بإعادة كتابتها في ١٥/ ١١/ ٢٠٠١.

- أنجزتها في ٢/ ٥/ ٢٠٠٢ الساعة ١,٥٦ ليلاً.

منشورات غادة السمّان

غادة السمان: الأعمال غير الكاملة

زمن الحب الآخر (قصص) (الطبعة السادسة)

الجسد حقيبة سفر (الطبعة الخامسة)

السباحة في بحيرة الشيطان (الطبعة السادسة)

ختم الذاكرة بالشمع الأحمر (الطبعة الخامسة)

اعتقال لحظة هاربة (الطبعة السابعة)

مواطنة متلبسة بالقراءة (الطبعة الخامسة)

الرغيف ينبض كالقلب (الطبعة الثالثة)

ع.غ. تتفرس (الطبعة الرابعة)

صفارة إنذار داخل رأسي (الطبعة الثالثة)

كتابات غير ملتزمة (الطبعة الثالثة)

الحب من الوريد إلى الوريد (الطبعة الخامسة)

القبيلة تستجوب القتيلة (الطبعة الثالثة)

البحر يحاكم سمكة (الطبعة الثانية)

تسكع داخل جرح (الظبعة الثانية)

منشورات غادة السمّان

قصص وروايات وأعمال أخرى

عيناك قدري (قصص) (الطبعة الحادية عشرة)

لا بحر في بيروت (قصص) (الطبعة التاسعة)

ليل الغرباء (قصص) (الطبعة التاسعة)

رحيل المرافىء القديمة (قصص) (الطبعة الثامنة)

القمر المربع (قصص غرائبية) (الطبعة الثانية)

بيروت ٧٥ (رواية) (الطبعة السادسة)

كوابيس بيروت (رواية) (الطبعة الثامنة)

ليلة المليار (رواية) (الطبعة الثالثة)

الرواية المستحيلة: فسيفساء دمشقية (رواية) (الطبعة الثانية)

حب (الطبعة العاشرة)

أعلنت عليك الحب (الطبعة الحادية عشرة)

غربة تحت الصفر (الطبعة الثانية)

الأعماق المحتلة (الطبعة الثانية)

أشهد عكس الريح (الطبعة الثالثة)

عاشقة في محبرة (الطبعة الثانية)

شهوة الأجنحة (الطبعة الثانية)

القلب نورس وحيد (الطبعة الاولى)

رسائل الحنين إلى الياسمين (الطبعة الثانية)

الأبدية لحظة حب (الطبعة الاولى)

مطبعة دار الكتب ـ منطقة بئر حسن ـ مقابل ال BHV ـ بناية البارادايز ـ ٠١/٨٥٣٧٥٣

☐ طائرة قادمة من باريس تحطّ في مطار بيروت على مشارف القرن الحادي والعشرين، تحمل سبعة من المغتربين والمغتربات من أصل لبناني حضروا لقضاء إجازة في لبنان برفقة طبيبة فرنسية.

☐ يُرافقهم القارىء في بيروت حيث يلتقون بموزاييك الجنون في فوران الحياة والموت والأشباح التي تتمسك بالمارة نهاراً في الشوارع، وبمصاصي الدماء، وبالأموات / الأحياء (الزومبي)، وبنجوم الاحتيال ومافيات السلم بعد مافيات الحرب، وبحكايا الحب، وبالشهداء، وبأبطال الروايات الذين يتحوّلون إلى قتلة أو شهود، وبالرسامين الذين يعيدون الحياة بالرسم إلى قتلاهم... ويلتقي أبطال الرواية بنفوسهم بلا أقنعة في مهرجانات الأقنعة.

☐ إنها إجازة مع الظواهر الغرائبية في مدينة لا يعود أحدٌ منها كما كان، أو لا يعود أبداً... مدينة الصراعات الاجتماعية والاقليمية والعالمية حيث يكاد الإنسان الشريف، عاشق الحرية، يختنق فيُهاجر أو يحلم بالهجرة؛ إنها رواية الجوع والتخمة، رواية القمع والحرية.

* تُرجم بعضُ قصص المؤلِّفة ورواياتها إلى ثلاث عشرة لغة هي: الإسبانية، الألمانية، الألبانية، الإنكليزية، الفارسية، الايطالية، البلغارية، البولونية، الروسية، الرومانية، الصينية، الفرنسية واليوغسلافية.

ISBN 9953-9005-8-2
5 289953 410424

مكتبة نوميديا 21
Telegram@ Numidia_Library

منشورات غادة السمان